مختصر
إحياء علوم الدين

المسمى

لباب الإحيا

للإمام محمد بن محمد الغزالي

المتوفى سنة ٥٠٥ هـ

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م



دار البيروتي

دمشق - حلبوني - بناء الخجا - هاتف ٢٤٥١٥٧٤ - ٢٢١٣٩٦٦ فاكس ٢٢٤٣٨٤٨
ص.ب ٢٥٤١٤ - س.ت ٦١٥٠٠ Email : albyrouty@dalylak.com



مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فإن مما يدل دلالة ظاهرة على عظيم فضل الإمام أبي حامد الغزالي وعلوِّ منزلته وسلامة مقصِده كثرة آثاره الباقية، وكثرة المنتفعين بكتبه ومصنفاته، لاسيما كتابه «إحياء علوم الدين» الذي كان ولا يزال له الأثر العظيم في أفراد الأمة الخاصِّ منهم والعام.

وهذا هو كتاب «مختصر إحياء علوم الدين» ـ الذي نفدت طبعته الأولى بعد أن يسَّر الله تحقيقه وإخراجه ـ قد لاقى بفضل الله تعالى قبولاً متميزاً، وقد ترجمت هذه الطبعة إلى اللغة التركية وطبعت في استنبول، وهناك أيضاً لاقت رواجاً، وانتفع الناس بهذا المختصر.

والآن يأذن الله تبارك وتعالى بإخراج طبعة ثانية للكتاب تمتاز عن طبعته الأولى بمزيد من العناية والضبط والتصحيح، فقد يسر الله تعالى الاطلاع على نسخة مخطوطة مصورة للكتاب موجودة في مكتبة الأسد، يعود تاريخ نسخها إلى سنة (٥٥٦)هـ فقابلت الكتاب عليها، وصححت ما وقع في الطبعة الأولى من أخطاء وتصحيفات.

ومن الجدير بالذكر أن الكتاب في النسخة المخطوطة منسوب اختصاره إلى الشيخ أحمد بن محمد الغزالي أخي الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، كما

هو كذلك عند عدد من المحققين، كالمرتضى وحاجي خليفة، وقد قال الأستاذ عبد الرحمن بدوي في كتاب (مؤلفات الغزالي): «كثير من المخطوطات تنسب هذا الكتاب إلى أبي حامد الغزالي، فمثلاً مخطوط الاسكوريال برقم (٧٣١) في فهرس دارنبور يرد فيه: (كتاب لباب إحياء علوم الدين تصنيف الإمام العلامة حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي . . اختصر هذا الكتاب واختاره من كتاب الإحياء أخوه الشيخ الإمام . . أبو الفتوح أحمد بن محمد الغزالي . . وقيل: إنه اختيار الشيخ بنفسه وهو الأشهر والأظهر»، وفوق هذا الكلام ورد: «كذا ذكر ابن العربي في التدبيرات الإلهية»، فالأمر متردد إذن بين نسبته إلى أحمد ونسبته إلى محمد نفسه» اهـ[١].

وقد آثرت إبقاء نسبة الكتاب إلى الإمام أبي حامد الغزالي صاحب الأصل كما هو مثبت في الطبعة المصرية.

أسأل الله تعالى أن يبارك بهذا العمل وأن يكتب به النفع، إنه سميع مجيب.

محمود بيروتي



(١) عبد الرحمن بدوي، مؤلفات الغزالي، رقم (٩٣).



مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الذي أحيى قلوب أوليائه بمعرفته، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا محمَّد الذي تحيى النفوسُ باتِّباع سنته، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان من أمته.

وبعد:

إن كتاب «**إحياء علوم الدين**» للإمام حجة الإسلام أبي حامد الغَزَالي رحمه الله تعالى من أجلِّ كتب الإسلام، شهد بفضله الأئمة الأعلام، على مر العصور والأيَّام، وخصوه بمزيد من العناية والاهتمام.

قال بعضهم: لو ذهبت كتب الإسلام وبقي الإحياء لأغنى عمَّا ذهب.

وقال الإمام السُّبكي رحمه الله تعالى: هو من الكتب التي ينبغي للمسلمين الاعتناء بها وإشاعتها ليهتدي بها كثير من الخلق، وقلَّ ما ينظر فيه ناظر إلا ويتعظ به في الحال اهـ.

فالإحياء كتاب عظيم النفع، لأنه نظام تربوي متكامل، ومنهج شامل لبناء شخصية المسلم والسير به للوصول إلى رضى الله تبارك وتعالى والفوز بالنعيم المقيم.

إنه ينير للمسلم طريق السعادة، ويرتقي به في درجات الكمال، ويبين له كل ماله وما عليه في كافة جوانب الحياة عقيدةً وعبادةً وسلوكاً.

لذلك كانت لهذا الكتاب أهميته المتميزة وخصوصيته بإقبال المسلمين عليه وعناية العلماء به شرحاً واختصاراً ودراسة.

ولما رأى الإمام الغزالي رحمه الله شدة حاجة المسلمين إلى كتابه كما رأى أنه ربما يكون حجم الكتاب عائقاً ـ أحياناً ـ دون الاستفادة منه لصعوبة حمله ونقله، عمَد إلى اختصاره واستخلاص لبابه ليكون زاداً للمسلم في حلّه وترحاله، كما أشار إلى ذلك في مقدمته.

وأذن الله أن أطلع على هذا المختصر، فوجدته كتاباً كثير النفع، عظيم الفائدة، يتميز عن غيره من المختصرات بمحافظته على أسلوب الإحياء وجمال معانيه وعباراته.

لذلك أحببت أن يخرج هذا الكتاب لينتفع به المسلمون في سلوكهم، وليكون دافعاً لهم للعودة إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم عليه الصَّلاة والسَّلام وسيرة سلفهم الصالح.

عملي في الكتاب:

أولاً: ضبط النص معتمداً في ذلك على طبعة الكتاب المطبوعة في مصر سنة (١٣١٧هـ) بالمطبعة الميمنية، على هامش كتاب (نزهة الناظرين في تفسير آيات من كتاب رب العالمين وأحاديث مروية عن سيد المرسلين)[1].

ثانياً: ضبط العبارات المشكلة ومقابلتها على نسخ الإحياء الأصل.

ثالثا: وضع علامات الترقيم.

رابعاً: تخريج الآيات القرآنية، بذكر السورة ورقم الآية.

خامساً: تخريج الأحاديث النبوية، وكان الاعتماد غالباً على تخريج الحافظ زين الدين العراقي لأحاديث الإحياء بالإضافة إلى بعض الزيادات والاستدراكات

(١) ذكرت في مقدمة هذه الطبعة أني قابلت الكتاب على نسخة مخطوطة مصورة موجودة في مكتبة الأسد.

بالاستعانة بشرح الإحياء للزبيدي، وبالرجوع إلى مصادر العراقي وذكر رقم الحديث في كل منها أو رقم الجزء والصفحة.

سادساً: شرح الكلمات الغريبة والعبارات المشكلة.

سابعاً: ترجمة الأعلام الواردة أسماؤهم في الكتاب.

ثامناً: تقديم الكتاب بترجمة وافية لحياة الإمام أبي حامد الغزالي والتعريف بكتابه الإحياء (أصل هذا الكتاب).

تاسعاً: وضع فهرس شامل لمواضيع الكتاب.

والله سبحانه أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكتب به النفع لنا وللمسلمين إنه سميع مجيب.

محمود بيروتي

١٢ ربيع الأول ١٤٢٠ هـ

ترجمة الإمام الغَزَالي رحمه الله تعالى

اسمه، ولادته، نشأته:

هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، أبو حامد، الطُوسي، الغَزَالي[1] ولد في مدينة (طُوس)[2] سنة (٤٥٠هـ).

كان والد الإمام الغزالي يغزل الصوف ويبيعه في دكانه بطوس.

قال الإمام السبكي[3] رحمه الله: يحكى أن أباه كان فقيراً، صالحاً، لا يأكل إلا من كسب يده في عمل غزل الصوف، ويطوف على المتفقهة ويجالسهم، ويتوفر على خدمتهم، ويجدُّ في الإحسان إليهم، والتفقه بما يمكنه، وأنه كان إذا سمع

---

(١) اختلف المؤرخون في نسبة (الغزالي)، فمنهم من أوردها بتشديد الزاي، وبعضهم بتخفيفها.
قال صاحب (لب اللباب في تحرير الأنساب): (الغزَّالي) بالتشديد إلى الغَزْل كالغَزَّال، وقيل: هو بالتخفيف إلى غَزَالة قرية بطوس ا.هـ .
وقال السيد مرتضى الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين): قال صاحب تحفة الإرشاد نقلاً عن النووي في دقائق الروضة: التشديد في (الغزالي) هو المعروف الذي ذكره ابن الأثير، وبلغنا أنه قال: منسوب إلى (غزالة) ـ بتخفيف الزاي- قرية من قرى طوس ا.هـ.
وقال: والمعتمد الآن من أئمة التاريخ والأنساب أن القول قول ابن الأثير بالتشديد ا.هـ،
وجاء في (تاج العروس في شرح القاموس): (غَزَالة) كسحابة قرية من قرى طوس، قيل: وإليها نسب الإمام أبي حامد الغزالي كما صرح به النووي في التبيان ا.هـ.

(٢) طُوس: بضم الأول، وسين مهملة، من أعظم مدن خراسان بعد نيسابور، وتقع على بعد عشرة أميال منها، وفيها قبر الإمام الرضا، وقبر هارون الرشيد إلى جواره. وفي سنة (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) دمرت جحافل المغول مدينة طُوس تدميراً لم تنهض منه بعد ذلك أبداً، ثم ظهرت مدينة مشهد الكبيرة منذ القرن الثامن، تحيط بها قبور عظيمة من بينها قبر الغزالي إلى شرقي ضريح الإمام الرضا.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى: ٦/ ١٩٤.

كلامهم بكى، وتضرع، وسأل الله أن يرزقه ابناً ويجعله فقيهاً، ويحضر مجالس الوعظ، فإذا طاب وقته بكى، وسأل الله أن يرزقه ابناً واعظاً، فاستجاب الله دعوتيه.

أما أبو حامد فكان أفقه أقرانه، وإمام أهل زمانه، وفارس ميدانه، كلمته شهد بها الموافق والمخالف، وأقر بحقيَّتها المعادي والمحالف.

وأما أخوه أحمد فكان واعظاً، تنفلق الصم الصخور عند استماع تحذيره، وترعد فرائص الحاضرين في مجالس تذكيره.

وذكر السبكي أنَّ والده لما حضرته الوفاة وصَّى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف من أهل الخير، وقال له: إن لي لتأسفاً عظيماً على تعلم الخط، وأشتهي استدراك ما فاتاني في ولديَّ هذين فعلمهما، ولا عليك أن تنفذ في ذلك جميع ما أخلفه لهما.

فلما مات الوالد أقبل الصوفي على تعليمهما إلى أن فني ذلك النزر اليسير الذي كان خلفه لهما أبوهما، وتعذر على الصوفي القيام بقوتهما، فقال لهما: اعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي فأواسيكما به، وأصلَحُ ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسة كأنكما من طلبة العلم، فيحصل لكما قوتٌ يعينكما على وقتكما، ففعلا ذلك، وكان هو السبب في سعادتهما، وعلوِّ درجتهما، وكان الغزالي يحكي هذا ويقول: طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله.

حياته العلمية:

قرأ الغزالي في صباه طرفاً من الفقه في بلده على أحمد بن محمد الراذكاني، ثم سافر إلى جرجان، إلى الإمام أبي نصر الإسماعيلي، وعلق عنه (التعليقة) ثم رجع إلى طوس.

قال الإمام أسعد الميهني: فسمعته يقول: قُطِعت علينا الطريق، وأخذ العيَّارون جميع ما معي ومضوا، فتبعتهم، فالتفت إليَّ مقدَّمهم، وقال: ارجع ويحك وإلا هلكت.

فقلت له: أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن تردَّ عليَّ تعليقتي فقط فما هي بشيء تنتفعون به.

فقال لي: وما هي تعليقتك؟

فقلت: كتب في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها، فضحك وقال: كيف تدعي أنك عرفت علمها وقد أُخِذَتْ منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم.

ثم أمر بعض أصحابه فسلَّمَ إليَّ المخلاة.

قال الغزالي: فقلت: هذا مستنطَق أنطقه الله ليرشدني به في أمري، فلما وافيت طُوس، أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته وصرت بحيث لو قُطِع عليَّ الطريق لم أتجرد من علمي.

ثم إن الغزالي قدم نيسابور ولازم إمام الحرمين أبا المعالي عبد الملك الجويني وجدَّ واجتهد، حتى برع في المذهب، والخلاف والجدل والأصلين[1] والمنطق وقرأ الحكمة والفلسفة وأحكم كل ذلك.

ولما توفي إمام الحرمين ـ وذلك في الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة (٤٧٨ هـ) ـ خرج الغزالي إلى المعسكر قاصداً الوزير نظام الملك إذ كان مجلسه مجمع أهل العلم وملاذهم، فناظر الأئمة والعلماء في مجلسه، وقهر الخصوم وظهر كلامه عليهم، واعترفوا بفضله، وتلقاه الصاحب بالتعظيم والتبجيل، وولاه تدريس مدرسته ببغداد وأمره بالتوجه إليها، فقدم بغداد في سنة أربع وثمانين وأربعمائة، ودرَّس بالنظامية، وأعجَبَ الخلقَ حسنُ كلامه وكمال فضله وفصاحة لسانه، ونكته الدقيقة، وإشاراته اللطيفة وأحبُّوه.

فأقام على تدريس العلم ونشره بالتعليم والفتيا والتصنيف مدةً، عظيم الجاه، زائد الحشمة، عالي الرتبة، مسموع الكلمة، مشهور الاسم، تضرب به الأمثال، وتشد إليه الرحال.

---

(١) أي: أصول الدين (علم التوحيد)، وأصول الفقه.

زهده وتصوفه:

ظل الغزالي يدرّس ويصنف في بغداد إلى أن عزفت نفسه عن الدنيا وأخذ يفكر في مغادرة بغداد للتفرغ للعبادة غير أن شهوات الدنيا كانت تجاذبه، وقد تحدث الغزالي عن نفسه في كتابه (المنقذ من الضلال) واصفاً هذه الحالة التي أصابته فقال:

«ثم لاحظت أحوالي فإذا أنا منغمس في العلائق وقد أحدقت بي من جميع الجوانب، ولاحظت أعمالي ـ وأحسنها التدريس والتعليم ـ فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة، ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت أني على شفا جرف هار، وأني قد أشفيت على النار إن لم أشتغل بتلافي الأحوال، فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار، أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً، وأحلُّ العزم يوماً، وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بُكرةً، إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام، ومنادي الإيمان ينادي: الرحيل، الرحيل، فلم يبق من العمر إلا القليل وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل، فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية، وينجزم العزم على الهرب والفرار.

ثم يعود الشيطان ويقول: هذه حالة عارضة إياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال، فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص والأمن المسلم الصافي عن منازعة الخصوم، ربما التفتت إليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة.

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر، أولها رجب، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد

الاختيار إلى الاضطرار، إذ قفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس فكنت أجاهد نفسي أن أدرّس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفة إليَّ، فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة، ولا أستطيعها ألبتة، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب، فكان لا ينساغ لي ثريد ولا تنهضم لي لقمة، وتعدى إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج، وقالوا: هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج، فلا سبيل إليه بالعلاج، إلا بأن يتروح السر عن الهمّ الملمّ.

ثم لما أحسست بعجزي، وسقط بالكلية اختياري التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب».

وهكذا ظل الغزالي على هذه الحالة إلى أن أظهر العزم للخروج إلى مكة وكان يدبر في نفسه دخول الشام.

وفارق الغزالي بغداد في ذي القَعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة بعد أن فرق ما كان معه من المال ولم يدَّخر إلا قدر الكفاف وقوت العيال، واستناب أخاه أحمد في التدريس.

الغزالي في بلاد الشام:

ودخل الغزالي دمشق سنة (٤٨٩هـ) وأقام بها مدة.

قال الغزالي في كتابه (المنقذ): «ثم دخلت الشام وأقمت بها قريباً من سنتين لا شغل لي إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالاً بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلته من علم الصوفية فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق، أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسي.

ثم رحلت منها إلى بيت المقدس، أدخل كل يوم الصخرة، وأغلق بابها على نفسي.

ثم تحركت فيَّ داعية فريضة الحج، والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله ﷺ بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه فسرت إلى الحجاز».

وقد نقل ابن السبكي بعض الحوادث التي جرت مع الغزالي أثناء إقامته في دمشق، ومنها ما روي من أنه لما دخل دمشق على زي الفقراء جلس على باب الخانقاه السُّمَيْسَاطيّة إلى أن أُذِن له، فقير مجهول لا يعرف، وابتدأ بكنس الحيضات التي للخانقاه وخدمتها، واتفق أن جلس يوماً في صحن الجامع الأموي، وجماعة من المفتين يتمشون في الصحن وإذا بقروي أتاهم مستفتياً، ولم يردوا عليه جواباً، والغزالي يتأمل فلما رأى الغزالي أنه لا أحد عنده جوابه ويعز عليه عدم إرشاده دعاه فأجابه، فأخذ القروي يهزأ به ويقول: إن كبار المفتين ما أجابوني، وهذا فقير عامي كيف يجيبني؟ وأولئك المفتون ينظرونه.

فلما فرغ من كلامه معه دعوا القروي، وسألوه: ما الذي حدثك به هذا العامي؟ فشرح لهم الحال فجاؤوا إليه، وتعرفوا به، واحتاطوه، وسألوه أن يعقد لهم مجلساً، فوعدهم إلى ثاني يوم، وسافر من ليلته رضي الله عنه.

ومما حكاه ابن السبكي أيضاً أن الغزالي صادف دخوله يوماً المدرسة الأمينية فوجد المدرس يقول: قال الغزالي. . . ، وهو يدرس كلامه، فخشي الغزالي على نفسه العجب ففارق دمشق.

وقد كانت مدة إقامة الغزالي في الشام حوالي عشر سنوات اشتغل فيها بالمجاهدة والرياضة وصنف الإحياء وكتابه الأربعين وغيرهما.

خروج الغزالي إلى مصر:

جاء في بعض الروايات أن الغزالي بعد خروجه من دمشق دخل مصر وتوجه منها إلى الإسكندرية وأقام بها مدة.

وقيل: إنه عزم على المضي إلى السلطان يوسف بن تاشفين سلطان المغرب لما بلغه من عدله فبلغه موته.

عودته إلى بغداد:

بعد تلك السنوات التي عاشها الغزالي في بلاد الشام أراد العودة إلى وطنه خراسان، فمر في طريقه ببغداد، وجلس فيها مدة، وعقد فيها مجلس الوعظ وحدث بكتاب الإحياء.

قال ابن السبكي: إن الغزالي لما عقد مجلس الوعظ ببغداد وازدحم الناس عليه كان يدوِّنُ مجالس وعظه من وراء الناس الشيخ صاعد بن فارس المعروف بابن اللبان، فبلغت مائة وثلاثة وثمانين مجلساً ثم قرأها بعد ذلك عليه فأجازه بها بعد أن صححها فبيضها في مجلدين ضخمين.

في خراسان:

ثم دخل الغزالي خراسان، ولازم بيته مشتغلاً بالتفكر، وكان ذخراً لكل من يقصده، واستمر على ذلك مدة إلى أن انتهت وزارة خراسان إلى فخر الملك علي ابن نظام، وقد سمع وتحقق بمكان الغزالي ودرجته وكمال فضله وصفاء عقيدته ونقاء سريرته، وحضره وسمع كلامه، فألح عليه في معاودة التدريس فلم يجد بدّاً من الإذعان، وعاد إلى التدريس في المدرسة النظامية بنيسابور، وقد نوى بذلك إفادة القاصدين دون الرجوع إلى ما انخلع عنه.

قال عبد الغافر الفارسي ـ خطيب نيسابور – ثم سألناه ـ أي الغزالي ـ عن كيفية رغبته في الخروج من بيته، والرجوع إلى ما دعي إليه من أمر نيسابور؟، فقال معتذراً عنه: ما كنت أجوز في ديني أن أقف عن الدعوة، ومنفعة الطالبين بالإفادة وقد حق عليَّ أن أبوح بالحق وأنطق به وأدعو إليه، وكان صادقاً في ذلك.

ولم تمض فترة يسيرة حتى ترك الغزالي التدريس بنظامية نيسابور، ولعل ذلك كان بعد قتل فخر الملك سنة (٥٠٠هـ).

وعاد الغزالي إلى طوس ليلزم بيته، وليتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاه للصوفية.

وذكر عبد الغافر الفارسي ـ خطيب نيسابور ـ أن الغزالي بعد أن عاد إلى بيته كان قد وزع أوقاته على وظائف، من ختم القرآن، ومجالسة أهل القلوب، والتعود للتدريس بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ولحظات من معه عن فائدة.

وذكر عبد الغافر أن الغزالي في خاتمة أيامه أقبل على حديث المصطفى ﷺ ومجالسة أهله ومطالعة الصحيحين (البخاري) و (مسلم) اللذين هما حجة الإسلام، وقال: لو عاش الغزالي لسبق الكل في ذلك الفن بيسير من الأيام يستفرغه في تحصيله.

وفاته رحمه الله:

وهكذا استمر الغزالي على أداء وظائفه إلى أن أصابته عين الزمان، - كما قال عبد الغافر ـ وضنت به الأيام على أهل عصره فنقله الله إلى كريم جواره بعد مقاساة أنواع من القصد، والمناوأة من الخصوم والسعي به إلى الملوك وكفاية الله به، وحفظه وصيانته عن أن تنوشه أيدي النكبات، أو ينتهك ستر دينه بشيء من الزلات.

وكانت وفاته رحمه الله تعالى يوم الاثنين، الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة (٥٠٥هـ).

قال أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب (الثبات عند الممات): قال أحمد ـ أخو الإمام الغزالي ـ : لما كان يوم الاثنين وقت الصبح توضأ أخي أبو حامد وصلى، وقال: عليَّ بالكفن، فأخذه وقبَّله، ووضعه على عينيه وقال:

سمعاً وطاعة للدخول على الملك، ثم مد رجليه، واستقبل القبلة، ومات قبل الإسفار، قدس الله روحه.

ودفن في مقبرة الطابران.

ولم يعقب إلا البنات.

رثاه أبو المظفر الأبيوردي رحمه الله، فقال:

بكى على حجة الإسلام حين ثوى من كل حيٍّ عظيم القدر أشرفه

فما لمن يمتري في الله عبرته على أبي حامد لاحِ يعنفه
تلك الرزية تستوهي قوى جلدي فالطرف تسهره والدمع ينزفه
فما له خَلّةٌ في الزهد تنكره وماله شبهة في العلم تعرفه
مضى فأعظم مفقود فجعت به من لا نظير له في الناس يخلفه

أقوال العلماء فيه:

من كلام شيخه إمام الحرمين فيه: (الغزالي بحر مغدق).

وقال الحافظ أبو طاهر السِّلفي: سمعت الفقهاء يقولون: كان الجويني - يعني إمام الحرمين - يقول في تلامذته إذا ناظروا: (التحقيق للخوافي، والحدسيات للغزالي، والبيان للكيا).

وقال الإمام محمد بن يحيى تلميذه: الغزالي هو الشافعي الثاني.

وقال أسعد الميهني: لا يصل إلى معرفة الغزالي وفضله إلا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال في عقله.

ووصفه عبد الغافر الفارسي في بداية ترجمته بقوله: حجة الإسلام والمسلمين، إمام أئمة الدين، من لم تر العيون مثله لساناً وبياناً ونطقاً وخاطراً وذكاءً وطبعاً.

وإليك ما وصفه به الإمام السبكي رحمه الله في بداية ترجمته له، حيث قال: «محمد بن محمد بن محمد أحمد الطوسي، الإمامُ الجليل، أبو حامد، الغزالي حجةُ الإسلام، ومحجةُ الدين التي يُتوصل بها إلى دار السلام، جامعُ أشتات العلوم، والمبرزُ في المنقول منها والمفهوم، جرت الأئمة قبله بشأوٍ ولم تقع منه بالغاية، ولا وقف عند مطلب وراءه مطلبٌ لأصحاب النهاية والبداية.

حلفتُ فلم أتركْ لنفسِك ريبةً وليس وراءَ الله للمرء مذهبُ

حتى أحمل من القرناء كل خصم بلغ مبلغ السُّها، وأخمد من نيران البدع كل مالا تستطيع أيدي المجالدين مسَّها.

كان رضي الله عنه ضرغاماً، إلا أن الأُسود تتضاءل بين يديه وتتوارى، وبدراً تماماً إلا أن هداه يشرق نهاراً، وبشراً من الخلق، ولكنه الطود العظيم، وبعض الخلق، لكن مثل ما بعض الحجر الدُّر النظيم.

جاء والناس إلى رد فرية الفلاسفة أحوج من الظلماء لمصابيح السماء، وأفقر من الجدباء إلى قطرات الماء، فلم يزل يناضل عن الدين الحنيفي بجلاء مقاله، ويحمي حوزة الدين، ولا يلطخ بدم المعتدين حد نصاله، حتى أصبح الدين وثيق العرى، وانكشفت غياهب الشبهات، وما كانت إلا حديثاً مفترى.

هذا مع ورع طوي عليه ضميره، وخلوة لم يتخذ فيها غير الطاعة سميره، وتجريد تراه به، وقد توحد في بحر التوحيد وباهى:

ألقى الصحيفة كي يخفف رحله والزاد حتى نعله ألقاها

ترك الدنيا وراء ظهره، وأقبل على الله يعامله في سره وجهره» ا.هـ.

ما روي عن الغزالي من الشعر:

ومنه ما نقل عن أبي بكر بن العربي أنه قال: أنشدني أبو حامد الغزالي لنفسه:

سَقَمِي في الحبِّ عافيتي ووُجودي في الهوى عَدَمي
وعذابٌ يرتَضون به في فَمي أحْلَى من النِّعَمِ
ما لِضُرٍّ في محبَّتِكُمْ عندنا واللهِ من ألمِ

وروي أيضاً من شعره:

حلَّت عقاربُ صُدْغِه من خَدِّهِ قمراً فَجَلَّ بها عن التَّشْبِيهِ
ولقد عَهِدْناهُ يحُلَّ بِبُرْجِها ومِنَ العجائبِ كيف حلَّتْ فِيهِ

ومنه:

فقهاؤنا كذبالة النبراس هي في الحريق وضوؤها للناس
خُبْزٌ دَميمٌ تحت رائق منظر كالفضة البيضاء فوق نحاس

مصنفات الغزالي:

وهي كثيرة جداً حتى إنَّها تزيد على الأربعمائة، وقد قامت دراسات كثيرة بإحصاء مؤلفات الغزالي، أهمها وأضخمها كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوي، الذي أعده في عام (١٩٦١م) بمناسبة المهرجان الذي أقيم بدمشق في عام (١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م)بمناسبة مرور تسعمائة سنة على وفاة الغزالي رحمه الله تعالى.

مؤلفات الغزالي:

أ ـ في التصوف والأخلاق:

١. إحياء علوم الدين: وهو أصل هذا الكتاب، وسيأتي التعريف به.

٢. الأربعين في أصول الدين.

٣. أيها الولد.

٤. بداية الهداية.

٥. منهاج العابدين إلى الجنة.

٦. مكاشفة القلوب.

٧. المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى.

ب ـ في الفقه الشافعي:

١. البسيط في فروع المذهب، وهو كالمختصر لنهاية المطلب لإمام الحرمين.

٢. الوسيط المحيط بأقطار البسيط.

٣. خلاصة الوسائل إلى علم المسائل في فروع المذهب.

٤. الوجيز في الفروع.

ج ـ في أصول الفقه:

١. المستصفى في أصول الفقه.

٢. المنخول في أصول الفقه: وقد ألفه في حياة أستاذه إمام الحرمين.

د ـ في علم الكلام والمنطق:

١. الاقتصاد في الاعتقاد.

٢. إلجام العوام عن علم الكلام.

٣. قواعد العقائد: وهو كتاب العقائد نفسه الموجود في كتاب الإحياء.

٤. مقاصد الفلاسفة.

٥. تهافت الفلاسفة.

٦. عقيدة أهل السنة.

٧. القسطاس المستقيم.

٨. فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة.

٩. محك النظر في المنطق.

١٠. معيار العلم في المنطق.

هذه أهم كتب الغزالي، ولزيادة الفائدة أخص بالتعريف أعظم كتب الإمام الغزالي، كتاب (إحياء علوم الدين)، وهو أصل هذا الكتاب.

منهج الغزالي في الإحياء:

ولندع الكلام للإمام الغزالي ليبين لنا منهجه في تأليفه للكتاب بما ذكره في مقدمته للإحياء.

قال الغزالي: (وقد أسسته على أربعة أرباع، وهي:

ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات، وصدَّرت

الجملة بكتاب العلم، لأنه غاية المهم، لأكشف أولاً عن العلم الذي تعبَّد اللهُ ـ على لسان رسوله ﷺ ـ الأعيان بطلبه، إذ قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» وأميز فيه العلم النافع من الضار، إذ قال ﷺ: «نعوذ بالله من علم لا ينفع» وأحقق ميل أهل العصر عن شاكلة الصواب، وانخداعهم بلامع السراب واقتناعهم من العلوم بالقشر عن اللباب).

ثم قال: (فأما ربع العبادات فأذكر فيه من خفايا آدابها، ودقائق سننها، وأسرار معانيها، ما يضطر العالم العامل فيه، بل لا يكون من علماء الآخرة من لا يطلع عليه، وأكثر ذلك مما أحمل في فن الفقهيات.

وأما ربع المهلكات، فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته، وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه، وأذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حده وحقيقته، ثم أذكر سببه الذي منه يتولد، ثم الآفات التي عليها تترتب، ثم العلامات التي بها تتعرف، ثم طرق المعالجة التي بها منها يتخلص، كل ذلك مقروناً بشواهد الآيات والأخبار والآثار.

وأما ربع المنجيات، فأذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين التي بها يتقرب العبد من رب العالمين، وأذكر في كل خصلة حدها وحقيقتها، وسببها الذي به تجتلب، وثمرتها التي منها تستفاد وعلامتها التي بها تتعرف، وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب، مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل.

ولقد صنف الناس في بعض هذه المعاني كتباً، ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور:

الأول: حل ما عقدوه وكشف ما أجملوه.

الثاني: ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه.

الثالث: إيجاز ما طولوه وضبط ما قرروه.

الرابع: حذف ما كرروه وإثبات ما حرروه.

الخامس: تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض لها في الكتب أصلاً، إذ الكل وإن تواردوا على منهج واحد فلا مستنكر أن يتفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه ويغفل عنه رفقاؤه، أولا يغفل عن التنبيه ولكن يسهو عن إيراده في الكتب، أولا يسهو ولكن يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف، فهذه خواص هذا الكتاب، مع كونه حاوياً لمجامع هذه العلوم).

هذا شيء مما ذكره الغزالي في مقدمته للإحياء.

ومما سبق تتبين أهمية الكتاب، ومكانته العظيمة التي تبوأها في قلوب العلماء إلّا أنَّ الكتاب لم يخل من الثغرات التي كانت محل انتقاد النقاد وإنكار المنكرين، ما بين معتدل ومتجاوز في نقده.

وقد ذكر الزبيدي ـ شارح الإحياء ـ كثيراً من هذه الانتقادات وناقشها، كما ناقشها قبله الإمام تاج الدين السبكي وغيره.

ومما انتُقد على الإمام الغزالي حشو الكتاب بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، وقد أفرد العلامة تاج الدين السبكي ـ في طبقاته الكبرى الجزء الرابع ـ فصلاً جمع فيه ما وقع في كتاب الإحياء من الأحاديث التي لم يجد لها سنداً .

كما قام الحافظ زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي المتوفى سنة (٨٠٦هـ) رحمه الله تعالى بتخريج أحاديث الإحياء في كتابه (المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في: تخريج ما في الإحياء من الأخبار).

شرح الإحياء:

وقد قام بشرحه الشيخ محمد بن محمد الحسيني الزبيدي، الملقب بـ (مرتضى) ـ صاحب «تاج العروس» بشرح القاموس في اللغة، والمتوفى سنة (١٢٠٥هـ) ـ واسم كتابه «إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين»، وهو شرح عظيم، قدم له بمقدمة وافية تحدث فيها عن حياة الإمام الغزالي ومشايخه، كما ناقش الانتقادات التي توجهت إلى كتاب الإحياء.

مختصرات الإحياء:

وهي كثيرة أولها مختصر المصنف نفسه، وهو الكتاب الذي بين أيدينا، وقد بيَّن الغزالي في المقدمة الباعث على اختصاره فقال: (فإنه قد عنَّ لي في بعض أسفاري أن أستخرج من كتابي «إحياء علوم الدين» لبابه، لتعذر استصحابه مع كبر حجمه).

وممن اختصره أخو المصنف الشيخ أحمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة (٥٢٠هـ)[١].

كما اختصره أحمد بن موسى الموصلي المتوفى سنة (٦٣٢هـ).

واختصره الشيخ شمس الدين محمد بن علي العجلوني، المتوفى سنة (٨١٣هـ).

واختصره جلال الدين السيوطي المتوفى سنة (٩١١هـ).

ومن مختصراته (منهاج القاصدين) للإمام ابن الجوزي، ثم اختصر هذا الكتاب أحمد بن أحمد بن قدامة المقدسي المتوفى سنة (٨٤٢هـ) في كتابه (مختصر منهاج القاصدين).

ومن مختصرات الإحياء كتاب (موعظة المؤمنين) للشيخ جمال الدين القاسمي المتوفى سنة (١٣٣٢هـ).

ومنها مختصر الأستاذ عبد السلام هارون المتوفى سنة (١٤٠٨هـ) المسمى «تهذيب إحياء علوم الدين».

هذا إلى غيرها من المختصرات العديدة، التي تبين مكانة الكتاب التي اتخذها عند العلماء حتى بذلوا جهدهم في سبيل إيصاله إلى أيدي الناس بكل الوسائل .



---

(١) الظاهر أن مختصر الإمام أبي حامد ومختصر أخيه الشيخ أحمد هو واحد ولكن اختلف في نسبته إلى أحدهما، (انظر مقدمة الطبعة الثانية).

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

[مقدمة المؤلف]

[قال الشيخُ الإمامُ حجَّة الإسلام أبو حامد محمدُ بن محمد الغَزَّالي رحمه الله ورضي عنه:]

الحمدُ لله على جميع نعمائه، حتى على توفيقِه لحمده، وصلواته على سيد المرسلين محمد نبيه ورسوله وعبده، وعلى آله وأصحابه وخلفائِه من بعده، ووزرائِه في عهده.

أما بعد: فإنه قد عَنَّ لي في بعض أسفاري أن أستخرجَ من كتابي إحياء علوم الدين لبابَه، لتعذر استصحابه مع كبر حجمه، فأقدمت على ذلك مستوفقاً من الله تعالى، ومستخيراً له، ومصلياً على نبيه ومسلماً.

وهو يشتمل على أربعين باباً[1]، والله الموفق للصواب.

(١) موزعة على أربعة أرباعٍ: ربع العبادات، ربع العادات، ربع المهلكات، ربع المنجيات.

الربع الأول

العبادات

يتضمن الأبواب التالية:

١. العلم والتعلم.

٢. الاعتقاد.

٣. أسرار الطهارة.

٤. أسرار الصلاة ومهماتها.

٥. أسرار الزكاة.

٦. أسرار الصيام.

٧. أسرار الحج.

٨. تلاوة القرآن.

٩. الأذكار والدعوات.

١٠. الأوراد.

الباب الأول

في العلم والتعلم

اعلم أنَّ فضيلة العلم شواهدُها من القرآن كثيرة:

فمنها قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

قال ابن عباس رضي الله عنه: للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة، ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام.

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

ومن الأخبار قوله ﷺ: «**العلماءُ ورثة الأنبياء**»(١).

وقال ﷺ: «**أفضلُ النَّاسِ المؤمنُ العالِمُ، الذي إن احْتِيجَ إليه نفع، وإن استغني عنه أغنى نفسه**»(٢).

---

(١) قال الحافظ زين الدين العراقي المتوفى سنة (٨٠٦)هـ في تخريج أحاديث الإحياء: رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وابن حبان في صحيحه (٨٨) من حديث أبي الدرداء ا.هـ.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٧٢٠) موقوفاً على أبي الدرداء بإسناد ضعيف ولم أره مرفوعاً ا.هـ، وفي معناه ما أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (١٩١) بسند ضعيف عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «**أفضل المؤمنين إيماناً إذا سُئِلَ أعطى، وإذا لم يُعطَ استغنى**».

وقال ﷺ: «الإيمانُ عُريان، ولباسه التقوى، وزينته الحياء، وثمرته العلم»[١].

وقال ﷺ: «أقربُ النَّاسِ من درجةِ النبوة أهل العلم وأهل الجهاد، أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل»[٢].

وقال ﷺ: «العالمُ أمينُ الله في الأرض»[٣].

وقال ﷺ: «يشفعُ يوم القيامة ثلاثةٌ: الأنبياءُ ثم العلماءُ ثم الشهداءُ»[٤].

وقال فَتْحُ المَوْصِلي[٥]: (أليس المريض إذا مُنع الطعام والشراب والدواء يموت؟ قالوا: نعم، قال: كذلك القلب، إذا مُنع عنه الحكمة والعلم ثلاثة أيام مات)، ولقد صدق، إذْ غذاءُ القلب العلمُ والحكمة، وبهما حياته، كما أن غذاء الجسم الطعام والشراب، ومن فقد العلم فقلبه مريض، وموته لازم، وليس يشعر به لأن شواغل الدنيا أبطلت إحساسه، فإذا كشف الموت عنه تلك الشواغل أحسَّ بألم عظيم، وتحسَّر تحسراً لا آخر له، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا»[٦].

وأما فضيلة التعلم: فيدلُّ عليها قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الملائكةَ لَتَضعُ أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع»[٧].

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الحاكم في (تاريخ نيسابور) عن أبي الدرداء بإسناد ضعيف ا.هـ.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أبو نعيم في (فضل العالم) من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف ا.هـ .

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه ابن عبد البر [في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٢)] من حديث معاذ بسند ضعيف ا.هـ، والحديث له شواهد، منها ما أخرجه القضاعي [في مسند الشهاب (١١٥)]، وابن عساكر عن أنس: «العلماء أمناء الله على خلقه».

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه ابن ماجه (٤٣١٣) من حديث عثمان بن عفان بإسناد ضعيف ا.هـ.

(٥) هو: فتح بن سعيد الموصلي، أبو محمد، أحد الصوفية والزهاد، من أقران بشر الحافي والسري السقطي، توفي سنة ١٣٠هـ «سير أعلام النبلاء»: (١٠/ ٤٨٣).

(٦) قال السخاوي: هو من قول علي بن أبي طالب، [انظر: «المقاصد الحسنة» الحديث (١٢٤٠)، و«كشف الخفاء» الحديث (٢٧٩٣)].

(٧) رواه ابن ماجه (٢٢٣)، وقال الحافظ العراقي: رواه أحمد (٤/ ٢٣٩)، وابن حبان (٨٥)، والحاكم (١/ ١٠٠) وصححه من حديث صفوان بن عسَّال ا.هـ.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**لأن تغدوَ فتتعلمَ باباً من العلم خيرٌ من أن تُصلي مائة ركعة**»[1].

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: من رأى أن الغدوَّ إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص في رأيه وعقله.

وأما **فضيلة التعليم**: فيدلّ عليها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

قال رسول الله ﷺ لما قرأ هذه الآية، قال: «**ما آتى الله عالماً علماً إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن يبينه ولا يكتمه**»[2].

وقال عليه الصلاة والسلام لما بعث معاذاً إلى اليمن: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من الدنيا وما فيها**»[3].

وقال عمر رضي الله عنه: من حدَّث بحديث فعمل به فله مثل أجر ذاك العمل.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه في التعليم والتعلم، ورأيتُه أيضاً مرفوعاً[4]: تعلموا العلم، فإن تعلُّم العلم لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه صدقة، وبذله لأهله قُربة، وهو الأنيس في الوَحدة، والصاحب

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن عبد البر [في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢٥)] من حديث أبي ذر وليس إسناده بذاك، والحديث عند ابن ماجه بلفظ آخر ا.هـ، ولفظ ابن ماجه (٢١٩): «**يا أبا ذر لأن تغدوَ فتَعلَّم آيةً من كتاب الله خير لك من أن تصليَ مئة ركعة، ولأن تغدوَ فتعلَّم باباً من العلم، عُمِلَ به أو لم يعمل، خير من أن تصلي ألف ركعة**»، قال المنذري في «الترغيب والترهيب»: إسناده حسن ا.هـ، والحديث له شواهد.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أبو نعيم في (فضل العالم العفيف) من حديث ابن مسعود بنحوه، وفي (الخلعيات) نحوه من حديث أبي هريرة ا.هـ.

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد من حديث معاذ (٥/ ٣٣٣)، وفي «الصحيحين» [البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦)] من حديث سهل بن سعد أنه قال ذلك لعلي ا.هـ، ولفظ الصحيحين: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم**».

(٤) قال الحافظ العراقي: روى الحديث بطوله أبو الشيخ ابن حيان في كتاب (الثواب)، وابن عبد البر [جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٤-٥٥)] وقال: ليس له إسناد قوي ا.هـ.

في الخَلوة، والدليل على السَّراء والضَّراء، والوزير عند الأخلاَّء، والقرينُ عند القُرناء، ومنار سبيل الجنة، يرْفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادةً هداةً يُهتدى بهم، أدلةً في الخير تُقْتَصُّ آثارهم، وتُرمقُ أفعالهم، وترغبُ الملائكةُ في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، ويسبِّح لهم كلُّ رطبٍ ويابسٍ، ولهم يستغفر، حتى حيتان البحر وهوامّه[1]، وسباع البر وأنعامه، والسماء ونجومها، لأنَّ العلمَ حياة القلوب من العمى، ونورُ الأبصارِ من الظُّلَم، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغُ به العبد منازل الأبرار والدرجاتِ العُلى، والتفكير فيه يُعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، وبه يُطاع الله، وبه يُعبد، وبه يُوحَّد، وبه يُتَوَرَّع، وبه توصل الأرحام، وهو إمام، والعمل تابعه، يُلهمُه السعداءُ، ويُحْرَمُهُ الأشقياءُ».

وأما من حيث العقل، فليس تخفى فضيلة العلم، إذ به الوصول إلى الله تعالى وإلى قربه وجواره، وهو السعادة الأبدية، واللذة السرمدية، التي لا ينقضي آخرها، ففيه عز الدنيا وسعادة الآخرة، والدنيا مزرعة الآخرة، فالعالم بعلمه يزرع لنفسه السعادة الأبدية، بتهذيب أخلاقه على ما يقتضيه العلم، ولغيره أيضاً بالتعليم يزرع سعادة الأبد، فإنه يهذب أخلاق الناس، ويدعوهم بعلمه إلى ما يقرّبهم إلى الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، فهو يدعو الخواصَّ بالحكمة، والعوامَّ بالموعظة، والمعاندين بالجدال، فهو ينجو بنفسه وبغيره وهذا هو كمال الإنسان.

(فصل) في بيان العلم المحمود والمذموم، وبيان فرض العين وفرض الكفاية:

قال رسول الله ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[2].

فمما يجب عليه بعد بلوغه وإسلامه أن يعلمَ كلمتي الشهادة وفهم معناهما، وليس يجب عليه إحكامهما بالبراهين، بل يكفي أن يعتقد ذلك من غير ريب وشكّ، ولو على سبيل التقليد، وهكذا كان يفعل رسول الله ﷺ بمن يسلم من أجلافِ[3] العرب.

(١) **هوامه**: جمع هامة، وهو ما له سم يقتل كالحية وغيرها، وقد تطلق على كل ما يؤذي.

(٢) رواه ابن ماجه (٢٢٤)، وقال الحافظ المزي: هذا الحديث روي من طرق تبلغ رتبة الحسن ا.هـ.

(٣) **أجلاف**: جمع جِلْف، وهو الرجل الجافي.

ثم بعد ذلك يشتغل بتعلم ما يتجدد عليه من أوامر الله تعالى ـ كالصلاة والصيام ـ بحسب تجدد الأوامر، فيتعلم الصلاة عند وجوبها، ويستعد لها قبل وجوبها، وكذلك الصيام، ويجب عليه تعلُّم الزكاة إن كان يملك ما يجب فيه الزكاة عند تمام الحول بعد الإسلام، وإنما يجب عليه ذلك بقدر الحاجة، وينبه على وجوب الحج عليه، ولا يلزمه المبادرة إلى تعلُّم علمه كما لا يجب عليه المبادرة إلى أدائه، ويجب عليه أن يتعلم ما يجب عليه تركه من المعاصي على مرِّ الأيام بحسب ما تمسُّ إليه الحاجة، فإن خطر بباله شك في معتقداته وجب عليه الخوض في التعلم، والنظر بقدر ما يزيل الشك.

وتعلم العلم الذي به النجاة من المهلكات والفوز بالدرجات وتحصيله أيضاً فرض عليه، وما وراء ذلك من العلوم فرض كفاية لا فرض عين.

(اعلم) أنَّ درجات العلوم بقدر قربها من علم الآخرة وبُعدها، فكما أن علوم الشرعيات تفضل على غيرها من العلوم، فالعلم الذي يتعلق بحقائق الشرعيات يَفْضُل على ما يتعلق بظواهر الأحكام، فالفقيهُ يحكم على الظَّاهر بالصِّحة والفساد، ووراءه علم يعرف به كونُ العبادة مقبولة أو مردودة، وذلك من علوم الصوفية على ما سيأتي.

والعلماء المشهورون الذين انتحل الناس مذاهِبَهم واقتدوا بهم كانوا قد جمعوا بيْن علم الفقهِ وبين علوم الحقائق وبينَ العمل بها، وإنما يُعرف ذلك بالكشف عن أحوالهم، ونقل أقوالهم، وهم خمسة: الشافعي، ومالك، وأبو حنيفة، وأحمد بن حنبل، وسفيان الثوري[١] رحمة الله عليهم، وكل واحد منهم كان عابداً، وزاهداً، وعالماً في علوم الآخرة، كما كان عالماً بعلوم الفقه الظاهر الذي يتعلق بمصالح الخلق، وكانوا يريدون بجميع علومهم وجه الله تعالى، فهذه خمس خصال، اتبعهم فقهاء العصر ـ من جملتها ـ في خصلة واحدة، وهي النشر والمبالغة في تفاريع

(١) هو: أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، الكوفي، أمير المؤمنين في الحديث، كان فقيهاً زاهداً ورعاً، قال شعبة: إن سفيان ساد الناس بالورع والعلم، وقال قبيصة بن عقبة: ما جلست مع سفيان مجلساً إلا ذكرت الموت، وما رأيت أحداً كان أكثر ذكراً للموت منه توفي رحمه الله سنة ١٦١هـ «تهذيب الكمال» (١١/ ١٥٤).

الفقه، لأن الخصال الأربع لا تصلح إلا للآخرة، وهذه الخصلة الواحدة تصلح للدنيا والآخرة.

ونحن نورد من أحوالهم ما يدل على هذه الخصال الأربع:

أما **الشافعي** رحمه الله فيدل على كونه عابداً أنه كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء: ثلث للعلم، وثلث للصلاة، وثلث للنوم.

وقال الرَّبيع(1): كان الشافعي رحمه الله تعالى يختم القرآن في رمضان ستين مرة، كل ذلك في الصلاة.

وكان البُويطي(2) أحد أصحابه يختم القرآن في كل يوم مرة.

وقال الحسن الكرابيسي(3) رحمه الله تعالى: بتُّ مع الشافعي غير مرة، فكان يصلي نحواً من ثلث الليل، فما رأيته يزيد على خمسين آية، فإذا أكثر فمئة، لا يمر على آية رحمة إلا سأل الله تعالى لنفسه ولجميع المؤمنين، ولا بآية عذاب إلا تعوّذ منها وسأل الله تعالى النجاة لنفسه ولجميع المؤمنين.

واقتصاره على خمسين آية يدل على تبحره في أسرار القرآن.

وقال الشافعي: ما شبعت منذ ستَّ عشرة سنة، لأنَّ الشبع يثقل البدن، ويقسي القلب، ويزيل الفطنة، ويجلب النوم، ويضعف صاحَبه عن العبادة.

وقال: ما حلفت بالله تعالى لا صدقاً ولا كذباً.

وسئل عن مسألة فسكت، فقيل: ألا تجيب؟ فقال: حتى أعلم أن الفضل في سكوتي أو في الجواب.

---

(1) هو: **الربيع بن سليمان بن عبد الجبار المرادي**، صاحب الشافعي، وراوية كتبه وهو من أحفظ أصحابه، توفي سنة ٢٧٠هـ (السبكي: ٢/ ١٣٢ ـ الإسنوي: ١/ ٣٩).

(2) هو: **يوسف بن يحيى، أبو يعقوب البويطي**، من أصحاب الشافعي ومن الصابرين على البلاء في محنة خلق القرآن، حُمل من مصر فسُجن ببغداد إلى أن توفي في السجن سنة ٢٣١هـ (السبكي: ٢/ ١٦٢، الإسنوي: ١/ ٢٠).

(3) هو: **أبو علي الحسن بن علي الكرابيسي**، كان متكلماً عارفاً بالحديث، له تصانيف كثيرة في أصول الفقه وفروعه، توفي سنة ٢٤٥هـ (السبكي : ٢/ ١١٧ ـ الإسنوي: ١/ ٢٩).

وقال أحمد بن يحيى[1]: خرج الشافعي يوماً من سوق القناديل، فتبعناه، فإذا رجل يسفَهُ على رجل من أهل العلم، فالتفت الشافعي إلينا، فقال: نزِّهوا أسماعَكم عن استماع الخنا[2] كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به، فإن المستمع شريك القائل، وإن السفيه لينظرُ إلى أخبثِ شيءٍ في وعائه فيحرص أن يُفرغه في أوعيتكم، ولو رُدَّت كلمة السفيه لسعد رادُّها كما يشقى بها قائلها.

وقال الشافعي: كتب حكيم إلى حكيم يقول: قد أوتيتَ علماً فلا تدنس علمك بظلمة الذنوب، فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم.

وأما زهده: فقد قال رحمه الله: من قال: إنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها فقد كذب.

وسقط سوطه من يده فرفعه إليه إنسان، فأعطاه جزاء عليه خمسين ديناراً.

وسخاء الشافعي أشهر من الشمس.

ويدل على خوفه من الله تعالى، واشتغال همِّهِ بالآخرة، ما روي عنه أنه سمع سفيان بن عيينة[3] يروي حديثاً من الرقاق، فغشي على الشافعي، فقيل له: قد مات، فقال: إنْ ماتَ فقد مات أفضل أهل زمانه، وقرأ بعضهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦﴾ [المرسلات: ٣٥ ـ ٣٦]، فرؤي الشافعي وقد تغيَّر لونه، واقشعر جلده، واضطرب اضطراباً شديداً وخرَّ مغشياً عليه، فلما أفاق جعل يقول: أعوذ بك من مَقَام الكذَّابين وإعراض الغافلين، اللهم لك خضعتْ قلوبُ العارفين، وذلت لهيبتك رقاب المشتاقين، اللهم هب لي جودك، وجللني بسترك، واعفُ عن تقصيري بكرم وجهك.

وأما كونُه عالماً بأسرار القلوب فيدلُ عليه أنه سئل عن الرياء، فقال على

---

(١) هو: أبو عبد الله، أحمد بن يحيى بن الوزير بن سليمان التجيبي، المصري، الحافظ النحوي، من أعلم أهل زمانه بالشعر والأدب والغريب وأيام الناس، صحب الشافعي، توفي سنة ٢٥١هـ. (السبكي: ٢/ ٦٦).

(٢) الخنا: الفحش.

(٣) هو: سفيان بن عيينة بن أبي عمران، إمام فقيه محدث، قال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز، توفي سنة ١٩٨هـ، «تهذيب الكمال»: (١١/ ١٧٧).

البديهة: الرياءُ فتنةٌ عَقَدَها الهوى بحبال أبصار قلوب العلماء، فنظروا إليها بسوء اختيار النفوس، فأحبطتْ أعمالهم.

وقال: إذا أنتَ خِفتَ على نفسك العُجْب فانظر رضا مَنْ تَطلب؟ وفي أي نعيم ترغب؟ ومن أي عقاب تهرب؟ وأي عافية تشكر؟ وفي أي بلاء تذكر؟

ويدل على أنه أراد بالفقه والمناظرة وجه الله تعالى أنه قال: وددتُ أن الناس ينتفعون بهذا العلم، وما نسب إليَّ منه شيء.

وهذا قاطع في أنه لم يرد به صيتاً في الناس ومتاع الغرور.

وقال: ما ناظرت أحداً قط فأحببت أنه يخطئ، وما كلمت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويُعان، ويكون عليه رعاية من الله تعالى وحفظ، وما كلمت أحداً قطُّ إلا وأنا أريد أن يُبيِّن الله تعالى الحقَّ على لسانهِ أو على لساني.

وقال أحمد بن حنبل: ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي.

وأما **الإمام مالك** رحمه الله تعالى فإنه كان متحلياً بهذه الخصال الخمس.

ويدل عليه أنه سُئل: ما تقول يا مالك في طلب العلم؟ فقال: حسن جميل، ولكنِ انظر الذي يلزمكَ من حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه.

وقال الشافعي رحمه الله: رأيت أنه سئل عن أربعين مسألة، فقال في اثنين وثلاثين منها: لا أدري.

وزهده وورعه أشهر من أن يذكر.

وأما **أبو حنيفة** رضي الله عنه فكذلك روي أنه كان يحيي نصف الليل، فأشار إليه إنسان بأن هذا يحيي كلَّ الليل، فلم يزل بعد ذلك يحيي الليل كله، وقال: أنا أستحي أن أوصفَ بما ليس فيَّ.

وكذلك **أحمد بن حنبل وسفيان** زهدهما وورعهما أظهرُ من أن يذكر، وسيأتي في أثناء الكتاب من الحكايات ما يدل على ذلك.

فانظر الآن إلى الذين يدَّعونَ الاقتداء بهؤلاء، صدقوا في دعواهم أم لا؟

(فصل) في بيان أن جميع العلوم ليست محمودة:

ونعني بذلك السحر والطلسم والنجوم والفلسفة وما شابهها.

أما السحر والطلسم: فإنهما مؤديان إلى أنواع من الضرر.

وأما النجوم: فلأنها منهي عنها، إذ قال عليه الصلاة والسلام: «.. .**إذا ذُكرَت النجومُ فأمسكوا**. . .»[1]، وإنما أمرنا بالإمساك لأن الإنسان مشغوف بالإحالة على الأسباب - يعني الوسائط المحسوسة والمُتخيلة - ولعله يغفل بسببه عن مسَبِّب الأسباب.

وأما الفلسفة: فلأدائها إلى أمور على خلاف الشرع ولا ينكر أن الحسابيات لا يمكن مخالفتها وإنكارها، ولكن هي مدخل إلى ما وراءها، فليقتصر منها على قدر الحاجة، ومن الطبيعيات على الطب للحاجة، ومن النجوم على معرفة المنازل ودلائل القبلة، والله أعلم.

(فصل) في آداب المعلِّم والمتعلّم:

أما المتعلم فآدابه ووظائفه كثيرة، ولكن تُنظم تفاريقها في سبع جمل:

الوظيفة الأولى: تقديم طهارة النفس على رذائل الأخلاق، لقوله عليه الصلاة والسلام: «**بُني الدين على النظافة**»[2]، وليست النظافة مرادة في الثياب فحسب، بل في القلب، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، بيَّن أنَّ النجاسة لا تختص بالثياب، فما لم ينظف الباطن عن الخبائث لا يقبل العلم النافع في الدين، ولا يستضيء بنور العلم.

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني [في الكبير (١٠٤٤٨)] من حديث ابن مسعود بإسناد حسن ا.هـ.

(٢) قال الحافظ العراقي: لم أجده هكذا، وفي الضعفاء لابن حبان (٣/ ٥٨) من حديث عائشة: «**تنظفوا فإن الإسلام نظيف**» وللطبراني في الأوسط (٢٧٣١١) بسند ضعيف جداً من حديث ابن مسعود: «**النظافة تدعو إلى الإيمان**» ا.هـ.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم نور يُقْذَفُ في القلب.

وقال بعض المحققين: تعلمنا العلمَ لغير الله فأبى العلمُ أن يكونَ إلا لله[١].

أي العلم أبى وامتنع علينا فلم تنكشف لنا حقيقته، وإنما حصل لنا حديثه وألفاظه.

الوظيفة الثانية: أن يقلل علائقه، ويبعد عن وطنه، حتى يتفرغ قلبه للعلم، فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، ولذلك قيل: العلم لا يعطيك بعضَه حتى تعطيه كلَّك.

الوظيفة الثالثة: أن لا يتكبر على العلم، ولا يتأمر على المعلم، بل يلقي إليه زمام الاختيار، كالمريض المدنف يلقي زمام الاختيار إلى الطبيب من غير أن يتحكم عليه بشيء في استدعاء نوع من الأدواء دون نوع، وينبغي أن يواظب على خدمة المعلِّم، كما روي أن زيد بن ثابت رضي الله عنه، صلى على جنازة، فقُرِّبتْ له بغلته ليركبها، فجاء ابن عباس رضي الله عنهما، فأخذ بركابه، فقال زيد: خلِّ عنك يا ابن عمِّ رسول الله ﷺ، فقال ابن عباس: هكذا أُمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء، فقبَّل زيد يده وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبيّنا ﷺ[٢].

وقال ﷺ: «**ليس من أخلاق المؤمن التَمَلُّق[٣] إلا في طلب العلم**»[٤].

---

(١) هذه المقالة نسبها البعض إلى المصنف، وقد قال الزبيدي: والآن قد ظهر من سياق المصنف أن المقالة المذكورة لأحد المتقدمين، ليست له وإنما هو ناقل ا.هـ (إتحاف السادة المتقين).

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني [في الكبير (٤٧٤٦)]، والحاكم (٣/ ٤٢٣)، والبيهقي في المدخل (٢/ ٣٨٥) (وهو مقدمة السنن الكبرى) إلا أنهم قالوا: هكذا نفعل. قال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم [ووافقه الذهبي]. ا.هـ

(٣) التملق: التودد والتلطف تذللاً.

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه ابن عدي (٢/ ٢٩٨) من حديث معاذ، و(٥/ ١٠) من حديث أبي أمامة بإسنادين ضعيفين ا.هـ. وروى الديلمي في مسند الفردوس نحوه، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ١٥٧).

وقيل:

العلم حرب للفتى المتعالي   كالسيل حرب للمكان العالي

الوظيفة الرابعة: أن يحترز عن الإصغاء إلى اختلافات الناس، فإن ذلك يورث دهشةً وحيرةً، فإنه يميل في أول الأمر قلبُه إلى كل ما يلقى إليه، خصوصاً إلى طرق التعطيل التي توافق الكسل والبطالة، ولهذا لا يجوز للمبتدئين الاقتداء بأفعال المنتهين، حتى قال بعضهم: من زارنا في البداية صار صديقاً، ومن زارنا في النهاية صار زنديقاً. لأنهم في النهاية سكنت جوارحهم عن الحركات إلا في الفرائض، واستبدلوا بالنوافل سيرَ القلوب، ودوام الشهود على الدوام، والغافل يظن به البطالة والكسل ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

الوظيفة الخامسة: أن لا يدع فنّاً من فنون العلم المحمودة إلا ويخوض فيه حتى يطلع على مقصوده، فإن ساعده العمرُ استوفاه، وإلا اختار الأهم، واختيار الأهم إنما يمكن بعد الاطلاع على الكل.

الوظيفة السادسة: أن يصرف العناية إلى الأهم من العلوم، وهو علم الآخرة، أعني بذلك قسم المعاملة والمكاشفة، والمعاملة تفضي إلى المكاشفة، والمكاشفة معرفة الله تعالى، وذلك نور يقذفه الله تعالى في قلب زُكِّيَ بالعبادة والمجاهدة، وذلك الذي ينتهي إلى رتبة إيمان أبي بكر رضي الله عنه الوارد فيه: «**لو وُزِن إيمان أهل الأرض بإيمان أبي بكر لرجح**»[(١)]، وذلك لسرٍ وَقَرَ في صدره، لا لترتيب البراهين والحجج، والعَجَبُ ممن يسمع مثل هذه الأقوال من رسول الله ﷺ ثم يزدري بسمعه ما يسمعه من كلام الصوفية على وفقه، ويزعم أنه من ترَّهات الصوفية، فاتَّئِدْ في هذا، فعنده ضيعت رأس المال، فكن حريصاً على معرفة ذلك السرِّ الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين، فلا يرشدك إليه إلا حرصك في الطلب.

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن عدي (١٠١٢) من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف، ورواه البيهقي في الشعب (٣٦) موقوفاً على عمر بإسنادٍ صحيح ا.هـ. وقال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة: وله شاهد في السنن [أبو داود (٤٦٣٤)، والترمذي (٢٢٨٧)] عن أبي بكرة «أن رجلاً قال: يا رسول الله رأيت كأن ميزاناً من السماء فوزنت أنت وأبو بكر، فرجحت أنت، ثم وزن أبو بكر بمن بقي فرجح» الحديث.

فاعلم أن أشرف العلوم وغايتها معرفة الله تعالى، وهذا بحر لا يدرك منتهى غوره، وأقصى درجات البشر فيه رتبة الأنبياء ثم الأولياء، ثم الذين يلونهم.

وقد روي أن حكيمين من الحكماء المتعبدين رؤي في يد أحدهما رقعة، وفيها: إن أحسنتَ كلَّ شيء، فلا تظنن أنك أحسنت شيئاً حتى تعرف الله تعالى، وتعلم أنه مسَبِّب الأسباب، وموجد الأشياء. وفي يد الآخر رقعة، فيها: كنت قبل أن أعرف الله أشرب وأظمأ، حتى إذا عرفت رُويتُ بلا شرب.

الوظيفة السابعة: أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه بما يوصله إلى الله تعالى، وإلى جوار الملأ الأعلى من المقربين، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه.

بيان وظائف المرشد المعلم:

وأحسن أحواله ما قيل: مَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ فذلك الذي يُدعى عظيماً في ملكوت السماء.

ولا ينبغي أن يكون كالإبرة تكسو غيرها وهي عارية، أو ذُبالة المصباح[1] تضيء لغيرها وهي تحترق، كما قيل:

صرتُ كأني ذبالة نصبت ... تضيءُ للناس وهي تحترقُ

ومن تقلد التعليم فقد تقلد أمراً عظيماً، فليحفظ آدابه ووظائفه.

الوظيفة الأولى: الشفقة على المتعلم وإجراؤه مجرى الولد، لقوله عليه الصلاة والسلام: «**إنما أنا لكم كالوالد لولده**»[2]، بل هو الوالد على الحقيقة، لأن الأب سبب الحياة الفانية، والمعلم سبب الحياة الباقية، ولذلك يقدم حقه على حق الأبوين.

فأما التعليم على قصد الدنيا، فهو إهلاك، وأيُّ إهلاك، وإذا كان ذلك لله

---

(١) ذبالة المصباح: فتيلته.

(٢) رواه أبو داود (٨)، والنسائي (١/٣٨)، وابن ماجه (٣١٣)، وابن حبان (١٤٣١) جميعهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فليكن تلامذة الرجل الواحد متحابين، فإن العلماء وأبناء الآخرة مسافرون إلى الله تعالى، وسالكون إليه الطريق، والدنيا وسنيُّها وشهورها منازل الطريق، والترافق بين المسافرين من بلد إلى بلد يوجب التحابّ والتوادّ، فكيف السفر إلى الله تعالى والفردوس الأعلى، ولا ضيق فيه، فليكن بعيداً من التنافس والتزاحم لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

الوظيفة الثانية: الاقتداء به ﷺ فلا يطلب الأجر على التعليم، قال الله تعالى: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩]، وهو وإنْ كان له مِنَّة عليهم، فلهم المِنَّة لكونهم سبب تقربه إلى الله تعالى بغرسهِ العلم والإيمان في قلوبهم.

الوظيفة الثالثة: أن لا يدَّخر شيئاً لغدٍ من النصيحة، كمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها، والخوض في العلم الخفي قبل إحكام الجليّ.

الوظيفة الرابعة: نصح المتعلم ومنعه من الأخلاق الذميمة، لا بطريق التصريح بل التعريض، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة، وينبغي أن يستقيمَ هو ثم يطالبه بالاستقامة، وإلا فالنصح لا ينفع، لأنَّ الاقتداء بالأفعال آكد من الاقتداء بالأقوال.

(فصل) في آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء:

قال رسول الله ﷺ: «**أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه**»[(١)].

وقال رسول الله ﷺ: «**من ازداد علماً ولم يزدد هدىً لم يزدد من الله إلا بعداً**»[(٢)].

واعلم أن العالِم بالخوض في العلم حُرِم السلامة، فإما الهلاك وإما السعادة الأبدية.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧٨٨٨)، والطبراني في الصغير (٥٠٧)، وابن عدي في الكامل (٥٩٩) والقضاعي في مسند الشهاب (١١٢٢) بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أبو منصور الديلمي في «مسند الفردوس» من حديث علي بإسناد ضعيف إلا أنه قال: (زهداً)، وروى ابن حبان في «روضة العقلاء» موقوفاً على الحسن: «من ازداد علماً ثم ازداد على الدنيا حرصاً لم يزدد من الله إلا بعداً».

قال الخليل بن أحمد[1]: الرجال أربعة: رجل يدري ويدري أنه يدري، فذلك عالِم فاتبعوه، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري، فذلك نائم فأيقظوه، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري، فذلك مسترشد فعلّموه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، فذلك جاهل فاحذروه.

وقال سفيان[2]: يهتف العلم بالعمل، فإن أجابه، وإلا ارتحل.

وقال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥].

وعلماء الآخرة هم الذين لا يأكلون الدنيا بالدين، ولا يبيعون الآخرة بالدنيا، لِما علموا من عزِّ الآخرة وذلّ الدنيا، ومن لم يعلم مضادَّة الدنيا مع الآخرة ومضارَّتها فليس من العلماء، ومن أنكر ذلك فقد أنكر ما دلّ عليه القرآن والأخبار وجميع الكتب المنزلة وقولُ جميع الأنبياء، ومن علم ذلك ولم يعمل به فهو أسير الشيطان، قد أهلكته شهوته، وغلبت عليه شِقوته، ومن اقتدى به هلك، وكيف يُعَدُّ من حزب العلماء مَن هذه درجته.

وفي مناجاة داود [حكاية عن الله تعالى]: إن أدنى ما أصنع بالعَالِم إذا آثر شهوته على محبتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي، يا داود لا تسألنَّ عني عالماً قد أسكرته الدنيا، فيصدَّك عن طريق محبتي، أولئك قطاع طريق عبادي، يا داود إذا رأيت لي طالباً فكن له خادماً، يا داود من ردَّ إليَّ هارباً كتبته جهبذاً، ومن كتبتُه جهبذاً لم أعذبه بالنار أبداً.

وكذلك قال الحسن[3]: عقوبة العلماء موت القلب، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة.

---

(١) هو: **الخليل بن أحمد الأزدي الفراهيدي**، أبو عبد الرحمن البصري، النحوي، صاحب العروض، وصاحب معجم «العين» في اللغة، وهو أستاذ سيبويه، قال ابن حبان: كان من خيار عباد الله المتقشفين في العبادة، توفي سنة سبعين، وقيل: خمس وسبعين، «تهذيب الكمال» (٨/ ٣٢٦).

(٢) **سفيان الثوري**: تقدمت ترجمته صفحة (٣١).

(٣) هو: **الحسن بن يسار البصري**، أبو سعيد مولى زيد بن ثابت رضي الله عنه من كبار التابعين ومن أئمة الهدى والسنة، كان عالماً جامعاً، عابداً ناسكاً، توفي رحمه الله سنة ١١٠ هـ «تهذيب الكمال» (٦/ ٩٥).

وقال عمر رضي الله عنه: إذا رأيتم العالم محباً للدنيا فاتهموه على دينكم، فإن كل محبٍّ يخوض فيما أحب.

وكان يحيى بن معاذ الرازي(١) يقول لعلماء الدنيا: يا أصحاب العلم، قصوركم قيصريَّة، وبيوتكم كِسْرَوِيَّة، وأثوابكم طاهرية، وأخفافكم جَالوتيَّة، ومراكبكم قَارُونيَّة، وأوانيكم فرعَونية، ومآتمكم جاهلية، ومذاهبكم شيطانية(٢)،فأين الشريعة المحمدية؟ وأنشد:

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئابُ

وقيل:

يا معشر القرَّاء، يا ملح البلد ما يصلح المِلحَ إذا الملحُ فسد

واعلم أن اللائق بالعالم المتدين أن يكون مطعمه وملبسه ومسكنه وجميع ما يتعلق بمعاشه في دنياه وسطاً، لا يميل إلى الترفُّهِ والتنعم، ولا يبالغ في هذا الطرف إن لم يبالغ في طرف الزهد فيها، وينبغي له أن يحترز من الدخول على السلاطين وأرباب الدنيا ما أمكنه حذراً من الفتنة.

(فصل) في العقل وشرفه:

وهو منبع العلم، ويدل على شرفِه قوله عليه الصلاة والسلام: «**أول ما خلق الله العقل، فقال له: أقبِل، فأقبَل، ثم قال له: أدبِر، فأدبَر، فقال: وعزتي وجلالي**

---

(١) هو: **يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي**، الواعظ الزاهد، خرج إلى بلخ وأقام بها مدة ثم رجع إلى نيسابور ومات بها سنة ٢٥٨هـ «طبقات الصوفية» (ص: ١٠٧)، «حلية الأولياء» (١/ ٥١).

(٢) **قصوركم قيصرية**: أي: عالية كقصور قيصر ملك الروم، وبيوتكم كسروية: مزخرفة كبيوت كسرى ملك الفرس، وأثوابكم طاهرية: نسبة إلى عبد الله بن طاهر بن الحسين الوزير الذي كان يتغالى في الثياب، وأخفافكم جالوتية: مزينة كأخفاف جالوت، وكان جباراً، ومراكبكم قارونية: كمراكب قارون في التفاخر بها لكونها مزينة بالذهب والفضة والحرير، وأوانيكم فرعونية: فاخرة ثمينة كأواني فرعون، ومآتمكم جاهلية: أي من أفعالها، ومذاهبكم شيطانية: تتبعون النفس والهوى والشيطان، فبطاعة الشيطان صارت مذاهبكم منسوبة إليه ا.هـ «إتحاف السادة المتقين» (١/ ٣٥٨).

ما خلقت خلقاً أكرم عليَّ منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك أثيب، وبك أعاقب»[1]. /٥

وقال ﷺ: «سألت جبرائيل: ما السُّودد؟ قال: العقل»[2].

وحقيقة العقل: غريزة يتهيأ بها إدراك المعلومات النظرية، وكأنه نور يُقذف في القلب، به يُستَعد لإدراك الأشياء، وذلك يتفاوت بتفاوت الغرائز، والله أعلم.



(١) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة (٧٢٤١) [ومن حديث أبي هريرة (١٨٦٦)]، وأبو نعيم (٣١٨/٧). من حديث عائشة بإسنادين ضعيفين ا.هـ. وقال السيوطي [في الدرر المنتثرة الحديث (٣٦٥)]: وقد وجدت له أصلاً صالحاً، فأخرجه عبد الله ابن الإمام أحمد في (زوائد الزهد) عن الحسن مرفوعاً مرسلاً، وهذا مرسل جيد الإسناد ا.هـ.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن داود، ورواه أبو بكر بن لال في (مكارم الأخلاق) عن عبد الرحمن بن حمدان الجلاب عن الحارث، ورواه داود بن المحبر في (كتاب العقل) ا.هـ.

الباب الثاني

في الاعتقاد

وفيه فصول

(فصل) في ترجمة عقيدة أهل السنة:

وهي أنه تعالى وتقدس واحد لا شريك له، فردٌ لا مثل له، صمد لا ضدَّ له، منفرد لا ندَّ له، وأنه قديم لا أول له، أزلي لا بداية له، مستمر الوجود لا آخر له، أبدي لا نهاية له، قيوم لا انقطاع له، دائم لا انصرام له، لم يزل ولا يزال موصوفاً بنعوت الجلال، لا يُقضى إليه بالانقضاء والانفصال بتصرم الآباد، وانقراض الآجال، بل هو الأول والآخر، والظاهر والباطن.

التنزيه: وأنه ليس بجسم مصوَّر، ولا جوهر محدود مقدَّر، وأنه لا يماثل الأجسام لا في التقدير ولا في قَبول الانقسام، وأنه ليس بجوهر، ولا تَحِلُّه الجواهر، ولا بعَرَض، ولا تَحِلُّه الأعراض، بل لا يماثل موجوداً، ولا يماثله موجود، وليس كمثله شيء، ولا هو مثل شيء، وأنه لا يحده المقدار، ولا تحويه الأقطار، ولا تحيط به الجهات، ولا تكتنفه الأرض والسماوات، وأنه مستوٍ على العرش، على الوجه الذي قاله، وبالمعنى الذي أراده، استواءً منزهاً عن المماسة والاستقرار، والتمكن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته، ومقهورون في قبضته، وهو فوق العرش، وفوق كل شيء

إلى تُخُوم الثّرى، فوقيةً لا تزيده قرباً إلى العرش والسماء، كما لا تزيده بعداً عن الأرض والثرى، بل هو رفيع الدرجات عن العرش، كما أنه رفيع الدرجات عن الثرى، وهو مع ذلك كله قريب من كل موجود، وهو أقرب إلى العبيد من حبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد، إذ لا يماثل قربُه قرب الأجسام، كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام، وأنه لا يَحُلُّ في شيء، ولا يَحُلُّ فيه شيء، تعالى عن أن يحويه مكان، كما تقدس عن أن يحدَّه زمان، بل كان قبل أن يخلق الزمان والمكان، وهو الآن على ما عليه كان، وأنه بائن من خلقه بصفاته، ليس في ذاته سواه، ولا في سواه ذاته، وأنه مقدس عن العوارض من التغيير والانتقال، لا تَحِلُّه الحوادث، ولا تعتريه العوارض، بل لا يزال في نعوت الجلال منزهاً عن الزوال، وفي صفات كماله مستغنياً عن زيادة الاستكمال، وأنه في ذاته معلوم الوجود بالعقول، مرئِي الذّات بالأبصار، نعمةً منه ولطفاً بالأبرار في دار القرار، وإتماماً منه للتنعيم بالنظر إلى وجهه الكريم.

الحياة والقدرة: وأنه حي قادر، جبار قاهر، لا يعتريه قُصُور ولا عجز، ولا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، ولا يعارضه فناء ولا موت، وأنه ذو المُلْك والملكوت، والعزَّة والجبروت، له السلطان والقهر، والخلق والأمر، والسماوات مطويات بيمينه، وأنه المنفرد بالخلق والاختراع، المتوحد بالإيجاد والإبداع، خلق الخْلق وأعمالهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم، لا تُحصى مقدوراته، ولا تتناهى معلوماته.

العلم: وأنه عالم بجميع المعلومات، محيط علمه بما يجري من تخوم الأرضين إلى أعلى السماوات، لا يعزُب عن علمه مثقالُ ذرة في الأرض ولا في السماء، بل يعلم دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، ويدرك حركة الذَّرِّ في جوّ الهواء، ويعلم السر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر، وحركات الخواطر، وخفيات السرائر بعلم قديم أزلي لم يزل موصوفاً به في أزل الآزال، لا بعلمٍ متجددٍ حاصل في ذاته بالحُلُول والانتقال.

الإرادة: وأنه تعالى مريد للكائنات، مدبر للحادثات فلا يجري في المُلْك والملكوت قليل أو كثير، صغير أو كبير، خير أو شر، نفع أو ضُر، إيمان أو كفر، عِرفان أو نُكر، فوز أو خُسران، زيادة أو نقصان، طاعة أو عصيان، إلا بقضائه

وقدره، وحكمته ومشيئته، لا يخرج من مشيئته لفتة ناظر، ولا فَلْتة خاطر، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو المبدئ المعيد، الفعال لما يريد، لا رادَّ لحكمه، ولا معقب لقضائه، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته، ولا قوة على طاعته إلا بمحبته وإرادته، لو اجتمعت الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة أو يُسكِنوها دون إرادته ومشيئته لعجزوا عنه، وإنَّ إرادته قائمة بذاته، في جملة صفاته، لم يزل كذلك موصوفاً بها، مريداً في أزله لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدَّرها فوُجِدت في أوقاتها كما قدرها وأرادها في أزله، من غير تقدم ولا تأخر، دبَّر الأمور كلها لا بترتيب أفكار، وتربص زمان، فلذلك لم يشغله شأن عن شأن.

السمع والبصر: وأنه تعالى سميع بصير، يسمع ويرى، ولا يعزُب عن سمعه مسموع وإن خفي، ولا يغيب عن رؤيته مَرْئي وإنْ دقَّ، ولا يحجُب سمعَه بُعْدٌ، ولا يدفع رؤيتَه ظلام، يرى من غير حَدَقَة وأجْفَان، ويسمع من غير أصْمخة وآذان، كما يعلم بغير قلب، ويبطش بغير جارحة، ويخلق بغير آلة، إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق.

الكلام: وأنه تعالى متكلمٌ، آمرٌ، ناهٍ، واعدٌ، متوعدٌ بكلام أزلي قديم قائم بذاته، لا يشبه كلامُه كلام الخلق، فليس بصوت يَحدُث من انسلال هواء، أو اصطكاك أجرام، ولا بحرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان.

وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كلامه وكتبه المنزلة على رسله، وأن القرآن مقروء بالألسنة، مكتوب في المصاحف، محفوظ في القلوب، وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى، لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق، وأن موسى عليه السلام سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف، كما يرى الأبرارُ ذات الله تعالى من غير جوهر ولا عرض.

وإذا كانت له الصفات كان حياً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً متكلماً بالحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، لا بمجرد الذات.

الأفعال: وأنه لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله، وفائض من عدله، على أحسن الوجوه وأكملها وأتمّها وأعدلها.

وأنه حكيم في أفعاله، عادل في أقضيته، لا يقاس عدله بعدل العباد.، فإن العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره، ولا يتصور الظلم من الله تعالى، فإنه لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلماً، فكل ما سواه من جنٍّ وإنسٍ ومَلَكٍ وشيطانٍ وسماءٍ وأرضٍ وحيوانٍ ونباتٍ وجمادٍ وجوهرٍ وعرضٍ ومُدْرَكٍ ومحسوسٍ وحادثٍ اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعاً، وأنشأه إنشاء بعد أن لم يكن شيئاً، إذ كان في الأزل موجوداً وحده، ولم يكن معه غيره، فأحدث الخلق إظهاراً لقدرته، وتحقيقاً لما سبق من إرادته، ولِمَا حَقَّ في الأزل من كلمته، لا لافتقاره إليه وحاجته، وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب، ومتطول بالإنعام والإصلاح لا عن لزوم، وأنه لو صَبَّ عليهم العذاب صباً لكان منه عدلاً، وأنه يثيب عباده على الطاعات كرماً لا بالاستحقاق واللزوم، وأنه وجب حقه بالطاعة، بإيجابه على لسان أنبيائه، لا بمجرد العقل، ولكن بعث الرسل، وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة، فبلغوا أمره ونهيه ووعده ووعيده فوجب على الخلق تصديقُهم فيما جاؤوا به.

معنى الكلمة الثانية: وهي الشهادة للرسول صلوات الله وسلامه عليه.

وأنه تعالى بعث الرسول النبي الأمي الهادي القرشي محمداً ﷺ برسالته إلى كافة العرب والعجم والجن والإنس، فنسخ بشرعه الشرائع إلا ما قرر، وفضّله على سائر الأنبياء، وجعله سيد البشر، ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد ـ وهو قول: لا إله إلا الله ـ ما لم يقترن بها شهادة الرسول ﷺ، وهو قولك: محمد رسول الله، وألزَمَ الخلقَ تصديقه في جميع ما أخبر عنه من الدنيا والآخرة.

وأنه لا يُقبل إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر عنه بعد الموت، وأوله سؤال منكر ونكير، وهما شخصان مهيبان هائلان، يُقعدان العبد في قبره سوياً ذا روح وجسد، فيسألانه عن التوحيد والرسالة، ويقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وهما فتَّانا القبر، وسؤالهما أول فتنة تعرض بعد الموت.

وأن يؤمنَ بعذاب القبر، وأنه حق وحكمة وعدل على الجسم والروح على ما يشاء.

ويؤمنَ بالعبث والنشور وأنه تعالى يحيي العظام وهي رميم، كما أنشأها أول مرة، ويردّ الروح إلى الجسد كما هو في الدنيا قبل الموت، ويجعله شخصاً سوياً، ويؤمن بالميزان ذي الكفتين واللسان، وصفته في العِظَم مثل طباق السماوات والأرض، توزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى، والسنج[1] يومئذ مثاقيل الذَّرِّ والخَرْدل، تحقيقاً لتمام العدل، وتطرح صحائف الحسنات في كفة النور فيثقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله تعالى بفضل الله، وتطرح صحائف السيئات في كفة الظلمة فيخف بها الميزان بعدل الله تعالى.

وأن يؤمن بأن الساعة حق، وأن الصراط حق، وهو جسر ممدود على متن جهنم، أحدُّ من السيف، وأدقّ من الشعرة، تزلّ عليه أقدام الكافرين، فيساقون إلى النار، وتثبت عليه أقدام المؤمنين، فيساقون إلى دار القرار.

وأن يؤمن بالحوض المورود، حوض نبينا محمد ﷺ، يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة، وبعد جواز الصراط، مَنْ شرب منه شربةً لم يظمأ بعدها أبداً، عرضه مسيرة شهر، أشدّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، حوله أباريق، عددها عدد نجوم السماء، فيه ميزابان يَصُبان فيه من الكوثر.

ويؤمن بالحساب، وتفاوت الخلق فيه، إلى مناقَشٍ في الحساب، وإلى مسامَحٍ فيه، وإلى مَن يدخل الجنة بغير حساب، وهم المقربون، ويَسْألُ مَن شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة، ومَن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين، ويسأل المبتدعة عن السنة، ويَسْأل المسلمين عن الأعمال.

ويؤمن بإخراج الموحدين من النار بعد الانتقام، حتى لا يبقى في جهنم موحِّد بفضل الله تعالى.

ويؤمن بشفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين، كل واحد بحسب جاهه ومنزلته من الله عز وجل، ومن بقي من المؤمنين ولم يكن له شفيع أُخرج بفضل الله، فلا يخلد في النار مؤمن، بل يخرج منها مَنْ كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان.

---

(١) السنج: ما يوزن به، مفرده سنجة.

وأن يعتقد فضل الصحابة وترتيبهم، وأنَّ أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، رضي الله عنهم أجمعين، وأن يحسن الظن بجميع الصحابة، ويثني عليهم كما أثنى الله تعالى ورسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ عليهم، وكل ذلك مما وردت به الأخبار، وشهدت به الآثار، فمن اعتقد جميع ذلك موقناً به كان من أهل الحق وعصابة السنة، وفارق أهل الضلالة والبدعة، فنسأل الله كمال اليقين، والثبات على الدين لنا ولكافة المسلمين، إنه أرحم الراحمين.

(فصل) في وجه التدريج إلى الإرشاد:

واعلم أن الصبي في أول نشوِّه مستعد لقبول الحق من غير برهان بفطرة الله تعالى، فليُلْقَ إليه ترجمة العقيدة حتى يحفظ، فلا يزال يفهم بعد ذلك شيئاً فشيئاً، ويترشح في باطنه، فلا يحتاج إلى أن يثبت ذلك بالبراهين، ثم لا يخوض العاقل في طلب البراهين إلا بقدر الحاجة، والحاجة فيه أن يَعرض له إشكال فيتصدى لما يزيله، وأما الخوض في علم الكلام على سبيل الابتداء، فمثله كإلقاء الرجل نفسه في البحر ليسبح، فإنه ربما لا يسلم اعتقاده عند الإصغاء إلى الشُّبه، نعم ينبغي أن يكون في الناس من يقوم به إذا مسَّت الحاجة إليه في دفع مبتدع أو إزالة شبهة.

(فصل) معنى الإسلام: هو الإذعان والتسليم.

ومعنى الإيمان: هو قبول القلب.

والله تعالى ذكرهما في القرآن مرة فأراد بهما شيئاً واحداً، فقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٥ ـ ٣٦]، ولم يكن فيها غير بيت واحد.

وذكرهما مرة بمعنيين مختلفين في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] يعني: أذعنتم ولم تنشرح به صدوركم.



الباب الثالث

في أسرار الطهارة

قال رسول الله ﷺ: «**الطهور شطر الإيمان**»[1].

وقال ﷺ: «**بني الدين على النظافة**»[2].

وقال ﷺ: «**مفتاح الصلاة الطهور**»[3].

وقال الله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ [التوبة: ١٠٨].

وللطهارة أربع مراتب:

الأولى: تطهير الظاهر عن الأحداث.

والثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام.

والثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق الذميمة.

والرابعة: تطهير السر عما سوى الله تعالى، وهي طهارة الأنبياء والصديقين.

والطهارة في كل رتبة نصف العمل الذي فيها، ففي كل رتبة تخلية وتحلية،

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٣٥) في كتاب العلم.

(٣) رواه أبو داود (٦١)، والترمذي (٣)، وابن ماجه (٢٧٥) جميعهم من حديث علي، قال الترمذي: هذا أصح شيء في هذا الباب وأحسن.

والتخلية نصف العمل، لكون الأجر موقوفاً عليه، وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١] فقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ تحلية القلب بذكر الله وقوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ تخليته عما سوى الله تعالى، وكذلك في القلب لابد من تخليته عن الأخلاق المذمومة ثم تحليته بالأخلاق المحمودة، وكذلك في الجوارح لابد من تخليتها من الآثام، ثم تحليتها بالطاعة.

وكل واحدة من هذه المراتب شرط للخوض فيما بعدها، فتطهير الظاهر، ثم تطهير الجوارح، ثم تطهير القلب، ثم تطهير السِّر، فلا ينبغي أن تظن أن المراد بالطهارة تطهير الظاهر فحسب، فيفوتك ما هو المقصود، ولا تظن أن هذه المراتب في الطهارة تدرك بالمنى وتنال بالهُوَيْنَا، فإنك لو شمّرت له طول عمرك فربما تفوز فيه ببعض المقاصد.

(فصل) في طهارة الأحداث

وهي الوضوء والغسل والتيمم، ويتقدمها الاستنجاء، ونحن نورد كيفيتها بآدابها وسننها، مبتدئين بقضاء الحاجة لأنه سبب الوضوء.

آداب قضاء الحاجة: ينبغي أن يبعد عن نظر الناظرين إليه في الصحراء، وأن يستتر بشيء إن وَجَدَه، ولا يكشِفَ عَوْرَته قبل الانتهاء إلى موضع الجلوس، وأن لا يستقبل القبلة، ولا يستدبرها، وأن لا يستقبل الشمس والقمر إلا إذا كان في بناء، والعدول في البناء أيضاً مستحب.

ولا يبول في الماء الراكد، ولا تحت الأشجار المثمرة، ولا في الجِحْر، ويتقي المواضع الصلبة، ومهابَّ الرياح احترازاً من الرشاش.

ويقدم الرِّجْلَ اليسرى في دخوله، واليمنى في خروجه من البناء، ولا يبول قائماً، ولا يبول في المغتسل، فإنه عليه الصلاة والسلام قال: «**عامة الوسواس منه**»[(١)] ح

(١) رواه أبو داود (٢٧)، والترمذي (٢١)، والنسائي (١/ ٣٤)، وابن ماجه (٣٠٤) جميعهم من حديث عبد الله بن مغفل، قال الترمذي: غريب، قال الحافظ العراقي: وإسناده صحيح ا.هـ.

ولا يستصحب شيئاً عليه اسم الله أو رسوله عليه الصلاة والسلام، ولا يدخل بيت الماء حاسر الرأس.

ويقول عند الدخول: بسم الله، أعوذُ بالله من الخُبْثِ والخَبَائِثِ، أو من الخَبِيثِ المُخْبَث الشيطان الرجيم.

وعند الخروج: الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني، وأبقى فيَّ ما ينفعني.

ويكون في الدخول والخروج ذاكراً لله تعالى خارج بيتِ الماء، وأن يُعِدَّ النَّبْل[1] قبل الجلوس، وأن لا يستنجي في موضع قضاء الحاجة، وأن يستبرئ من البول بالتنحنح والنتر ثلاثاً، وإمرار اليد على أسفل القضيب، وإن غلب عليه الوسواس فليرش الماء على سراويله، وفي الخبر أنه عليه الصلاة والسلام فعل ذلك[2] - أعني الرش - ونهى أن يُستنجى بروث أوعظم[3] ويستنجي بثلاثة أحجار، ويستحب أن يجمع بين الماء والحَجَر، واستعمال الحَجَر أن يضعه على المؤخر، ويمر بها إلى المقدم، وإن قدر على الإدارة كان أولى، والإنقاء لا بد منه، والإيتار مستحب.

كيفية الوضوء: ولم يُرَ رسول الله ﷺ خارجاً من الغائط إلا توضأ، قال ﷺ: «**لا يحافظ على الوضوء إلا مسلم**»[4].

وينبغي أن يبدأ بالسواك، قال ﷺ: «**صلاة على إثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك**»[5].

---

(١) النَّبْل: أحجار الاستنجاء.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أبو داود (١٦٦)، والنسائي (١/ ٨٦)، وابن ماجه (٤٦١) من حديث سفيان بن الحكم الثقفي أو الحكم بن سفيان وهو مضطرب كما قاله الترمذي وابن عبد البر ا.هـ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٢).

(٤) رواه ابن ماجه (٢٧٧) ورواه الإمام أحمد (٥/ ٢٨٢).

(٥) رواه ابن عدي في الكامل (٦/ ٣١٦) بلفظه، وروى نحوه البيهقي في السنن (١/ ٣٨)، وابن خزيمة في صحيحه (١/ ٧١)، والإمام أحمد في المسند (٦/ ٢٧٢)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٤٦) وصححه ووافقه الذهبي.

ثم يجلس للوضوء فيقول: بسم الله الرحمن الرحيم، قال ﷺ: «لا وضوء لمن لم يسمِّ الله تعالى»[١].

ويقول: أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون.

ثم يغسل يديه ثلاثاً قبل أن يدخلهما الإناء، ويقول: اللهم إني أسألك اليُمْن والبركة، وأعوذ بك من الشؤم والهلكة. وينوي رفع الحدث أو استباحة الصلوات، ويستديم النية إلى غسل الوجه.

ثم يأخذ غرفة لفيه بيمينه فيتمضمض بها ثلاثاً ويبالغ في المضمضة والاستنشاق، إلا أن يكون صائماً فيرفق، ويقول: اللهم أعنِّي على قراءة كتابك، وكثرة الذكر لك.

ثم يغرف لأنفه ويستنشق بغرفة واحدة ثلاثاً، ويستنثر ما فيه، ويقول فيه: اللهم أوجد لي رائحة الجنة وأنت عني راضٍ، ويقول في الاستنثار: اللهم إني أعوذ بك من روائح النار، ومن سوء الدار.

ثم يغرف غرفة لوجهه، ويغسل من مبتدأ سطح الجبهة إلى منتهى ما يقبل من الذقن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً، ولا يجب غسل النزعتين[٢] فهما من الرأس ويجب إيصال الماء إلى موضع التحذيف، وهو ما يعتاد النساء تنحية الشعر عنه، ويجب إيصال الماء إلى منابت الشعور الأربعة، وهي الشَّاربان والحاجبان والأهداب[٣] والعِذَاران[٤]، ويجب إيصال الماء إلى ما يقبل من الوجه إذا كانت اللحية خفيفة دون الكثيفة، وحكم العَنفقة[٥] كحكم اللحية في الكثافة والخفة، ويفيض الماء على ظاهر ما استرسل من اللحية، ويدخل الأصابع في محاجر العينين

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (٢٥)، وابن ماجه (٣٩٧) من حديث سعيد بن زيد، أحد العشرة، ونقل الترمذي عن البخاري أنه أحسن شيء في هذا الباب ا.هـ.

(٢) النَّزَعتين: مثنى نَزَعة، وهي موضع انحسار الشعر من جانبي الجبهة.

(٣) الأهداب: الشعر النابت على أجفان العين.

(٤) العِذَاران: مثنى عذار، وهو الشعر المحاذي للأذنين.

(٥) العَنفقة: الشعر المجتمع على الشفة السفلى.

وموضع الرَّمص[1] ومجتمع الكحل، وينقيهما، ويقول: اللهم بيض وجهي بنورك يوم تبيض فيه وجوه أوليائك، ولا تسوِّد وجهي بظلماتك يوم تسود وجوه أعدائك.

وتخليل اللحية مستحب.

ثم يغسل يديه مع المرفقين ثلاثاً، ويحرك الخاتم، ويطيل الغُرة[2]، فإنه روي أن الحلية تبلغُ موضع الوضوء، ويبدأ باليمنى، ويقول: اللهم أعطني كتابي بيميني، وحاسبني حساباً يسيراً. ويقول عند غسل الشمال: اللهم إني أعوذ بك من أن تعطيني كتابي بشمالي، أو من وراء ظهري.

ثم يستوعب رأسه بالمسح بأن يبلّ يديه ويلصِقَ رؤوس أصابع اليمنى باليسرى، ويضعهما على مقدم الرأس، ويُمرَّهما إلى القفا، ويردَّهما إلى المقدمة، هكذا يفعل ثلاث مرات، ويقول: اللهم غشِّني برحمتك، وأنزل عليَّ من بركتك، وأظلَّني تحت عرشك، يوم لا ظلَّ إلا ظلك.

ثم يمسحُ أذنيه ظاهرهما وباطنهما بماء جديد، فيدخل مسبحتيه في صِمَاخَي أذنيه، ويدير إبهاميه على ظاهر أذنيه، ثم يضع كفيه على الأذنين استظهاراً، ويكرره ثلاثاً، ويقول: اللهم اجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، اللهم أسمعني منادي الجنة مع الأبرار.

ثم يمسح رقبته، لقوله عليه الصلاة والسلام: «مسحُ الرَّقَبَةِ أَمَانٌ مِنَ الغُلِّ يوم القيامة»[3] ويقول: اللهم أعتق رقبتي من النار وأعوذ بك من السلاسل والأغلال، ثم يغسل رِجْلَهُ اليمنى ثلاثاً، ويخلل بخنصر يده اليسرى من أسفل أصابع الرجل اليمنى، ويبدأ من الخنصر من الرجل اليمنى، ويختم بالخنصر من اليسرى، ويقول: اللهم ثبِّت قدمي على الصراط يوم تزلُّ الأقدام في النار.

---

(١) **الرَّمص**: هو وسخ أبيض يجتمع في مآق العين وهو جانب العين من جهة الأنف.

(٢) **إطالة الغُرَّة**: هي غسل ما زاد على الفرض من الوجه من جهة الرأس والعنق، قال عليه الصلاة والسلام: «إن أمتي يدعون يوم القيامة غرّاً محجّلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل» رواه البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٦).

(٣) رواه الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف بلفظ: «**من توضأ ومسح يديه على عنقه أمن من الغُل يوم القيامة**»، وقال الإمام النووي: لا يصح في مسح الرقبة شيء ا.هـ.

ويقول عند غسل القدم اليسرى: اللهم إني أعوذ بك أن تزلَّ قدمي عن الصراط يوم تزل أقدام المنافقين[١]. ويرفع الماء إلى أنصاف الساقين.

فإذا فرغ قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ويقول: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، عملتُ سوءاً وظلمت نفسي، أستغفرك وأتوب إليك، فاغفر لي وتب عليّ، إنك أنت التواب الرحيم، اللهم اجعلني من التوَّابين، واجعلني من المتطهرين، واجعلني من عبادك الصالحين، واجعلني صبوراً شكوراً، واجعلني أذكرك ذكراً كثيراً، وأسبحك بكرةً وأصيلاً[٢]. فمن فعل هذا ختم على وضوئه بخاتم، ورفع له تحت العرش يسبح الله تعالى ويقدسه، ويكتب له ثوابه إلى يوم القيامة.

ويكره في الوضوء أن يزيد على الثلاث، وأن يسرف في الماء، ويكره أن ينفض اليد فيرشَّ الماء، وأن يتكلم في أثناء الوضوء.

كيفية الغُسل: أن يستنجي ويتوضأ كما سبق، ويؤخر غسل الرجلين، فيصب الماء على شقه الأيمن، ثم على شقه الأيسر ثلاثاً، ثم يدلك ما أقبل من بدنه وما أدبر، ويخلل الشعر، ويوصل الماء إلى منابت الشعر خفَّ أو كَثُف، فإن تحت كل شعرة جنابة، وليس على المرأة أن تنقض الضفائر إلا إذا علمت أن الماء لا يصل إلى خلالها، ويتحفظ أن لا يمس الذكر فينتقض الوضوء، وليتعهد معاطف البدن، ولا ينسى النية في ابتداء الغسل.

والواجب في الوضوء: النية، وغسل الوجه، وغسل اليدين إلى المرفقين، والمسح[٣]، وغسل الرجلين إلى الكعبين، والموالاة ليست بواجبة[٤].

---

(١) قال الإمام النووي رحمه الله: (وأما الدعاء على أعضاء الوضوء فلم يجئ فيه شيء عن النبي ﷺ، وقد قال الفقهاء: يستحب فيه دعوات جاءت عن السلف) اهـ (الأذكار).

(٢) أخرج مسلم (٢٣٤)، والترمذي (٥٥) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من توضأ فقال: أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء**» وزاد الترمذي فيه «**اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين**».

(٣) الواجب مسح بعض الرأس.

(٤) تستحب الموالاة في الوضوء والغسل ولا تجب فيهما، والموالاة: أن لا يجعل زمناً فاصلاً بين غسل عضو وآخر بحيث يجف الأول قبل غسل الثاني.

والأغسال الواجبة أربعة: الغسل بخروج المني، والتقاء الختانين، والحيض، والنفاس، وما عداها من الأغسال سنة، كغسل الجمعة، والعيدين، والإحرام، والوقوف بعرفة، ومزدلفة، ودخول مكة، وثلاثة أغسال أيام التشريق، ولطواف الوداع على قول، والكافر إذا أسلم غير جنب، والمجنون إذا أفاق، ولمن غسّلَ ميتاً، فالكل مستحب، فافهم تغنم.

كيفية التيمم: من تعذر عليه استعمال الماء لفقده بعد الطلب، أو بمانع له عن الوصول إليه من سبُع وحائل وحابس، أو كان الماء الحاضر يَحتاج إليه لعطشه أو عطش رفيقه، أو كان ملكاً لغيره ولم يُبَع إلا بأكثر من ثمن مثله، أو كان به جراحة أو مرض يخاف من استعمال الماء فسادَ العضو أو شدة الضَّنا، فيصبر حتى يدخل عليه وقت الصلاة، ثم يقصد صعيداً طيباً عليه تراب طاهر خالص ليّن، ويضرب عليه يديه ضامّاً بين أصابعه، وينوي استباحة الصلاة، ويمسح بهما وجهه كله مرة واحدة، ولا يتكلف إيصال التراب إلى منابت الشعور بحال، ويستوعب بشرة وجهه بالتراب والغبار، ويحصل ذلك بالضربة الواحدة، فإنَّ عرْض الوجه لا يزيد على عرض الكفين، ثم ينزع خاتمه، ويضرب ضربة ثانية لليد يفرج بين أصابعه، ثم يلصق ظهور أصابع يده اليمنى ببطون أصابع يده اليسرى بحيث لا تُجاوز أطراف الأنامل من إحدى الجهتين عرض المسبِّحة من الأخرى، ثم يُمرُّ يده اليسرى من حيث وضعها على ظاهر ساعد اليمنى إلى المرفق، ثم يقلب كفه اليسرى على باطن ساعد اليمنى، ويمرها إلى الكوع، ويمر بطن إبهامه اليسرى على ظهر إبهامه اليمنى، ثم يفعل باليد اليسرى كذلك، ثم يمسح كفيه، ويخلل بين أصابعه، وغرض هذا التكلف الاستيعاب بضربة واحدة، ولا بأس بأن يستوعب بضربتين وزيادة إن تعذر بضربة.

وله أن يصلي بالتيمم فرضاً واحداً وما شاء من النوافل.

(فصل):

يستحب التنظيف من الأوساخ التي تكون على الرأس، وفي الأذن، وفي الأنف، وتنظيف الرَّواجب وهي: رؤوس الأنامل، وما تحت الأظفار من الوسخ.

ويكره تأخير تقليم الأظفار، ونتف الإبط، وحلق العانة لأكثر من أربعين يوماً.

ويدخل الحمام بشرط أن يستر عورته، ويحترز من الاطلاع على عورات الناس، وينوي بالدخول التنظيف لأجل الصلاة، ويقول عند دخوله ما يقول عند دخول بيت الماء، وكذلك عند الخروج.

إذا أراد تقليم الأظفار ابتدأ بمسبِّحَة يده اليمنى، ويختم بإبهامه اليمنى، وابتدأ في اليسرى بالخنصر إلى الإبهام، وينبغي أن يكتحل وتراً، وروي أنه عليه الصَّلاة والسَّلام: «كان يكتحل في اليمنى ثلاثاً، وفي اليسرى اثنين، ليكون الجميع وتراً»[1].

ولا ينبغي أن يكون فعل من أفعالك خالياً عن نوع ترتيب بحسب الاتفاق، فهو الفرق بين البهائم والآدمي، فالبهيمة تتحرك كيفما اتفق، والآدمي كيفما أمر.

وختان الولد ينبغي أن يتأخر عن اليوم السابع من الولادة مخالفةً لليهود، قال عليه الصلاة والسلام: **«الختان سنة الرجال، ومكرمة النساء»**[2].

قال النخعي[3]: عجبت لرجل عاقل طويل اللحية، كيف لا يأخذ من لحيته فيجعلها بين لحيتين، فإن التوسط في كل شيء حسن.

ويكره في اللحية الخضاب بالسواد، والتبييض بالكبريت، ونتف الشيب منها، والنقصان منها، والزيادة، وتسريحهما تصنعاً للرياء، وتركها شعثة إظهاراً للزهد.

قال كعب[4]: يكون في آخر الزمان أقوام يقصون لحالهم كذنب الحمامة، ويعرقبون نعالهم كالمناجِل، أولئك لا خلاق لهم.

---

(١) رواه الطبراني [في الأوسط (٨٨٠)، وفي الكبير (١٣٣٥٣)] عن ابن عمر بإسناد ضعيف، والأولى ما رواه الترمذي (١٧٥٧) وابن ماجه (٣٤٩٩) من حديث ابن عباس أنه عليه الصلاة والسلام كان يكتحل في كل واحدة ثلاثاً. قال الترمذي: حديث حسن.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (٥/ ٧٥)، والبيهقي [في السنن (٨/ ٣٢٥)] من رواية أبي مليح بن أسامة عن أبيه بإسناد ضعيف اهـ. ورواه الطبراني في الكبير (٧١١٢) وابن عدي (١١٤).

(٣) هو: **إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعي**، أبو عمران الكوفي، فقيه أهل الكوفة، أدرك جماعة من أصحاب النبي ﷺ، كان رجلاً صالحاً فقيهاً متوقياً قليل التكلف، مات وهو متخفٍ من الحَجَّاج سنة ٩٦هـ «تهذيب الكمال» (٢/ ٢٤٠).

(٤) هو: **كعب بن ماتع الحميري، المعروف بكعب الأحبار**، من مسلمة أهل الكتاب، أدرك النبي ﷺ، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه. توفي سنة ٣٢هـ «تهذيب الكمال» (٢٤/ ١٨٩).

الباب الرابع

في أسرار الصلاة ومهماتها

وفيه فصول

فصل في فضائل الصلوات والسجود والجماعة والأذان وغيرها

فضيلة الأذان:

قال عليه الصلاة والسلام: «**ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك أذفر، ولا يهمهم حساب، ولا ينالهم فزع، حتى يفرغ مما بين الناس: رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله تعالى، ورجل ابتلي بالرِّق في الدنيا فلم يشغله ذلك عن عمل الآخرة، ورجل أذَّن للصلاة**»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**يد الرحمن على رأس المؤذِّن حتى يفرُغ من أذانه**»(٢).

وقيل: المراد من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (١٩٨٦) وحسّنه من حديث ابن عمر مختصراً، وهو في المعجم الصغير للطبراني [(١١١٦) والأوسط (٩٢٨٠)] بنحو ما ذكره المؤلف اهـ.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني [في الأوسط (١٩٨٧)]، والحسن بن سعيد في مسنده من حديث أنس بإسناد ضعيف ا.هـ.

[فصلت: ٣٣] المؤذنون، فإذا سمعت الأذان فقل مثل ما يقول المؤذن، إلا في الحيعلتين[١] فإنك تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، وفي قوله قد قامت الصلاة: أقامها الله وأدامها ما دامت السماوات والأرض، وفي التثويب[٢]: صَدَقْتَ وبَرِرْتَ، وعند الفراغ: اللهم ربّ هذه الدعوة التّامّة، والصلاة القائمة، آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة، والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود الذي وعدته.

فضيلة المكتوبة: قال عليه الصلاة والسلام: «**الصلوات كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر**»[٣].

وقال ﷺ: «**بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح، لا يستطيعونهما**»[٤].

وقال ﷺ: «**الصلاة عماد الدين، فمن تركها فقد هدم الدين**»[٥].

ويروى أن أول ما يُنظر فيه يوم القيامة من عمل العبد الصلاة، فإن وجدت تامة قُبِلت منه وسائر عمله، وإن وجدت ناقصة ردَّت عليه وسائر عمله.

فضيلة إتمام الأركان: قال عليه الصلاة والسلام: «**مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى**»[٦].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الرجلين من أمتي ليقومان إلى الصلاة**

---

(١) **الحيعلتين:** قول المؤذن: حي على الصلاة، حي على الفلاح.

(٢) **التثويب:** قول المؤذن في صلاة الفجر: الصلاة خير من النوم.

(٣) رواه مسلم (٢٣٣).

(٤) رواه الإمام مالك (١/ ١٣٠) من رواية سعيد بن المسيب مرسلاً.

(٥) قال الحافظ العراقي: رواه البيهقي في الشعب (٢٨٠٧) بسند ضعفه من حديث عمر، قال الحاكم: عكرمة لم يسمع من عمر، وقال: وورواه ابن عمر ولم يقف عليه ابن الصلاح فقال في (مشكل الوسيط): إنه غير معروف ا.هـ.

(٦) قال الحافظ العراقي: رواه ابن المبارك في الزهد (١١٩٠) من حديث الحسن مرسلاً، وأسنده البيهقي في (الشعب) من حديث ابن عباس بإسناد فيه جهالة اهـ. [وورواه القضاعي في مسند الشهاب (١٣٨٣) وابن عدي في الكامل (١٥٣٥)].

وركوعهما وسجودهما واحد، وإنَّ ما بين صلاتيهما ما بين السماء والأرض»[1]، وأشار إلى الخشوع.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**أسوأ الناس سرقةً من سرق من صلاته**»[2].

فضيلة الجماعة: قال عليه الصلاة والسلام: «**صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذّ بسبع وعشرين درجة**»[3].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «من سمع المنادي ولم يجب لم يُرِد خيراً، ولم يُرَد به».

وقال عليه الصلاة والسلام: «**من صلى أربعين يوماً الصلاة في جماعة، لا يفوته فيها تكبيرة الإحرام، كتب الله له براءتين، براءة من النفاق، وبراءة من النار**»[4].

فضيلة السجود: وقال عليه الصلاة والسلام: «**ما تقرَّب العبد إلى الله تعالى بشيء أفضل من سجود خفي**»[5].

ورُوي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: «**ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك، وأن يرزقني مرافقتك في الجنة، قال: أعنِّي بكثرة السجود**»[6].

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن المحبر في (العقل) من حديث أبي أيوب الأنصاري بنحوه وهو موضوع، ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن ابن المحبر اهـ.

(٢) رواه أحمد (٥/ ٣١٠)، والحاكم (١/ ٢٢٩) وصحح إسناده من حديث أبي قتادة وأبي هريرة ووافقه الذهبي.

(٣) رواه البخاري (٦٤٥)، ومسلم (٦٥٠) من حديث ابن عمر.

(٤) رواه الترمذي (٢٤١) من حديث أنس بإسناد رجاله ثقات، وقال ابن حجر: رواه الترمذي بسند منقطع ومع ذلك يعمل به في فضائل الأعمال اهـ.

(٥) قال الحافظ العراقي: أخرجه ابن المبارك في (الزهد) (١٥٤) من حديث ضمرة بن حبيب مرسلاً اهـ. وقال الحافظ العراقي في موضع آخر: هذا حديث لا يصح اهـ.

(٦) روى مسلم (٤٨٩) من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي نحوه، وهو الذي سأله.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «**أقرب ما يكون العبد إلى الله تعالى إذا سجد، فأكثروا الدعاء عند ذلك**»[1]. ١٤

فضيلة الخشوع: قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إنما الصلاة تمسْكنٌ وتواضعٌ وتضرعٌ وتأسفٌ وندمٌ، وتضع يديك فتقول: اللهم، اللهم، فمن لم يفعل فهي خِداج خِداج**»[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إذا صليت صلاةً، فصل صلاة مودِّع**»[3]، أي مودِّع لنفسه، مودع لهواه، سائر إلى مولاه.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً**»[4]. ١٧

واعلم أن الصلاة مناجاة، فكيف تمكن مع الغفلة، وقال عليه الصلاة والسلام: «**لا ينظر الله تعالى إلى صلاة لم يُحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه**»[5]، ١٨ وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام إذا قام إلى الصلاة سُمِعَ وجيب قلبه من ميلين.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٤٢) من حديث أبي هريرة مرفوعاً بنحوه.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (٣٨٥)، والنسائي في الكبرى (٦١٥) بنحوه من حديث الفضل ابن عباس بإسناد مضطرب اهـ.

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه ابن ماجه (٤١٧١) من حديث أبي أيوب، والحاكم (٤/٣٢٦) من حديث سعد بن أبي وقاص، وقال: صحيح الإسناد، [وأقره الذهبي] والبيهقي في (الزهد) من حديث ابن عمر ومن حديث أنس بنحوه اهـ.

(٤) رواه البيهقي في «الشعب» (٣٢٦٢)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٥٠٨)، وقال الحافظ العراقي: رواه علي بن معبد في كتاب (الطاعة والمعصية) من حديث الحسن مرسلاً بإسناد صحيح، ورواه الطبراني في الكبير (١١٠٢٥) وأسنده ابن مردويه في تفسيره من حديث ابن عباس بإسناد ليّن، والطبراني [في الكبير (٨٥٤٣)] من قول ابن مسعود: «**من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر**» الحديث وإسناده صحيح ا.هـ.

(٥) قال الحافظ العراقي: لم أجده بهذا اللفظ، وروى حمد بن نصر في كتاب «الصلاة» من رواية عثمان بن أبي دهرش مرسلاً: «لا يقبل الله من عبد عملاً حتى يشهد قلبه مع بدنه» ورواه أبو منصور الديلمي في «مسند الفردوس» من حديث أبي بن كعب وإسناده ضعيف اهـ.

فضيلة بناء المسجد: قال عليه الصلاة والسلام: «**من بنى مسجداً لله ولو كمَفحَص قطاة بنى الله له قصراً في الجنَّة**»[1].

وقال الله تعالى: «**إن بيوتي في أرضي المساجد، وإن زوَّاري فيها عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته، ثم زارني في بيتي، فحقٌّ على المزور أن يكرم زائره**»[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان**»[3].

قال أنس رضي الله عنه: من أسرج سراجاً في المسجد لم تزل الملائكة وحملة العرش يستغفرون له، ما دام في ذلك المسجد ضوؤه[4].

فصل في كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة:

ينبغي للمصلي إذا فرغ من الوضوء وطهارة الخبث والقلب والمكان، ومن ستر العورة من السرة إلى الركبة، أن ينتصب قائماً متوجهاً إلى القبلة، ويراوح بين قدميه، ولا يضمهما ألبتة، فإنه عليه الصلاة والسلام نهى عن الصَّفْنِ والصَّفَد في الصلاة، والصفد: هو إقران القدمين معاً، ومنه قوله تعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم: ٤٩]، والصفن: هو رفع إحدى الرجلين، ومنه قوله عز وجل: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾ [ص: ٣١].

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن ماجه (٧٣٨) من حديث جابر بسند صحيح وابن حبان (١٦١٠) و(١٦١١) من حديث أبي ذر، وهو متفق عليه [البخاري (٤٥٠)، مسلم (٥٣٣)] من حديث عثمان دون قوله: «**ولو كمفحص قطاة**» ا.هـ. ورواه القضاعي في [مسند الشهاب (٤٧٩)].

(٢) قال الحافظ العراقي: روى أبو نعيم (١٠/ ٢١٣) من حديث أبي سعيد بسند ضعيف: «**يقول الله عز وجل يوم القيامة: أين جيراني؟ فتقول الملائكة: من هذا الذي ينبغي له أن يجاورك، فيقول: أين قراء القرآن وعمار المساجد؟**» وهو في «الشعب» (٢٩٤٣) بنحوه موقوفاً على أصحاب رسول الله ﷺ بإسناد صحيح، وأسند ابن حبان في «الضعفاء» (٦٥٢) آخر الحديث من حديث سلمان وضعفه اهـ.

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (٣٠٩٢) وحسنه، وابن ماجه (٨٠٢)، والحاكم (١/ ٢١٢) و(٢/ ٣٣٢) وصححه من حديث أبي سعيد [ووافقه الذهبي]. اهـ.

(٤) «النوافح العطرة في الأحاديث المشتهرة» (٢٠٣٠).

ويطرق رأسه، ويقصرَ بصره على مصلاه، ويحضر النية، ولا بأس بقراءة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١﴾ [الناس: ١] تحصناً بها من الشيطان، وينوي في الظهر - مثلاً - ويقول بقلبه: أؤدي فرض الظهر لله، ليميز بقوله: (أؤدي) عن القضاء، وبقوله: (الظهر) عن العصر، وبـ(الفرض) عن النفل، ويجتهد في استدامة ذلك إلى آخر التكبير، ويحاذي بكفيه منكبيه، وبإبهاميه شحمة أذنيه، وبرؤوس أصابعه رؤوس أذنيه، فذلك جمع بين الأخبار الواردة، ولا يتكلف في أصابعه ضماً ولا تفريجاً، ويكبر مع حضور النية كما سبق، ويرسل يديه مع التكبير، ويضع اليمنى مع اليسرى فوق السرة وتحت الصدر، وتكون اليمنى كالمحمولة، وينشر المسبِّحة والوسطى من اليمنى على طول ساعد اليسرى، ويقبض بالبِنْصر والخِنْصر على كوع اليسار، ثم يبتدئ بدعاء الاستفتاح، وحسُن أن يقول عقيب قوله (الله أكبر): كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرةً وأصيلاً، ثمَّ يقرأ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾ [الأنعام: ٧٩]، ثم يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك، ثم يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ويبتدئ بقراءة الفاتحة بتمام تشديداتها وحروفها، ويجتهد في الفرق بين الضاد والظاء، ويقول: آمين، ويمدها، ولا يصل آمين بقوله: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

ويقرأ في الصبح بطوال المفصل(١)، وفي المغرب بقصاره(٢)، وفي الباقي من الصلوات نحو: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١﴾ [الطارق: ١]، ونحو: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١﴾ [البروج: ١] وما قاربها، وفي الصبح في السفر: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١]، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] وكذلك في ركعتي الفجر والطواف والتحية.

الركوع: ثم يركع فيراعي فيه أموراً: أن يكبر للركوع، وأن يرفع يديه مع تكبيرة الركوع، ويمد التكبير مداً إلى الانتهاء إلى الركوع؛ ويضع راحتيه على ركبتيه،

---

(١) **طوال المفصَّل**: من سورة الحجرات إلى سورة عم.

(٢) **قصار المفصَّل**: من سورة الضحى إلى آخر المصحف.

وأصابعه منشورة على طول الساق، وينصب ركبتيه، ويمد ظهره مستوياً، فيكون عنقه وظهره ورأسه كالصفيحة الواحدة، وأن يجافي مرفقيه عن جنبيه، بخلاف المرأة، ويسبح ثلاثاً والزيادة حسن للمنفرد، ثم يرتفع إلى القيام، وينتصب مطمئناً، قائلاً: سمع الله لمن حمده، ويقول: ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد، ولا يطول هذا القيام إلا في صلاة الصبح للقنوت.

السجود: ثم يهوي إلى السجود مكبِّراً، مادّاً تكبيره إلى الانتهاء إلى السجود، فيضع ركبتيه وجبهته، ويضع كفيه مكشوفتين على الأرض، ويضع أولاً ركبتيه ثم يديه، ويضع أنفه مع جبهته، ويجافي مرفقيه عن جنبيه، بخلاف المرأة، ويفرّج بين رجليه، ولا تفعل المرأة ذلك، ويكون مخوِّياً[1] ولا تكون المرأة مخوِّيةً، ويضع يديه على الأرض حذاء منكبيه، ولا يفرج بين الأصابع، ولا يفرش ذراعيه على الأرض، كما يفرش الكلب، فإنه منهي عنه، ويقول: سبحان ربي الأعلى (ثلاثاً) ولا بأس بالزيادة للمنفرد، ثم يرفع رأسه من السجود مكبراً، فيطمئن جالساً على رجله اليسرى، وينصب قدمه اليمنى، ويضع يديه على فخذيه، ولا يتكلف ضم الأصابع، ويقول: «رب اغفر لي وارحمني وارزقني واهدني وعافني واعف عني»[2] ويأتي بالسجدة الثانية كما سبق، ويستوي منها جالساً جلسة خفيفة للاستراحة، ثم يقوم فيضع اليد على الأرض، ولا يقدم إحدى رجليه، ويمد التكبير إلى الانتهاء إلى القيام.

التشهد: ثم يتشهد في الركعة الثانية، وفي التشهد الأول يجلس على الرجل اليسرى، ويصلي على النبي ﷺ، وتكون أصابع يده اليمنى مقبوضة إلا المسبحة، فيشير بها عند قوله: إلا الله، وفي التشهد الأخير يستكمل الدعاء المأثور، ويجلس على وَرِكه الأيسر، ويقول عند الفراغ: السلام عليكم ورحمة الله، ويلتفت يميناً بحيث يُرى خده، وكذلك يفعل شمالاً، وينوي الخروج من الصلاة بالسلام، وينوي السلام على مَنْ عن يمينه ويساره من الملائكة والمسلمين، ولا يمد السلام.

---

(١) **مخوِّياً**: خوَّى في سجوده تَخْوِيةً: تجافى وفرج ما بين عضديه وجنبيه. (القاموس).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢٥٨٣)، والترمذي (٢٨٤)، وأبو داود (٨٥٠).

تمييز الفرائض والسنن: الفرض من جملة ما ذكرناه اثنا عشر[1]:

النية، وقول: الله أكبر، والقيام، والفاتحة، والانحناء في الركوع إلى أن تنال راحتاه ركبتيه مع الطمأنينة، والاعتدال عنه قائماً، والسجود مع الطمأنينة[2]، والاعتدال عنه قاعداً، والجلوس للتشهد الأخير، والتشهد الأخير، والصلاة على رسول الله ﷺ، والسلام الأول.

فصل في الشروط الباطنة من أعمال القلب:

فمنها الخشوع، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**كم من قائم حظه من صلاته التعب والنَّصب**»[3].

واعلم أن الصلاة إنما هي ذكر وقراءة ومناجاة ومحاورة، وذلك لا يكون إلا بحضور القلب، وتمامه يحصل بالتفهيم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء، وعلى الجملة كلما زاد العلم بالله زادت الخشية، وحصل الحضور، فإذا سمعت الأذان ينبغي أن تستحضر القلب هول النداء يوم القيامة، وتتشمر بظاهرك وباطنك للإجابة والمسارعة، فإنَّ المسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر، فإن وجدت قلبك مملوءاً بالفرح والاستبشار مشغوفاً إلى الابتدار فستكون في ذلك النداء مثل ذلك، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «**أرحنا يا بلال**»[4] إذ كانت قرة عينه في الصلاة.

والطهارة طهارة السرِّ عما سوى الله، فبها تتم هذه الصلاة، وإنك إن سترت

---

(١) ويضاف إليها الترتيب فتكون مجموعة أركان الصلاة ثلاثة عشر ركناً.

(٢) تجب الطمأنينة في كل أفعال الصلاة، في الركوع، والاعتدال منه، والسجود، والجلوس بين السجدتين.

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه النسائي [في الكبرى (٣٢٤٩)]، وابن ماجه (١٦٩٠) من حديث أبي هريرة: «**رب قائم ليس له من قيامه إلا السهر**»، ولأحمد (٢/ ٣٧٣): «**رب قائم حظه من صلاته السهر**» وإسناده حسن.

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه الدارقطني في العلل (٤٦١) من حديث بلال، ولأبي داود (٤٩٨٦) نحوه من حديث رجل من الصحابة لم يسم، بإسناد صحيح ا.هـ.

العورة بالثياب فما الذي يستر عورتك في الباطن عن الله، فتأدب بين يدي الله تعالى.

واعلم أنه يطلع عليك وعلى سرك فتواضع بظاهرك وباطنك، وانظر لو قمت بين يدي مَلِكٍ كيف تكون، ولا نسبة بينه تعالى وتقدس وبين الملوك، فالكل عبيده، فإذا فعلتَ ذلك فلا تكون كاذباً في قولك: وجهت وجهي، وفي قولك: حنيفاً مسلماً، وما أنا من المشركين، وقولك: صلاتي ونُسُكي ومحيَايَ ومماتي لله، فانظر، فلا ينبغي أن يكون هذا كذباً، فيكون سبب هلاكك، وينبغي أن تذكُرَ كبرياء الله وعظمته عند ركوعك وسجودك، وتعلم ذلك وصَغَارَكَ، والله برحمته أهَّلَكَ لمناجاته، فلا أقلَّ من التأدب وإحضار القلب بين يديه، قال ﷺ: «**إن الله تعالى مقبل على المصلي ما لم يلتفت**»[1] فاحفظ ظاهرك وباطنك عن الالتفات، وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن العبد ليصلي ولا يكتب له من صلاته، لا نصفها، ولا ثلثها، ولا ربعها، ولا خمسها، ولا سدسها، ولا عشرها، وإنما يكتب للرجل من صلاته ما عقل منها**»[2].

وقال بعضهم: إن العبد يسجد السجدة، عنده أنه تقرب بها إلى الله تعالى، ولو قسمت ذنوبه في سجدته على أهل مدينته لهلكوا، قيل: وكيف ذلك؟ قال: يكون ساجداً عند الله تعالى وقلبه مصغ إلى هوى، ومشاهد لباطل قد استولى عليه.

فصل في القدوة والإمامة:

قال عليه الصلاة والسلام: «**الأئمة ضمناء**»[3].

ولا ينبغي أن يتقدم على قوم يكرهونه، وما دام يقدر المريد على اختيار الأذان

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه أبو داود (٩٠٩)، والنسائي (٣/٨)، والحاكم (١/٢٣٦) وصحح إسناده من حديث أبي ذر، [ووافقه الذهبي]. اهـ.

(٢) رواه أبو داود في الصلاة (٧٩٦)، ورواه الإمام أحمد في مسنده عن عمار بن ياسر (٤/٣٢١).

(٣) رواه أبو داود (٥١٧)، والترمذي (٢٠٧) من حديث أبي هريرة، ورواه أحمد (٥/٢٦٠) من حديث أبي أمامة، ولفظهم جميعاً: «**الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن**».

لا يختار الإمامة، فإنه أسلم، والأصح أن الإمامة أفضل لمن يستقل بأعبائها، ولذلك داوم عليه الصلاة والسلام عليها.

وينبغي أن يراعي أوقات الصلاة، فيصلي في أوائل الأوقات، فأول الوقت رضوان الله، وآخره عفو الله، ورضوان الله أولى من عفو الله.

وينبغي أن يكون له ثلاث سكتات، هكذا نقل عنه ﷺ[1]، أولها عند الإسرار بدعاء الاستفتاح، وهي الأولى، والثانية بعد قراءة الفاتحة، وقبل افتتاح السورة، وهي نصف الأولى، والثالثة بعد الفراغ من السورة، وقبل الهوي للركوع، وهي أخفها، ولا ينبغي أن يسابق المأمومُ الإمامَ، بل لا يهوي للركوع ما لم يستقر الإمام في الركوع، وهكذا في جميع الأركان.

وقيل: إن الناس يخرجون من الصلاة على ثلاثة أقسام: طائفة بخمس وعشرين صلاة، وهم الذين يكبرون ويركعون بعد ركوع الإمام، وطائفة بصلاة واحدة، وهم الذين يساوونه، وطائفة بلا صلاة، وهم الذين يسبقون الإمام.

وقد اختلفوا في أن الإمام هل ينتظر في ركوعه لحوق من دخل لينال فضل الجماعة؟ ولعل الأولى أنه لا بأس به مع الإخلاص إذا لم يظهر تفاوت ظاهر.

ويقول في قنوت صلاة الصبح: «اللهم اهدنا . . .» والقوم يُؤَمِّنون إلى قوله: «إنك تقضي ولا يقضى عليك»[2] فإذا انتهى إليه فالقوم يوافقونه سراً في القراءة، أو يقولون: أشهد.

---

(١) روى أبو داود (٧٧٧)، وابن ماجه (٨٤٥) عن سمرة بن جندب قال: «حفظت سكتتين في الصلاة: سكتة إذا كبر الإمام حتى يقرأ، وسكتة إذا فرغ من فاتحة الكتاب وسورة عند الركوع، قال: فأنكر ذلك عليه عمران بن حصين، قال: فكتبوا في ذلك إلى المدينة إلى أبيّ فصدق سمرة». قال أبو داود: كذا قال حميد في هذا الحديث: وسكتة إذا فرغ من القراءة.

(٢) دعاء القنوت «اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شرَّ ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، وإنه لا يذلُّ من واليت، ولا يعزُّ من عاديت، تباركت ربنا وتعاليت، فلك الحمد على ما قضيت، أستغفرك وأتوب إليك» رواه أبو داود (١٤٢٥) والترمذي (٤٦٤)، والنسائي (٣/٢٤٨)، وابن ماجه (١١٧٨)، والبيهقي في السنن (٢/ ٢٠٩).

فصل في فضل الجمعة وآدابها وفرائضها وسننها:

قال النبيﷺ: «من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر طُبع على قلبه»[1] وفي لفظ آخر: «نبذ الإسلام وراء ظهره»[2].

وفي حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «أتاني جبرائيل عليه السلام، وفي كفه مرآة بيضاء، وقال: هذه الجمعة يفرضها عليك ربك لتكون لك عيداً ولأمتك من بعدك، قلت: فما لنا فيها؟ قال: لكم فيها خير ساعة، من دعا فيها بخير قُسِمَ له، أعطاه الله سبحانه إياه، أوْ ليس له قَسْمٌ ذخِرَ له ما هو أعظم منه، وهو سيد الأيام عندنا، ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيد، قلت: ولِمَ؟ قال: إن ربَّك عزَّ وجلَّ اتخذ في الجنة وادياً أفيح من مسك أبيض، فإذا كان يوم الجمعة نزل من عليين على كرسيه، فيتحلى لهم حتى ينظروا إلى وجهه»[3].

واعلم أنها لا تنعقد إلا بأربعين ذكراً مكلفين، أحراراً مقيمين، لا يظعنون عنه شتاءً ولا صيفاً.

وينبغي أن لا تكون الجمعة مسبوقة بأخرى إلا في بلدة كبيرة ظُنَّ تعذر اجتماع الناس في جامع واحد، فيجوز اثنان وثلاثة بقدر الحاجة.

والخطبتان فيها فريضتان، والقيام فيهما فريضة، والجلسة بينهما فريضة، وفي الأولى أربع فرائض: الأولى: التحميد، وأقله الحمد لله، والثانية: الصلاة على رسول الله ﷺ، والثالثة: الوصية بتقوى الله، والرابعة: قراءة آية من القرآن، وكذلك الثانية فرائضها أربعة إلا أنه يجب فيها الدعاء بدل القراءة.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٤٢٤) بلفظه، ورواه أبو داود (١٠٥٢)، والترمذي (٥٠٠)، والنسائي (٣/ ٨٨)، وابن ماجه (١١٢٥) بلفظ «من ترك الجمعة تهاوناً بها طبع على قلبه».

(٢) رواه أبو يعلى عن ابن عباس بلفظ «من ترك الجمعة ثلاث جمع متواليات فقد نبذ الإسلام وراء ظهره» قال الحافظ ابن حجر في التلخيص (٢/ ٥٣): رجاله ثقات اهـ. وقال الحافظ العراقي: رواه البيهقي في الشعب (٣٠٠٦) من حديث ابن عباس اهـ.

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه الشافعي في المسند (٢/ ٧٠)، والطبراني في الأوسط (٦٧١٧)، وابن مردويه في التفسير بأسانيد ضعيفة مع اختلاف اهـ.

واستماع الخطبتين واجب من الأربعين.

وأما السنن: فإذا زالت الشمس، وأذن المؤذن، وجلس الإمام على المنبر، انقطعت الصلاة سوى التحية، والكلام لا ينقطع إلا بافتتاح الخطبة.

ويستحب فيه الثياب البيض والطيب والغسل، والبكور مستحب، قال النبي ﷺ: «**من اغتسل يوم الجمعة غُسلَ الجنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرَّب بدنةً، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرَّب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرَّب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرَّب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرَّب بيضة، فإذا خرج الإمام طويت الصحف، ورفعت الأقلام، واجتمعت الملائكة عند المنبر يستمعون الذكر، فمن جاء بعد ذلك فإنما جاء لحقّ الصلاة، ليس له من الفضل شيء**»[1].

تفصيل الساعات: الساعة الأولى إلى طلوع الشمس، والثانية إلى ارتفاعها، والثالثة وإلى انبساطها، والرابعة والخامسة بعد الضحى الأعلى إلى الزوال.

وينبغي أن لا يتخطى رقاب الناس، ولا يمر بين أيديهم، ويجلس بحيث لا يمر أحد بين يديه، ويطلب الصف الأول، فإذا فرغ من الصلاة فيذكر الله كثيراً، ويحسن مراقبة الساعة التي في يوم الجمعة[2].

ويكثر الصلاة على رسول الله ﷺ، قال عليه الصلاة والسلام: «**أكثروا الصلاة عليَّ في الليلة الغراء واليوم الأزهر**»[3]، يعني يوم الجمعة وليلتها.

---

(١) قال الحافظ العراقي: متفق عليه [البخاري (٨٨١)، مسلم (٨٥٠)] من حديث أبي هريرة، وليس فيه: «**ورفعت الأقلام**» وهذه اللفظة عند البيهقي [في السنن (٣/٢٢٦)] من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده اهـ، ورواه الإمام مالك في الموطأ (١/١٠١).

(٢) روى البخاري (٩٣٥)، ومسلم (٨٥٢) أنه عليه الصلاة والسلام ذكر الجمعة فقال: «**فيها ساعة لا يوافقها عبد مسلم يصلي لله شيئاً إلا أعطاه**».

(٣) رواه البيهقي في الشعب (٣٠٣٤)، والطبراني في الأوسط (٢٤٣) عن أبي هريرة، وفي الباب ما رواه أبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (١٣٧٣)، وابن ماجه (١٠٨٥) بإسناد صحيح عن أوس بن أوس عن النبي ﷺ قال: «**إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي**».

ويستحب الصدقة في هذا اليوم خاصة، ويستحب أن لا يجلس إذا دخل المسجد حتى يصلي أربع ركعات، يقرأ فيهن مائتي مرة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[1]، وإن قدر على أن يجعل يوم الجمعة للآخرة فلا يشتغل فيه بشيء من أشغال الدنيا، فمن فعل فإنها كفارة لما بين الجمعتين، ورُوي أن من سافر في ليلة الجمعة دعا عليه ملكاه[2]، ويَحْرُمُ بعد طلوع الفجر إلا إذا كانت الرُّفقة تفوت.

(فصل) في النوافل:

ولا ينبغي أن يترك النوافل، فهي جوابر للفرائض، والفرض رأس المال، والنوافل بمنزلة الربح.

ولا يترك الرَّواتب كما عرف، ولا يترك صلاة الضحى، وهي ركعتان أو أربعة أو زيادة، ولا يترك التهجد وإحياء ما بين العشائين، وركعتي الصبح فإنهما خير من الدنيا وما فيها، ويدخل وقتهما بطلوع الصبح الصادق، وهو المستطير دون المستطيل[3].

(فصل) في صلاة العيدين:

وصلاة العيدين سنة مؤكدة، وشعار من شعائر الدين، ويراعى فيها عدة أمور:

الأول: التكبير ثلاثاً نسقاً، فيقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.

ويفتتح التكبير ليلة الفطر إلى الشروع في صلاة العيد، وتكبير يوم النحر يفتتح

---

(١) روي في ذلك أثر عن النبي ﷺ، قال الحافظ العراقي: أخرجه الخطيب في (الرواة) عن مالك من حديث ابن عمر، وقال: غريب جداً ا.هـ.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه الدارقطني في الأفراد من حديث ابن عمر وفيه ابن لهيعة، وقال: غريب، والخطيب في (الرواة) عن مالك من حديث أبي هريرة بسند ضعيف. اهـ.

(٣) الفجر الصادق هو الفجر المستطير، الذي ينتشر في الأفق ويزداد ضوؤه، وأما الفجر الكاذب فهو المستطيل في السماء، الذي يظهر ثم ينمحق، وتشبهه العرب بذنب السِّرحان (الذئب) لطوله.

عقب الصبح يوم عرفة إلى آخر النهار لليوم الثالث عشر، في أكمل الأقوال، ويكبر عقيب الصلاة المفروضة، وقيل: عقيب النوافل أيضاً.

ويستحب الغسل والتزين عند الخروج.

ويستحب إخراج الصبيان والعجائز.

ويستحب أن يخرج من طريق ويرجع من طريق.

ويستحب الخروج إلى الصحراء إلا بمكة وبيت المقدس إلا بعذر المطر.

ووقت الصلاة فيه ما بين طلوع الشمس إلى الزوال، ووقت الذبح للضحايا ما بين ارتفاع الشمس بقدر ركعتين وخطبتين إلى آخر يوم الثالث عشر، ويستحب تعجيل صلاة الأضحى لأجل الذبح وتأخير صلاة الفطر لأجل تفريق صدقة الفطر قبلها.

وليخرج الناس مكبرين، وإذا بلغ الإمام المصلى لا يجلس ولا يتنفل، وغيره يفعل، ويقطع الناس التنفل، وينادي منادٍ: الصلاة جامعة، ويصلي الإمام ركعتين يُكبِّر في الأولى سوى تكبيرة الإحرام والركوع سبعَ تكبيرات، ويقول بين كل تكبيرتين: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ويقول: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ عقيب تكبيرة الافتتاح، ويؤخر الاستعاذة إلى ما وراء الثامنة، ويقرأ بعد الفاتحة ﴿قٓ﴾ [ق: ١]، وفي الثانية ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١].

والتكبيرات الزائدة في الثانية خمسة، ويخطب بعد الصلاة خطبتين، بينهما جلسة.

ومن فاتته صلاة العيد قضاها، فإذا فرغ من الصلاة يشتغل بالتضحية، وقد ضحّى رسول الله ﷺ بكبش، وقال: **«بسم الله والله أكبر، هذا عنّي وعمن لم يضحِّ من أمتي»**(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: **«من رأى هلال ذي الحجة وأراد أن يُضحي فلا يأخذن من شعره ولا من أظفاره شيئاً»**(٢).

(١) رواه أبو داود (٢٨١٠).

(٢) رواه مسلم بنحوه (١٩٧٧).

فصل في صلاة الخسوف:

قال رسول الله ﷺ: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة**»[1].

فإذا خسف الشمس والقمر نودي: الصلاة جامعة.

ويصلي الإمام بالناس في المسجد ركعتين، فيركع في كل ركعة ركوعين، أوائلهما أطول من أواخرهما، ويجهر، ويستحب أن يمد الصلاة إلى انكشافهما.

فصل في صلاة الاستسقاء:

فيأمر الإمام الناس بصيام ثلاثة أيام، وما استطاعوا من الصدقة والتوبة والخروج من المظالم، ثم يخرج بهم اليوم الرابع وبالعجائز والصبيان متنظفين في ثياب بذلةٍ[2] واستكانة متواضعين، بخلاف صلاة العيد، ويصلي بهم ركعتين مثل صلاة العيد، ويخطب خطبتين بينهما جلسة خفيفة وليكن الاستغفار معظم الخطبتين، وينبغي في الخطبة الثانية أن يستدبر الناس، ويستقبل القبلة، ويحوِّل رداءه في هذه الحالة تفاؤلاً بتحويل الحال، هكذا فعل رسول الله ﷺ، فيجعل أعلاه أسفله، وما على اليمين على اليسار، وما على الشمال على اليمين، وكذلك يفعل الناس، ويدعون في هذه الحالة وفي هذه الساعة سراً، ثم يستقبلهم فيختم الخطبة، ويَدَعُون أرديتهم محوَّلة كما هي حتى ينزعوها متى نزعوا الثياب، ويقول: اللهم كما أمرتنا بدعائك ووعدتنا إجابتك، فقد دعوناك كما أمرتنا فأجِبنا كما وعدتنا، اللهم فامنُن علينا بمغفرة ما قارَفْنا، وإجابتك في سقيانا وسعة رزقنا، برحمتك يا أرحم الراحمين.



---

(١) رواه البخاري (١٠٤٣)، ومسلم (٩١٥).

(٢) **ثياب بِذْلَة**: ما تلبس في الخدمة والمهنة.

الباب الخامس

في أسرار الزكاة

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الآية [التوبة: ٣٤]، والمراد به منع الزكاة.

والزكاة إحدى مباني الإسلام، وإحدى أركانه الخمسة، قال أبو ذر: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة، فلما رآني قال عليه الصلاة والسلام: «**الأكثرون هم الأخسرون ورب الكعبة**» قلت: من هم؟ قال عليه الصلاة والسلام: «**الأكثرون أموالاً إلا من قال: هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، وقليل ما هم، ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدِّي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنها، تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها، كلما نفذت أخراها عادت إليه أولاها، حتى يُقضى بين الناس**»، وهذا الحديث في الصحيحين مخرج[1]. والله أعلم.

فصل وأسباب وجوب الزكاة باعتبار متعلقاتها ستة:

زكاة النَّعم، والنقدين، والتجارة، وزكاة الرِّكاز والمعادن، وزكاة المعشَّرات، وزكاة الفطر.

(١) رواه البخاري (٦٦٣٨)، مسلم (٩٩٠).

الأول: زكاة النَّعم: ولا تجب هذه الزكاة وغيرها إلا على حُرٍّ مسلم، ولا يشترط البلوغ، فتجب في مال الصبي والمجنون.

وأما المال فشروطه خمسة: أن يكون نَعَماً سائمةً[1]، باقيةً حولاً نصاباً كاملاً مملوكاً على الكمال.

فالأول: أن يكون نَعَماً، فلا زكاة إلا في الإبل والبقر والغنم، وأما المتولد من الشاة والظباء[2]، والخيل والحمير فلا زكاة فيها.

الثاني: السوم، فلا زكاة في معلوفة.

وينبغي أن يكون نصاباً كاملاً.

أما الإبل: فلا شيء فيها حتى تبلغ خمساً، وفيها شاة جَذَعة من الضأن، وهي التي تكون في السنة الثانية، أوثنيَّة من المعز، وهي التي تكون في السنة الثالثة، وفي عشر شاتان، وفي خمس عشرة ثلاث شياه، وفي عشرين أربع شياه، وفي خمس وعشرين بنت مخاض، وهي التي في السنة الثانية، فإن لم تكن في ماله فابن لبون ذَكَر، وهو الذي في السنة الثالثة، يؤخذ وإن كان قادراً على شرائها، وفي ست وثلاثين بنت لبون، ثم إذا بلغت ستاً وأربعين ففيها حِقَّة، وهي التي في السنة الرابعة، فإذا صارت إحدى وستين ففيها جَذَعة، وهي التي في السنة الخامسة، فإذا صارت ستاً وسبعين ففيها بنتا لبون، فإذا صارت إحدى وتسعين ففيها حِقَّتان، فإذا صارت إحدى وعشرين ومائة ففيها ثلاث بنات لبون، فإذا صارت مائة وثلاثين فقد استقر الحساب، ففي كل أربعين بنت لبون، وفي كل خمسين حقة.

وأما البقر: فلا شيء فيها حتى تبلغ ثلاثين، ففيها تبيع، وهو الذي طعن في السنة الثانية، ثم في أربعين مُسنَّة، وهي التي طعنت في السنة الثالثة، ثم في الستين تبيعان، واستقر الحساب، ففي كل أربعين مُسنَّة، وفي كل ثلاثين تبيع، والله أعلم.

وأما الغنم: فلا زكاة فيها حتى تبلغ أربعين، ففيها شاة جذعة من الضأن أو ثنيَّة

---

(١) **السائمة**: هي التي ترعى من الكلأ المباح، فلو علفها زماناً لا تعيش دونه لو تركت الأكل سقطت الزكاة.

(٢) المراد المتولد من بينها.

من المعز، ثم لا شيء فيها حتى تبلغ مائة وعشرين وواحدة ففيها شاتان، إلى مائتين وواحدة ففيها ثلاث شياه، إلى أربعمائة ففيها أربع شياه، ثم استقر الحساب، ففي كل مائة شاة.

وصدقة الخليطين: كصدقة المالك الواحد في النُّصُب، وشرط الخلطة: أن يكونا في جميع الأحوال معاً[1]، وخلطة الجوار كالشيوع.

أما المعشَّرات: فيجب العشر في كل مستنبت مقتات[2] بلغ ثمانمائة مَنٍّ[3].

وأما زكاة النقدين: فإذا تمّ الحول على مائتي درهم[4] بوزن مكة نقرة خالصة ففيها خمسة دراهم، وأما نصاب الذهب فعشرون ديناراً[5] خالصة بوزن مكة، ففيها ربع العشر، وما زاد في الذهب والفضة ولو دانقاً فبحسابه.

وتجب الزكاة في التبر والحلي المحظور، ولا زكاة في شيء من المعادن إلا في الذهب والفضة ففيها بعد الحفر والتحصيل وبعد الطحن والتخليص ربع العشر على أصح القولين، وهل يعتبر النصاب؟، وفي الحول قولان، وفي قول يجب الخمس، فعلى هذا لا يتعين الحول، وفي النصاب قولان.

وأما صدقة الفطر: فهي واجبة على لسان رسول الله ﷺ على كل مسلم فَضَلَ عن قوته وقوت من يقوته يوم الفطر وليلته صاعٌ[6] مما يقتات بصاع رسول الله ﷺ، وهو مَنَوَان وثلثا مَنٍّ، يخرجه من جنس قوته أو أفضل منه، وقسمتها كقسمة زكاة الأموال، قال النبي ﷺ: **«أدوا زكاة الفطر عمن تمونون»**[7]. (٢)

(١) أن يشتركا معاً في المراح، والمسرح، والمرعى، والمشرب، وموضع الحلب، والفحل، والراعي.

(٢) ما يستنبته الآدميون ويُيَبس ويُدَّخر، كحنطة وشعير وذرة وأرز وعدس وحمص ونحوها.

(٣) المن: يقدر بـ (٢٦٠) درهماً، ويساوي (٨١٢,٥) غرام، وعليه (٨٠٠) منّ تساوي (٦٥٠) كغ.

(٤) **الدرهم**: (٣,١٢٥)غ، وعليه (٢٠٠) درهم تساوي (٦٢٥)غ.

(٥) **الدينار**: (٤,٢٣١)غ، وعليه (٢٠) ديناراً تساوي (٨٤,٦٢)غ.

(٦) **الصاع**: أربعة أمداد، ويساوي تقريباً (٤,٢١) لتر.

(٧) قال الحافظ العراقي: رواه الدارقطني (١٢)، والبيهقي في السنن (٤/ ١٦١) زمن حديث ابن عمر: «أمر رسول الله ﷺ بصدقة الفطر عن الصغير والكبير والعبد والحر ممن تمونون»، قال البيهقي: إسناده غير قوي.

فصل في أداء الزكاة وشرائطه:

فأول الشرائط النية، وهو أن ينوي بقلبه زكاة الفطر، ونية الولي تقوم مقام نية المجنون والصبي، ونية السلطان تقوم مقام نية المالك الممتنع.

ولا ينبغي أن يؤخر زكاة الفطر عن يوم الفطر، ويدخل وقتها بغروب الشمس آخر يوم من شهر رمضان، ووقت تعجيلها شهر رمضان كله، ومن أَخَّرَ زكاة ماله مع التمكن عصى، ولم تسقط عنه بتلف ماله والتمكن بمصادفة المستحق، فإن لم يصادف وتلف ماله سقط(١).

وينبغي أن يقسم ماله بين الأصناف الموجودين في بلده ويستوعبهم، وقد عدم من الأصناف الثمانية صنفان في أكثر البلاد، وهم المؤلفة قلوبهم، والعاملون على الزكاة، ويوجد في جميع البلاد أربعة أصناف، الفقراء والمساكين والغارمون والمسافرون، وصنفان يوجدان في بعض البلاد دون البعض، وهم الغزاة والمكاتبون، فما صادف من الأصناف في بلده قسم مال الزكاة بعددهم، فما خصَّ كل واحد من الأصناف صرفه إلى ثلاثة نفر منهم فصاعداً، ولا تجب التسوية في هذا التفريق بين آحاد الصنف الواحد، وإذا قدر على إعطاء الزكاة لمن تحلى بخصال الخير لقبض الزكاة فالأولى أن يفعل ذلك، وذلك أن يكون ورعاً، عالماً، مستور الحال، وأن يكون من أقاربه، فكلما وجد فيه هذه الخصال كان أقرب إلى القبول، والله أعلم.

فصل في القابضين للزكاة:

ولا يستحق إلا حرٌّ مسلم ليس بهاشمي ولا مطلبي(٢)، ويجوز الصرف للصبي والمجنون، بشرط أن يقبض عنهما الولي.

---

(١) إذا أخر أداء زكاة ماله لعدم وجود المستحق لها فتلف ماله سقطت الزكاة عنه، أما إذا أخرها مع وجود المستحق وتمكُّنه من أدائها فتلف ماله عصى ولم تسقط عنه الزكاة.

(٢) قال ﷺ: «إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس» رواه مسلم (١٠٧٢)، وقال ﷺ: «إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد» رواه البخاري (٣١٤٠).

وبيان الأصناف الثمانية[1]:

الأول: الفقير؛ وهو من ليس له مال ولا قدرة على الكسب.

الثاني: المسكين؛ وهو الذي لا يفي دخلُه بخرجِه.

والثالث: السُّعاة؛ وهم الذين يجمعون مال الزكاة.

والرابع: المؤلفة قلوبهم؛ وهو الشريف الذي أسلم وهو مطاع في قومه، وفي إعطائه ترغيب لقومه في الإسلام .

والخامس: المكاتب؛ ويجوز دفع سهمه إليه وإلى سيده، والسيد لا يدفع زكاته إلى مكاتب نفسه.

والسادس: الغارمون؛ والغارم من عليه قرض استقرضه لمباح، وهو فقير لا يملك ما يؤدي به الدين، فإن استقرضه لمعصية لا يعطى ما لم يتب، وإن كان غنياً ولكن استقرضه لمصلحة أو إطفاء فتنة جاز أن يعطى.

والسابع: الغزاة؛ وهم الذين ليس لهم مرسوم في ديوان المرتزقة، فيصرف إليهم سهمهم وإن كانوا أغنياء.

والثامن: ابن السبيل؛ وهو المسافر الذي ليس له مال حاضر يصرفه إلى مآربه لسفره، هذا إذا كان السفر مباحاً.

ويعتمد على قوله في دعوته الفقر والمسكنة والسفر والغزو، ويسترد من الغازي والمسافر إذا لم يفِ بما وعد، وما وراءه من الأصناف لا بد فيها من البينة، والله أعلم.

فصل في صدقة التطوُّع:

قال رسول الله ﷺ: **«اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة**

---

(١) قال تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة: ٦٠].

طيبة»[١]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**ما أحسن عبدٌ الصدقة إلا أحسن الله الخلافة على ذريته**»[٢] وقال عليه الصلاة والسلام: «**الصدقة تسد سبعين باباً من الشر**»[٣] وسئل ﷺ: أي الصدقة أفضل؟ فقال: «**أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى، وتخشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا**»[٤].

ولا بأس بالإخفاء والإظهار على حسب ما شاء، وكان إبراهيم الخوَّاص[٥] والجنيد[٦] رضي الله عنهما يرون أن أخذ الصدقة أفضل من أخذ الزكاة، لأن فيها مزاحمة الفقراء، ولأن لها شرائط كثيرة، وربما لا يكون تمامها موجوداً في الآخذ، وذهب بعضهم إلى أن أخذ الزكاة أولى، فإنه فيه إعانة على أداء الواجب، وفيه أيضاً كسر للنفس ومذلة، والأمر في ذلك على الجملة متقارب، فافهم تغنم، والله أعلم



(١) رواه البخاري (١٤١٧)، ومسلم (١٠١٦).

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه ابن المبارك في الزهد (٦٤٦) [والقضاعي في مسند الشهاب (٧٨٩)] من حديث ابن شهاب مرسلاً بإسناد صحيح، وأسنده الخطيب في أسماء من روى عن مالك من حديث ابن عمر وضعفه اهـ.

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٤٤٠٢) عن رافع بن خديج، وقال الحافظ العراقي: رواه ابن المبارك في البر من حديث أنس بسند ضعيف: «**إن الله ليدرأ بالصدقة سبعين باباً من ميتة السوء**» ا.هـ.

(٤) رواه البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢).

(٥) هو: **إبراهيم بن أحمد الخوَّاص**، أبو إسحاق، أوحد المشايخ، كان من أقران الجنيد، توفي بالرَّي سنة ٢٩١هـ «طبقات الأولياء» (ص: ١٦).

(٦) هو: **أبو القاسم، الجنيد بن محمد الخزاز**، شيخ وقته، ونسيج وحده، صحب خاله السري السقطي، والحارث المحاسبي، تفقه على أبي ثور، وكان يفتي في حلقته وهو ابن عشرين سنة، توفي رحمه الله سنة ٢٩٧هـ «طبقات الأولياء» (ص: ١٢٦).

الباب السادس

في أسرار الصيام

قال رسول الله ﷺ حكاية عن ربه عزَّ وجلَّ: «كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضِعْف إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفس محمد بيده لَخُلُوفُ[2] فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، يقول الله تعالى: إنما يذر شهوته وطعامه وشرابه لأجلي، فالصيام لي وأنا أجزي به»[3].

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم، فضيقوا مجاريه بالجوع»[4]، ولذلك قال ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «دوامي قرع باب الجنة» قالت: بماذا؟ قال: «بالجوع»[5].

وقال عليه الصلاة والسلام: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم

---

(١) رواه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١).

(٢) الخُلُوف: رائحة الفم المتغيرة.

(٣) رواه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١).

(٤) رواه البخاري (٢٠٣٨)، ومسلم (٢١٧٥) دون قوله: «فضيِّقوا مجاريه بالجوع»، ولعلَّ هذه الزيادة وقعت تفسيراً للحديث من بعض رواته فألحقها به من روى عنه.

(٥) هو هكذا في (عوارف المعارف) وقال الحافظ العراقي: لم أجد له أصلاً ا.هـ.

لنظروا إلى ملكوت السماء»[1]، فالصوم يعين على كسر الشهوات، وسيأتي في باب كسر الشهوتين إن شاء الله.

فصل: اعلم أنه يثبت هلال شهر رمضان بقول عدل واحد، ولا يثبت هلال شوال إلا بقول عدلين، وسواء قضى القاضي به أو لم يقض، فكلٌ يعمل بغلبة ظنه، ويجب التبييت، وهو أن ينوي بالليل، ويجب أن ينوي فريضة صوم شهر رمضان، ولو نوى ليلة الشك: أن أصوم إن كان من رمضان لم يُجزِه.

والصوم هو الإمساك عن إيصال شيء إلى الجوف، فيفسد بالأكل والشرب والسَّعوط والحقنة، ولا يفسد بالفصد والحجامة والاكتحال وإدخال ميل في الإحليل والأذن إلا أن يقطر فيه ما يبلغ إلى المثانة، وما يكون من غير قصد، كغبار الطريق وسَبْق ذبابة إلى جوفه، وفي المضمضة والاستنشاق لا يفطر ما لم يبالغ، وإن أكل في طرف النهار على ظن أنه ليل فتبين أنه نهار فسد صومه، فإن أكل أو شرب أو جامع ناسياً لم يفطر، والاستقاء يفسد الصوم، وإن ذرعه القيء لم يفسد صومه، وإن ابتلع نخامة من صدره أو حلقه لا يفسد صومه رخصةً لعموم البلوى.

ولا تجب الكفارة إلا بالجماع، ولا تجب بالاستمناء والأكل والشرب، والكفارة عتق رقبة، فإن لم يجد فصوم شهرين متتابعين فإن عجز فإطعام ستين مسكيناً مدًّا مدًّا[2].

فصل: اعلم أن الصوم ثلاث درجات: صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص.

أما صوم العموم: فهو كفّ البطن والفرج عن قضاء الشهوة.

وأما صوم الخصوص: فهو كفُّ السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام.

وأما صوم خصوص الخصوص: فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية، وكفه عما سوى الله بالكلية.

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (٢/ ٣٥٣) من حديث أبي هريرة بنحوه.

(٢) المدّ الشرعي يساوي ربع صاع، ويساوي (١,٠٥٣) لتر.

ويحصل الفطر في كل صوم بما عنه الصوم، قال ﷺ: «**خمس يفطرن الصائم: الكذب والغيبة والنميمة واليمين الكاذبة والنظر بشهوة**»[1] فحفظ الجوارح عن المعاصي لابد منه في صوم الخواص.

فصل: وينبغي أن لا يستكثر من الطعام الحلال، فما ملئ وعاء أبغض إلى الله تعالى من المعدة، وينبغي أن يكون قلبه مضطرباً بين الرجاء والخوف، أَقُبِل صيامه أم كان نصيبه منه الجوع والعطش والنصب؟ قيل: «رُبَّ امرئ كان نصيبه من صومه الجوع والنصب»[2]، إذ المقصود من الصوم الكف عن الشهوات، وليس ذلك مقصوراً على الامتناع عن تناول الطعام والشراب، فلعله أقدم على نظر أو غيبة أو نميمة أو كذب، فكل ذلك مفطرات للصوم.

فصل في التطوع بالصيام:

اعلم أن استحباب الصوم يتأكد بالأيام الفاضلة، وفواضل الأيام بعضها يوجد في كل سنة، وبعضها في كل شهر، وبعضها في كل أسبوع.

أما في السنة بعد أيام رمضان: فيوم عرفة، ويوم عاشوراء، والعشر الأول من ذي الحجة، والعشر الأول من المحرم، وجميع الأشهر الحرم مظانّ الصوم، وكان رسول الله ﷺ يكثر من صوم شعبان حتى يظن أنه من رمضان[3]، وفي الخبر: «**أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرَّم**»[4]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**صوم يوم من شهر حرام أفضل من ثلاثين من غيره، وصوم يوم من رمضان أفضل من ثلاثين من شهر حرام**»[5] ومن صام الخميس والجمعة والسبت من الأشهر

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الأزدي في الضعفاء من رواية جابان عن أنس اهـ ورواه الديلمي في مسند الفردوس.

(٢) رواه ابن ماجه (١٦٩٠) مرفوعاً بلفظ: «**رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع**».

(٣) رواه البخاري (١٩٦٩)، ومسلم (١١٥٦).

(٤) رواه مسلم (١١٦٣).

(٥) قال الحافظ العراقي: لم أجده، وفي المعجم الصغير للطبراني (٩٦٣) من حديث ابن عباس: «**من صام يوماً من المحرم فله بكل يوم ثلاثون يوماً**» ا.هـ.

الحرم كتب الله له عبادة سبعمائة عام[1]، والأشهر الفاضلة: ذو الحجة والمحرم ورجب وشعبان، والأشهر الحرم: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، واحد فرد وثلاثة سرد.

وأما ما يتكرر في الشهر: فأول الشهر ـ وأوسطه وهو الأيام البيض ـ وآخره، والأيام البيض الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر.

وأما ما يتكرر في الأسبوع: فالاثنين والخميس والجمعة[2].

وصوم الدهر شامل للكل، ولكن اختلفوا في كراهيته، وقال ﷺ: «**أفضل الصيام صوم أخي داود**»[3]، ولعلَّ الإشارة إليه بقوله ﷺ: «**عُرضت عليَّ مفاتيح خزائن الدنيا وكنوز الأرض، فرددتها**»، وقلت: «**أجوع يوماً وأشبع يوماً، أحمدك إذا شبعتُ، وأتضرع إليك إذا جُعتُ**»[4]، وقد روي أنه عليه الصلاة والسلام ما صام شهراً كاملاً قط إلا رمضان[5].



---

(١) رواه ابن شاهين في (الترغيب)، وابن عساكر في (التاريخ) بنحوه وسنده ضعيف. وقال الحافظ العراقي: رواه الأزدي في الضعفاء من حديث أنس اهـ.

(٢) يكره إفراد يوم الجمعة بالصوم، فإذا صام معه قبله أو بعده فلا كراهة، قال صلى الله عليه وسلم: «**لا يصم أحدكم يوم الجمعة إلا أن يصوم قبله أو بعده**» رواه البخاري (١٩٨٥)، ومسلم (١١٤٤).

(٣) رواه البخاري (١٩٧٦)، ومسلم (١١٥٩).

(٤) رواه الترمذي (٢٣٤٧) من حديث أبي أمامة بلفظ: «**عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً**». وقال: حسن.

(٥) رواه البخاري (١٩٦٩)، ومسلم (١١٥٦).

الباب السابع

في أسرار الحج وما فيه

وقد أنزل الله تعالى في الحج: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ الآية [المائدة: ٣].

وقال عليه الصلاة والسلام: «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً»[١].

فصل في فضيلة الحج، وفضيلة مكة والمدينة وبيت المقدس، وشد الرحال إلى المشاهد

قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا﴾ [الحج: ٢٧].

وقال عليه الصلاة والسلام: «ما رُؤي الشيطان في يومٍ أصغرَ ولا أدحرَ ولا أحقرَ ولا أغيظَ منه يوم عرفة»[٢].

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن عدي (١١٤١) من حديث أبي هريرة، والترمذي (٨١٢) نحوه من حديث علي، وقال: غريب وفي إسناده مقال اهـ. ورواه الدارمي(١٧٣٣) بلفظ: «من لم يمنعه من الحج حاجة ظاهرة، أو سلطان جائر، أو مرض حابس، فمات ولم يحج، فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً».

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه مالك (١/ ٤٢٢) عن إبراهيم بن أبي عبلة عن طلحة بن عبدالله بن كريز مرسلاً اهـ.

وقال ﷺ: «**من خرج من بيته حاجّاً أو معتمراً فمات أجري له أجر الحاج المعتمر إلى يوم القيامة**»[1].

قال بعض السلف: إذا وافق يوم الجمعة يوم عرفة غُفِر لأهل عرفة كلهم، وهو أفضل يوم في الدنيا، وفيه حجَّ رسول الله ﷺ حجة الوداع، وكان واقفاً إذ نزلت عليه هذه الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وقال أهل الكتاب: لو أنزلت علينا هذه الآية لجعلناها يوم عيد، فقال عمر رضي الله عنه: أشهد، لقد أنزلت في يوم عيدين اثنين، في يوم عرفة ويوم جمعة على رسول الله ﷺ، وهو واقف بعرفة[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**اللهم اغفر للحاجِّ ولمن استغفر له الحاج**»[3].

وروي أن علي بن الموفق[4] حجَّ عن رسول الله ﷺ حِجَجاً، قال: فرأيت رسول الله ﷺ في المنام، فقال لي: يا ابن الموفق، حججت عني؟ قلت: نعم، قال: ولبَّيْتَ عني؟ قلت: نعم، قال: فإني أكافئك بها يوم القيامة، وآخذ بيدك في الموقف فأدخلك الجنة، والخلائق في كرب الحساب.

فضيلة البيت ومكة: قال عليه الصلاة والسلام: «**إن الله قد وعد البيت أن يحجَّه في كل سنة ستمائة ألف، فإن نقصوا أكملهم الله تعالى بملائكته، وإن الكعبة تحشر يوم القيامة كالعروس إلى الموقف، وكل من حجها متعلقٌ بأستارها، يسعون حولها حتى تدخل الجنة، فيدخلون معها**»[5].

وفي الخبر: «**إن الحجر ياقوتة من يواقيت الجنة، وإنه يبعث يوم القيامة له**

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٤١٠٠) من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري (٤٦٠٦)، ومسلم (٣٠١٧).

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه الحاكم (١/ ٤٤١) من حديث أبي هريرة، وقال: صحيح على شرط مسلم. اهـ ووافقه الذهبي.

(٤) هو: علي بن الموفق، أبو الحسن، من كبار العباد، كان يكثر من الحجّ، حجّ نيفاً وخمسين حجة، توفي رحمه الله سنة ٢٦٥هـ (طبقات الأولياء/ صـ٣٤٠).

(٥) هكذا أورده صاحب القوت، وقال الحافظ العراقي: لم أجد له أصلاً ا.هـ.

عينان، ولسان ينطق به، يشهد لمن استلمه بحق وصدق»[1]، وكان ﷺ يقبّله كثيراً، وقبّله عمر رضي الله عنه، وقال: إني أعلم أنك حجر، لا تضرُّ ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبِّلُك ما قبَّلْتُك، ثم بكى، فالتفت فرأى عليّاً وراءه، فقال له علي: لا تقل كذا، فقال: يا أبا الحسن، ههنا تسكب العبرات، فقال علي: يا أمير المؤمنين، بل هو يضرُّ وينفع، قال: وكيف؟ قال: إن الله تعالى لما أخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتاباً، ثم ألقمه هذا الحجر، فهو يشهد للمؤمنين بالوفاء، ويشهد على الكفار بالجحود[2].

قيل: فذلك هو معنى قول الناس عند الاستلام: اللهم إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، ووفاء بعهدك.

وروي عن الحسن البصري: أن صوم يوم في مكة بمائة ألف، وصدقة درهم بمائة ألف، وكذا كل حسنة بمائة ألف.

وقال ﷺ: **«أنا أول من تنشقُّ عنه الأرض، ثم آتي أهل البقيع فيحشرون معي، ثم آتي أهل مكة فأحشرهم بين الحرمين»**[3].

ويقال: لا تغرب الشمس من يوم إلا ويطوف بهذا البيتِ رجل من الأبدال، ولا يطلع الفجر من ليلة إلا طاف به واحد من الأوتاد، وإذا انقطع ذلك كان سبب رفعه من الأرض، فيصبح الناس وقد رفعت الكعبة، لا يرى لها أثر، وهذا إذا أتى عليها سبع سنين لم يحجها أحد، ثم يرفع القرآن من المصاحف، فيصبح الناس فإذا الورق أبيض يلوح ليس فيه حرف، ثم ينسخ القرآن من القلوب، فلا يذكر منه

---

(١) قال الحافظ العراقي: روى الترمذي (٨٧٧) وصححه، والنسائي (٥/ ٢٢٦) من حديث ابن عباس «الحجر الأسود من الجنة» لفظ النسائي، وباقي الحديث. رواه الترمذي (٦٩١) وحسنه، وابن ماجه (٢٩٤٤) وابن حبان (٣٧١١) والحاكم (١/ ٤٥٧) وصحح إسناده من حديث ابن عباس أيضاً [ووافقه الذهبي]، وللحاكم (١/ ٤٥٦) من حديث أنس: **«الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة»** وصحح إسناده [قال الإمام الذهبي: ضعفه أحمد] ورواه النسائي وابن حبان (٣٧١٠) والحاكم (١/ ٤٥٦) من حديث عبد الله بن عمرو اهـ.

(٢) قال الحافظ العراقي: أخرجاه [البخاري (١٥٩٧) ومسلم(١٢٧٠)] دون الزيادة التي رواها علي، ورواه بتلك الزيادة الحاكم(١/ ٤٥٧)، وقال: ليس من شرط الشيخين ا هـ.

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (٣٦٩٢) وحسنه، وابن حبان(٦٨٩٩) نحوه من حديث ابن عمر ا.هـ.

كلمة، ثم يرجع الناس إلى الأشعار والأغاني وأخبار الجاهلية، ثم يخرج الدجال، وينزل عيسى فيقتله، والساعة عند ذلك بمنزلة الحامل المقرب، يتوقع ولادتها.

فضيلة المُقام بمكة وكراهيته: كرهه بعضهم خوفاً من السآمة، وكذلك قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: خشية أن يأنس الناس بهذا البيت، وكان يصرف الحجاج إذا حجوا، ويقول: يا أهل اليمن يمنكم، ويا أهل الشام شامَكم، ويا أهل العراق عراقَكم.

وقيل أيضاً: تهييج الشوق، لينبعث عند المفارقة داعية العود، وقال تعالى: ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥].

وقيل: للخوف من ركوب الخطايا والذنوب بها، وذلك محظور.

ويدلُّ على فضيلة المقام لمن يقدر على الوفاء بحقها أنه عليه الصلاة والسلام لما عاد إلى مكة استقبل الكعبة، وقال: **«إنكِ لخير أرض الله، وأحبُّ بلاد الله إليَّ، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجتُ»**[١].

فضيلة المدينة: وما بعد مكة بقعة أفضل من المدينة، قال عليه الصلاة والسلام: **«صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام»**[٢].

وبعد المدينة الأرض المقدسة، قال ﷺ: **«الصلاة فيها بخمسمائة»**[٣].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: **«صلاة في مسجد المدينة بعشر آلاف صلاة، وصلاة في المسجد الأقصى بألف صلاة، والصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة»**[٤].

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (٣٩٢٥) وصححه، والنسائي في (الكبرى) (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣١٠٨)، وابن حبان (٣٧٠٨) من حديث عبد الله بن عدي بن الحمراء اهـ.

(٢) رواه البخاري (١١٩٠)، ومسلم (١٣٩٤).

(٣) رواه البيهقي [في الشعب (٤١٣٨)]، والطبراني في الكبير(١٥٦٢).

(٤) قال الحافظ العراقي: غريب لم أجده بجملته هكذا، ولابن ماجه (١٤٠٧) من حديث ميمونة بإسناد جيد في بيت المقدس **«ائتوه فصلوا فيه فإن الصلاة فيه كألف صلاة في غيره»**، وله (١٤١٢) من حديث أنس: **«وصلاته بالمسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة، وصلاته في مسجدي بخمسين ألف صلاة»** ليس في إسناده من ضعف، [وقال الذهبي: إنه منكر]. ا.هـ

فصل في شروط وجوب الحج وصحتِه وأركانِه وواجباتِه ومحظوراتِه:

أما الشرائط المُصحِحة لَه: فهو الوقت والإسلام، فيصحُّ حجُّ الصبي، ويُحرِمُ المميز بنفسه، ويُحرم الولي عنه إذا لم يكن مميزاً، ويفعل به ما يفعل بنفسه.

ووقت الإحرام هو: شوال وذو القعدة وتسع من ذي الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر، ومن أحرم بالحج في غير هذا الوقت فهي عمرة، إذ جميع السنة وقت العمرة.

وشروط وقوعه عن حجة الإسلام خمسة: الحرية، والإسلام، والبلوغ، والعقل، والوقت، فإن أحرم الصبي أو العبد، ولكن عتق العبد وبلغ الصبي بعرفة أو بالمزدلفة فعاد إلى عرفة قبل طلوع الفجر يوم النحر أجزأهما عن حجة الإسلام، لأن «**الحج عرفة**» وليس عليهما دم الإساءة.

وتشترط هذه الشرائط في وقوع العمرة عن فرض حج الإسلام إلا الوقت.

وأما الشرط في وقوع الحج نفلاً عن الحر البالغ، فبراءة ذمته عن حجة الإسلام، فحج الإسلام متقدم، ثم القضاء لمن أفسده في حالة الوقوف، ثم النذر، ثم النيابة، ثم النفل، وهذا الترتيب مستحق، ولا يقع إلا كذلك، وإن نوى خلافه .

وشروط لزوم الحج: الحرية والاستطاعة، ومن لزمه فرض الحج لزمه فرض العمرة، ومن أراد دخول مكة لزيارة أو تجارة ولم يكن حطَّاباً لزمه الإحرام على قول[1]، ويتحلل بعمل عمرة أو حج.

وأما الاستطاعة فنوعان:

أحدهما: للمباشرة، وذلك: الصحة، وأمْن الطريق، والخِصب فيها، وأن لا يكون بحراً مخطراً، وأن يملك نفقة ذهابه وإيابه إلى وطنه، ونفقة من تلزمه نفقته في هذه المدة بعد أداء الديون، وأن يقدِر على كراء الراحلة.

---

(١) المعتمد أنه يستحب الإحرام لمن أراد دخول مكة لزيارة أو تجارة ولا يجب.

النوع الثاني: استطاعة المعضوب[1] بماله، وهو أن يستأجر من يحج عنه بعد فراغ الأجير عن حجة الإسلام لنفسه، والابن إذا عرض الطاعة على الأب الزَّمِن[2] صار به مستطيعاً، ويجوز التأخير بعد الاستطاعة، ولكن بشرط سلامة العاقبة، وإلا لقي الله تعالى عاصياً.

والأركان التي لا يصح الحج بدونها خمسة: الإحرام، والطواف، والسعي بعده، والوقوف بعرفة، والحلق على قول[3]، وأركان العمرة كذلك إلا الوقوف.

والواجبات المجبورة بالدَّم ستة: الإحرام في الميقات، وعلى تاركه شاة، والرمي، وفيه الدم قولاً واحداً، وأما الصبر بعرفة إلى غروب الشمس والمبيت بمزدلفة والمبيت بمنى وطواف الوداع فهذه الأربعة يجبر تركها بالدم على أحد القولين[4]، وفي الثاني فيها دم على سبيل الاستحباب.

وأما وجوه أداء الحج والعمرة فثلاثة:

الأول: الإفراد، وهو الأفضل، وذلك أن يقدِّم الحج وحده، فإذا فرغ خرج إلى الحِلِّ وأحرم واعتمر، وأفضل الحِلِّ الإحرام بالعمرة من الجِعرَّانة ثم التنعيم ثم الحديبية، وليس على المفرد دم إلا أن يتطوع.

الثاني: القِرَان، وهو أن يجمع، فيقول: لبيك بحج وعمرة، فيصير محرماً، ويكفيه أعمال الحج، وتندرج العمرة تحت الحج كما يندرج الوضوء تحت الغسل، إلا أنه إذا طاف وسعى قبل الوقوف فسعيه محسوب من النسكين، وأما طوافه فغير محسوب، لأن شرط طواف الفرض في الحج أن يقع بعد الوقوف، وعلى القارن دم شاة إلا أن يكون مكيّاً فلا شيء عليه لأنه لم يترك الميقات إذ ميقاته بمكة.

الثالث: التمتع، وهو أن يجاوز الميقات بعمرة، ويتحلل بمكة، ويتمتع

---

(١) **المعضوب**: هو غير المستطيع بنفسه بل بغيره.

(٢) **الزَّمِن**: الذي به آفة أو مرض يمنعه من الركوب والمشي.

(٣) وهو المعتمد في المذهب الشافعي.

(٤) وهو المعتمد في المذهب الشافعي.

بالمحظورات إلى وقت الحج ثم يحرم بالحج، ولا يكون متمتعاً إلا بخمس شرائط:

أحدها: أن لا يكون من حاضري المسجد الحرام، وحاضره من كان منه على مسافة لا يقصر فيها الصلاة.

الثاني: أن يقدم العمرة على الحج.

الثالث: أن تكون عمرته في أشهر الحج.

الرابع: أن لا يرجع إلى ميقات الحج ولا إلى مثل مسافته لإحرام الحج.

الخامس: أن تكون حجته وعمرته عن شخص واحد.

فبهذه الأوصاف يصير متمتعاً، ويلزمه دم شاة، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم النحر متفرقة أو متتابعة، وسبعة إذا رجع إلى أهله، فهي عشرة إن شاء تباعاً أو متفرقةً.

والأفضل الإفراد ثم التمتع ثم القران.

وأما محظورات الحج والعمرة فستة:

الأول: لبس القميص والسراويل والخف والعمامة، بل ينبغي أن يلبس إزاراً ورداءً ونعلين، فإن لم يجد نعلين فكعبان، فإن لم يجد إزاراً فسراويل، ولا بأس بالمِنْطَقَة[1] والاستظلال بالمحمَل[2]، ولكن لا يغطي رأسه، فإن إحرامه في رأسه، وللمرأة أن تلبس المخيط غير أن لا تستر وجهها بما يماسها، فإن إحرامها في وجهها.

الثاني: التطيب، فليتجنب كل ما يعده العقلاء طيباً، فإن تطيب أو لبس فعليه دم شاة.

---

(١) **المِنْطَقَة**: ما يشد به الرجل وسطه.

(٢) **المحْمَل**: هو الهودج الذي يوضع على البعير ويحمل فيه.

الثالث: الحلق والقَلْم، وفيهما الفدية، وهي دم شاة، ولا بأس بالكحل ودخول الحمام والفصد والحجامة وترجيل الشعر.

الرابع: الجماع، وهو مفسد قبل التحلل الأول، وفيه بدنة أو بقرة أو سبع شياه، وإن كان بعد التحلل لزمه البدنة، ولم يفسد حجه.

الخامس: مقدمات الجماع، وهي القبلة والملامسة التي تنقض التطهير مع النساء، فهو مُحرَّم وفيه شاة، وكذا الاستمناء، ويحرم النكاح والإنكاح، ولا دم فيه لأنه لا ينعقد.

السادس: قتل صيد البر، أعني ما يؤكل أو ما هو متولد من الحلال والحرام، فإن قتل صيداً فعليه مثل لحمه من النَّعم، يراعي فيه التقارب في الخِلْقَة، والله أعلم.

فصل في ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع إلى الوطن

وهي عشر جمل:

الجملة الأولى: في السَّير من أول الخروج إلى الإحرام، وهي ثمانية:

الأولى: التوبة، ورد المظالم، وقضاء الديون، وإعداد نفقة من يمونه إلى الرجوع، ورد الودائع، وأن يكون ما يستصحبه حلالاً.

الثانية: التماس رفيق صالح ينتفع بدينه.

الثالثة: أن يصلي قبل الخروج ركعتين، يقرأ فيهما ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، فإذا فرغ رفع يديه وقال: اللهمَّ أنت الصاحب في السفر، وأنت الخليفة في الأهل والمال والولد والأصحاب، احفظنا وإياهم من كل آفة وعاهة وبليَّة.

الرابعة: إذا وصل إلى باب الدار قال: بسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، رَبِّ أعوذ بك أن أَضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أَزِلَّ أو أُزَلَّ، أو أَظْلِم أو أُظْلَم، أو أَجْهَلَ أو يُجْهَل علي.

الخامسة: في الركوب: فإذا ركب الدابة قال: بسم الله، وبالله، والله أكبر، توكلت على الله، حسبي الله، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾ [الزخرف: ١٣ ـ ١٤].

السادسة: النزول: والسنة أن لا ينزل حتى يحمى النهار، ويكون سيره في أول الليل، قال عليه الصلاة والسلام: «**عليكم بالدُّلْجَة، فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوي بالنهار**»[1].

السابعة: أن يحذر المشي وحده خيفة الاغتيال.

الثامنة: أن يقول مهما علا نشِزاً من الأرض، بعد أن يكبر ثلاثاً: اللهم لك الشرف على كل شرف، ولك الحمد على كل حال.

ومهما هبط سبَّح، ومهما خاف الوحشة قال: سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح، جَلَّلْتَ السماواتِ والأرضَ بالعزة والجبروت.

الجملة الثانية: في آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة: وهي خمسة:

الأول: الاغتسال، وينوي به غسل الإحرام، ويتمم ذلك بتقليم الأظفار وقص الشارب وما يلحق به.

الثاني: أن يفارق الثياب المخيطة كما سبق، ويتطيب، ولا بأس ببقاء جرم الطيب وريحه كما نقل.

الثالث: أن ينوي الإحرام عند حركته أو حركة دابته منبعثاً، ويكفي مجرد النية لانعقاد الإحرام، ولكن السنة أن يقرن بالنية لفظة التلبية، فيقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، وإن زاد قال: لبيك وسعديك، والخير كله بيديك والرغبة إليك، لبيك بحجة حقاً، تعبُّداً ورِقّاً، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل محمد وسلم.

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه أبو داود (٢٥٧١) من حديث أنس دون قوله: «**ما لا تطوى بالنهار**» وهذه الزيادة في الموطأ (٢/ ٩٧٩) من حديث خالد بن معدان مرسلاً اهـ. ورواه الحاكم (١/ ٤٤٥) بغير الزيادة وقال: على شرطهما، ووافقه الذهبي.

الرابع: إذا انعقد إحرامه يستحب أن يقول: اللهم إني أريد الحج فيسِّره لي، وأعنِّي على أداء فرضه، وتقبله مني.

الخامس: يستحب ترديد التلبية في دوام الإحرام.

الجملة الثالثة: في آداب دخول مكة إلى الطواف: وهي ستة:

الأول: الاغتسال (بذي طُوى) لدخول مكة، والأغسال المسنونة في الحج تسعة: الأول: للإحرام، ثم لدخول مكة، ثم لطواف القدوم، ثم للوقوف بعرفة، ثم بمزدلفة، ثم ثلاثة أغسال لرمي الجمار الثلاث، ولا غسل لرمي جمرة العقبة، ثم لطواف الوداع، ولم يَرَ الشافعي رضي الله عنه في الجديد الغسل لطواف الزيارة ولطواف الوداع فتعود إلى سبعة.

الثاني: أن يقول عند الدخول إلى أول الحرم وهو خارج مكة: اللهم هذا حرمُك وأمنك، فحرِّم لحمي ودمي وبشري على النار، وأمِّنِّي من عذابك يوم تبعث عبادك، واجعلني من أوليائك وأهل طاعتك.

الثالث: أن يدخل مكة من جانب الأبطح، وهي من ثنية (كَدَا) بفتح الكاف، عَدَل رسول الله ﷺ من جادة الطريق إليها، ويخرج من ثنية(كُدا) بضم الكاف، فالأولى هي العليا، والثانية هي السفلى.

الرابع: إذا دخل مكة وانتهى إلى رأس الردم فعندما يقع بصره على البيت فليقل: لا إله إلا الله والله أكبر، اللهم أنت السلام، ومنك السلام، ودارك دار السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام، اللهم إن هذا بيتك، عظَّمته وكرَّمته وشرَّفته، اللهم فزده تعظيماً، وزده تشريفاً وتكريماً.

الخامس: إذا دخل المسجد الحرام فليدخل من باب (بني شيبة)، وليقل: بسم الله، وبالله، ومن الله، وإلى الله، وفي سبيل الله، وعلى ملة رسول الله ﷺ، فإذا قَرُب من البيت قال: الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى، اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ونبيك، وعلى إبراهيم خليلك، وعلى جميع أنبيائك ورسلك.

وليرفع يديه وليقل: اللهم إني أسألك في مقامي هذا في أول مناسكي أن تقبل

توبتي، وتتجاوز عن خطيئتي، وتضع عنّي وزري، الحمد لله الذي بلغني بيته الحرام، الذي جعله مثابةً للناس وأمناً، وجعله مباركاً وهدى للعالمين، اللهم إني عبدك، والبلد بلدك، والحرم حرمك، والبيت بيتك، جئت أطلب رحمتك، أسألك مسألة المضطر الخائف من عقوبتك، الراجي لرحمتك، الطالب لمرضاتك.

السادس: أن يقصد الحجر الأسود بعد ذلك، ويمسه بيده اليمنى ويقبله، ويقول: اللهم أمانتي أديتُها، وميثاقي تعاهدتُه، اشهد لي بالموافاة.

فإن لم يستطع التقبيل فليقف في مقابلته، ويقول ما سبق، ثم لا يعرج على شيء دون طواف القدوم، إلا أن يجد الناس في المكتوبة فيصلي معهم ثم يطوف.

الجملة الرابعة: في الطواف:

فإذا أراد أن يطوف أيَّ طواف كان فعليه ستة أمور:

الأول: أن يراعي شروط الصلاة في الطواف، فإن الطواف صلاة إلا أنه أبيح فيه الكلام، وليضطبع في ابتداء الطواف، وهو أن يجعل وسط إزاره تحت إبطه اليمنى، ويجمع طرفيه على منكبه الأيسر، ويقطع التلبية عند ابتداء الطواف، ويشتغل بالأدعية التي سنوردها.

الثاني: إذا فرغ من الاضطباع فليجعل البيت على يساره، وليقف عند الحَجَر الأسود، وليتنح عنه قليلاً ليكون الحجر قدامه، وليجعل بينه وبين البيت قدر ثلاث خطوات ليكون قريباً من البيت فإنه أفضل، ولكيلا يكون طائفاً على الشاذروان[١] فإنه من البيت، وعند الحجر الأسود قد يتصل الشاذروان بالأرض ويلتبس به، والطائف عليه لا يصح طوافه لأنه طائف في البيت، ثم من هذا الموقف يبتدئ الطواف.

الثالث: أن يقول قبل مجاوزة الحَجَر بل في ابتداء الطواف: بسم الله والله أكبر، اللهم إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، ووفاء بعهدك، واتباعاً لسنة نبيك محمد ﷺ.

---

(١) **الشاذروان**: هو ما نقصته قريش من عرض جدار أساس الكعبة حتى ظهر على الأرض.

ويطوف، فأول ما يجاوز الحجر الأسود وينتهي إلى باب البيت يقول: اللهم هذا البيت بيتك ...، كما سبق.

الرابع: أن يرمل في ثلاثة أشواط، ويمشي في الأربعة الأخيرة على السكينة، واستلام الحجر والركن اليماني مستحب في كل شوط.

الخامس: إذا تَم الطواف سبعاً فليأت الملتزم وهو بين الحَجَر والباب، وهو موضع استجابة الدعوة، وليلتزم بالبيت ويلصق بطنه بالبيت، ويتعلق بأستار الكعبة، وليضع عليه خده الأيمن، ويبسط ذراعيه وكفيه عليه، ويقول: اللهم يا رب البيت العتيق، اعتق رقبتي من النار، وأعذني من الشيطان الرجيم، وأعذني من كل سوء، وقنعني بما رزقتني، وبارك لي فيما آتيتني، اللهم إن هذا البيت بيتك، والعبد عبدك، وهذا مقام العائذ بك من النار، اللهم اجعلني من أكرم وفدك عليك.

وليحمد الله كثيراً وليصل على محمد ﷺ وعلى جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام.

السادس: إذا فرغ من ذلك ينبغي أن يصلي خلف المقام ركعتين، يقرأ في الأولى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ وفي الثانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، وهما ركعتا الطواف، وقال الزهري[1]: مضت السُّنة بأن يصلي لكل سبعٍ ركعتين.

الجملة الخامسة: في السعي:

فإذا فرغ من الطواف فليخرج من باب الصفا، فإذا انتهى إلى الصفا ـ وهو جبل ـ فيستحب أن يرقى فيه درجاً في حضيض الجبل بقدر قامة الرجل، رقى رسول الله ﷺ حتى بدت له الكعبة[2]، وابتداء السعي من أصل الجبل كافٍ ولكن بعض تلك الدرج مستجدٌّ، فينبغي أن لا يخلفها وراء ظهره، فلا يكون متمماً للسعي، وإن ابتدأ من ههنا سعى بينه وبين المروة سبع مرات، فإذا انتهى إلى المروة صعدها وأقبل بوجهه على الصفا فقد حصل السعي مرة، فإذا عاد إلى الصفا حصلت

---

(١) هو: **محمد بن مسلم بن عبيد الله الزهري القرشي**، الإمام العلم نزيل الشام، حافظ زمانه، روى عن ابن عمر وجابر بن عبد الله، وأول من دوَّنَ الحديث، توفي سنة ١٢٤ هـ (سير أعلام النبلاء: ٥/٣٢٦).

(٢) رواه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر: «**فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت**».

مرتان، يفعل ذلك سبعاً، فإذا فعل ذلك فقد فرغ من طواف القدوم والسعي، وهما سنتان، والطهارة مستحبة للسعي، بخلاف الطواف ففيه واجبة، فإذا سعى فينبغي له أن لا يعيد السعي بعد الوقوف، ويكتفي بهذا ركناً، فإنه ليس من شرط السعي أن يتأخر عن الوقوف، وإنما ذلك شرط في طواف الركن، نعم من شرطه أن يقع بعد الطواف أيَّ طواف كان.

الجملة السادسة: في الوقوف وما قبله:

إذا انتهى الحاج يوم عرفة إلى عرفات فلا يتعرض لطواف القدوم ودخول مكة قبل الوقوف، وإذا وصل قبل ذلك بأيام وطاف طواف القدوم فيمكث مُحْرماً إلى اليوم السابع من ذي الحجة، فيخطب الإمام بمكة خطبة بعد الظهر عند الكعبة، ويأمر الناس بالاستعداد للخروج إلى (منى) يوم التروية والمبيت بها والغدوّ منها إلى عرفات لإقامة فرض الوقوف بعد زوال الشمس، إذ وقت الوقوف من الزوال إلى طلوع الفجر الصادق من يوم النحر، فينبغي أن يخرج إلى (منى) ملبّياً، ويستحب له المشي من مكة في المناسك إلى انقضاء الحج إن قدر عليه، والمشي من مسجد إبراهيم إلى الموقف أفضل وآكد، فإذا انتهى إلى (منى) قال: اللهم إن هذه (منى) فامنن عليَّ بما مَنَنْتَ به على أوليائك وأهل طاعتك.

وليمكث هذه الليلة بمنى، وهو مبيت منزل لا يتعلق به نسك، فإذا أصبح يوم عرفة صلى الصبح، فإذا طلعت الشمس على ثبير[1] سار إلى عرفات، ويقول: اللهم اجعلها خيرَ غدوة غدوتها قطّ، وأقربَها من رضوانك، وأبعدَها من سخطك، اللهم إليك غدوت، وإياك اعتمدت، ووجهك أردت، فاجعلني ممن تباهي به اليوم من هو خير مني وأفضل، فإذا أتى عرفات فليضرب خباءه بـ (نمرة) قريباً من المسجد، فَثَمَّ ضرب رسول الله ﷺ قبته، و(نمرة) هي ببطن عرنة دون الموقف ودون عرفة، وليغتسل للوقوف، فإذا زالت الشمس خطب الإمام خطبة وجيزة وقعد، وأخذ المؤذن في الأذان، والإمام في الخطبة الثانية، ووصل الإقامة بالأذان

---

(١) ثبير: هو جبل بمنى على يمين الهابط من مزدلفة إلى منتهى منى عند جمرة العقبة «معجم البلدان» (٢/ ٧٢، ٧٣).

وفرغ الإمام مع إتمام إقامة المؤذن، ثم جمع بين الظهر والعصر بأذان وإقامتين، وقصر الصلاة، وراح إلى الموقف فليقف بعرفة، ولا يقف في وادي عرنة، وأما مسجد إبراهيم عليه السلام فصدره في الوادي وأخرياته من عرفة، فمن وقف في صدر المسجد لم يحصل له الوقوف بعرفة، ويتميز مكان عرفة من المسجد بصخرات كبار، والأولى أن يقف عند الصخرات بقرب الإمام مستقبل القبلة، وليكثر من أنواع التحميد والتسبيح والتهليل والثناء على الله تعالى، والدعاء والتوبة، ولا يصوم في هذا اليوم ليقوى على المواظبة على الدعاء، وينبغي أن لا ينفصل عن طرف عرفة إلا بعد الغروب ليجمع بين الليل والنهار في عرفة، وإن أمكنه الوقوف ساعة من اليوم الثامن عند إمكان الغلط في الهلال فهو الجزم، ومن فاته الوقوف حتى طلع الفجر يوم النحر فقد فاته الحج، فعليه أن يتحلل من إحرامه بأعمال العمرة ثم يرمق دماً لأجل الفوات ثم يقضي، وليكن أهم أشغاله في هذا اليوم الدعاء، فإنه ترجى الإجابة في هذا الجمع وهذا اليوم وهذه البقعة، وأولى الدعاء المأثور في يوم عرفة أن يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، اللهم اشرح لي صدري، ويسر لي أمري[1].

الجملة السابعة: في بقية أعمال الحج بعد الوقوف من المبيت والرمي والنحر والحلق والطواف:

ثم يجمع بين المغرب والعشاء بمزدلفة في وقت العشاء قاصراً لها بأذان وإقامتين، ليس بينهما نافلة، ولكن يجمع نافلة المغرب والعشاء والوتر بعد الفريضتين ويبدأ بنافلة المغرب، ومن خرج منها في النصف الأول من الليل ولم يبِتْ فعليه دم واجب، وإحياء هذه الليلة الشريفة من محاسن القربات لمن يقدر عليه، ثم مهما انتصف الليل يأخذ في التأهب للرحيل، ويتزوّد الحصى منها، ففيها أحجار رِخْوة، فليأخذ سبعين حصاة، فإنه قدر الحاجة، ولا بأس بأن يستظهر

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٨٥) إلى قوله: «قدير»، وقال: غريب من هذا الوجه، وأخرجه البيهقي في السنن (١١٧/٥) بنحوه.

بزيادة، وليكن الحصى صغيراً، ثم ليغلس لصلاة الصبح، وليأخذ في السير حتى إذا انتهى إلى المشعر الحرام وهو آخر المزدلفة فيقف ويدعو إلى الإسفار، ويقول: اللهم بحق المشعر الحرام والبيت الحرام والشهر الحرام والركن والمقام بلِّغ روح سيدنا محمد منا التحية والسلام، وأدخلنا دار السلام يا ذا الجلال والإكرام. ثم يدفع منها قبل طلوع الشمس حتى ينتهي إلى موضع يقال له (وادي مُحَسِّر)، فيستحب أن يحرك دابته به حتى يقطع عرض الوادي، فإن كان راجلاً أسرع في المشي، ثم إذا أصبح يوم النحر خلط التلبية بالتكبير، فينتهي إلى منى ومواضع الجمرات، وهي ثلاثة، فيجاوز الأول والثاني، فلا شغل له معهما يوم النحر، حتى ينتهي إلى جمرة العقبة، وهي على يمين مستقبل القبلة في الجادة، والمرمى مرتفع قليلاً في سفح الجبل، فيرمي جمرة العقبة بعد طلوع الشمس بقدر الرمح قبل الذبح، فيستقبل القبلة[1]، وإن استقبل الجمرة فلا بأس، ويرمي سبع حصيات رافعاً يده، ويكبر ويقول مع كل حصاة: اللهم تصديقاً بكتابك، واتباعاً لسنة نبيك. فإذا رمى قطع التلبية والتكبير، إلا التكبير عقيب فرائض الصلاة من ظهر يوم النحر إلى عقيب العصر آخر أيام التشريق، ثم ليذبح الهدي إن كان معه، الأولى أن يذبح بنفسه، وليقل: بسم الله والله أكبر، اللهم منك وبك ولك، تقبل مني كما تقبلت من خليلك إبراهيم عليه السلام. والتضحية بالبدنة أفضل، ثم بالبقرة ثم بالشاة، والشاة أفضل من مشاركة سبعة في البدنة، قال رسول الله ﷺ: «**خير الأضحية الكبش الأقرن**»[2] ثم والبيضاء أفضل من الصفراء والسوداء، وليأكل منه إن كان هدي تطوع، ولا يضحين بالجذعاء والعضباء والجرباء والشرقاء والخرقاء، ثم ليحلق بعد ذلك، والسنة أن يستقبل القبلة، ويبتدئ بمقدم رأسه فيحلق الشق الأيمن إلى العظمين المشرفين على القفا، ثم يحلق الباقي، ويقول: اللهم أثبِتْ لي بكل شعرة حسنة، وامحُ بها عني سيئة، وارفع لي بها عندك درجة، والمرأة تقص الشعر، والأصلع يستحب له إمرار الموسى على الرأس، ومهما حلق بعد رمي الجمرة فقد حصل له التحلل الأول، وحل له كل المحظورات إلا النساء والصيد، ثم يفيض

---

(١) السنة في المذهب استقبال القبلة في رمي أيام التشريق، أما رمي جمرة العقبة يوم النحر فالسنة أن يجعل القبلة عن يساره، ويستقبل الجمرة بوجهه.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أبو داود (٣١٥٦) من حديث عبادة بن الصامت، والترمذي (١٥١٧)، وابن ماجه (٣١٣٠) من حديث أبي أمامة، قال الترمذي: غريب، وعفير يضعف في الحديث اهـ.

إلى مكة ويطوف كما ذكرناه، وهذا الطواف ركن في الحج، ويسمى (طواف الزيارة)، وأول وقته بعد نصف الليل من ليلة النحر، وأفضل وقته يوم النحر، ولا آخر لوقته بل له التأخير ولكن يبقى مقيداً بالإحرام، فلا تحل له النساء إلا بعد هذا الطواف، فإذا طاف تم التحلل وارتفع الإحرام بالكلية، ولم يبق إلا رمي أيام التشريق والمبيت بمنى، وهي واجبات بعد زوال الإحرام على سبيل الإتباع للحج.

وأسباب التحلل ثلاثة: الرمي، والحلق، والطواف الذي هو ركن.

وفي الحج أربع خطب: خطبة يوم السابع، وخطبة يوم عرفة، وخطبة يوم النحر، وخطبة يوم النفر الأول، وكلها عقب الزوال، وكلها أفراد إلا خطبة يوم عرفة فإنها خطبتان بينهما جلسة.

ثم إذا فرغ من الطواف عاد إلى منى للمبيت والرمي، فيبيتُ تلك الليلة بمنى، وتسمى ليلة القَرْ لأن الناس في غد يقرُّون في منى ولا ينفرون، فإذا أصبح اليوم الثاني من العيد وزالت الشمس اغتسل للرمي، وقصد الجمرة الأولى التي تلي عرفة، على يمين الجادة، ويرمي إليها سبع حصيات، فإذا أنفذها انحرف قليلاً عن متن الجادة، ووقف مستقبل القبلة، وحمد الله تعالى وهلله وكبره، ودعا مع الخشوع قدر قراءة سورة البقرة، ثم يتقدم إلى الجمرة الوسطى، ويرمي كما رمى الأول، ويقف كما وقف للأول، ثم يتقدم إلى جمرة العقبة ويرمي سبعاً ولا يعرج على شغل، ثم يرجع إلى منزله ويبيت تلك الليلة بمنى، وتسمى ليلة النفر الأول، ويصبح، فإذا صلى الظهر في اليوم الثاني من التشريق رمى إحدى وعشرين حصاة كاليوم الذي قبله، ثم هو مخير بين المُقام بمنى وبين العود إلى مكة، فإن خرج من منى قبل غروب الشمس فلا شيء عليه، وإن صبر إلى الليل فلا يجوز له الخروج بل لزمه المبيت حتى يرمي في يوم النفر الثاني إحدى وعشرين حصاة كما سبق، وفي ترك المبيت والرمي إراقة دم، ويتصدق باللحم، وله أن يزور البيت في ليالي منى بشرط أن لا يبيت إلا بمنى، كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك.

الجملة الثامنة: في صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع:

وهو أن يغتسل ويلبس ثياب الإحرام ويحرم بالعمرة، وينوي ويلبي، ويقصد

مسجد عائشة رضي الله عنها ويصلي ركعتين، ثم يعود إلى مكة ملبياً حتى يدخل المسجد الحرام، فإذا دخل المسجد ترك التلبية، وطاف سبعاً، وسعى سبعاً، فإذا فرغ حلق رأسه وقد تمت عمرته.

الجملة التاسعة: في طواف الوداع:

وهو أن ينجز أشغاله، ويشدَّ رحاله، ويشتغل بالوداع، فيطوف سبعاً من غير رمل واضطباع، فإذا فرغ صلى ركعتين خلف المقام، ويشرب من ماء زمزم، ثم يأتي الملتزم ويدعو ويتضرع، ويلتمس الرضا والمغفرة.

الجملة العاشرة: في زيارة المدينة وآدابها:

قال رسول الله ﷺ: «**من زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي**»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**من وجد سَعَة ولم يزرني فقد جفاني**»[2].

وقال ﷺ: «**من جاءني زائراً لا يهمُّه إلا زيارتي كان حقاً على الله تعالى أن أكون له شفيعاً**»[3].

فمن قصد زيارة الرسول فليصلِّ على رسول الله ﷺ كثيراً في طريقه، فإذا وقع بصره على حيطان المدينة وأشجارها قال: اللهم هذا حَرَمُ رسولك، فاجعله لي وقاية من النار، وأماناً من العذاب، وسوء الحساب.

وليغتسل قبل الدخول من بئر الحرَّة، وليطيِّب وليلبس أنظف ثيابه، فإذا دخلها

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن عدي (٢/٣٨٢)، والطبراني (١٣٤٩٦)، والدارقطني (٢/٢٧٨)، والبيهقي (٥/٢٤٦) في الكبرى وضعفه، من حديث ابن عمر اهـ.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه ابن عدي (٧/١٤)، والدارقطني في (غرائب مالك) وابن حبان في (الضعفاء) (١١٢٨) والخطيب في (الرواة) عن مالك من حديث ابن عمر: «**من حجَّ ولم يزرني فقد جفاني**»، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (٢/١٢٨) وروى ابن النجار في (تاريخ المدينة) من حديث أنس: «**ما من أحد من أمتي له سعة ثم لم يزرني فليس له عذر**».

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني في الكبير (١٣١٤٩) من حديث ابن عمر، وصححه.

فليدخل إليها متواضعاً معظماً لها، وليقل: بسم الله، وعلى ملة رسول الله ﷺ، ربِّ أدخلني مدخل صدق، وأخرجني مخرج صدق، واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً.

ثم يقصد المسجد فيدخله ويصلي بجنب المنبر ركعتين، ويجعل عمود المنبر حذاء منكبه الأيمن، ويستقبل السارية التي إلى جانبها الصندوق، وتكون الدائرة التي في قبلة المسجد بين عينيه، فذلك موقف رسول الله ﷺ، ثم يأتي قبر النبي ﷺ فيقف عند وجهه، وذلك بأن يستدبر القبلة، ويستقبل جدار القبر على نحو من أربعة أذرع من السارية، ويجعل القنديل على رأسه، وليس من السُّنة والاحترام أن يمسَّ الجدار ولا أن يقبله، ثم يقول: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا نبي الله، السلام عليك يا أمين الله، السلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك صفوة الله، السلام عليك يا خيرة الله، السلام عليك يا أحمد، السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا شفيع، السلام عليك يا عاقب، السلام عليك يا بشير، السلام عليك يا نذير، السلام عليك يا طه، السلام عليك يا طاهر، السلام عليك يا أكرم ولد آدم، السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا رسول رب العالمين، السلام عليك يا سيد المرسلين، السلام عليك يا خاتم النبيين، السلام عليك يا قائد الخير، السلام عليك يا فاتح البِر، السلام عليك يا نبي الرحمة، السلام عليك يا سيد الأمة، السلام عليك يا قائد الغر المحجلين، السلام عليك وعلى أهل بيتك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، السلام عليك وعلى أصحابك الطيبين وأزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين، جزاك الله عنا أفضل ما جزى نبياً عن قومه، ورسولاً عن أمته، وصلى الله عليك كلما ذكرك الذاكرون، وغفل عن ذكرك الغافلون، وصلى الله عليك في الأولين والآخرين، أفضل وأكمل وأعلى وأجلّ وأطيب وأطهر ما صلى على أحد مِن خلقه، كما اسْتَنْقَذَنا بك من الضلالة، وبَصَّرَنا بك من العَماية، وهدانا بك من الجهالة، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله وأمينه وصفيه وخيرته من خلقه، وأشهد أنك قد بلَّغت الرسالة، وأدّيت الأمانة، ونصحت الأمة، وجاهدت عدوّك، وهديت أمتك، وعبدت ربك حتى أتاك اليقين، فصلى الله عليك وعلى أهل بيتك الطيبين الطاهرين، وكرَّم وشرَّف.

وإن كان قد أُوصي بتبليغ سلام فيقول: السلام عليك من فلان.

ثم يتأخر قدر ذراع، ويسلم على الصدِّيق رضي الله عنه، لأن رأسه عند منكب رسول الله ﷺ، ورأس عمر رضي الله عنه عند منكب أبي بكر رضي الله عنهما، ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على الفاروق، ويقول: السلام عليكما يا وزيري رسول الله ﷺ، المعاونين له على القيام بالدين ما دام حياً، القائمين في أمته بعده بأمور الدين، تتبعان في ذلك آثاره، وتعملان بسنته، فجزاكما الله خير ما جزى وزيري نبي على دينه خيراً، ثم يرجع فيقف عند رأس رسول الله ﷺ بين القبر والأسطوانة، ويستقبل القبلة، ولْيحمد الله ولْيمجده، وليكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ، ثم يقول: اللهم إنك قلت: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، اللهم قد سمعنا قولك، وأطعنا أمرك، وقصدنا نبيك مستشفعين به إليك في ذنوبنا، وما أثقل ظهورنا من أوزارنا، تائبين من زللنا، معترفين بخطايانا، فتب علينا، اللهم وشفع نبيك هذا فينا، وارحمنا بمنزلته عندك وحقه عليك، اللهم اغفر للمجاهدين والمهاجرين والأنصار ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، اللهم لاتجعله آخر العهد من قبر نبيك ومن حرمك برحمتك يا أرحم الراحمين.

ثم يأتي الروضة فيصلي فيها، ويكثر من الدعاء لقوله عليه الصلاة والسلام: «**ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي**»[1].

ويدعو عند المنبر، ويستحب أن يضع يده على الرمانة السفلى، ويستحب أن يخرج يوم الخميس فيزور قبور الشهداء، فيصلي الغداة في مسجد رسول الله ﷺ، ويخرج للزيارة ويعود إلى المسجد لصلاة الظهر حتى لا تفوته فريضة في الجماعة في المسجد، ويستحب أن يخرج في كل يوم إلى البقيع بعد السلام على رسول الله ﷺ، ويزور قبر الحسن بن علي رضي الله عنهما، ويزور قبر عثمان، ويزور قبر علي بن الحسين بن علي ومحمد بن علي وجعفر بن محمد والعباس رضوان الله عليهم أجمعين، ويصلي في مسجد فاطمة رضي الله عنها، ويزور قبر إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وقبر صفية عمة رسول الله ﷺ.

---

(١) رواه البخاري (١١٩٦) ومسلم (١٣٩١) كلاهما بلفظ: «بيتي» بدل «قبري» وبيته عليه الصلاة والسلام هو مكان قبره، وقد أخرجه البزار (٥١١) بلفظ المصنف.

فصل:

وينبغي أن لا يتجر ليكون قصده العبادة وحدها، ومهما أمكنه أن يوسع النفقة على غيره فعل، ويكون توجهه إلى الحج توجهاً إلى الله تعالى فلا ينساه في كل حال، ويتبرأ من الحول والقوة، فافهم تغنم، والله اعلم.



الباب الثامن

في تلاوة القرآن

قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظَّمه الله تعالى»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: «ما من شفيع أفضل منزلة عند الله يوم القيامة من القرآن لا نبي ولا ملك ولا غيرهما»[2].

وقال ﷺ: «إن الله عز وجل قرأ ﴿طه﴾ و ﴿يس﴾ قبل أن يخلق الخلق بألفي عام، فلما سمعت الملائكة القرآن قالت: طوبى لأمَّة ينزل عليهم هذا، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لألسنة تنطق بهذا»[3].

فصل في ذمّ تلاوة الغافلين:

قال أنس بن مالك: «رُبَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه».

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو، بسند ضعيف ا.هـ.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه عبد الملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلاً، وللطبراني [في الكبير رقم (٨٦٥٥)] من حديث ابن مسعود: «والقرآن شافع مشفع»، ولمسلم (٨٠٤) من حديث أبي أمامة: «اقرؤوا القرآن فإنه يجيء يوم القيامة شفيعاً لصاحبه» ا.هـ.

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه الدارمي [بنحوه (٣٢٩٠)] من حديث أبي هريرة بسند ضعيف ا.هـ.

وقال أبو سليمان الداراني[1]: الزبانية أسرع إلى حملة القرآن الذين يعصون الله تعالى منهم إلى عبدة الأوثان حين عصوا الله بعد القرآن، وقد ورد في التوراة: يا عبدي أما تستحي مني، يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت في الطريق تمشي، فتعدل عن الطريق، وتقعد لأجله، وتقرأه وتتدبره حرفاً حرفاً حتى لا يفوتك منه شيء، وهذا كتابي أنزلته إليك، انظر كم فصلت لك فيه من القول، وكم كررت عليك فيه لتتأمل طوله وعرضه، ثم أنت معرض عنه، أفكنتُ أهون عليك من بعض إخوانك، يا عبدي يقصُّ عليك بعض إخوانك حديثاً فتقبل عليه بكل وجهك، وتصغي إلى حديثه بكل قلبك، فإن كلمك متكلم، أو شغلك شاغل عن حديثه، أومأتَ إليه أن كفَّ، وها أنا ذا مقبل عليك، ومحدث لك، وأنت تعرض عني بقلبك، أفجعلتني أهون عندك من بعض إخوانك، تعالى الله عن ذلك علوّاً كثيراً.

فصل: وينبغي أن يكون على وضوء، وعلى هيئة الأدب قائماً أو جالساً، وأفضله ما يقرأ في الصلاة قائماً، وقال ﷺ: «**من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفهمه**»[2]، وكرهوا أن يختم كل ليلة، ولعل الختم في كل أسبوع قريب، والترتيل مستحب في تلاوة القرآن، وقال ﷺ: «**إن هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فتحازنوا**»[3]، وينبغي أن يراعي حق آية السجدة، فيسجد سواء سمعه من غيره أو قرأ هو بنفسه إذا كان على وضوء، وفي القرآن أربع عشرة سجدة، وفي ﴿الْحَجِّ﴾ سجدتان، وليس في ﴿صٓ﴾ سجدة.

فصل: ينبغي أن تكون قراءته بتعظيم وتدبر، فإن الله تعالى لطف بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة أفهام خلقه حتى أوصل معاني كلامه الذي هو صفة ذاته إلى أفهام خلقه، وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات، ولولا استتار كنه جمال كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماع الكلام عرش ولا

---

(١) هو: أبو سليمان، عبد الرحمن بن عطية الداراني، من قرية (داريًّا) في دمشق، أحد الأوتاد الأقطاب، توفي سنة ٢١٥هـ. «طبقات الصوفية» (ص: ٧٥)، «طبقات الأولياء» (ص: ٣٨٦).

(٢) رواه أبو داود (١٣٩٤)، والترمذي (٢٩٤٩)، والنسائي في الكبرى (٨٠٦٧)، وابن ماجه (١٣٤٧) وصححه الترمذي، وقال ابن حجر: حديث حسن غريب.

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه أبو يعلى (٢/ ٥٠) وأبو نعيم (٦/ ١٩٦) من حديث ابن عمر بسند ضعيف اهـ.

ثرى، ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه وسُبُحات نوره، ولولا تثبيت الله موسى عليه الصلاة والسلام لما أطاق سماع كلامه، كما لم يطقِ الجبل مبادي تجليه، حيث صار دكاً دكاً، وليكن تعظيم المتكلم حاضراً في قلبه مساوقاً له في قراءته، ويَظُن أن الله تعالى يخاطبه بذلك.

فصل: قال عليه الصلاة والسلام: «**إن للقرآن ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً**»[1]، وقال علي كرم الله وجهه ورضي عنه: لو شئتُ لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب.

فتبين أن أسرار القرآن لا تنقضي، وعجائبه لا تُحصى، وذلك على قدر طهارة القلب.

ويدل على أن التفسير ليس مسموعاً منقولاً كالتنزيل قوله عليه الصلاة والسلام لابن عباس: «اللهم فقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل»[2]، قال تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] أثبت لأهل العلم استنباطاً، فيدل على أنه لا يتوقف على محض السماع، والله أعلم، فافهم تغنم، والله أعلم.



---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن حبان في صحيحه (٧٥) من حديث ابن مسعود بنحوه اهـ.

(٢) رواه البخاري (١٤٣) ومسلم (٢٤٧٧) دون قوله «**وعلمه التأويل**»، ورواه بهذه الزيادة أحمد (١/ ٣١٤)، وابن ماجه (٧٠٥٥)، والحاكم (٣/ ٥٣٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

الباب التاسع

في الأذكار والدعوات

قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، وقال عليه الصلاة والسلام: «ذاكرُ اللهِ في الغافلين كالحيِّ بين الأموات»[(١)]، وقال عليه الصلاة والسلام: «ذاكرُ اللهِ في الغافلين كشجرة خضراء في وسط الهشيم»[(٢)] وقال عليه الصلاة والسلام: «ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله عزَّ وجلَّ فيه إلا حفَّتَ بهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله تعالى فيمن عنده»[(٣)]، وقال ﷺ: «ما قعد قوم مقعداً لم يذكروا الله، ولم يصلوا على رسول الله ﷺ إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة»[(٤)]، وقال ﷺ: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له»[(٥)]، وقال النبي ﷺ: «من سبَّح دُبُرَ كلِّ صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحمد ثلاثاً

---

(١) في البخاري (٦٤٠٧) «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت».

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أبو نعيم في (الحلية) (٦/ ١٨١)، والبيهقي في (الشعب) (٥٦٥) من حديث ابن عمر بسند ضعيف، وقال: «في وسط الشجر...» الحديث ا.هـ. وذكر السيوطي في (الجامع الكبير) أنه رواه ابن حصري في (أماليه)، وابن شاهين في (الترغيب في الذكر) وقال: حديث صحيح الإسناد، حسن المتن، غريب الألفاظ اهـ.

(٣) رواه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة.

(٤) رواه الترمذي (٣٣٨٠) بنحوه، وقال: حديث حسن.

(٥) رواه مالك (١/ ٤٢٢)، وقال ابن عبد البر: لا خلاف عن مالك في إرساله اهـ. ورواه الترمذي (٣٥٧٩) بنحوه، وقال: غريب من هذا الوجه.

وثلاثين، وكبَّر ثلاثاً وثلاثين، وختم المائة بـ: **لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير، غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر**»[١].

وروي أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، تولَّت عني الدنيا، وقلَّت ذات يدي، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أين أنت من صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق، وبها يرزقون**»، قال، قلت: وماذا يا رسول الله؟ قال: «**سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم وبحمده، أستغفر الله، مائة مرة ما بين طلوع الفجر إلى أن تصلي الصبح، تأتيك الدنيا راغمةً صاغرة، ويخلق الله تعالى من كل كلمة ملكاً يسبح الله تعالى إلى يوم القيامة لك ثوابه**»[٢]، وقال ﷺ: «**إذا قال العبد: الحمد لله، ملأت ما بين السماء والأرض، فإذا قال: الحمد لله ـ الثانية ـ ملأت ما بين السماء السابعة إلى الأرض السفلى، فإذا قال: الحمد لله ـ الثالثة ـ، قال الله تعالى: سَلْ تُعطَ**»[٣].

وقال ﷺ: «**الباقيات الصالحات هنَّ: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والله أكبر، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**»[٤]، وقال ﷺ: «**ما من رجل يقولها إلا غفرت له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر**»[٥] رواه ابن عمرو رضي الله عنه.

واعلم أن النافع من جملة الأذكار ما حضر فيه القلب، وما عداه فهو قليل

---

(١) رواه مسلم (٥٩٧) عن أبي هريرة.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه المستغفري في (الدعوات). من حديث ابن عمر، وقال: غريب من حديث مالك، ولا أعرف له أصلاً في حديث مالك، ولأحمد (٢/ ١٧٠) من حديث عبد الله بن عمرو: «**أن نوحاً قال لابنه: آمرك بلا إله إلا الله**» الحديث، ثم قال: «**وسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق**» وإسناده صحيح ا.هـ.

(٣) قال الحافظ العراقي: غريب بهذا اللفظ لم أجده اهـ.

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه النسائي في اليوم والليلة (٨٤٨) [وفي (الكبرى) (١٠٦٧٦)] وابن حبان (٨٤٠)، والحاكم (١/ ٥١٢) وصححه من حديث أبي سعيد [ووافقه الذهبي]، والنسائي في [الكبرى (١٠٦٤٨)]، والحاكم (١/ ٥٤١) من حديث أبي هريرة دون قوله: «**ولا حول ولا قوة إلا بالله**».

(٥) قال الحافظ العراقي: رواه الحاكم (١/ ٥٠٣) من حديث عبد الله بن عمرو، وقال: صحيح على شرط مسلم [ووافقه الذهبي]، وهو عند الترمذي (٣٤٦٠) وحسنه، والنسائي في اليوم والليلة (٨٢٢) اهـ.

الجدوى، فإن المقصود الأنس بالله، وذلك بالمداومة على الذكر مع حضور القلب، وبذلك تأمن سوء الخاتمة، والله أعلم.

فصل في آداب الدعاء:

فليترصد الأوقات الشريفة، ويكون على الوضوء مستقبل القبلة، ويكون بخفض الصوت والتضرع موقناً بالإجابة، مُلحّاً فيه، ويفتتح الدعاء بذكر الله تعالى وبالصلاة على رسوله ﷺ وبرَدِّ المظالم، قبل إقباله على الدعاء.

فضيلة الصلاة على رسول الله ﷺ: روي أنه عليه الصلاة والسلام جاء ذات يوم والبشرى تُرى في وجهه، فقال ﷺ: «**إنه جاءني جبريل عليه السلام، فقال: أما ترضى يا محمد أن لا يصلي عليك أحد من أمتك مرة إلا صليت عليه عشرة**»[1]، وقال: «**من صلى عليَّ صلَّت عليه الملائكة ما صلَّى عليَّ، فليُقْلِلْ عبدٌ ذلك أو ليكثر**»[2]، وقال ﷺ: «**من صلى عليَّ في كتاب لم تزل الملائكة يستغفرون له ما دام اسمي في ذلك الكتاب**»[3].

فضيلة الاستغفار: قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥] وقال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم والليلة سبعين مرة**»[4]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة**»[5]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**من أذنب ذنباً فعلم أن الله قد اطلع**

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه النسائي (٣/ ٥٠)، وابن حبان (٩١٥) من حديث أبي طلحة بإسناد جيد.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه ابن ماجه (٩٠٧) من حديث عامر بن ربيعة بإسناد ضعيف والطبراني في (الأوسط) بإسناد حسن. اهـ ورواه ابن عدي (٥/ ٢٢٧).

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني في الأوسط (١٨٥٦)، وأبو الشيخ في (الثواب)، والمستغفري في (الدعوات) من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه البخاري (٦٣٠٧) من حديث أبي هريرة إلا أنه قال: «أكثر من سبعين»، وهو في (الدعاء) للطبراني (١٨٣٨) كما ذكره المصنف.

(٥) قال الحافظ العراقي: رواه أبو داود (١٥١٤)، والترمذي (٣٥٥٩) من حديث أبي بكر، وقال: غريب وليس إسناده بالقوي.

عليه غفر له وإن لم يستغفر»[(١)]، وقال النبي ﷺ: **«يقول الله عزَّ وجلَّ: يا عبادي كلكم مذنب إلا من عافيته، فاستغفروني أغفر لكم، ومن علم أني ذو قدرة على أن أغفر له غفرت له ولا أبالي»**[(٢)]، وقال ﷺ: **«من قال: سبحانك ظلمتُ نفسي، وعملتُ سوءاً، فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، غفرت ذنوبه ولو كانت كدبيب النمل»**[(٣)].

وقال فضيل بن عياض[(٤)] رحمه الله: استغفار بلا إقلاع توبة الكاذبين.

فصل:

ويستحب أن يفتتح الدعاء بقوله: سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، وهو على كل شيء قدير، رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً، ثم يقول: اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رَبَّ كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه، وقل: اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي.

واعلم أن الدعوات كثيرة فاشتغل منها بما رأيت نفسك فيها حاضرة، والسلام على من اتبع الهدى.



---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني في الأوسط (٤٤٧٢) من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧) من حديث أبي ذر، وقال الترمذي: حسن، وأصله عند مسلم (٢٥٧٧) بلفظ آخر.

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه البيهقي في (الدعوات) من حديث علي: أن رسول الله ﷺ قال: **«ألا أعلمك كلمات تقولهن لو كان عليك كعدد النمل ـ أو كعدد الذر ـ ذنوباً غفر الله لك»** فذكره بزيادة: (لا إله إلا أنت) أوله، وفيه ابن لهيعة.

(٤) هو: **الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر**، الإمام القدوة الثبت، شيخ الإسلام، أبو علي التميمي اليربوعي، الخراساني، المجاور بحرم الله، حدث عنه ابن المبارك ويحيى القطان والشافعي وغيرهم، توفي بمكة سنة ١٨٧هـ «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٢١).

٥

الباب العاشر

في الأوراد

اعلم أن الله تعالى جعل الأرض ذلولاً لعباده ليتخذوها منزلاً، ويتزوَّدوا منها محترزين من مصائبها ومعاطبها، ويتحققوا أن العمر يسيرُ بهم سير السفينة براكبها، فالناس في هذا العالم سَفْر، وأول منازلهم المهد، وآخرها اللحد، والوطن هو الجنة أو النار، والعمر مسافة السفر، وسِنُوْه مراحله، وشهوره فراسخه، وأيامه أمياله، وأنفاسه خطواته، وطاعته بضاعته، وأوقاته رأس ماله، وشهواته وأغراضه قطاع طريقه، وربحه الفوز بلقاء الله في دار السلام مع المُلْك الكبير والنعيم المقيم، وخسرانه البعد من الله تعالى - والعياذ بالله - مع الأنكال والأغلال والعذاب الأليم في دركات الجحيم، فالغافل ولو عن نَفَسٍ من عمره متعرض لحسرة لا نهاية لها، وخسران لا تدرك له نهاية.

فصل في فضيلة الأوراد وترتيبها وأحكامها:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾ [المزمل: ٧ - ٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٢٥ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۝٢٦﴾ [الإنسان: ٢٥ - ٢٦]، فإن أردت أن تسعد سعادة لا تشقى بعدها فاستوعب جميع نهارك وليلك بالطاعة، فإن سيد المرسلين ﷺ مع أن الله تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر أُمر بذلك، فأنت بالمداومة

أحق، وأمرك على الخطر، فلا تشتغل بالكسب والأمور الدنيوية إلا بقدر حاجتك، وما عدا ذلك فاستعمله في طريق الآخرة.

ولا تترك قيام الليل، قال عليه الصلاة والسلام: «**لا بد من قيام الليل ولو قدر حلب شاة**»[1] ولا ينبغي أن تستجلب للنفس النوم بتمهيد الفرش الوطية، بل تشتغل بالصلاة والذكر إلى أن يغلبك النوم.

وقال النبي ﷺ: «**يعقد الشيطان على ناصية أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب مكان كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ وذكر الله تعالى انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلّى انحلت عقدة، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان**»[2].

وفي الخبر: أنه ذُكر عنده عليه الصلاة والسلام رجل نام كل الليل حتى أصبح، فقال: «**ذاك بال الشيطان في أذنه**»[3].

وقال النبي ﷺ: «**ركعتان يركعهما العبد في جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها، ولولا أنني أشق على أمتي لفرضتها عليهم**»[4].

بيان الليالي والأيام الفاضلة: والأيام قد سبق ذكرها، أما الليالي فخمس عشرة، وهي أوتار العشر الأخير من رمضان، وليلة السابع عشر من رمضان، فهي ليلة صبيحة يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، فيه كانت وقعة بدر، وأما الليالي الأخر، فأول ليلة من المحرم، وليلة عاشوراء، وأول ليلة من رجب، وليلة النصف

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه أبو يعلى من حديث ابن عباس في صلاة الليل مرفوعاً: «نصفه، ثلثه، ربعه، فواق حلب ناقة، فواق حلب شاة»، ولأبي الوليد بن مغيث من رواية إياس بن معاوية مرسلاً: «**لا بد من صلاة الليل ولو حلبة ناقة أو حلبة شاة**». ا.هـ ورواه الطبراني في «الكبير» (٧٨٧).

(٢) رواه البخاري (١١٤٢)، ومسلم (٧٧٦).

(٣) رواه البخاري (١١٤٤)، ومسلم (٧٧٤).

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه آدم بن أبي إياس في (الثواب)، ومحمد بن نصر المروزي في كتاب (قيام الليل) من رواية حسان بن عطية مرسلاً، ووصله أبو منصور الديلمي في مسند (الفردوس) من حديث ابن عمر ولا يصح. اهـ.

منه، وليلة سبع وعشرين منه، وهي ليلة المعراج، وفيها صلاة مأثورة فقد قال النبي ﷺ: «**للعامل في هذه الليلة حسنات مائة سنة، فمن صلى فيها اثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة ﴿قٓ﴾، يتشهد في كل ركعتين، ويسلم في آخرهن، ثم يقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، مائة مرة، ويستغفر الله تعالى مائة مرة، ويصلي على النبي ﷺ مائة مرة، ويدعو لنفسه ما شاء من أمر دنياه وآخرته، ويصبح صائماً، فإن الله تعالى يستجيب له دعاءه كلَّه إلا أن يدعو في معصية**»[1].

وأما ليلة النصف من شعبان ففيها مائة ركعة، في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة الإخلاص عشر مرات، ويستحب على الخصوص إحياء ليلتي العيدين، قال عليه الصلاة والسلام: «**من أحيى ليلتي العيدين لم يمت قلبه يوم تموت القلوب**»[2]، وآخر ليلة من ذي الحجة[3]، وفيها فضل عظيم.

تم ربع العبادات ويتلوه ربع العادات



(١) قال الحافظ العراقي: ذكر أبو موسى المديني في كتاب (فضائل الأيام والليالي) أن أبا محمد الحباري رواه من طريق الحاكم أبي عبد الله من رواية محمد بن الفضل عن أبان عن أنس مرفوعاً، ومحمد بن الفضل وأبان ضعيفان جداً، والحديث منكر. ا.هـ.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه ابن ماجه (١٧٨٢) بإسناد ضعيف من حديث أبي أمامة.

(٣) وفي الإحياء: (ليلة عرفة) بدل من آخر ليلة من ذي الحجة.

الربع الثاني

العادات

يتضمن الأبواب التالية:

١. آداب الأكل والشرب.

٢. آداب النكاح.

٣. آداب الكسب والمعاش.

٤. الحلال والحرام.

٥. آداب الصحبة.

٦. آداب العزلة.

٧. السفر.

٨. السماع والوجد.

٩. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١٠. آداب المعيشة وأخلاق النبوة.

الباب الحادي عشر

في آداب الأكل والشرب

وينبغي أن يكون أكلك على نية التَّقوِّي به على طاعة الله تعالى وعبادته بعد كونه حلالاً على ما سيأتي ذكره، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

وإذا كان أكلك لله فهو جدير بأن تُقَدِّم عليه غسل اليد، لقوله عليه الصلاة والسلام: **«الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر، وبعده ينفي اللمم»**[١]، وينبغي أن يكون على السُّفرة، فذلك أقرب إلى السنة، وكان عليه الصلاة والسلام إذا أتي بطعام وضعه على الأرض[٢]، لأنه أقرب إلى التواضع، وكان ﷺ يقول: **«لا آكل متكئاً، إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد، وأشرب كما يشرب العبد»**[٣].

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه القضاعي في مسند الشهاب (٣١٠) من رواية موسى الرضا عن آبائه متصلاً باللفظ الأول، وللطبراني في الأوسط (٧١٦٦) من حديث ابن عباس: **«الوضوء قبل الطعام وبعده مما ينفي الفقر»**، ولأبي داود (٣٧٦١)، والترمذي (١٨٤٦) من حديث سلمان: **«بركة الطعام الوضوء قبله، والوضوء بعده»** وكلها ضعيفة، ا.هـ.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد في كتاب الزهد (ص: ٦)، من رواية الحسن مرسلاً، ورواه البزار من حديث أبي هريرة نحوه وفيه مجاهد وثقه أحمد، وضعفه الدارقطني.

(٣) قوله ﷺ: **«لا آكل متكئاً»** رواه البخاري (٥٣٩٨)، وقوله: **«إنما أنا عبد»** إلى آخر الحديث رواه أبو الحسن المقري في الشمائل بلفظ: **«إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأفعل كما يفعل العبد»**، ورواه البزار من حديث ابن عمر، وروى الحديث بجملته الإمام أحمد في (الزهد). (ص: ٥).

وقيل: «أربع أحدثن بعد رسول الله ﷺ: الموائد والمناخل[1] والأشنان[2] والشبع»، ولا نقول إن الأكل على الموائد منهي عنه، فليس كل مبدع منهياً عنه.

وينبغي أن يحسن الجلسة على السفرة في أول جلوسه ويستديمها، هكذا كان يفعل رسول الله ﷺ، وربما جثى للأكل على ركبتيه، وجلس على ظهر قدميه، وربما نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى[3].

ويكره الأكل والشرب نائماً ومتكئاً إلا ما يُتنقَّل به، وليعزم على قلة الأكل والشرب فإنه لا يصدق في نية الأكل للعبادة إلا بذلك، قال النبي ﷺ: **«ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن لم يفعل فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس»**[4]، فإذاً ينبغي أن لا يُقْدِمَ على الطعام إلا بعد الجوع، فإن الشبع على الشبع يقسي القلب، ويمسك قبل الشبع، ولا ينتظر لذيذ الأطعمة والأدم، فإن من كرامة الخبز أن لا ينتظر به الأدم.

وينبغي أن يجتهد في تكثير الأيدي وإن كان من أهله وولده، فخير الطعام ما كثرت عليه الأيدي، كان عليه الصلاة والسلام لا يأكل وحده، رواه أنس رضي الله عنه[5].

---

(١) **المناخل**: جمع مُنْخُل، وهو الذي ينخل به الدقيق فيصفى ويعزل لبابه.

(٢) **الأشنان**: نبات يستعمل في غسل الأيدي والثياب.

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه أبو داود (٣٧٧٣) من حديث عبد الله بن بسر في أثناء حديث: «أتوا تلك القصعة فالتفوا عليها، فلما كثروا جثا رسول الله ﷺ...» الحديث، وله وللنسائي من حديث أنس: «رأيته يأكل وهو مقع من الجوع» أي: من شدة الجوع، وروى أبو الحسن المقري في (الشمائل) من حديثه «كان إذا قعد على الطعام استوفز على ركبته اليسرى وأقام اليمنى ثم قال: إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأفعل كما يفعل العبد» وإسناده ضعيف.

(٤) رواه الترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩) من حديث المقداد بن معد يكرب، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٥) قال الحافظ العراقي: رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف ا.هـ، وروى أبو داود (٣٧٦٤)، وابن ماجه (٣٢٨٦) قوله عليه الصلاة والسلام: **«فاجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه»**.

فصل في آداب الأكل:

وهو أن يبدأ باسم الله في أوله، والحمد لله في آخره، وحسُنَ أن يقول: بسم الله مع كل لقمة، حتى لا يشغله الشره عن ذكر الله، فيقول في اللقمة الأولى: بسم الله، وفي الثانية: بسم الله الرحمن، وفي الثالثة: بسم الله الرحمن الرحيم، ويجهر به ليُذكّر غيره، ويأكل باليمنى، ويبدأ بالملح، ويختم به، ويصغر اللقمة، ويجوّد مضغها، ولا يمد اليد إلى أخرى ما لم يبلع الأولى، وأن لا يذمّ مأكولاً، كان ﷺ لا يعيب طعاماً قط، كان إن أعجبه أكله وإلا تركه، وأن يأكل مما يليه إلا الفاكهة، فكان ﷺ يقول: «**كُلْ مما يليك**»[1]، ثم كان يدير يده على الفاكهة، فقيل له في ذلك، فقال ﷺ: «**ليس هو نوعاً واحداً**»[2]، وأن لا يأكل من ذروة القصعة ومن وسط الطعام، بل يأكل من استدارة الرغيف، وأن لا يقطع بالسكين لا الخبز ولا اللحم، فقد نهي عنه، قال ﷺ: «**انهشوا نهشاً**»[3] ولا يوضع على الخبز القصعة ولا غيرها إلا ما يؤكل به، قال ﷺ: «**أكرموا الخبز، فإن الله تعالى أنزله من بركات السماء**»[4]، ولا يمسح يده بالخبز، وقال النبي ﷺ: «**إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها، وليُمط ما كان بها من أذى، ولا يدعها للشيطان**»[5]، وليلعق أصابعه، ولا ينفخ في الطعام الحار، فذلك منهي عنه، ويأكل من التمر الأوتار، ولا يجمع بين التمر والنوى على طبق.

وأما الشرب فيأخذ الكوز بيمينه، ويقول: بسم الله، ويشربه مصّاً لا عَبّاً، فإن

---

(١) رواه البخاري (٥٣٧٧)، ومسلم (٢٠٢٢).

(٢) رواه الترمذي (١٨٤٨)، وابن ماجه (٣٢٧٤) من حديث عِكرَاش بنحوه، وقال الترمذي: غريب. وقال أيضاً: ولا نعرف لِعِكراش عن النبي ﷺ إلا هذا الحديث.

(٣) قال الحافظ العراقي: قال النسائي: منكر، ورواه الترمذي (١٨٣٥)، من حديث صفوان بن أمية «**وانهشوا اللحم**» وسنده ضعيف، وابن ماجه (٣٣٠٧).

(٤) قال المناوي في فيض القدير رقم (١٤٢٥): أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر، ورواه أبو نعيم في الحلية (٥/٢٤٦)، وقال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص: ٧٨): وكل هذه الطرق ضعيفة مضطربة، وبعضها أشد في الضعف من بعض. ا.هـ .

(٥) رواه مسلم (٢٠٣٣) من حديث أنس وجابر.

الِكبَاد من العبِّ، ويقول بعد الشرب: الحمد لله الذي جعله عَذْباً فُراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا، وكل ما يدار على القوم يدار يُمنَةً، ويشرب في ثلاثة أنفاس، يحمد الله تعالى في أواخرها، ويسمي في أوائلها، فإذا فرغ من الطعام يُستحب أن يَلْتقط فُتات الطعام، ويتخلل[١]، ويقال: إن من لعق القصعة وشرب ماءها كان له عتق رقبة، ويقول: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتَنزل البركات، اللهم لا تجعله قوةً على معصيتك، ويقرأ سورة ﴿الإخلاص﴾ و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾، ولا يقوم حتى يرفع الطعام والمائدة، وإن كان لغيره فليَدْعُ له، ويقول: أكلَ طعامَكُم الأبرار، وأفطر عندكم الصائمون، وصلَّتْ عليكم الملائكة. ويستحب أن يقول: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا سيدُنا ومولانا، ثم يُتَمِّم بغسل يديه.

فصل:

وإذا كان في جمْعٍ فيصبر إلى أن يمد يده من هو أكبر منه سناً إلا أن يكون هو المتبوع، ويتحدثون بما فيه خير، ويرفق برفيقه، ولا يحلف على أحدٍ، قال الحسن ابن علي رضي الله عنه: الطعام أهون من أن يُحلفَ عليه، ولا بأس بإعادة قوله: كُلْ ثلاثاً، وإذا أكرمه غيره بتقديم الطست إليه فليقبل، اجتمع أنس بن مالك وثابت البناني[٢]، فقدم أنس الطست إليه فامتنع، فقال أنس رضي الله عنه: إذا أكرمك أخوك فاقبل كرامته ولا تردَّها، فإنما يكرم الله عزَّ وجلَّ.

ولا بأس بالاجتماع في الطست على غسل اليد، ويستحب أن يجمع ماء الكل في الطست ما أمكن، قال عليه الصلاة والسلام: «**اجمعوا وَضوءكم جمع الله شملكم**»[٣] وحَسُنَ أن يصب صاحب المنزل الماء على أيديهم، ويُمنةً يُدارُ الطست.

---

(١) يتخلل: أي يخلل أسنانه، فيخرج ما بينها من طعام.

(٢) هو: ثابت بن أسلم البناني، أبو محمد البصري، إمام محدث توفي سنة ٢٢٣ هـ «تهذيب الكمال» (٤/٨١١).

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه القضاعي في مسند الشهاب (٧٠٢) من حديث أبي هريرة بإسناد لا بأس به وجعل ابن طاهر مكان أبي هريرة إبراهيم، وقال: إنه معضل.

وينبغي أن لا يفعل ما يكرهه القوم، من النظر إليهم في أكلهم، ومن نفض اليد في القصعة، والإمساك قبلهم إظهاراً لقلة أكله، قال جعفر بن محمد[1]: إذا قعدتم مع الإخوان على المائدة فأطيلوا الجلوس، فإنها ساعة لا تحسب عليكم من أعماركم، وقال عليه الصلاة والسلام: «**لا تزال الملائكة تصلي على أحدكم ما دامت مائدته موضوعةً بين يديه حتى ترفع**»[2]. (١٢)

وقال الحسن: كل نفقة ينفقها الرجل على نفسه وأبويه فمن دونهم يحاسب عليها غداً إلا نفقة الرجل على إخوانه في الطعام، فإنها له حجاب من النار.

وقال علي رضي الله عنه: لأن أجمع إخوتي على صاع من طعام أحب إليَّ من أن أعتق رقبة.

وكانوا إذا اجتمعوا على قراءة القرآن لا يتفرقون إلا عن ذَوَاق.

وفي الخبر: يقول الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة: «**يا ابن آدم جعتُ فلم تطعمني، فيقول: كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ فيقول الله تعالى: جاع أخوك المسلم فلم تطعمه، ولو أطعمته كنت أطعمْتني**»[3]. (١٨)

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وصلى بالليل والناس نيام**»[4].

ولا ينبغي أن يمشي إلى الطعام الذي لم يُدْعَ إليه، ففي الخبر: «**أنّ من مشى إلى طعام لم يُدْعَ إليه مشى فاسقاً، وأكل حراماً**»[5] (١٥) إلا إذا كان يعلم من ذلك

---

(١) هو: جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه توفي سنة ١٤٨ هـ «تهذيب الكمال» (٥/ ٩٥٠).

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني في الأوسط (١٠٣٩) و (٤٧٢٩) من حديث عائشة بسند ضعيف.

(٣) رواه مسلم (٢٥٦٩) من حديث أبي هريرة بلفظ «استطعمتك فلم تطعمني».

(٤) رواه الترمذي (٢٥٢٧) من حديث علي، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، وقد تكلم فيه من قِبَلِ حفظه اهـ.

(٥) قال الحافظ العراقي: رواه البيهقي [في السنن (٧/ ٢٦٥)] من حديث عائشة نحوه، وضعفه، ولأبي داود (٣٧٤١) [والقضاعي(٥٢٧)] من حديث ابن عمر: «من دخل على غير دعوة دخل سارقاً وخرج مُغيراً» وإسناده ضعيف.

الرجل فرحه به، قصد رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما منزل أبي الهيثم بن التيِّهان وأبي أيوب الأنصاري لأجل طعام يأكلونه، وكانوا جياعاً[1].

فإن دخل ولم يجد صاحب الدار، وعلم أنه يفرح، فيقدم طعامه ويأكله.

ومن الآداب أن لا يقترح على أخيه شيئاً معيناً فلعله يعسر عليه إلا إذا وثق به، وإن اقترح عليه أحد الشيئين فليختر أحبهما إليه، ولا بأس أن يقول لهم: اقترحوا ما شئتم، ففيه الثواب الجزيل، فقد روى جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من لذذ أخاه بما يشتهي كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة، وأطعمه الله تعالى من ثلاث جنات، جنة الفردوس وجنة عدن وجنة الخلد»[2]، وأن لا يقول له: هل أقدم لك مطعماً؟ بل ينبغي أن يقدم له فإن اشتهى أكل وإلا رفع، هكذا قاله الثوري.

فصل في آداب الضيافة

قال عليه الصلاة والسلام: **«لا تتكلفوا للضيف فتبغضوه، فإن من أبغض الضيف فقد أبغض الله، ومن أبغض الله فقد أبغضه الله»**[3].

والإجابة سنةٌ للفقير والغني، وفي بعض الكتب المنزلة: سر ميلاً عُدْ مريضاً، سر ميلين شيِّع جنازة، سر ثلاثة أميال أجب دعوة. وقال ﷺ: **«لو دعيت إلى كُراعٍ**

---

(١) قال الحافظ العراقي: أما قصة أبي الهيثم فرواها الترمذي (٢٣٦٩) من حديث أبي هريرة، وقال: حسن غريب صحيح، والقصة عند مسلم (٢٠٣٨) لكن ليس فيها ذكر لأبي الهيثم وإنما قال: «رجل من الأنصار»، وأما حديث قصدهم منزل أبي أيوب فرواها الطبراني في (المعجم الصغير) (١٨٥) من حديث ابن عباس بسند ضعيف.اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: ذكره ابن الجوزي في (الموضوعات: ٢/ ٨٨) من رواية محمد بن نعيم عن ابن الزبير عن جابر، وقال أحمد بن حنبل: هذا باطل كذب .اهـ

(٣) رواه البيهقي في الشعب (٩٥٩٩) بلفظ **«لا يتكلفن أحد للضيف ما لا يقدر عليه»**، وقال الحافظ العراقي: رواه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث سلمان: **«لا يتكلفن أحد لضيفه ما لا يقدر عليه»** وفيه محمد بن الفرج الأزرق تكلم فيه اهـ، وروى ابن عساكر: **«لا تكلَّفوا للضيف»**، وفي البخاري (٧٢٩٣) عن عمر رضي الله عنه: **نهينا عن التكلف.**

لأجبت»[١]، وهو موضع على أميال من المدينة، أفطر عليه الصلاة والسلام لما بلغه في رمضان، وقصر عنده في سفره.

ويفطر إذا كان صائماً من التطوع، فإدخال السرور على قلبه أفضل، ويمتنع من الإجابة إن كان الطعام أو الموضع أو الفراش فيه شبهة، أو كان الداعي فاسقاً أو ظالماً أو مبتدعاً أو طالباً بذلك للمباهاة، وينوي بالإجابة طاعةً لا قضاء شهوة، ولا يخرج من منزل المضيف إلا بإذنه.

وروي أن ابن عمر رضي الله عنه قال: كنا نأكل على عهد رسول الله ﷺ ونحن نمشي، ونشرب ونحن قيام[٢].

ويستحب أن يُحْمَلَ طَعَامٌ إلى أهل الميت، فافهم تغنم، والله أعلم، وإليه المرجع والمآب.



(١) رواه البخاري (٢٥٦٨) أبي هريرة.

(٢) رواه الترمذي (١٨٨٠)، وابن ماجه (٣٣٠١)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

الباب الثاني عشر

في آداب النكاح

اعلم أن العلماء اختلفوا فيه، حتى ذهب بعضهم إلى أنه أفضل من التخلّي للعبادة، واعترف آخرون بفضله ولكن قدّموا عليه التخلّي ما لم تَتُقْ نفسه إلى النكاح، وذهب بعضهم إلى أن الأفضل في زماننا تركه، إذ غالب الأكساب محظورة، وأخلاق النساء مذمومة.

ويدل على الترغيب فيه: قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النور: ٣٢] وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: ٧٤].

وقال النبي ﷺ: «**النكاح سنتي، فمن أحب فطرتي فليَسْتَنَّ بسنَّتي**»[1].

ويدل على الترغيب عنه قوله ﷺ: «**خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ، الذي لا أهل له ولا ولد**»[2] وقال ﷺ: «**يأتي على الناس زمان يكون هلاك**

(١) قال الحافظ العراقي: رواه أبو يعلى في (مسنده) مع تقديم وتأخير من حديث ابن عباس بسند حسن اهـ. ورواه بتمامه البيهقي في السنن (٧/ ٧٨) وابن عساكر من حديث أبي هريرة، ورواه كذلك البيهقي أيضاً والضياء من حديث عبيد بن سعد، وقال البيهقي: هو مرسل، وقال الهيثمي: ورجاله ثقات.اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أبو يعلى من حديث حذيفة، ورواه الخطابي في (العزلة) من حديثه وحديث أبي أمامة، وكلاهما ضعيف. ا.هـ

الرجل على يد زوجته وأبويه وولده، يعيِّرونه بالفقر، ويكلفونه ما لا يطيق، فيدخل المداخل التي يذهب فيها دينه فيهلك»[1].

فصل في فوائد النكاح:

وهي كثيرة، فمنها الولد الصالح، وكسر الشهوة، وتدبير المنزل، وكثرة العشيرة، وثواب المجاهدة في القيام بنفقتهم، فإن كان الولد صالحاً لحقه بركة دعائه، وإن توفي كان له شفيعاً.

وآفات النكاح: أنه يعسر عليه الإنفاق من الحلال وطلبه وهو واجب، ولعله أيضاً يقصر عن القيام بحقها، فلها حقوق، ويلزمه حسن الاحتمال والرفق بهن، وهذا لا يقوى عليه إلا الأقوياء.

ومن الآفات العظيمة أن يكون الأهل والولد شاغلين عن دوام ذكر الله تعالى، وسلوك طريق الآخرة، ولعله يورث البخل في الغالب، وهو من المهلكات.

وقد نبهناك على الفوائد والآفات، وهو يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، فتأمل حالك، واختر لنفسك ما هو أقرب لك إلى طريق الآخرة، والله اعلم.

فصل فيما يختار حالة العقد من أحوال المرأة، وشروط العقد:

وشروطه حتى ينعقد أربعة:

١. إذن الولي، فإن لم يكن فالسلطان.

٢. ورضا المرأة إن كانت ثيباً بالغةً.

٣. وحضور شاهدين ظاهري العدالة، وينعقد بمستوري الحال.

٤. وإيجاب وقبول متصل بلفظ الإنكاح أو التزويج أو معناهما الخاص بكل

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الخطابي في (العزلة) من حديث ابن مسعود نحوه، وللبيهقي نحوه في (الزهد) من حديث أبي هريرة، وكلاهما ضعيف. ا.هـ

لسان من شخصين مكلفين ليس فيهما امرأة، سواء كانا هما الزوج والولي أو وكليهما.

وأما آدابه: فتقديم الخِطبة مع الولي، لا في حال عِدَّتها، ولا في حال سبق خطبة من غيره، فقد نهى رسول الله ﷺ عن الخِطبة على الخِطبة[1].

ومن آدابه الخُطبة قبل النكاح، ومزج التحميد بالإيجاب والقبول، فيقول المزوِّج: بسم الله، والحمد لله، والصلاة على رسول الله ﷺ، زوَّجْتُكَ، فيقول الزوج كذلك، ثم يقول: قبلت نكاحها على هذا الصداق.

وإلقاء أمر الزوج على البكر مستحب، فإنه أقرب إلى الأُلفة.

وكذلك يستحب تقديم النظر إليها.

ومن الآداب إحضار جمع من أهل الصلاح للاستظهار وراء العدلين.

وينبغي أن ينوي بالنكاح غضَّ البصر، وطلب الولد الصالح، وتكثير الأمة.

ومن الشرائط:

- أن لا تكون رقيقة ما دام الزوج قادراً على مهر الحرة.

- ولا تكون محرمة من الرضاع، فإنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، والمحرِّم خمس رضعات، وما دونها لا يحرِّم.

وأما الخصال المطلوبة لدوام العيش فثمان: الدين، والخُلق، والحُسْن، وخِفّة المهر، والولادة، والبكارة، والنسب، وأن لا تكون قرابة قريبة، فكل ذلك مما دلت عليه الآثار والأخبار.

فصل في آداب المعاشرة، وما على الزوج والزوجة.

أما الزوج فعليه الوليمة، قال عليه الصلاة والسلام: «**أولم ولو بشاة**»[2].

---

(١) رواه البخاري (٥١٤٢)، ومسلم (١٤١٢).

(٢) رواه البخاري (٥١٥٣)، ومسلم (١٤٢٧).

وعليه حسن المعاشرة والرعاية، وحسن السياسة في الغيرة، والنفقة، والتعليم، والقسم، والتأديب في النشوز، والوقاع، ويكره العزل.

وإذا ولد له ولد فيؤذن في أذن المولود، كذلك روي عنه ﷺ[(١)]، وأن يحسن اسمه، قال عليه الصلاة والسلام: **«إنكم تُدْعَوْن يوم القيامة بأسمائكم، فأحسنوا أسماءكم»**[(٢)]، ومن كان له اسم يكرهه فيستحب تبديله، فعل ذلك رسول الله ﷺ، وقال عليه الصلاة والسلام: **«لا تجمعوا بين اسمي وكنيتي»**[(٣)].

ويستحب التحنيك بالتمر أو بحلاوة.

وعلى المرأة طاعته في جميع الأحوال، والشفقة على أحواله وأمواله، والرفق بأقاربه، وقد روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: **«حرَّم الله على كل آدمي دخول الجنة قبلي، غير أني أنظر عن يميني فإذا امرأة تبادرني، فأقول: ما لهذه تبادرني الباب؟ فيقال لي: يا محمد هذه امرأة كانت حسناء، وكان عندها يتامى لها، فصبرت عليهن حتى بلغ أمرهن الذي بلغ، فشكر الله تعالى لها ذلك»**[(٤)].

وروي أنه عليه الصلاة والسلام قال: **«لا يحلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تَحِدَّ على ميت أكثر من ثلاثة أيام، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً»**[(٥)].

ويلزمها لزوم مسكن النكاح إلى آخر العدة، والله أعلم بالصواب.



---

(١) روى الإمام أحمد في (مسنده) (٦/٩) من حديث أبي رافع: **«رأيت رسول الله ﷺ أذَّن في أذن الحسين حين ولدته فاطمة»**، ورواه أبو داود (٥١٠٥)، والترمذي (١٥١٤) وصححه، إلا أنهما قالا: الحسن مكبراً، وضعفه ابن القطان (من تخريج العراقي).

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أبو داود (٤٩٤٨) من حديث أبي الدرداء، قال النووي: بإسناد جيد، وقال البيهقي: إنه مرسل.اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (٢/٤٣٣) وابن حبان (٥٨١٧) من حديث أبي هريرة، ولأبي داود (٤٩٦٦) والترمذي (٢٨٤٢) وحسنه، وابن حبان من حديث جابر: **«من تسمى باسمي فلا يتكنى بكنيتي، ومن تكنى بكنيتي فلا يتسمى باسمي»**.

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه الخرائطي في (مكارم الأخلاق) من حديث أبي هريرة بسند ضعيف. ورواه الديلمي في مسند الفردوس. اهـ

(٥) رواه البخاري (١٢٨٠)، ومسلم (١٤٨٦).

الباب الثالث عشر

في آداب الكسب والمعاش وفيه فصول

يدل على فضله قوله عليه الصلاة والسلام: «من الذنوب ذنوب لا يكفِّرها إلا الهمُّ في طلب المعيشة»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: «التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء»[2].

وفي الخبر: «إن الله تعالى يحب المؤمن المحترف»[3]، وقد ورد أيضاً قوله ﷺ: «ما أُوحي إليَّ أن اجمع المال وكن من التاجرين ولكن أوحي إليَّ أن ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٨ـ ٩٩]»[4].

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني في الأوسط (١٠٢) وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٣٥)، والخطيب في (تلخيص المتشابه) من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف.اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (١٢٠٩)، والحاكم (٢/ ٦) من حديث أبي سعيد، قال الترمذي: حسن، وقال الحاكم: إنه من مراسيل الحسن، ولابن ماجه (٢١٣٩) والحاكم (٢/ ٦) نحوه من حديث ابن عمر.اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني في الأوسط (٨٩٣٤) وابن عدي من حديث ابن عمر وضعفه اهـ.

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٣١)، والحاكم في (تاريخه)، وقال الحافظ العراقي: رواه ابن مردويه في التفسير من حديث ابن مسعود بسند فيه لين. ا.هـ

واعلم أن السؤال لا يخلو عن نوع من الكراهية، فالكسب أولى إلا في حق من يتعلق به مصالح المسلمين، فعند ذلك يكون ترك الكسب والقيام بتلك المصالح أولى، فيُكفى من مال المصالح أو غيرها، ولهذا أشارت الصحابة على أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين لما وُلي الخلافة بترك التجارة، فتركها، وكان يُكفى من مال المصالح، وهو يقوم بمصالح الخلق.

فصل في بيان شروط صحة المعاملات.

أما المبيع فله ثلاثة أركان:

العاقد، والمعقود عليه، واللفظ.

فلا ينبغي أن يعامل أربعاً: الصبي، والمجنون، والعبد، والأعمى، ويجوز البيع من الكافر، ولكن لا يباع منه المصحف والعبد المسلم، ولا يباع منه السلاح إن كان من أهل الحرب.

ولا يجوز بيع الخمر، والوَدَكِ النَّجِس[(١)]، والعاج، ولا شراؤها، ويجوز بيع الدهن الذي نجس بوقوع نجاسة فيه، ولا يجوز بيع الكلب والحشرات، والملاهي، ويجوز بيع ما عليه الصور من الفرش واستعمالها، لقولهﷺ لعائشة رضي الله عنها: «**اتخذي منها نَمَارق**»[(٢)]، ولا يجوز استعمالها منصوبة، ويجوز موضوعة.

وينبغي أن يكون مملوكاً، مقدوراً على تسليمه، معلومَ العين، وينبغي أن يأتي بلفظ الإيجاب والقبول، وفي المحقرات والمطعومات وجهٌ أو قول ـ خرجه ابن سريج[(٣)] ـ أنه يكفي فيها المعاطاة لمسيس الحاجة.

وأما الربا فقد ورد فيه تهديدات كثيرة، فليحترز منه.

---

(١) **الودك النجس**: الدسم والدهن المستخرج من لحم الحيوان غير المأكول.

(٢) رواه البخاري (٥٩٥٤)، ومسلم (٢١٠٧).

(٣) هو: **أبو العباس أحمد بن عمر بن سُريج** القاضي المشهور شيخ المذهب وحامل لوائه له مصنفات كثيرة يقال: إنها بلغت أربعمئة، سمع الحسن بن محمد الزعفراني وأبا داود السجستاني، وروى عنه أبو القاسم الطبراني الحافظ. اهـ «طبقات الشافعية» (٣/ ٢١).

والسَّلَم مباح، وكذا الإجارة، وشرائطها مستوفاة في كتب الفقه، فلتُطَالَع.

فصل في بيان العدل والإحسان واجتناب الظلم في المعاملة

اعلم أن المعاملة قد يفتي المفتي فيها بالصحة، ولكن تشتمل على نوع من الظلم، يتعرض به العامل لسخط الله تعالى.

فمنها الاحتكار، وهو في الطعام، والمحتكر ملعون، وفيه تشديدات عظيمة.

ومنها إخفاء العيوب، فإن فيه خيانة.

ومنها تعديل الميزان، ففي تركه تغليظات عظيمة، وفيه قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ [المطففين: ١].

وبالجملة فجميع أنواع التلبيس محرم، فلا يجوز أن يُقْدِمَ على شيء لا يريد شراءه، ويطلب ما فوق ثمنه ترغيباً للمشتري فيه.

ونُهِيَ عن بيع حاضر لباد[1]، ولو اشترى الشيء بمسامحة من رفيقه أو ولده فليذكره للمشتري حتى لا يعوّل على شرائه.

وينبغي أن يحسن، وهو أن لا يَغْبِن غيره بما لا تَجْرِ العادة بمثله، والمساهلة في البيع والشراء مندوب إليها، قال عليه الصلاة والسلام: «**رحم الله امرأً سهل البيع، سهل الشراء، سهل القضاء، سهل الاقتضاء**»[2] ٦ فمن اغتنم دعاء رسول الله ﷺ يكون في معاملته ربح الدنيا والآخرة، وقال ﷺ: «**مَن أَنْظَرَ معسراً أو تركه حاسبه الله حساباً يسيراً**»[3] ٧.

---

(١) وذلك بأن يقول الحاضر للبدوي الذي قدم بسلعة ـ وهي مما يحتاج إليها الناس في البلد ـ: لا تبع الآن حتى أبيعها لك قليلاً قليلاً بثمن غالٍ، وحرمة ذلك لما فيه من التضييق على الناس، قال عليه الصلاة والسلام: «لا يبع حاضر لباد» البخاري (٢١٤٠)، ومسلم (١٥١٥).

(٢) رواه البخاري (٢٠٧٦) بلفظ: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى».

(٣) رواه مسلم (٣٠٠٦) بلفظ: «من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله» وعنده (٢٦٩٩) بلفظ: «من يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة».

ومن الإحسان أن يقيل من يستقيله، قال عليه الصلاة والسلام: «**من أقال نادماً صفْقَتَه أقال الله تعالى عثرته يوم القيامة**»[1].

فصل:

وينبغي أن لا تشغلك التجارة، فتطلب الربح في الدنيا، وتضيع رأس المال في الآخرة، فتخسر خسراناً مبيناً، فلتكن نيتك من التجارة الكسب في طلب الحلال، والتعفف عن السؤال، وتحصيل الزاد لتتفرغ به لطلب الآخرة.

واعلم أن السَّلف رضي الله تعالى عنهم كرهوا أخذ الأجرة على ما هو من قبيل العبادات وفروض الكفايات، كغسل الأموات ودفنهم، والأذان، وصلاة التراويح.

وإذا كان يريد بتجارته ما قدمناه فلا يشغله سوق الدنيا عن سوق الآخرة، وهو المساجد، قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]، وذلك بأن يلازم من أول الصبح إلى ضحوة النهار المساجد، ويرجع إليها عند فرائض الصلوات، فكلما قرع الأذان سمعه يترك ما هو فيه من المعاملات الدنيوية، كان بعضهم إذا سمع الأذان وقد رفع المطرقة لا يوقعها بل يتركها، وليكن بقلبه في السوق ذاكراً لله تعالى، فقد ورد فيه فضائل كثيرة، وقالﷺ: «**من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حيٌّ لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة**»[2].

وينبغي أن يكون مراقباً لمعاملاته حتى لا يجري فيها ما يتعذر عليه الخروج من عُهدته يوم الحساب، فإنه سيحاسب على ما جرى منه من المعاملات، ويُطالب فيها بنيَّته وبحقوق الناس، أحفظها أم ضيعها؟، والله أعلم بالصواب.



---

(١) رواه أبو داود (٣٤٦٠) والحاكم (٢/ ٤٥) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٢) رواه الترمذي (٣٤٢٥) وقال: حديث غريب، ورواه الحاكم (١/ ٥٣٨) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

الباب الرابع عشر

في الحلال والحرام

روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**طلب الحلال فريضة على كل مسلم**»(١).

وقد رَكَنَ بعض من استولى عليه الكسل إلى أنه لم يبق الحلال، فاسترسل في كل شيء، وذلك جهل، فقد قال ﷺ: «**الحلال بيِّن، والحرام بيِّن، وبينهما أمور متشابهات**»(٢).

فضيلة الحلال: قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال ﷺ: «**من أكل الحلال أربعين يوماً نوَّر الله قلبه، وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**» وفي رواية: «**زهده الله في الدنيا**»(٣).

---

(١) قال الحافظ العراقي: للطبراني في الأوسط (٨٦١٠) من حديث أنس: «**واجب على كل مسلم**» وإسناده ضعيف اهـ ورواه الديلمي، قال الهيثمي: إسناده حسن. اهـ

(٢) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٨٩) من حديث أبي أيوب: «**من أخلص لله أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**»، ولابن عدي نحوه من حديث أبي موسى وقال: حديث منكر. اهـ

وروي أن سعداً سأل رسول الله ﷺ أن يسأل الله تعالى أن يجعله مستجاب الدعوة، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أطب طُعْمَتَك، تُسْتَجب دعوتُك**»[1].

وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ: «**إنّ لله مَلَكاً على بيت المقدس ينادي كل ليلة: من أكل حراماً لم يُقبل منه صَرف ولا عدل**»[2] فقيل: الصَّرف النافلة، والعدل الفريضة.

وقال ﷺ: «**من اشترى ثوباً بعشرة دراهم وفي ثمنه درهم حرام لم يقبل الله صلاته ما دام عليه**»[3]، وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**كل لحم نبت من الحرام فالنار أولى به**»[4]، وقال النبي ﷺ: «**من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبالِ الله تعالى من أين أدخله النار**»[5]، وقال ﷺ: «**العبادة عشرة أجزاء، فتسعة منها في طلب الحلال**»[6] روي مرفوعاً وموقوفاً، وقال ﷺ: «**من أصاب مالاً من مأثم، فوصل به رحماً، أو تصدق به، أو أنفقه في سبيل الله، جمع الله له ذلك جميعاً ثم قذفه في النار**»[7].

وروي أن الصديق رضي الله عنه شرب لبناً من كسب عبده، ثم سأل عبدَه، فقال: تكهّنت لقوم فأعطوني، فأدخل أصبعه في فيه، وجعل يقيء حتى ظننت أنه ستخرج رُوحُه، ثم قال: اللهم إني أستغفرك وأعتذر إليك مما حملت العروق،

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني في الأوسط (٦٤٩٥) من حديث ابن عباس وفيه من لا أعرفه. اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: لم أقف له على أصل، ولأبي منصور الديلمي في (مسند الفردوس) من حديث ابن مسعود: «من أكل لقمة من حرام لم تقبل له صلاة أربعين ليلةً» الحديث، وهو منكر.

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (٢/٩٨) من حديث ابن عمر بسند ضعيف. اهـ

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (٦١٤) من حديث كعب بن عجرة وحسنه. اهـ

(٥) قال الحافظ العراقي: رواه الديلمي في (مسند الفردوس) من حديث ابن عمر، قال ابن العربي: باطل لا يصح.

(٦) قال الحافظ العراقي: رواه الديلمي من حديث أنس إلا أنه قال: «**تسعة في الغنى، والعاشرة كسب اليد من الحلال**»، وهو منكر اهـ، وفي رواية للديلمي «**العافية عشرة أجزاء تسعة في طلب المعيشة وجزء من سائر الأشياء**».

(٧) قال الحافظ العراقي: رواه أبو داود في المراسيل (١٣١) من رواية القاسم بن مخيمرة مرسلاً اهـ.

وخالط الأمعاء[1]، وفي الخبر أنه عليه الصلاة والسلام أُخبِر بذلك، فقال: أو ما علمتم أن الصدِّيق لا يدخل جوفه إلا طيّباً[2].

وقال ابن عباس رضي الله عنه: لا يقبل الله صلاة امرئ في جوفه حرام.

وقال سهل[3] رضي الله عنه: من أراد أن يُكاشَفَ بأحوال الصدِّيقين، فلا يأكل إلا حلالاً طيباً، ولا يعمل إلا في سنة أو ضرورة.

فصل في بيان درجات الحلال:

واعلم أنه تحلُّ الأمور المأخوذة من دار الحرب بأي طريق أخذت، وما يملك بالاصطياد أو الاحتطاب، أو يستخرج من المعادن، وما يؤخذ من أهل الحرب، إنما يحل بعد إخراج الخمس، إذا كان بقتال من السلطان، والطين الذي يؤكل إنما يحرم على من يتضرر به، وقد ورد فيه مَنَاهٍ تُشعر بعموم التحريم، فينبغي أن يُحتَرَزَ منه.

بيان درجات الحلال والحرام: اعلم أن الحرام كلّه خبيث، إلا أنَّ بعضَه أخبث من بعض، والحلال كله طيب، إلا أن بعضه أطيب.

فأول الدرجات وأقلّها أن يحترز مما يفتي الفقهاء بتحريمه.

الدرجة الثانية: ورع الصالحين، وهو الامتناع عما يتطرق إليه احتمال التحريم، وإن كان المفتي يرخص فيه بناء على الظاهر، ولكنه من مواقع الشبه على الجملة.

الدرجة الثالثة: ما لا تحرمه الفتوى، ولا شبهة في حله، ولكن يُخاف أداؤه إلى محرم، وهو ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس.

الدرجة الرابعة: ما لا بأس به أصلاً، ولا يُخاف منه أن يؤدي إلى ما به بأس،

---

(١) رواه البخاري (٣٨٤٢) بنحوه.

(٢) قال الحافظ العراقي: لم أجده اهـ.

(٣) هو: سهل بن عبد الله بن يونس التُّسْتَرِي، أبو محمد، أحد أئمة القوم وعلمائهم، والمتكلمين في الإخلاص وعيوب الأفعال، صحب خاله محمد بن سوار وشاهد ذا النون المصري، توفي سنة ٢٨٣ هـ، «طبقات الصوفية» (ص: ٢٠٦).

ولكنه لغير الله تعالى، ولا على نية التقوي به على العبادة، أو يتطرق إلى أسبابه المسهلة له كراهية تحريم أو معصية، والامتناع منه ورع الصدِّيقين.

فصل في بيان مراتب الشبهات:

قال رسول الله ﷺ: «**الحلال بيِّن، والحرام بيِّن، وبينهما أمور متشابهات، لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات واقَعَ الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه**»[1].

بيان القسم المتوسط: وهو الشبهة، ومثاله: أن الماء من المطر حلال قطعاً قبل أن يقع في ملك الغير، والحرام المحض هو الخمر مثلاً.

ومثارات الشبهة خمسة: أولها ما وقع الشك في سببه المحرم والمحلل، وذلك لا يخلو إما أن يكون متعادلاً، أو غلب أحد الاحتمالين، فإن تعادل الاحتمالان كان الحكم لما عرف قبله، فيستصحب، وإن غلب أحد الاحتمالين كان الحكم للغالب، ونبين ذلك بأربعة أقسام:

القسم الأول: أن يكون التحريم معلوماً، ثم يقع الشك في المحلل، مثاله: أن يرمي السهم إلى صيد فيجرحه، ويقع في الماء فيصادفه ميتاً، ولا يدري أنه مات بالغرق أو بالجرح فهذا حرام، لأن الأصل التحريم إلا إذا مات بطريق معين، وقد وقع الشك في الطريق المعين، فلا يترك اليقين بالشك، والله أعلم.

القسم الثاني: أن يُعرفَ الحلُّ ويُشكَّ في المحرم، فالحكم للحل، كما إذا نكح رجلان امرأتين، وطار طائر، فقال أحدهما: إن كان هذا غراباً فامرأتي طالق، وقال الآخر: إن لم يكن غراباً فامرأتي طالق، وبقي ملتبساً، فلا يحكم بتحريم ألبتة ما لم يتبين، والله أعلم.

القسم الثالث: أن يكون الأصل التحريم ولكن طرأ ما أوجب تحليله بظن غالب، فهو مشكوك فيه، والغالب حِلُّه، مثاله: أن يرمي إلى صيد فيغيب، ثم يدركه ميتاً وليس عليه أثر سوى سهمه، ولكن يحتمل أنه مات بسقطة، أو بسبب

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

آخر، فإن ظهر سبب آخر من صدمة أو سقطة التحق بالقسم الأول، وقد اختلف قول الشافعي رحمه الله تعالى في هذا القسم، والمختار أنه حلال.

القسم الرابع: أن يكون الحِلُّ معلوماً، ولكن يغلب على الظن طَرَيَان محرَّم بسبب معتبر شرعاً، فيرتفع الاستصحاب لضعفه، ويحكم بغالب الظن، مثاله: أن يغلب على ظنه نجاسة أحد الإناءين بالاعتماد على علامة معينة توجب غلبة الظن، فتوجب تحريم شربه، كما أوجبت منع الوضوء به.

المثار الثاني للشبهة: شكٌّ منشؤه الاختلاط، وذلك بأن يختلط الحرام بالحلال، فيشتبه الأمر ولا يتميز، والخلط لا يخلو إما أن يقع بعدد لا يحصر من الجانبين، أو من أحدهما، أو بعدد محصور، فإن اختلط المحصور بالمحصور فلا يخلو إما أن يكون اختلاط امتزاج كالمائعات، أو اختلاط استبهام مع التمييز كالأعبد وغيرها، وذلك يتبين بأقسام ثلاثة:

القسم الأول: أن تستبهم العين بعدد، كما لو اختلطت ميتة بعشر مذكَّيات، أو رضيعة بعشر نسوة، فهذا يوجب الاجتناب بالإجماع، إذ لا مجال للاجتهاد فيها.

القسم الثاني: حرام محصور بحلال غير محصور، كما لو اختلطت عشر رضائع بنسوة بلد كبير، فلا يحرم نكاح أهل البلد، والعلة الغلبة والحاجة جميعاً، إذ كل من ضاع له محرم لا يمكن أن يسد عليه باب النكاح، ومن علم أن مال الدنيا خالطه حرام لا يحرم عليه الأكل والبيع، إذ ما جعل الله عليكم في الدين من حرج، لأنه لما سرق في زمان رسول الله ﷺ مِجَنٌّ وعَباءة[1] لم يمتنع أحد من شراء المِجَنّ والعباءة في الدنيا، فافهم تغنم، والله أعلم.

القسم الثالث: أن يختلط حرام لا يحصر بحلال لا يحصر، كالأموال في زماننا، هذا والذي أختاره أنه لا يحرم تناول شيء بعينه إلا أن تقترن بتلك العين علامة معينة، إلا أنَّ تركه ورع.

---

(١) حديث سرقة المجن: قال الحافظ العراقي: متفق عليه [البخاري (٦٧٩٥)، ومسلم (١٦٨٦)] من حديث ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ قطع سارقاً في مجن قيمته ثلاثة دراهم»، وحديث الذي غَلّ من الغنيمة عباءة رواه البخاري (٣٠٧٤) من حديث عبد الله بن عمرو، اسم الغال: كركرة.

ومن جملة العلامات يد السلطان الظالم، إلى غير ذلك من العلامات التي ستأتي.

ويدل على ما ذكرناه أن في زمن رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم لم يتركوا المعاملات وأخذ الأموال مع كثرة أثمان الخمور وأموال الربا في يد أهل الذمة.

ومن جملة الشبهات أن يكون الشيء مما قد اشتري في الذمة ولكن قضي ثمنه من مال حرام، إلا أن يكون تسليم الطعام قبل قبض الثمن بطيب قلب فَأَكَلَه قبل قضاء الثمن، فهو حلال بالإجماع، ولا ينقلب بأداء المال في مقابلته من الحرام حراماً، بل غايته أن لا تبرأ ذمته، فكأنه لم يقض الثمن، ولا يحرم ما أكل، وإن أبرأ ذمته مع العلم بكون الثمن حراماً، فهو يوجب براءة الذمة والحل، والله أعلم.

فصل في التجسس والسؤال:

اعلم أنه لا يحمد على كل حال، ولا يترك بكل حال، فإن كان من يأخذ المال من يده على زي أهل الصلاح فحاله كافية، وإن كان على زي أهل الظلم والفسق فكذلك أيضاً، وإن كان مستور الحال لا على زي أهل الصلاح والتجار ولا على زيِّ أهل الظلم، فالظاهر الاكتفاء بعدالة الإسلام، ومنهم من جوز السؤال، وإذا كان للرجل إدرار ودخول من الحرام ومال السلطان ودهقنة فالورع تركه، ومنهم من نظر إلى الأكثر، وجعل الاعتبار به، قال الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى: إن من كان له صديق أو أخ فلا ينبغي أن يسأله، لأنه ربما يبدو له ما كان مستوراً عنه، فيؤدي إلى الغضب، وهو معصية في الحال.

واعلم أنه لا فائدة في السؤال ممن بعض ماله حرام، لأنه ربما يكذب لغرض، فالأولى أن يكون السؤال من غيره، والله أعلم.

فصل في الخروج من المظالم المالية:

اعلم أن من تاب وفي يدُه مال مختلط فعليه وظيفة في تمييز الحرام وإخراجه، ووظيفة أخرى في مصرف المخرج.

الوظيفة الأولى: في كيفية التمييز والإخراج: فإن كان معيناً من جهة غصب أو وديعة أو غيره، فهو سهل، وإن كان مختلطاً مثلاً بأن يعلم أن قدر نصف المال حرام، أو بكسب تجارة فيها كذب وخيانة، فعليه تمييز ذلك القدر، وإن لم يعلم قدره أخذ بالاحتياط وغالب الظن واليقين.

الوظيفة الثانية: في المصرف، فإذا ميز الحرام، فإن كان له مالك معين يصرف إليه، وإن لم يكن صرف لوارثه، وإن كان غائباً انتظر حضوره، أو تكلف الإيصال إليه حيث هو، وإن لم يكن له مالك معَّين تصدَّق به أو صرفه إلى مصالح المسلمين من الرباطات والمساجد والقناطر، وحسن أن يسلمه إلى القاضي إن كان أميناً، وإلا لم تبرأ ذمته بالتسليم إلى قاض خائن، وقد ورد أخبار وآثار تدل على جواز التصدق بهذا المال الحرام، وصرفه إلى المصالح، وقد أمر رسول الله ﷺ بالتصدق بالشاة المصليَّة التي قدمت إليه، فكلمته بأنها حرام، فقال ﷺ: «أطعموها الأسارى»[1].

فصل في إدرارات السلاطين وصِلاتهم:

وهو نوع من الإصلاحات، وينبغي أن ينظر فيه فلا يأخذ إن كان من الخراج الموظف على المسلمين والمصادرات، ويحل إن كان من المواريث والأموال الضائعة والفيء والغنيمة والجزية بشرط أن يكون في صرفه إليه مصلحة أو حاجة، وذهب عمر رضي الله عنه إلى أنه ما من مسلم إلا وله في بيت المال حق.

واعلم أن الجزية أربعة أخماسها للمصالح، وخمسها لجهات معينة، وإن كان يأخذ مال السلطان ليتصدق به على الفقراء، فمن الورعين من أمسك عنه، ومنهم من أقدم عليه، ولعل الأولى الإقدام عليه بشرط أن لا يرغب فيه لنفسه، ولا يقتدي به غيره، ولا يظن بأخذه من السلطان أن ماله حلال، فيجترئ بسببه على أمثاله، والله أعلم، فافهم تغنم.

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (٥/ ٢٩٤) من حديث رجل من الأنصار، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فلما رجعنا لقينا راعي امرأة من قريش فقال: «إن فلانة تدعوك ومن معك إلى طعام ..» الحديث وفيه قال: «أجد لحم شاة أخذت بغير إذن أهلها» وفيه قال: «أطعموها الأسارى» وإسناده جيد.

الباب الخامس عشر

في آداب الصحبة

اعلم أن التّحابّ في الله تعالى والأُخوَّة في دينه من أفضل القربات، وهو ثمرة حسن الخلق، وكلاهما محمودان، أما حسن الخلق فقال تعالى فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وأما الأخوة والألفة فقال تعالى فيهما: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]، وقال ﷺ: «**إن أقربكم مني مجلساً أحاسنكم أخلاقاً، الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون ويُؤلفون**»[١]، وقال ﷺ: «**المؤمن آلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**»[٢]، وقال ﷺ: «**من أراد الله به خيراً رزقه خليلاً صالحاً، إن نسي ذكّره، وإن ذكَر أعانه**»[٣]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**من آخى أخاً في الله تعالى رفعه الله تعالى درجة في الجنة، لا ينالها بشيء من عمله**»[٤].

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني في (مكارم الأخلاق) من حديث جابر بسند ضعيف.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (٥/ ٣٣٥)، والطبراني من حديث سهل بن سعد، والحاكم(١/ ٢٣) من حديث أبي هريرة وصححه. [وقال الذهبي: علته انقطاعه؛ فإن أبا حازم هذا هو المديني لا الأشجعي ولم يلق أبو صخر الأشجعي ولا المديني لقي أبا هريرة].

(٣) قال الحافظ العراقي: غريب بهذا اللفظ والمعروف أن ذلك في الأمير، ورواه أبو داود (٢٩٣٢) من حديث عائشة: «**إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه**» الحديث، ضعفه ابن عدي (٣/ ٢٢١)، ولأبي عبد الرحمن السلمي في (آداب الصحبة) من حديث علي: «**من سعادة المرء أن يكون إخوانه صالحين**».

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «الإخوان» (٢٧) من حديث أنس: «**ما أحدث عبد أخاً في الله عز وجل إلا أحدث الله عز وجل له درجة في الجنة**» وإسناده ضعيف.

بيان معنى الأخوة في الله تعالى وتمييزها عن الأخوة في الدنيا:

قال ﷺ: «**الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**»[1].

وقال ﷺ: «**إن روحَي المؤمنَيْن ليلتَقِيان على مسيرة يوم، وما رأى أحدهما صاحبه قط**»[2]، فالإنسان يحب غيره إما لذاته، لكونه جميلاً، محبوباً في ذاته، أو لكونه وسيلةً إلى غرض خارج عن ذاته، وذلك الغرض متعلق بمصالح الدنيا، وإما أن يكون وسيلة إلى حظ في الآخرة، وإما أن يكون لله وفي الله، لا ينال به دنيا ولا آخرة، بل لكونه من عباد الله، فمن أحب شيئاً أحب من أحبه، وهذا هو الأخوَّة في الله، وهو كما قال مجنون بني عامر:

أمرُّ على الدِّيار ديار ليلى ... أقبِّل ذَا الجِدارَ وذا الجِدَارا

وما حبُّ الدِّيار شَغَفْنَ قلبي ... ولكنْ حبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيارا

وكما لا بد من الحب في الله فلا بد من البغض في الله، فمن أحب إنساناً لكونه حبيب حبيبه ومطيعاً له فلا بد وأن يبغض عدوّه لكونه عاصياً له.

فصل:

اعلم أن كل أحد لا يصلح للصحبة، قال ﷺ: «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**»[3]، فلا بد من اعتبار عدة خصال: أن يكون عاقلاً، حسن الخلق، غير فاسق، ولا مبتدع، ولا حريص على الدنيا.

أما العقل فهو رأس المال، قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه:

---

(١) رواه مسلم (٢٦٣٨)، ورواه البخاري تعليقاً (٣٣٣٦) من حديث عائشة.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (٢/ ١٧٥) من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ: «تلتقي» وقال: «أحدهم» وفيه ابن لهيعة عن دراج اهـ.

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨) وحسنه، والحاكم (٤/ ١٧١) من حديث أبي هريرة وقال: صحيح إن شاء الله [ووافقه الذهبي].

فـلا تـصـحـبْ أخـا الـجَـهْـل ... وإيَّــــــــاك وإيَّـــــــــاه
فـــكـــم مِـــنْ جَـاهـــل أردى ... حـــلـــيـــمـــاً حـــيـــن آخَـــاهُ
يـــقـــاسُ الـــمـــرءُ بـــالـــمـــرءِ ... إذا مـــا الـــمَـــرْءُ مَـــاشَـــاهُ
ولـــلـــشَّـــيءِ مِـــن الـــشَّـــيءِ ... مـــقـــايـــيـــسٌ وأشـــبَـــاهُ
ولـــلـــقَـــلـــبِ عـــلـــى الـــقَـــلْـــبِ ... دلـــيـــلٌ حـــيـــن يَـــلْـــقَـــاهُ

كيف والأحمق يضرك وهو يريد أن ينفعك! ولذلك قال بعضهم:

إنـــي لآمَـــنُ مـــن عـــدوٍّ عـــاقـــلٍ ... وأخـاف خِـلاً يـعـتـريـه جـنـون
فـالـعـقـل فـنٌّ واحـدٌ وطـريـقـه ... أدرى فـارْصُـدْ والـجـنـون فُـنُـون

ولذلك قيل: مقاطعة الأحمق قربان إلى الله تعالى، وكذا الفاسق لا فائدة في صحبته، لأن من يخاف الله تعالى لا يصِرُّ على كبيرة، ومن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الكهف: ٢٨].

والطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري، وكذا المبتدع.

وأما حسن الخلق فقد جمعه علقمة(١) رحمه الله في وصيته لابنه لما حضرته الوفاة، قال: يا بني إن عرَضتْ لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمْتَه صانك، وإن صحبته زانك، وإن قعدت بك مؤنة مانك، اصحَب من إذا مددت يدك بخير مدَّها، وإن رأى منك حسنة عدَّها، وإن رأى منك سيئة سدَّها، اصحب من إذا سألته أعطاك، وإن سكتَّ ابتداك، وإن نزلت بك نازلة واساك، اصحب من إذا قُلْتَ صدَّق قولك، وإذا حاولتما أمراً أمَّرك، وإن تنازعتما آثرك.

وقال علي بن أبي طالب:

إن أخـاك الـحـقَّ مَـنْ كَـانَ مـعـك ... ومـن يَـضُـرُّ نـفـسَـه لـيَـنْـفَـعَـك
ومـــن إذا ريـــبُ زمـــان صَـــدَعَـــك ... شـتَّـتَ فـيـكَ شَـمْـلـه لـيَـجْـمَـعَـك

---

(١) هو: علقمة بن عمر بن الحصين العطاردي، أبو الفضل الكوفي، صدوق، له غرائب. روى له ابن ماجه، مات سنة (٥٦هـ). (إتحاف السادة المتقين).

وكان في السلف من تفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة، يقوم بحاجاتهم، ويتردد كل يوم إليهم ويمونهم بماله، فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه، بل كانوا يرون منه مالا يرونه من أبيهم في حياته.

ويحسن أن يكون عالماً بعد الورع لينتفع بعلمه أيضاً، قال لقمان: يا بني جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، فإن القلوب تحيى بالحكمة، كما تحيى الأرض الميتة بوابل القَطْر.

فصل في حقوق الأخوَّة والصحبة:

اعلم أن عقد الأخوة رابطة بين شخصين، كعقد النكاح بين الزوجين، فإذا انعقدت الأخوَّة فذلك يوجب حقوقاً عليك في المال والنفس واللسان والقلب، بالعفو والدعاء والإخلاص والوفاء وترك التكلف.

الأول: في المال: وأقلّه أن يكون مثل عبدك، فيكون أمره من مهماتك، وأوسطه أن يكون مثلك، فإن الأخوَّة توجب الشَّركة والمساواة، وأعلاها أن تؤثره عليك، فَتُخِلُّ بأمر نفسك لينتظم حاله، وهو من أعلى الدرجات، فقد ورد في الآثار أخبار كثيرة، قال رسول الله ﷺ: «**ما اصطحب اثنان قط إلا كان أحبهما إلى الله تعالى أرفقهما بصاحبه**»[1].

الثاني: الإعانة بالنفس: في قضاء الحاجات، والقيام بها قبل السؤال، وهذا له درجات توازي ما سبق من درجات المال في المقامات الثلاثة.

الثالث: أن لا تواجهه بشيء يكرهه: قال أنس رضي الله عنه، كان رسول الله ﷺ لا يواجه أحداً بشيء يكرهه[2].

واعلم أنك لو كنت تطلب من هو خالٍ من العيوب فلا تجد، قال الشافعي رضي الله عنه: ما أحد من المسلمين يطيع الله تعالى فلا يعصيه، ولا أحد يعصي الله فلا يطيعه، فمن كانت طاعته أغلب من معاصيه فهو عدل.

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن حبان (٥٦٦) والحاكم (٤/ ١٧١) من حديث أنس، وقال صحيح الإسناد [ووافقه الذهبي].

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أبو داود (٤١٨٢)، والترمذي في (الشمائل) (٣٤٧)، والنسائي في (اليوم والليلة) (٢٣٦) بسند ضعيف.

فإذا كان هذا عدلاً في حق الله تعالى فهو في حقك أولى، فكن ممن يُظهر الجميلَ، ويستر القبيح، لأن الله تعالى وُصِفَ بذلك في الدعاء فقيل: يا من يُظهرُ الجميلَ، ويستُرُ عليَّ القبيحَ.

واعلم أن المرضي عند الله تعالى من يتخلَّق بأخلاقه، وهو ستار العيوب، غفار الذنوب.

اعلم أنه لا يتم إيمان الرجل حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه، ولا شك أنه ينتظر منه ستر العورات، والعفو عن الزلّات، وأن يكتم سرَّه، وقد قيل: قلوب الأحرار قبور الأسرار، وقيل: إن قلب الأحمق في فيه، ولسان العاقل في قلبه، وقال ابن المعتز:

ومستودعي سراً تبوأتُ كَتْمَه ... فأودعته صدري فصار له قبراً

الرابع: النطق بما يحبه من المدح من غير خروج عن الحق، قال عليه الصلاة والسلام: «**إذا أحبَّ أحدكم أخاه فليخبره**»[1] وذلك لأنه يوجب زيادة في الحب، وما أحسنَ ما قيل في هذا المعنى:

خُذْ من خليلك ما صَفَا ... ودَعِ الذي فيه الكَدَر

فالعمر أقْصَرُ مِن معا ... تبة الخليل على الغَيَر

وقيل بيت مفرد:

ولستَ بمسْتبقٍ أخاً لا تَلُمْه ... على شَعَثٍ، أيُّ الرجال المهذب

الخامس: الوفاء والإخلاص، وذلك بالثبات على الحبِّ ومداومته إلى الموت معه، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه، وروي أنه ﷺ أكرم عجوزاً دخلت عليه، فقيل له في ذلك، فقال ﷺ: «**إنها كانت تأتينا أيام خديجة**»[2].

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه أبو داود (٥١٢٤)، والترمذي [بترقيم الدعاس (٢٣٩٣)، والحديث ساقط في الطبعة المصرية]، وقال: حسن صحيح، والحاكم (٤/ ١٧١) من حديث المقدام بن معد يكرب [ووافقه الذهبي].

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه الحاكم (١/ ١٥) من حديث عائشة، وقال: صحيح على شرط الشيخين وليس له علة [ووافقه الذهبي] اهـ.

واعلم أن حسن العهد من الإيمان، وأن كرم العهد من الدين، وينبغي أن ترى الفضل أبداً للإخوان لا لنفسك، وقيل فيه:

تـذلَّـلْ لـمـن إنْ تـذلـلـت لـه ... يَـرى ذاك لـلـفَـضْـل لا لِـلـبَـلَـه

وجـانـبْ صـداقـة مـن لا يـزال ... علـى الأصدقاء يرى الفَضْـل لـه

فصل في حقوق المسلم والرحم والجوار:

أما حقوق المسلم فهو أن يسلِّم عليه إذا لقيه، ويجيبه إذا دعاه، ويشمته إذا عطس، ويعوده إذا مرض، ويشهد جنازته إذا مات، ويبَرَّ قسمه إذا أقسم، وينصح له إذا استنصحه، ويحفظه بظهر الغيب إذا غاب، ويحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وقال رسول الله ﷺ: «**أربع من حق المسلمين عليك: أن تعين محسنهم، وأن تستغفر لمذنبهم، وأن تدعو لمدبرهم، وأن تحب تائبهم**»[(١)].

ومنها أن لا تؤذي أحداً من المسلمين بفعل ولا قول، قال رسول الله ﷺ: «**المسلم من سلِمَ المسلمون من لسانه ويده**»[(٢)]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**المؤمن من أمِنَه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم**»[(٣)]، وقال ﷺ: «**المهاجر مَنْ هجر السوء واجتنبه**»[(٤)].

ومنها أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه، فإن الله تعالى لا يحب كل مختال فخور، وإن تكبر عليه أحد فليحتمل، لقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ومنها أن لا يستمع بلاغات الناس، لا على نفسه، ولا على غيره، ولا يفعل هو أيضاً، قال ﷺ: «**لا يدخل الجنة قتات**»[(٥)].

---

(١) قال الحافظ العراقي: ذكره صاحب (الفردوس)، ولم أجد له إسناداً.اهـ.

(٢) رواه البخاري (١٠)، ومسلم(٤١).

(٣) رواه النسائي (٨/ ١٠٥)، والترمذي (٢٦٢٧).

(٤) رواه البخاري (١٠) بنحوه، وابن ماجه (٣٩٣٤).

(٥) رواه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥).

ومنها أن لا يزيد في الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام، ولا يدخل على أحد إلا بإذنه، ويخالق الجميع بخلق حسن، فيوقِّر المشايخ، ويرحم الصبيان، ويكون مع كافة الخلق طَلْقَ الوجه، ولا يَعِدُ لمسلم بوعد إلا ويفي به.

ومنها أن يصلح ذات البين بين المسلمين، قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة**»، قالوا: بلى، فقال ﷺ: «**إصلاح ذات البين**»[1].

وأن يستر عورات المسلمين.

ومنها أن يتقي مواضع التهم، ويشفع لمن له حاجة عند من له عنده منزلة، وأن يبدأ بالسلام قبل الكلام، وأن يصون عرض أخيه وماله من ظلم غيره ما وَجَد إليه سبيلاً، ومنها أنه إذا بُلي بذي شرٍّ يجامله ويداريه.

ومنها أن يزور قبورهم فيدعو لميتهم.

أما حقوق الجوار فاعلم أن الجار يستحق ما يستحقه المسلمون كافة وزيادة بسبب الجوار، قال النبي ﷺ: «**الجيران ثلاثة: جار له حق واحد، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق، فالجار الذي له ثلاثة حقوق: الجار المسلم ذو الرحم، والجار الذي له حقان: الجار المسلم، والجار الذي له حق واحد: الجار المشرك**»[2]، فإثباته الحق للمشرك لسبب الجوار دلَّ على تأكد حق الجوار، وقال ﷺ: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**»[3]، وقال ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره**»[4].

وأما حقوق الأقارب والرحم فقال عليه الصلاة والسلام: «**يقول الله تعالى: أنا**

---

(١) رواه أبو داود (٤٩١٩)، والترمذي (٢٥٠٩) وصححه.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه الحسن بن سفيان والبزار في مسنديهما، وأبو الشيخ في كتاب (الثواب)، وأبو نعيم في (الحلية) (٥/ ٢٠٧) من حديث جابر، وابن عدي (٥/ ١٧١) من حديث عبد الله بن عمرو وكلاهما ضعيف.

(٣) رواه البخاري (٦٠١٤)، ومسلم (٢٦٢٤).

(٤) رواه البخاري (٦٠١٩)، ومسلم (٤٨).

الرحمن، وهذه الرحم شققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته»[1].

وقال عزَّ وجل لموسى صلوات الله عليه وسلامه: «يا موسى إنه من برَّ والديه وعقَّني كتبته بَراً، ومن عقَّ والديه وبرَّني كتبته عاقّاً».

حقوق المملوك: وقد كان من آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ أنه قال: «اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم، وأطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون، ولا تُكَلِّفُوهم من العمل ما لا يطيقون، فما أحببتم فأمسكوا، وما كرهتم فبيعوا، ولا تعذبوا خلق الله تعالى، فإن الله ملَّككم إياهم، ولو شاء الله ملَّكهم إياكم»[2].



(١) رواه البخاري (٥٩٨٨)، ومسلم (٢٥٥٤) من حديث أبي هريرة بنحوه.

(٢) قال الحافظ العراقي: هو مفرق في عدة أحاديث، فروى أبو داود (٥١٥٦) من حديث علي: «كان آخر كلام رسول الله عليه ﷺ الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»، وفي الصحيحين [البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١)] من حديث أبي ذر: «أطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم» لفظ رواية مسلم، وفي رواية لأبي داود (٥١٦١) «من لايمكم من مملوكيكم فأطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ومن لا يلايمكم منهم فبيعوه ولا تعذبوا خلق الله تعالى» وإسناده صحيح.

الباب السادس عشر

في العزلة

اعلم أنه قد اختلف الناس فيها، فذهب بعضهم إلى استحباب العزلة، وتفضيلها على المخالطة، مثل: سفيان الثوري[1]، وإبراهيم بن أدهم[2]، وداود الطائي[3]، والفضيل بن عياض[4]، وسليمان الخواص[5]، وبشر الحافي[6].

وذهب أكثر التابعين إلى استحباب المخالطة، واستكثار الإخوان للتعاون على البر والتقوى، واستدلّ الجميع بما ورد في الأخوة والألفة من قوله عليه الصلاة

(١) **سفيان الثوري**: تقدمت ترجمته صفحة (٣١).

(٢) هو: **إبراهيم بن أدهم أبو إسحاق البلخي**، ولد بمكة وطافت به أمه على الحِلَق وسألت الدعاء له أن يكون صالحاً فاستجيب لها، وترك الإمارة وما كان فيه، صحب سفيان الثوري والفضيل بن عياض، توفي سنة ١٦١هـ. «طبقات الأولياء» (ص: ٥).

(٣) هو: **داود الطائي**، الإمام الفقيه، والقدوة الزاهد، أبو سليمان الكوفي، أحد الأولياء، وكان من كبار أئمة الفقه والرأي، برع في العلم بأبي حنيفة، ثم أقبل على شأنه ولزم الصمت، ومناقبه كثيرة، توفي سنة ١٦٥هـ «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٤٢٢).

(٤) تقدمت ترجمته صفحة (١٠٨).

(٥) هو: **سليمان الخواص**، من العابدين الكبار بالشام، قال عنه الأوزاعي: لو كان في السلف لكان علاّمة. «سير أعلام النبلاء» (٨/ ١٧٨).

(٦) هو: **بشر بن الحارث الحافي**، **أبو نصر**، أحد رجال الطريقة، ومعدن الحقيقة، أصله من مرو، وسكن بغداد وصحب الفضيل بن عياض، توفي رحمه الله سنة ٢٢٧هـ. «طبقات الأولياء» (ص: ١٠٩).

والسلام لما أُتي برجل كان قد أتى الجبل ليتعبد فيه، فقال ﷺ: «**لا تفعلْ أنتَ ولا أحد منكم، لَصَبْرُ أحدكم في بعض مواطن الإسلام خير من عبادة أحدكم أربعين عاماً**»(١).

واستدلّ من فَضَّل العزلة ـ كفضيل رضي الله عنه ـ بقول رسول الله ﷺ لعبد الله ابن عامر الجهني لما قال: يا رسول الله ما النجاة؟ قال ﷺ: «**ليسعك بيتك، وأمسك عليك لسانك، وابك على خطيئتك**»(٢).

فصل في فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق في فضلها:

واعلم أن الأمر فيه يختلف باختلاف الأشخاص.

أما فوائد العزلة: فالتمكن من المواظبة على الطاعات، وتربية العلم، والتخلص من ارتكاب المناهي التي يتعرض الإنسان لها بالمخالطة كالرياء والغيبة، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومسارقة الطبع من الأخلاق الذميمة، وكذلك يتفرغ لمصالح دنياه من الحرف والصناعات.

فالفائدة الأولى: الفراغ للعبادة، والتفكر، والاستئناس بالله تعالى، ومناجاته ومطالعة الملكوت، وذلك إنما يتأتى بالعزلة ومفارقة الخلق، ولهذا قال بعض الحكماء: ولا يتمكن أحد من الخلوة إلا بالأنس بكتاب الله والمتمسكون بكتاب الله تعالى هم الذين استراحوا من الدنيا بذكر الله، والذاكرون الله تعالى عاشوا بذكر الله، وماتوا بذكر الله، واتقوا الله بذكر الله، ولا شك أنَّ هؤلاء تمنعهم المخالطة عن الفكر والذكر، وكذلك كان رسول الله ﷺ في ابتداء أمره يتبتَّل في جبل حِرَاء، فإذا دام الرجل على الخلوة انتهى أمره إلى ما قال الجنيد(٣) رضي الله عنه: أكلِّم الله منذ ثلاثين سنة، والناس يظنون أني أكلمهم.

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه البيهقي في [«الشعب» (٩٧٢٧)] عن عسعس بن سلامة، قال ابن عبد البر [في «الاستيعاب» (٢٠٢٩)]: يقولون: إن حديثه مرسل، ولذا ذكره ابن حبان في ثقات التابعين (٤٨٧٣).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٠٦) من حديث عقبة، وقال: حسن.

(٣) الجنيد بن محمد، تقدمت ترجمته صفحة (٧٧).

وقيل لبعضهم: ما حملك على الوحدة؟ فقال: لست وحدي، إنما أنا جليس الله، فإذا أردتُ الله أن يناجيني قرأت كتاب الله، وإذا أردتُ أن أناجيه صليت.

وقيل: بينما أويس القرني[1] جالس إذ أتاه هَرِم بن حيان، فقال له: ما جاء بك؟ قال: جئت لآنس بك، قال: ما كنت أدري أحداً يعرف ربه فيأنس بغيره.

وقال الفضيل[2]: إذا رأيتُ الليل مقبلاً فرحتُ به، وقلتُ أخلو بربي، وإذا رأيتُ الصبح أدركني استوحشتُ كراهةَ لقاء الناس، وأن يجيئني من يشغلني عن ربي.

وقال مالك بن دينار[3]: من لم يأنس بمحادثة الله عن محادثة الخلق فقد قلَّ عملُه، وعَمِيَ قلبُه، وضيعَ عمرَه.

الفائدة الثانية: التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالباً بالمخالطة، ويسلم منها في الخلوة، وهي الغيبة والرياء والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسيأتي ذكره في موضعه.

وعلى الجملة: الحكم بأن الأولى واحد منهما على الإطلاق محال، فإنه يختلف باختلاف الأشخاص، والاعتدال هو الأولى، وهو أن لا ينقبض كلَّ الانقباض فتفوته الفوائد الموقوفة على المخالطة، ولا ينبسط كل الانبساط فتفوته

---

(١) هو: **أويس بن عامر بن جزء بن مالك القرني المرادي اليماني**، سيد التابعين في زمانه، قتل في صفين مع أصحاب علي رضي الله عنه، كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس فقال: أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم، قال: من مراد ثم من قرن؟ قال: نعم، فقال: فكان بك برص، فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم. قال: ألك والدة؟ قال: نعم. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد اليمن من مراد ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بر، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل**» فاستغفر لي. قال: فاستغفر له. «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٩).

(٢) **الفضيل بن عياض**: تقدمت ترجمته (ص:١٠٨).

(٣) هو: **مالك بن دينار**: علم العلماء والأبرار، معدود في ثقات التابعين، ومن أعيان كتبة المصاحف، ولد في أيام ابن عباس، وسمع من أنس بن مالك توفي سنة ١٢٧هـ «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٦٢).

فوائد العزلة، وينوي بالعزلة أن يعتزل الناس من شرِّه، ويقبل بكليته على ذكر ربه، ولا يطيلُ الأمل فتأمن نفسُه ذلك لتخيل طول الأمل، وينوي الجهاد الأكبر بالعزلة، وهو جهاد النفس، كما قالت الصحابة: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[1]، والله أعلم، فافهم تغنم، والله أعلم، وإليه المرجع والمآب.



(١) قال الحافظ العراقي: رواه البيهقي في (الزهد) من حديث جابر [مرفوعاً]، وقال: هذا إسناد فيه ضعف اهـ.

الباب السابع عشر

في السفر

اعلم أن السفر سفران، سفر بالظاهر إلى آفاق الأرض وأقطارها، وسفر بالباطن إلى الله تعالى، وهو ما دلَّ عليه قوله تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

ويدل على السَّفرين جميعاً قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، فالسفر الأعظم هو السفر بالسِّر إلى الله تعالى، وهذا المسافر هو الذي يتنزه أبداً في جنة عرضها السماوات والأرض، في منازلَ لا تضيق مواردُها ومناهلُها بكثرة الواردين، بل تتضاعف بكثرة المسافرين، ومن حُرِمَ هذا السفر فقد حُرِمَ الخير كلَّه، وبقي في حضيضٍ لا يرفع عنه أبد الآبدين، وجميع الآداب والسنن التي وردت بها الأخبار والآثار هي آداب لهذا السفر، وهو سفر الآخرة.

وأما السفر الظاهر الذي يختص بنقل الأقدام وقطع المنازل فنحن نبين فائدته وآدابه في فصول:

فصل:

ينبغي أن يصحح أولاً ـ لقصد السفر ـ نيَّته، إما لحج، أو زيارة عالمٍ أو وليٍّ، إما حيّاً أوميتاً، أو للمقام بالثغور والمرابطة بها، أو الفرار مما لا يطاق من خللٍ

في الدين أو الدنيا، أو التجارة في طلب الحلال، حتى لا تكون حركته لمحض الدنيا فيضيع تعبه ونصبه.

واعلم أن النفس إنما تظهر رذائلها وخبائثها باختلاف الأحوال، وذلك في السفر كثير، وقد بيَّنا بعض آداب السفر في كتاب الحج.

والرخص التي تثبت في السفر هي: المسحُ على الخُفِّ ثلاثة أيام، بعد أن يكونَ لَبِسَ الخفَّ بعد تمام الوضوء، والتيمم للفرض[1]، والقصر، والجمع، وأداء النوافل على الراحلة، وأداؤها ماشياً، والفِطْر.

وينبغي أن يتعلم دلائل القبلة والمنازل فيما يتهيأ له من السفر، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، فافهم تغنم، والله أعلم.



(١) وذلك عند فقد الماء، وليس عليه القضاء إن غلب فقد الماء في مكان الصلاة، بخلاف ما إذا ندر فقده أو استوى الأمران فإنه يتيمم ويقضي.

الباب الثامن عشر

في السماع والوجد

اعلم أن السماع قد اختلف الناس فيه، فمنهم من حرَّمه ومنهم من أباحه، ونبيِّن حقيقة السماع وإباحته، فنقول: السماع: هو استماع صوت طَيِّبٍ موزون مفهومِ المعنى محركٍ للقلب، وليس في جملة ذلك إلا التذاذُ حاسَّة السمع والقلب، فهو كَالتِذَاذِ حاسَّة البصر بالنظر إلى الخُضْرة، والتِذَاذِ القلب به، وقد قال الله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١]، ففسَّروه بالصوت الحسن(١)، وقال ﷺ في أبي موسى الأشعري: «**لقد أوتي مزماراً من مزامير آل داود**»(٢) وفي الحديث: «**ما بعث الله نبياً إلا وهو حسن الصوت**»(٣).

ومحال أن يقال هو مباح لكتاب الله تعالى وتلاوته، فإن استماع صوت العندليب مباح، فإذا كان استماع الصوت الطيب مباحاً فبأن يكون موزوناً لا يحرم،

---

(١) قال الزبيدي: هكذا فسره الزهري، أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان (١١٥) كلهم بأسانيدهم عنه، وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: الصوت الحسن اهـ «إتحاف السادة المتقين» (٦/ ٤٧٠).

(٢) رواه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣).

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (١٥٤) في (الشمائل) عن قتادة، وزاد قوله: «وكان نبيكم حسن الوجه حسن الصوت» ورويناه متصلاً في (الغيلانات) من رواية قتادة عن أنس، والصواب الأول، قال الدارقطني: ورواه ابن مردويه في (التفسير) من حديث علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وطرقه كلها ضعيفة. اهـ .

كيف وأصوات العنادِل موزونة نوعاً من الوزن لها مقاطع ومباد متناسبة، وهذا لا يختلف بخروج هذا الصوت الطيِّب من حلق آدمي أوطير أو غيرهما، فينبغي أن يقاس على أصوات الطيور ما يخرج من الأجسام كالطبل والقضيب والدُّف والقَصَب فلا يستثنى من جملتها إلا ما ورد النص بتحريمه، وذلك كالأوتار والمزامير التي كانت معتادة للشرب، إذ اقتضى المنع من شرب الخمر أن يمنع من متمماته وتوابعه مبالغة في الفطام، حتى اقتضى ذلك كسر الدنان في الابتداء، ويدل على ما ذكرناه من جوازه ما روي عن الصحابة من التغني بالأبيات، حتى روي في الصحيحين عن أبي بكر وبلال رضي الله عنهما لمَّا قدما المدينة أن بلالاً كان مريضاً، فإذا أقلعت عنه الحمَّى قال رافعاً صوته رضي الله عنه:

ألا ليْتَ شِعْري هل أبيْتنَّ ليلةً ... بوَاد وحَولي إذخِرٌ وجَليْلُ

وهل أردَنَّ يوماً مِيَاهَ مِجَنَّة ... وهل تبدوَنْ لي شامةٌ وطَفْيلُ

والصدِّيق رضي الله عنه كان إذا أخذته الحمَّى يقول:

كلُّ امرئ مُصبحٌ في أهله ... والموتُ أدنى من شِرَاك نَعْلِهِ[1]

وقال عليه الصلاة والسلام:

اللهم إن العيش عيش الآخرة ... فارحم الأنصار والمهاجرة[2]

كل ذلك في الصحيحين.

فصل في آثار السماع:

من حيث إنه محرك للقلب، ومهيج لما هو غالب عليه فنقول:

إن الله تعالى سِرّاً في مناسبة الأصوات الموزونة للأرواح فتؤثر فيها تأثيراً غريباً، فتورثُها الحزن مرةً، والفرح مرة، والبكاء مرة، والضحك أخرى، وتوجب حركات في الأعضاء غريبة عجيبة، ولا تظنَّ أن ذلك لفهم المعنى فحسب، بل ذلك مشاهد في الحيوانات، خصوصاً في الإبل، ومشاهد في الطفل الذي لا يتكلم ولا يفهم،

---

(١) رواه البخاري (٣٩٢٦)، ومسلم (١٣٧٦) وفيه إنشاد أبي بكر وبلال رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٢٨٣٤)، ومسلم (١٨٠٥).

ومشاهد في أصوات الأوتار التي لا تفهم، وعلى الخصوص في الإبل، فإنها كلما طالت عليها البراري، وأعيت تحت الأحمال، وتسمَع الحداء، فتمد أعناقها، وتطوي المراحل، فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالرَّقي، قال: كنت في البادية، فوافيت قبيلة من قبائل العرب، فأضافني رجل، وأدخلني خباءً، فرأيت عبداً أسود مقيداً بقيد، ورأيت جمالاً قد ماتت بين يدي البيت، ورأيت جملاً قد نَحُلَ وهَزُلَ، كأنه تخرج روحه، فقال لي الغلام: أنت ضيف، ولك حق، فتشفع لي، فإنه يكرم ضيفه، فلا يرد شفاعته، فلعله يحل القيد عن رجلي، فلما أحضر الطعام امتنعت، وقلت: لا آكل ما لم أشفع في هذا العبد، فقال: إن هذا الغلام قد أهلك جميع مالي، قلت: ماذا فعل؟ فقال: إن له صوتاً طيباً، وكنت أعيش من ظهور هذه الجمال، فحمَّلها أحمالاً ثقالاً، وكان يَحْدُو حتى قطع مسيرة ثلاث ليالٍ في ليلة واحدة من طيب نغمته، فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل، ولكن أنت ضيفي فلكرامتك وهبته لك، فأحببت أن أسمع صوته، فلما أصبحنا أمَرَه أن يحدو على جمل يسقي الماء من بئر هناك، فلما رفع صوته هام الجمل، وقطع حبالَه، ووقعت أنا لوجهي، فما أظن أني سمعت صوتاً أطيب منه.

فإذاً للسماع تأثير غريب، ومن لم يحركه السماع فهو ناقص، مائل عن الاعتدال، بعيد عن الروحانية، وكان الطير يقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته، قال أبو سليمان[1]: السماع لا يُحصِل في القلب ما ليس فيه، وإنما يحرك ما هو فيه، فتكره أصوات النياحة لأنها تحرك ما هو مذموم، وهو التأسف على الفائت، قال الله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، وقد ورد فيه أخبار كثيرة.

ولا يكره السماع عند العرس والوليمة والعقيقة وغيرها، فإن فيها تحريكاً لزيادة سرور مباح أو مندوب، ويدلُّ عليه ما روي من إنشاد النساء بالدُّف والألحان عند قدوم رسول الله ﷺ من مكة:

(١) تقدمت ترجمته صفحة (١٠٣).

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع[1]

ويدل عليه ما روي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: رأيت رسول الله ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد، حتى أكون أنا الذي أسأم[2]. وما روى مسلم والبخاري أيضاً في صحيحهما حديث عقيل عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تُدفِّفان وتَضربان، والنبي ﷺ مُتَغشٍ بثوبه، فانتهرهما أبو بكر رضي الله عنه، فكشف النبي ﷺ عن وجهه، وقال: «**دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد**»[3]، وفي حديث آخر نحوه، وفيه: «**تغنيان وتضربان**» فهذه الأمور دلت قطعاً على إباحة السماع، ودلت على إباحة صوت النساء إذا لم يكن بحيث يخاف الفتنة.

وعلى الجملة فالسماع مهيج لما في القلب، فإن كان في قلبه عشق مباح فتهييجه جائز، وإن كان حراماً فتهييجه غير جائز، هذا في سماع أهل الغفلة.

وأما سماع أرباب القلوب الذين اشتهروا بحب الله تعالى والشوق إليه، وهم الذين لا ينظرون إلى شيء إلا ويرونه فيه، ولا يقرع سمعهم شيء إلا وسمعوا منه أو فيه، فسماعهم مؤكد للحب والعشق، مهيج للشوق، وموِرِ زناد القلوب، ومستخرج لضروب المكاشفات والملاطفات، لا يحيط الوصف بها، يعرفها من ذاقها، وينكرها من كَلّ حِسُّه عن دركها، ويسمى في لسان الصوفية وَجْداً، وما يزيد في حب الله تعالى والشوق إليه إن لم يعد من الفرائض فلا أقل من أن يكون من المباحات، كيف وهو مشير لما استدعاه رسول الله ﷺ بدعائه حيث قال: «**اللهم ارزقني حبك، وحب من أحبك، وحب ما يقربني إلى حبك**»[4].

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه البيهقي في (الدلائل) (٢/ ٥٠٧) من حديث ابن عائشة مفصلاً، وليس فيه ذكر الدف والألحان اهـ، وقال الزبيدي: وهو في (الخلعيات) بذكر الدف. اهـ.

(٢) رواه البخاري (٤٥٤)، ومسلم (٨٩٢).

(٣) رواه البخاري (٩٨٧)، ومسلم (٨٩٢).

(٤) رواه الترمذي (٣٤٩٠) وقال: حسن غريب.

فاعلم الآن أن السماع محرك للباطن، فمن الناس من قويت منته وكمل أمره فلا يحتاج إلى محرك من خارج.

فصل:

اعلم أن من الآداب حسن الإصغاء، وترك الشهقة والحركة ما وجد إليه سبيلاً، خصوصاً للشاب بين يدي المشايخ، وللمبتدئ بين يدي المنتهي، ومن الواجبات أن يراعي فيه أحوال قلبه ونفسه حتى لا تدعو نفسه إلى المراآة بالحركات وإظهار الوَجْد، ولقد ذهب بعضهم إلى تجويز التَّواجُد رجاءً لتحقيق الوَجْد، وتهييج ما هو كامنٌ في الباطن ككُمُون النار في الحجَر، والله أعلم، فافهم تغنم، والله أعلم بالصواب.



الباب التاسع عشر

في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

اعلم أنهما من أصول الدين، فبهما يحصل الغرض من بعثة الأنبياء، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وفي الخبر ما رواه أبو بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في خطبة خطبها: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية، وتؤولونها على خلاف تأويلها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر على أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمَّهم الله بعذاب من عنده»**[(١)].

وروي عن أبي ثعلبة الخُشَنيّ رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾، فقال ﷺ: **«يا أبا ثعلبة، مر بالمعروف وانه عن المنكر، فإذا رأيت شحّاً مطاعاً، وهوىً متبعاً، ودنيا مُؤْثَرَة، وإعجاب كلِّ ذي رأي برأيه فعليك بنفسك، ودع عنك العَوام، إنَّ من ورائكم فتناً كقطع الليل المظلم، للمتمسِّك فيها بمثل ما أنتم عليه أجر خمسين منكم»**[(٢)] الحديث.

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٣٨)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، والترمذي (٣٠٥٧)، وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨) وحسنه، وابن ماجه (٤٠١٤).

فصل:

اعلم أن الأمر بالمعروف له أركان أربعة: المحتسِبُ، والمحتسَبُ عليه، والمحتسَب فيه، ونفس الاحتساب.

أما المحتسب فشرطه: أن يكون مسلماً مكلّفاً، فيدخل فيه آحاد الرعايا، ولا يشترط فيه التولية والإذن.

الشرط الثاني: الإسلام، فهو شرط إذ هو نصرة للإسلام.

واختلفوا في شرط العدالة، فذهب بعضهم إلى اشتراطها لقوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢] ولقوله عزَّ وجل: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] وقد ورد فيه أخبار كثيرة.

ومنهم من ذهب إلى أنه لا تشترط فيه العدالة، وهو الحق ، لأنه بالإجماع لا تشترط العصمة، إذ اختلف الناس في عصمة الأنبياء من الصغائر، فكيف ترجى لغيرهم العصمة، ثم هذا يؤدي إلى تركه إذ لا يوجد هذا الشرط، فأي بُعدٍ في أن يشرب هو ويمنع غيره، ويقول: عليَّ وظيفتان إحداهما الانتهاء، والثانية النهي، وأنا فاعل إحداهما رجاء أن أوفق للثانية بتركه، ويمنع الكافر عنه لأن فيه تسلطاً على المسلمين، ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، والمسلم يفعل ذلك، فيمنع الناس بالتهديد والتخويف والضرب على حسب ما يليق في كل شيء به، وذلك لا يختلف بالسلطان والإمام وغيرهما، فكل من ارتكب ما لا ينبغي يُحتسَب عليه، ويدلُّ على ذلك ما روي أن مروان بن الحكم خطب قبل الصلاة في العيد، فقال له رجل: إنما الخطبة بعد الصلاة، فقال مروان: اترك ذلك يا فلان، فقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: أما هذا فقد قضى ما عليه، قال لنا رسول الله ﷺ: «**من رأى منكراً فلينكره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[1].

---

(١) رواه مسلم (٤٩).

وحصل من هذا أيضاً أن الاحتساب على مراتب.

الشرط الآخر: أن يكون المحتسب فيه ـ وهو الركن الآخر ـ معلوماً كونه منكراً بغير الاجتهاد، فلا يكون في محل خلاف الأئمة المعتبرين، فلا ينكر الشافعي على الحنفي شرب النبيذ الذي لا يُسكر، ولا الحنفي على الشافعي أكل الضب والضبع.

الركن الآخر: هو المحتسب عليه، وشرطه أن يكون إنساناً، لأنه يُمنع الصبي من شرب الخمر، نعم من الأفعال ما ليس مُنْكَراً في حقِّ المجنون والصبي، ولا يمنعان منه.

بيان آداب المحتسب: وليكن عالماً، ورعاً، حسن الخلق، يتلطف فلا يعنِّف.

أما العلم فلِيعلَمْ حدود الاحتساب.

والوَرع ليقتصر على الحد المشروع فيه.

ويحسن الخلق بتلطف، فلا يعنف كيلا يتجاوز حدَّ الشرع فيفسد أكثر مما يصلح، فيكون في احتسابه نوع شفقة، حتى أنه إذا امتنع عليه أحد أوقابله بما يكره فلا يتجاوز حدَّ الشرع وينسى الاحتساب ويأتي بالمنكر في نفس الاحتساب.

فصل في المنكرات المألوفة في العبادات:

وهو كمن انحرف عن القبلة، أولا يطمئن في ركوعه وسجوده في صلاته، أو يلحن في قراءته، فإنه يجب التنبيه في أمثال ذلك، وهو من أفضل القربات، وهو أولى من الاشتغال بالنوافل، ومنها تراسل المؤذنين في أذانهم، وتطويلهم، ومد الكلمات بحيث يخرج عن الحدِّ، وتكثير الأذان مرة بعد أخرى في مسجد واحد بعد الصبح، إذ لا فائدة فيه، ومنها لبس الثوب الذي فيه زيادة إبريسم، ومنها كلام القصاص الذين يمزجون بالبدع، ومنها الحِلَق يوم الجمعة لبيع الأدوية والتعويذات، ويستدل بما ذكرناه على أمثالها فلا مطمع في إحصائها.

فصل في أمر السلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر:

اعلم أن للاحتساب أربع درجات: التعريف، ثم الوعظ، ثم التخشين في القول، ثم المنع بالقهر، ولا يجوز في حق السلاطين والأمراء إلا التعريف

والوعظ، وأما التخشين والمنع قهراً فذلك يحرك فتنة، ويورث أموراً هي أفحش مما هم ملابسوه، نعم إن كان يعلم أن المخاشنة تفيد ولا تورث أمراً محذوراً فلا بأس به، ومنهم من لم يكترث بذلك أيضاً، ويدلُّ على ذلك قوله ﷺ: **«خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ثم رجل قام إلى إمام فأمره ونهاه في ذات الله عز وجل فقتله على ذلك»**[1].

وقال ﷺ: **«أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»**[2]، وإن صاحب ذلك إن قتل فهو شهيد كما وردت به الأخبار.

وقد روي عن ضبَّة بن محصن العَنزيّ قال: كان علينا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أميراً بالبصرة، كان إذا خطبنا فحمد الله تعالى، وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ أنشأ يدعو لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فغاظني ذلك منه، فقمت إليه، وقلت له: أين أنت من صاحبه تفضله عليه؟ فكتب إلى عمر يشكوني، يقول: إن ضَبَّةَ بن مُحْصِنٍ العَنزيّ يتعرض لي في خطبتي، فكتب إليه عمر أن أشخصه إليَّ، قال: فأشخصني إليه، فقدمت إليه، فضربت على الباب، فخرج إليَّ، فقال: من أنت؟ فقلت: أنا ضَبَّةُ بن مُحصِن العَنزيّ، قال: فقال: بك لا مرحباً ولا أهلاً، قلت: أما المرحب فمن الله تعالى، وأما الأهل فلا أهل لي ولا مال، فبماذا استحللت يا عمر إشخاصي من البصرة بلا ذنب أذنبته ولا شيء أتيته؟ قال: ما الذي شجر بينك وبين عاملي؟ قال: قلت: الآن أخبرك أنه كان إذا خطبنا فحمد الله عز وجل وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ أنشأ يدعو لك، فغاظني ذلك منه، فقمت إليه، فقلت له: أين أنت من صاحبه تفضله عليه؟ فصنع ذلك جُمَعاً عديدة، ثم كتب إليك يشكوني، قال: فاندفع عمر باكياً وهو يقول: أنت والله أوفق منه وأرشد، فهل أنت غافر لي ذنبي يغفر الله لك، قال: قلت: غفر الله تعالى لك يا أمير المؤمنين، قال: ثم اندفع باكياً وهو يقول: والله لَليلةٌ من أبي بكر ويومٌ خير من عمرَ وآل عمر، فهل لك أن أحدثك ليلته ويومه، قلت: نعم، قال: أما الليلة فإن رسول الله ﷺ لما أراد الخروج من مكة هارباً من المشركين خرج ليلاً، فتبعه أبو

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٩٥) وصحح إسناده، قال الذهبي: وفيه الصفار لا يدرى من هو.

(٢) رواه أبو داود (٤٣٤٤)، والترمذي (٢١٧٤) وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٤٠١١).

بكر، فجعل يمشي مرة أمامه ومرة يمشي خلفه، ومرة يمشي عن يمينه، ومرة يمشي عن يساره، فقال ﷺ: «ما هذا يا أبا بكر، ما أعرف هذا من أفعالك»، فقال: يا رسول الله أذكر الرَّصْد فأكون أمامك، وأذكر الطَّلَب فأكون خلفك، ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك، ولا آمن عليك، فمشي النبي ﷺ ليلته على أطراف أصابعه حتى حفيت، فلما رآه أبو بكر رضي الله عنه أنه حفي حمله على عاتقه وجعل يشتد به حتى أتى فم الغار فأنزله، فقال: والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخلَه، فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك، قال: فدخل، فلم يرَ فيه شيئاً، فحمله فأدخله، وكان في الغار حجر مخروق، وفيه حيات وأفاعي، فألقمه أبو بكر قدمه مخافة أن يخرج منه شيء من الحيات إلى رسول الله ﷺ فيؤذيه، فخرجت منه حية فلدغته، فجعلت دموع أبي بكر تنحدر على خديه من أَلَم ما يجده، ورسول الله ﷺ يقول: «**يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا**»، فأنزل الله سكينته والطمأنينة لأبي بكر، فهذه ليلته.

وأما يومه فلما توفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب، فقال بعضهم: لا نصلي، وقال بعضهم: لا نزكي، فأتيته لا آلوه نصحاً، فقلت: يا خليفة رسول الله ﷺ تألف الناس وارفق بهم، فقال: أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام، فبماذا نتألفهم؟ قبض رسول الله ﷺ وارتفع الوحي، والله لو منعوني عِقَالاً كانوا يُعطونَه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتُهم عليه، قال: فقاتلنا عليه، فكان والله رشيد الأمر، فهذا يومه، وكتب إلى أبي موسى يلومه[1] فافهم تغنم، والله أعلم.



(١) قال الحافظ العراقي: رواه بطوله البيهقي في (دلائل النبوة) بإسناد ضعيف هكذا، وقصة الهجرة رواها البخاري (٣٩٠٥) من حديث عائشة بغير هذا السياق، واتفق عليها الشيخان [البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١)] من حديث أبي بكر بلفظ آخر ولهما من حديثه: «قال: قلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال: «**يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما**» وأما ما قاله لأهل الردة ففي الصحيحين [البخاري (٧٢٨٤)، ومسلم (٢٠)] من حديث أبي هريرة: «لما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس... الحديث». اهـ.

الباب العشرون

في آداب المعيشة وأخلاق النبوة

بيان آدابه ﷺ:

اعلم أنه كان ﷺ كثير الضراعة والابتهال، دائماً يسأل الله تعالى أن يزينه بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق، فكان ﷺ يقول في دعائه: «اللهم حسّن خَلْقِي وخُلُقِي»[(١)]، قال سعيد بن هشام: «دخلت على عائشة رضي الله عنها، فسألتها عن أخلاق رسول الله ﷺ؟ فقالت: أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: خُلُق رسول الله ﷺ القرآن»[(٢)].

وإنما أدَّبه بالقرآن بمثل قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] إلى آيات كثيرة.

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (١/٤٠٣) من حديث ابن مسعود، و (٦/٦٨) من حديث عائشة، ولفظهما: «أحسنت خَلْقي فأحسن خُلُقي» وإسنادهما جيد، وحديث ابن مسعود رواه ابن حبان (٩٥٩). اهـ.

(٢) رواه مسلم (٧٤٦).

وكُسِرَت رباعيَتُهُ يوم أحدٍ ﷺ، فجعل يسيل الدم على وجهه وهو يمسح الدم ويقول: «**كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم، وهو يدعوهم إلى ربهم؟**»

فأنزل الله تعالى قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] تأديباً له على ذلك [(١)].

واعلم أن مثل هذه الآيات في القرآن كثيرة، وهو المقصود الأول بالتأديب والتهذيب، ثم منه يشرق النور على كافة الخلق، قال ﷺ: «**بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» [(٢)].

وقال علي رضي الله عنه: يا عجباً لرجل مسلم يجيئه أخوه المسلم في حاجة، فلا يرى نفسه للخير أهلاً، فلو كان لا يرجو ثواباً، ولا يخشى عقاباً، لقد كان ينبغي له أن يسارع في مكارم الأخلاق، فإنها تدل على سبيل النجاة، فقال رجل: أسمعته من النبي ﷺ؟ قال: نعم، ولما أُتي بسبايا طَيّ وقفت جارية في السَّبي، فقالت: يا محمد، أرأيت أن تخلي عني، ولا تشمت بي أحياء العرب، فإني بنت سيد قومي، وإنّ أبي كان يحمي الذمار، ويفك العاني، ويشبع الجائع، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يردَّ طالب حاجة، أنا ابنة حاتم طيّ، فقال رسول الله ﷺ: «**يا جارية هذه صفة المؤمنين حقاً، ولو كان أبوك مسلماً ترحَّمنا عليه، خلوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، وإن الله تعالى يحب مكارم الأخلاق**». وقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة إلا حَسَنُ الأخلاق**» [(٣)].

---

(١) رواه مسلم (١٧٩١)، وذكره البخاري معلقاً كتاب المغازي باب (٢١).

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (٢/ ٣٨١)، والبيهقي [في السنن (١٠/ ١٩٢)]، ولفظه «**بعثت لأتمم صالح الأخلاق**» والحاكم (٢/ ٦١٣) وقال: صحيح على شرط مسلم [ووافقه الذهبي].

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه الحكيم الترمذي في (نوادر الأصول) بإسناد فيه ضعف اهـ ورواه الخرائطي في (مكارم الأخلاق)، وروى قصة ابنة حاتم طي أبو نعيم في (الحلية)، والطبراني اهـ. والجارية هي سفانة بنت حاتم الطائي، وأخوها عدي بن حاتم، كلاهما أسلم وحسن إسلامه، وقد كانت سفانة امرأة حازمة ذكية فصيحة. (الإصابة: ٧/ ٧٠١).

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى حفَّ الإسلام بمكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ومن ذلك حسن المعاشرة، وكرم الصنيعة، ولين الكلام، وبذل المعروف، وإطعام الطعام، وإفشاء السلام، وعيادة المريض المسلم، برّاً كان أم فاجراً، وتشييع جنازة المسلم، وحسن الجوار لمن جاورت، مسلماً كان أو كافراً، وتوقير ذي الشيبة المسلم، وإجابة الطعام، والدعاء إليه، والعفو، والإصلاح، والجود، والكرم، والسّماحة، والابتداء بالسلام، وكَظْم الغيظ، والعفو عن الناس.**

ويذهب بهاء الإسلام باللهو والباطل، والغناء، والمعازف كلها، وكل ذي وتر، وكل ذي دَخَلَ، والكذب، والغيبة، والبخل، والشُّح، والجفاء، والمكر، والخديعة، والنميمة، وسوء ذات البَيْن، وقطيعة الأرحام، وسوء الخلق، والتكبر، والفخر، والاختيال، والاستطالة، والمزح، والفحش، والتفحش، والحقد، والحسد، والطيرة، والبغي، والعدوان، والظلم»[(1)]، قال أنس رضي الله عنه: فلم يدع نصيحة جميلة إلا قد دعانا إليها، وأمرنا بها، ولم يدع غشاً، أو قال: عيباً، ولا شَيْناً إلا حذرنا ونهانا عنه، ويكفي من ذلك كله، هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠] وقال معاذ رضي الله عنه: أوصاني رسول الله ﷺ فقال: «**يا معاذ أوصيك باتقاء الله تعالى، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجار، ورحمة اليتيم، ولين الكلام، وبذل السلام، وحسن العمل، وقصر الأمل، ولزوم الإيمان، والتفقه في القرآن، وحب الآخرة، والجزع من الحساب، وخفض الجناح، وأنهاك أن تسب حكيماً، أو تكذِّب صادقاً، أو تطيع آثماً، أو تعصي إماماً عادلاً، أو تفسد أرضاً، وأوصيك باتقاء الله عند كل حَجَر وشَجَر ومَدَر، وأنْ تُحدِثَ لكل ذنبٍ توبةً، السر بالسر، والعلانية بالعلانية**»[(2)]، فهكذا أدّبَ عباد الله ودعاهم إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب.

---

(١) قال الحافظ العراقي: الحديث بطوله لم أقف له على أصل ويغني عنه حديث معاذ الآتي بعده بحديث. اهـ.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أبو نعيم في (الحلية) (١/ ٢٤١)، والبيهقي في (الزهد). اهـ

بيان جملة من محاسن أخلاقه التي جمعها بعض العلماء والتقطها من الأخبار:

قال: كان النبي ﷺ أحلمَ الناسِ [(١)]، وأشجعَ الناسِ [(٢)]، وأعدلَ الناسِ [(٣)]، وأعفَّ الناسِ، لم تمِسَّ يدُه قطُّ يدَ امرأةٍ لا يملكُ رقبتها، أو عصمةَ نكاحِها، أو تكون ذات محرم منه [(٤)]، وكان ﷺ أسخى الناسِ [(٥)]، لا يبيتُ عنده دينارٌ ولا درهمٌ، فإن فَضَلَ ولم يَجد من يعطيه لم يُدخله منزلَهُ حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه [(٦)]، لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوتَ عامِه فقط، من أيسر ما يجدُ من التمر والشعير، ويضعُ سائرَ ذلك في سبيل الله تعالى [(٧)]، ولا يُسألُ شيئاً إلا أعطاهُ [(٨)]، ثم يعود على قوتِ عامه فيواسي منه، حتى ربما احتاجَ قبل انقضاء العام [(٩)] وإن

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله ﷺ قال: وهو مرسل اهـ.

(٢) رواه البخاري (٢٩٠٨)، ومسلم(٢٣٠٧).

(٣) رواه الترمذي في (الشمائل).

(٤) رواه البخاري (٥٢٨٨)، ومسلم (١٨٦٦).

(٥) رواه الطبراني في (الأوسط) (٦٨١٦)، وروى البخاري (١٩٠٢) ومسلم (٢٣٠٨) **«كان رسول الله ﷺ أجود الناس»**.

(٦) قال الحافظ العراقي: رواه أبو داود (٣٠٥٥) من حديث بلال في حديث طويل.. وللبخاري (٨٥١) من حديث عقبة بن الحارث: **«ذكرت وأنا في الصلاة فكرهت أن يُمسِك ويبيت عندنا فأمرت بقسمته»** اهـ.

(٧) قال الحافظ العراقي: أخرجاه [البخاري (٤٨٨٥) ومسلم (١٧٥٧)] من حديث عمر: **«كان يعزل نفقة أهله سنة»** وللطبراني في (الأوسط) من حديث أنس: **«كان إذا ادخر لأهله قوت سنة تصدق بما بقي»** قال الذهبي: حديث منكر. اهـ

(٨) قال الحافظ العراقي: رواه الطيالسي (٢٠٧٩) والدارمي (٧١) من حديث سهل بن سعد، وللبخاري (٦٠٣٦) في الرجل الذي سأله الشملة فقيل له: **«سألته إياها وقد علمت أنه لا يرد سائلاً..»** الحديث، ولمسلم (٢٣١٢) من حديث أنس: **«ما سئل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه»** وفي الصحيحين [البخاري (٦٠٣٤) ومسلم (٢٣١١)] من حديث جابر: **«ما سئل شيئاً قط فقال: لا»**. اهـ

(٩) قال الحافظ العراقي: هذا معلوم، ويدل عليه ما رواه الترمذي (١٢١٤)، والنسائي في (الكبرى) (٣٠٣١٧) وابن ماجه (٢٤٣٨) من حديث ابن عباس «أنه ﷺ توفي ودرعُه مرهونة بعشرين صاعاً من طعام أخذه لأهله» وقال ابن ماجه: «بثلاثين صاعاً من شعير» وإسناده جيد، وروى البخاري (٢٩١٦) من حديث عائشة «توفي ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين» وفي رواية البيهقي [في السنن (٦/ ٣٦)]: «بثلاثين صاعاً من شعير». اهـ

لم يأته شيء صَبَرَ، وكان ﷺ يَخْصِفُ النَّعل، ويُرقِّع الثوب، ويخدم في مِهنة أهله[1]، ويقطعُ اللحم معهُن[2]، وكان ﷺ من أشدِّ الناس حياءً، لا يثبِّت بصره في وجه أحد[3]، ويجيب دعوة العبد والحر[4]، وكان ﷺ يقبلُ الهدية، ولو أنها جَرْعَةُ لبَن، أو فخذُ أرنب، ويكافئُ عليها ويأكلُها[5]، ولا يأكلُ الصَّدَقة[6]، ولا يستكبرُ عن إجابة الأَمَة والمسكين[7]، ويغضب لربِّه، ولا يغضب لنفسه[8]، وكان ﷺ يعصِبُ الحجر على بطنه مرة من الجوع[9]، ومرة يأكلُ ما حضَرَ، ولا يردُّ ما وجدَ، ولا يتورَّع من مطعم حلالٍ[10]، وكان ﷺ يلبَس ما وَجَد، مرةً شَمْلةً،

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (٦/ ١٢١) من حديث عائشة: «كان يخصف نعله ويخيط ثوبه ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته» ورجاله رجال الصحيح، ورواه أبو الشيخ بلفظ: «ويرقع الثوب»، والبخاري (٦٧٦) من حديث عائشة: «كان يكون في مهنة أهله». اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (٦/ ٩٤) من حديث عائشة: أرسل إلينا آل أبي بكر بقائمة شاة ليلاً فأمسكت وقطع رسول الله ﷺ، أو قالت: فأمسك رسول الله ﷺ وقطعت، وفي الصحيحين[البخاري (٢٦١٨)، ومسلم (٢٠٥٦)] من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر في أثناء حديث: «وأيم الله ما من الثلاثين ومائة إلا حز له رسول الله ﷺ من سواد بطنها». اهـ

(٣) روى البخاري (٦١١٩) ومسلم (٢٣٢٠) من حديث أبي سعيد الخدري قال: «كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها».

(٤) رواه الترمذي (١٠١٧) وابن ماجه (٤١٧٨) والحاكم (٢/ ٤٦٦) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٥) روى البخاري (٢٥٨٥): «كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها»، وروى البخاري(١٦٦١) ومسلم (١١٢٣) من حديث أم الفضل: «أنها أرسلت بقدح لبن إلى النبي ﷺ وهو واقف بعرفة فشربه».

(٦) أحاديث عدم أكله ﷺ من الصدقة رواها البخاري ومسلم في أبواب الزكاة، ومنها ما رواه البخاري (١٤٩١) «أما شعرت أنَّا لا نأكل الصدقة».

(٧) رواه النسائي (٣/ ١٠٨) والحاكم وقال: على شرط الشيخين.

(٨) رواه الترمذي في الشمائل.

(٩) رواه البخاري (٤١٠١)، ومسلم (٢٠٣٩) من حديث جابر في قصة حفر الخندق.

(١٠) ومنه ما رواه الترمذي (١٨٤٢) من حديث أم هانئ: دخل علي النبي ﷺ فقال: «هل عندكم شيء؟» قلت: لا إلا كسر يابسة وخلّ، فقال: «قربيه فما أقفر بيت من أدم فيه خل». قال الترمذي: حسن غريب.

ومرةً بُردَ حِبرة يمانياً، ومرةً جبةَ صوفٍ، وما وجد من المباح لبس[1]، وخاتم فضة يلبسه في خِنصرِه الأيمن[2]، وربما في الأيسر[3]، ويردف خلفه عبده أو غيره[4]، يركب ما أمكنه، مرةً فرساً، ومرةً بغلةً شهباء، ومرةً حماراً، ومرةً راجلاً، وحافياً بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة[5]، وكان ﷺ يعود المرضى في أقصى المدينة، وكان يحب الطِّيبَ، ويكره الريح الرَّديئة[6]، ويجالس الفقراء[7]، ويُؤاكل

---

(١) روى البخاري (٥٨١٠) من حديث سهل بن سعد: «جاءت امرأة ببردة، قال سهل: هل تدرون ما البردة؟ هي الشملة منسوج في حاشيتها، وفيه: فخرج إلينا وإنها لإزاره»، وروى البخاري (٥٨١٣)، ومسلم (٢٠٧٩) من حديث أنس: «كان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ أن يلبسها الحبرة»، ولهما البخاري (٥٧٩٩)، ومسلم (٢٧٣) من حديث المغيرة بن شعبة: «عليه جبة من صوف». اهـ (العراقي باختصار).

(٢) روى مسلم (٢٠٩٤) من حديث أنس أن رسول الله ﷺ لبس خاتم فضة في يمينه، وللبخاري (٥٨٧٤) «فإني لأرى بريقه في خنصره».

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه مسلم (٢٠٩٥) من حديث أنس: كان خاتم النبي ﷺ في هذه، وأشار إلى الخنصر من يده اليسرى اهـ.

(٤) وهذا ثابت في الصحيحين البخاري (١٥٤٣- ١٥٤٤- ١٦٦٩- ١٦٨٥- ١٦٨٧) ومسلم (١٢١٨- ١٧٩٨) حيث أردف عليه الصلاة والسلام ابن عباس، وأسامة مولاه، والفضل بن عباس، ومعاذ بن جبل، وابن عمر وغيرهم.

(٥) روى البخاري (٢٨٦٧) من حديث أنس ركوبه ﷺ فرساً لأبي طلحة، وروى البخاري (١٦٠٧) ومسلم (١٢٧٣) من حديث ابن عباس: «طاف النبي ﷺ في حجة الوداع على بعير»، وروى البخاري (٤٣١٥)، ومسلم (١٧٧٦) من حديث البراء: «رأيت النبي ﷺ على بغلته البيضاء يوم حنين»، وروى البخاري (١١٩٤) ومسلم (١٣٩٩) من حديث ابن عمر: «كان يأتي قباء راكباً وماشياً»، ولمسلم (٩٢٥) من حديثه في عيادته ﷺ لسعد بن عبادة: «فقام وقمنا معه ونحن بضعة عشر ما علينا نعال ولا خفاف ولا قلانيس نمشي في السباخ..» اهـ (العراقي باختصار).

(٦) قال الحافظ العراقي: رواه النسائي (٧/ ٦١) من حديث أنس: «حبب إلي النساء والطيب» ورواه أبو داود (٤٠٧٤) والحاكم (٤/ ١٨٨) من حديث عائشة: «أنها صنعت لرسول الله ﷺ جبة من صوف سوداء فلبسها فلما عرق وجد ريح الصوف فخلعها وكان يعجبه الريح الطيب» لفظ الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولابن عدي (٥/ ٩٥) من حديث عائشة: «كان يكره أن يوجد منه إلا ريح طيبة» اهـ.

(٧) قال الحافظ العراقي: رواه أبو داود (٣٦٦٦) من حديث أبي سعيد: «جلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين وإن بعضهم ليستر بعضاً من العري..» الحديث، وفيه: «فجلس رسول الله ﷺ وسطنا ليعدل بنفسه فينا.. الحديث» اهـ.

المساكين(١)، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم، ويتألَّف أهل الشَّرف بالبِرِّ إليهم(٢)، ويصل ذوي الأرحام من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل(٣)، لا يجفو على أحد(٤)، ويقبل معذرة المعتذر إليه(٥)، يمزح ولا يقول إلا حقاً(٦)، يضحك من غير قهقهة(٧)، يرى اللعب المباح فلا يكرهه(٨)، ويسابق أهله(٩)، له عبيدٌ وإماءٌ، لا يرتفع عليهم في مأكل أو ملبَس، وهو ﷺ أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، نشأ في بلاد الجهل والصحارى في فقرٍ وفي رعاية الغنم يتيماً لا أب له ولا أم، فعلَّمه

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه البخاري (٦٤٥٢) من حديث أبي هريرة قال: «وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها». اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: روى الترمذي في الشمائل من حديث علي قال: «وكان من سيرته إيثار أهل الفضل بإذنه وقسمه على قدر فضلهم في الدين ويولفهم ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم..» الحديث. اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: روى الحاكم (٣/ ٣٢٤) من حديث ابن عباس: «كان رسول الله ﷺ يجل العباس إجلال الولد والده»، وله (٣/ ١١٦) من حديث سعد بن أبي وقاص أنه أخرج عمه العباس وغيره من المسجد، فقال له العباس: تخرجنا ونحن عصبتك وعمومتك وتسكن علياً فقال: «ما أنا أخرجتكم وأسكنته ولكن الله أخرجكم وأسكنه» قال في الأول: صحيح الإسناد، وسكت عن الثاني. اهـ

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه أبو داود (٤٧٨٩)، والترمذي في (الشمائل)، والنسائي في (اليوم والليلة) (١٠٠٦٤) من حديث أنس: «كان قلما يواجه رجلاً بشيء يكرهه» وفيه ضعف. اهـ

(٥) قال الحافظ العراقي: متفق عليه [البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩)] من حديث كعب بن مالك في قصة الثلاثة الذين خلفوا وفيه: «طفق المخلفون يعتذرون إليه فقبل منهم علانيتهم... الحديث». اهـ

(٦) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (٢/ ٣٤٠) من حديث أبي هريرة، وهو عند الترمذي (١٩٩٠) بلفظ: «قالوا: إنك تداعبنا قال: إني لا أقول إلا حقاً» وقال: حسن. اهـ

(٧) قال الحافظ العراقي: رواه الشيخان [البخاري (٦٠٩٢)، ومسلم (٨٩٩)] من حديث عائشة: «ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى لهواته إنما كان يبتسم» ورواه الترمذي (٣٦٤٢) من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء: «ما كان ضحك رسول الله ﷺ إلا تبسماً» وقال: صحيح غريب. اهـ

(٨) قال الحافظ العراقي: روى الشيخان [البخاري (٩٥٠)، ومسلم (٨٩٢)] من حديث عائشة في لعب الحبشة بين يديه في المسجد، وقال لهم: «دونكم يا بني أرفدة». اهـ

(٩) قال الحافظ العراقي: رواه أبو داود (٢٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٧٩) من حديث عائشة في مسابقته لها. اهـ

الله تعالى جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة، وأخبار الأولين والآخرين، وما فيه النجاة والفوز في الآخرة، وفقنا الله تعالى لطاعته، والتأسي به في فعله، آمين.

بيان جملة أخرى من آدابه ﷺ:

قالوا: ما شتم رسول الله ﷺ أحداً من المؤمنين بشتيمة إلا جعلت له كفارة ورحمة (١)، وما لعن امرأة قط ولا خادماً بلعنة (٢)، وقيل له وهو في القتال: لو لعنتهم يا رسول الله، قال ﷺ: «**إنما بعثت رحمة، ولم أبعث لعَّاناً**» (٣)، وقال أنس رضي الله عنه: والذي بعثه بالحق نبياً، ما قال لي في شيء قط كرهه: لِمَ فعلته؟ ولا لامَني نساؤه إلا قال: «**دعوه إنما كان هذا بكتاب وقدر**» (٤).

قالوا: وما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس من ذلك (٥) ولا يأتيه أحدٌ حرٌّ أو عبدٌ أو أمةٌ إلا قام معه في حاجته (٦).

وقد وصفه الله تعالى في التوراة قبل أن يبعثه، في السطر الأول، فقال: محمد رسول الله، عبدي المختار، لا فظّ ولا غليظ، ولا صخّاب في الأسواق، ولا

---

(١) قال الحافظ العراقي: متفق عليه [البخاري (٦٣٦١)، ومسلم (٢٦٠١)] من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه: «**فأي المؤمنين لعنته شتمته جلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة**» وفي رواية: «**فاجعلها زكاة ورحمة**» وفي رواية: «**فاجعلها له كفارة وقربة**» وفي رواية: «**فاجعل ذلك كفارة له يوم القيامة**». اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: والمعروف (ماضرب) مكان (لعن)، كما هو متفق عليه [البخاري (٣٥٦٠) ومسلم (٢٣٢٨)]، وللبخاري (٦٠٤٦) من حديث أنس: «**لم يكن فحاشاً ولا لعاناً**» وسيأتي الحديث الذي بعده فيه هذا المعنى. اهـ

(٣) رواه مسلم (٢٥٩٩) من حديث أبي هريرة.

(٤) قال الحافظ العراقي: متفق عليه [البخاري (٦٠٣٨) ومسلم (٢٣٠٩)] من حديث أنس: «**ما قال لشيء صنعته: لم صنعته؟ ولا لشيء تركته: لم تركته؟**»، وروى أبو الشيخ في كتاب (أخلاق رسول الله ﷺ) من حديث له قال فيه: «**ولا أمرني بأمر فتوانيت فيه فعاتبني عليه، فإن عاتبني أحد من أهله قال: دعوه فلو قدر شيء كان**» وفي رواية له: «**كذا قضي**». اهـ

(٥) رواه البخاري (٣٥٦٠) ومسلم (٢٣٢٧) من حديث عائشة.

(٦) قال الحافظ العراقي: رواه البخاري (٦٠٧٢) تعليقاً من حديث أنس: «**إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت**» ووصله ابن ماجه (٤١٧٧). اهـ

يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ومولده بمكة، وهجرته طيبة، وملكه بالشام، يأتزر على وسطه، هو ومن معه وعاة القرآن والعلم، يتوضأ على أطرافه، وكذلك نعته في الإنجيل.

وكان من خُلُقه أن يبدأ من لقيه بالسلام[1]، ومن فاوضه بحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف[2]، ما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها[3]، وكان ﷺ إذا لقي أحداً من أصحابه بدأه بالمصافحة، ثم أخذ بيده فشابكه، ثم شدَّ قبضته[4]، وكان ﷺ لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله تعالى[5]، وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته، وأقبل عليه، فقال: ألك حاجة؟ فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته[6]، وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعاً، ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه لأنه ما انتهى به المجلس جلس، وكان ﷺ أكثر ما يجلس مستقبل القبلة، وكان ﷺ يكرم من دخل عليه، حتى ربما بسط ثوبه لمن ليس بينه وبينه نسب ولا رضاع يجلسه عليه[7]، وكان ﷺ يؤثر الداخل بالوسادة التي

---

(١) رواه الترمذي في (الشمائل) (٧) من حديث هند بن أبي هالة.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني، ومن طريقه أبو نعيم في «دلائل النبوة» من حديث علي بن أبي طالب، وابن ماجه (٣٧١٦) من حديث أنس: «**كان إذا لقي الرجل يكلمه لم يصرف وجهه حتى يكون هو المنصرف**» ورواه الترمذي (٢٤٩٠) نحوه وقال: غريب. اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (٢٤٩٠) وابن ماجه (٣٧١٦) من حديث أنس الذي قبله: «**كان النبي ﷺ إذا استقبل الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل الذي ينزع**» لفظ الترمذي، وقال: غريب. اهـ

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه أبو داود (٥٢١٤) من حديث أبي ذر: «**وسأله رجل من عنزة هل كان رسول الله ﷺ يصافحكم إذا لقيتموه، قال: ما لقيته قط إلا صافحني..**» وفيه الرجل الذي من عنزة ولم يسم، وسماه البيهقي في (الأدب) عبد الله، وروينا في (علوم الحديث) للحاكم (ص٣٣) من حديث أبي هريرة قال: «**شبك بيدك أبو القاسم ﷺ**» وهو عند مسلم (٢٧٨٩) بلفظ «**أخذ رسول الله ﷺ بيدي**». اهـ

(٥) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي في (الشمائل) (٣٣٠) من حديث علي في حديثه الطويل في صفته وقال: «**على ذِكْرٍ**» بالتنوين. اهـ

(٦) قال الحافظ العراقي: لم أجد له أصلاً. اهـ

(٧) قال الحافظ العراقي: رواه الحاكم وصحح إسناده من حديث أنس حين دخل جرير بن عبد الله على =

تحته[1]، فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل، وكان ﷺ إذا قام من مجلسه قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، أستغفرك وأتوب إليك» ثم يقول: «علّمنيهنّ جبريل»[2].

بيان كلامه وضحكه ﷺ:

كان أفصح الناس منطقاً، وأحلاهم كلاماً، ويقول: «أنا أفصح العرب»[3] وإن أهل الجنة يتكلمون فيها بلغة النبي ﷺ[4]، وكان يتكلم بجوامع الكلام، لا فضول ولا نقص، كان كلامه يتبع بعضه بعضاً، وبين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه[5]،

= النبي ﷺ وفيه: «فأخذ بردته فألقاها عليه فقال: اجلس عليها يا جرير.. »الحديث وفيه: «وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه»... وللطبراني في (الصغير) (٧٩٣) من حديث جرير: «فألقى إلي كساء»، ولأبي نعيم في (الحلية): «فبسط إلي رداءه». اهـ

(١) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (٢/٩٦) من حديث ابن عمرو: «أنه دخل عليه ﷺ فألقى إليه وسادته من أدم حشوها ليف.. الحديث» وإسناده صحيح وللطبراني من حديث سلمان: «دخلت على رسول الله ﷺ وهو متكئ على وسادته فألقاها إلي .. الحديث» وسنده ضعيف، قال صاحب (الميزان) هذا خبر ساقط. اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: أخرجه النسائي في (اليوم والليلة) (١٠٢٦٠)، والحاكم في المستدرك (١/٥٣٧) من حديث رافع بن خديج [ووافقه الذهبي]. اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: روى أبو الحسن بن الضحاك في كتاب (الشمائل) وابن الجوزي في (الوفاء) بإسناد ضعيف من حديث بريدة: «كان رسول الله ﷺ من أفصح العرب وكان يتكلم بالكلام لا يدرون ما هو حتى يخبرهم»، وروى الطبراني في (الكبير) (٥٤٣٧) من حديث أبي سعيد الخدري: «أنا أعرب العرب» وإسناده ضعيف، وللحاكم [معرفة علوم الحديث (ص١١٦)] من حديث عمر قال: «قلت: يا رسول الله ما بالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا.. ». الحديث اهـ

(٤) قال الحافظ العراقي: روى الحاكم (٤/٨٧) من حديث ابن عباس وصححه: «كلام أهل الجنة عربي» [وضعفه الذهبي، وقال: أظن الحديث موضوعاً] اهـ.

(٥) قال الحافظ العراقي: روى الترمذي في (الشمائل) (٢٢٦) من حديث هند بن أبي هالة، وفي الصحيحين [البخاري (٧٠١٣) ومسلم (٥٢٣)] من حديث أبي هريرة: «بعثت بجوامع الكلم»، ولأبي داود (٤٨٣٨) من حديث جابر: «كان في كلام النبي ﷺ ترتيل أو ترسيل» وفيه شيخ لم يسم، وله (٤٨٣٩) وللترمذي (٣٦٣٩) من حديث عائشة «كان كلام النبي ﷺ فصلاً يفهمه كل من سمعه» وقال الترمذي [في الشمائل (٢٢٤)]: «يحفظه من جلس إليه»وقال الترمذي في (اليوم والليلة): «يحفظه من سمعه» وإسناده حسن. اهـ

وكان ﷺ لا يقول في الرضا والغضب إلا حقاً[1]، أكثر الناس تبسماً، وأطيبهم نَفْساً ما لم ينزل عليه قرآن أو يذكر الساعة أو يخطب خطبة عظة[2]، ولقد جاء أعرابيٌ يوماً وهو عليه الصلاة والسلام متغير، تنكره أصحابه، فأراد أن يسأله، فقالوا: لا تفعل يا أعرابي، فإنا ننكر لونه، قال: دعوني فوالذي بعثه بالحق نبياً لا أدعه حتى يبتسم، فقال: يا رسول الله بلغنا أن المسيح الدجال يأتي الناس بالثريد، وقد هلكوا جميعاً جوعاً أفترى لي - بأبي أنت وأمي - أكف عن ثريده تعففاً وتنزهاً حتى أهلك هزالاً، أم أصرف في ثريده حتى إذا تضلعت شبعاً آمنت بالله وكفرت به؟ قالوا: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال: «**لا بل يغنيك الله بما يغني به المؤمنين**»[3]، وكان إذا نزل به الأمر فوض الأمر، وتبرأ من الحول والقوة، واستنزل الهدى، فيقول: «**اللهم أرني الحق حقاً وارزقني اتباعه، وأرني المنكر منكراً وارزقني اجتنابه، وأعذني من أن يشتبه علي فأتبع هواي بغير هدى**

---

(١) قال الحافظ العراقي: أخرج أبو داود (٣٦٤٦) من حديث عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، وقالوا: تكتب كل شيء ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأومأ بأصبعه إلى فيه وقال: «**اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق**». رواه الحاكم (١/ ١٠٥) وصححه [قال الذهبي: إن كان الوليد هو ابن أبي الوليد الشامي فهو على شرط مسلم].

(٢) قال الحافظ العراقي: تقدم حديث عبد الله بن الحارث: «**ما رأيت أحداً أكثر تبسماً منه**» وللطبراني في (مكارم الأخلاق) من حديث جابر: «**كان إذا نزل عليه الوحي قلت: نذير قوم فإذا سري عنه فأكثر الناس ضحكاً**» الحديث، ولأحمد (١/ ١٦٧) من حديث علي أو الزبير: «**كان يخطب فيذكر بأيام الله حتى يعرف ذلك في وجهه وكأنه نذير قوم يصبحهم لأمر غدوة، وكان إذا كان حديث عهد بجبريل لم يتبسم ضاحكاً حتى يرتفع عنه**» ورواه أبو يعلى [في مسنده (٢/ ٣٨)] من حديث الزبير من غير شك، وللحاكم (٤/ ٥٢٣) من حديث جابر: «**كان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتد غضبه**» [وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقره الذهبي] وهو عند مسلم (٨٦٧) بلفظ: «**كان إذا خطب...**». اهـ.

(٣) قال الحافظ العراقي: وهو حديث منكر لم أقف له على أصل، ويرده قوله ﷺ في حديث المغيرة بن شعبة المتفق عليه [البخاري (٧١٢٢) ومسلم (٢٩٣٩)] حين سأله: «**إنهم يقولون إن معه جبل خبز ونهر ماء قال: هو أهون على الله من ذلك**» وفي رواية لمسلم (٢٩٣٩): «**إنهم يقولون إن معه جبالاً من خبز ولحم..**» الحديث، نعم في حديث حذيفة وأبي مسعود المتفق عليهما [البخاري (٧١٣٠) ومسلم (٢٩٣٤)] «**أن معه ماء وناراً..**» الحديث اهـ.

منك، واجعل هواي تبعاً لطاعتك، وخذ رضا نفسك من نفسي في عافية، واهدني فيما اختلف فيه من الحق بإذنك، فإنك تهدي إلى صراط مستقيم»[1].

بيان أخلاقه وآدابه في الطعام وقد سبق بعضه في باب الأكل والشرب

وكان ﷺ يأكل القثاء بالرطب[2] وبالملح[3]، وكان ﷺ أحب الفواكه إليه الرطب والبطيخ والعنب[4]، وربما أكل العنب خرطاً يُرى زؤانه على لحيته كاللؤلؤ[5]، وهو الماء الذي يتقطر منه، وكان ﷺ أكثر طعامه الماء والتمر[6]، وكان ﷺ يجمع اللبن بالتمر، ويسميهما الأطيبين[7] وكان ﷺ أحب الطعام إليه

(١) قال الحافظ العراقي: لم أقف لأوله على أصل، وروى المستغفري في (الدعوات) من حديث أبي هريرة: كان النبي ﷺ يدعو فيقول: «**اللهم إنك سألتنا من أنفسنا ما لا نملكه إلا بك فأعطنا ما يرضيك عنا**» وروى مسلم (٧٧٠) من حديث عائشة فيما كان يفتتح به صلاته من الليل: «**اهدني لما اختلف فيه.. إلى آخر الحديث**». اهـ

(٢) رواه البخاري (٥٤٤٠) ومسلم (٢٠٤٣) من حديث عبد الله بن جعفر.

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه أبو الشيخ (٦٧٦) من حديث عائشة، وفيه يحيى بن هاشم كذبه ابن معين وغيره، ورواه ابن عدي (٤/ ٣٣٥)، وفيه عباد بن كثير متروك. اهـ

(٤) قال الحافظ العراقي: روى أبو نعيم في (الطب النبوي) من رواية أمية بن زيد العبسي: أن النبي ﷺ كان يحب من الفاكهة العنب والبطيخ، وروى أبو الشيخ (٦٧٤) وابن عدي في الكامل (٧/ ١٥٣)، والطبراني في الأوسط (٧٩٠٧) والبيهقي في الشعب (٥٩٩٥) من حديث أنس، «**كان يأخذ الرطب بيمينه والبطيخ بيساره، ويأكل الرطب بالبطيخ، وكان أحب الفاكهة إليه**» فيه يوسف بن عطية الصفار مجمع على ضعفه، وروى ابن عدي (٤/ ٣٣٥) من حديث عائشة: «**كان أحب الفاكهة لرسول الله ﷺ الرطب والبطيخ**» وله من حديث آخر لها (٥/ ١٢٧). «**فإن خير الفاكهة العنب**» وكلاهما ضعيف. اهـ

(٥) قال الحافظ العراقي: رواه ابن عدي في (الكامل) (٦/ ٨٥) من حديث العباس، والعقيلي في (الضعفاء) (٤٥٥) [والطبراني في الكبير (١٢٧٢٧) والبيهقي في الشعب (٥٩٦٦) و (٥٩٦٧)] من حديث ابن عباس هكذا مختصراً وكلاهما ضعيف. اهـ

(٦) روى البخاري (٥٤٤٢) من حديث عائشة: «**توفي رسول الله ﷺ وقد شبعنا من الأسودين التمر والماء**».

(٧) قال الحافظ العراقي: روى أحمد (٣/ ٤٧٤) من رواية إسماعيل بن أبي خالد عن أبيه قال: «**دخلت على رجل وهو يجمع لبناً بتمر، وقال: إذاً فإن رسول الله ﷺ سماهما الأطيبين**» ورجاله ثقات وإبهامه لا يضر. اهـ

اللحم، ويقول: «هو يزيد في السمع، وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة، ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل»(١)، وكان ﷺ يأكل الثريد باللحم والقَرْع(٢)، وكان ﷺ يحبُّ القَرْع، ويقول: «إنها شجرة أخي يونس»(٣)، قالت عائشة رضي الله عنها: إذا طبختم قِدراً فأكثروا فيه من الدُّباء، فإنه يشد القلب المحزون(٤)، وكان ﷺ يأكل لحم الطير الذي يصاد(٥)، وكان لا يتبعه ولا يصيده، ويحب أن يصاد له، ويؤتى به فيأكله(٦)، وكان ﷺ يأكل الخبز والسمن(٧)، وكان يحب من الشاة

---

(١) قال الحافظ العراقي: روى أبو الشيخ (٦٢٣) من رواية ابن سمعان قال: سمعت من علمائنا يقولون: كان أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ اللحم... الحديث، وروى الترمذي في (الشمائل) (١٨١) من حديث جابر: «**أتانا النبي ﷺ في منزلنا فذبحنا له شاة فقال: كأنهم علموا أنا نحب اللحم**» وإسناده صحيح، وروى ابن ماجه (٣٣٠٥) من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف: «**سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم**». اهـ

(٢) رواه مسلم (٢٠٤١) من حديث أنس.

(٣) قال الحافظ العراقي روى النسائي [في (الكبرى) (٦٦٦٤)]، وابن ماجه (٣٣٠٢) من حديث أنس: «**كان النبي ﷺ يحب القرع**»، وقال النسائي: «**الدباء**» وهو عند مسلم بلفظ: «**تعجبه**» وروى ابن مردويه في (تفسيره) من حديث أبي هريرة في قصة يونس: فلفظته في أصل شجرة وهي الدباء. اهـ

(٤) ذكره المصنف في الإحياء مرفوعاً، وقال الحافظ العراقي: رويناه في فوائد أبي بكر الشافعي. اهـ

(٥) قال الحافظ العراقي: روى الترمذي (٣٧٢١) من حديث أنس قال: «**كان عند النبي ﷺ طير فقال: اللهم ائتني بأحب الخلق إليك يأكل معي هذا الطير، فجاءه علي فأكل معه**» قال: حديث غريب، قلت: وله طرق كلها ضعيفة، وروى أبو داود (٣٧٩٧)، والترمذي (١٨٢٨) واستغربه من حديث سفينة قال: «**أكلت مع النبي ﷺ لحم الحبارى**». اهـ

(٦) قال الحافظ العراقي: هذا هو الظاهر من أحواله فقد قال: «**من تبع الصيد غفل**» رواه أبو داود (٢٨٥٩) والنسائي (٧/ ١٩٥)، والترمذي (٢٢٥٦) من حديث ابن عباس، وقال: حسن غريب، وأما حديث صفوان بن أمية عند الطبراني في الكبير (٧٣٤٢): «**قد كانت قبلي لله رسل كلهم يصطاد ويطلب الصيد**» فهو ضعيف جداً.

(٧) قال الحافظ العراقي: متفق عليه [البخاري (٥٣٨١)، ومسلم (٢٠٤٠)] من حديث أنس في قصة طويلة فيها: «**فأتت بذلك الخبز نأمر به رسول الله ﷺ ففت وعصرت أم سليم عكة فآدمته..**» الحديث وفيه: «**ثم أكل النبي ﷺ**» وفي رواية ابن ماجه (٣٣٤٢): «**وضعت فيها شيئاً من سمن**» ولا يصح، وروى أبو داود (٣٨١٨) وابن ماجه (٣٣٤١) من حديث ابن عمر: «**وددت لو أن عندنا خبزة بيضاء من برة سمراء مُلَبَّقَةٍ بسمن..**» الحديث قال أبو داود: منكر اهـ.

الذراع والكتف[1]، ومن القِدر الدُّباء، ومن الصباغ الخل، ومن التمر العجوة[2]، ودعا فيها بالبركة، وقال: «**هي من الجنة، وشفاء من السُّم والسِّحر**»[3]، وكان ﷺ يحب من البقول الهندباء، والباذروج، والبقلة الحمقاء[4].

بيان آدابه وأخلاقه في اللباس:

كان ﷺ يلبس من الثياب ما وجد، وكان ﷺ أكثر لباسه البياض، ويقول: «**أَلْبِسُوها أحياءكم، وكفِّنوا فيها موتاكم**»[5] وربما خرج وفي خاتمه الخيط

---

(١) قال الحافظ العراقي: روى الشيخان [البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤)] من حديث أبي هريرة، قال: وضعت بين يدي النبي ﷺ قصعة من ثريد ولحم فتناول الذراع وكان أحب الشاة إليه. . الحديث، وروى أبو الشيخ من حديث ابن عباس: «**كان أحب اللحم إلى رسول الله ﷺ الكتف**»، وإسناده ضعيف، ومن حديث أبي هريرة: «**ولم يكن يعجبه من الشاة إلا الكتف**». اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: تقدم حديث أنس: «**كان يحب الدباء**» [الحاشية (٣) (ص: ١٧٣)]، ولأبي الشيخ من حديث أنس: «**كان أحب الطعام إليه الدباء**». ولأبي الشيخ من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف: «**كان أحب الصباغ إلى رسول الله ﷺ الخل**» وله بالإسناد المذكور: «**كان أحب التمر إلى رسول الله ﷺ العجوة**». اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: روى البزار والطبراني في الكبير من عبد الله بن الأسود قال: «**كنا عند رسول الله ﷺ في وفد سدوس فأهدينا له تمراً**» وفيه: «**حتى ذكرنا تمر أهلنا هذا الجذامي فقال: بارك الله بالجذامي وفي حديقة خرج هذا منها. .**» الحديث، قال أبو موسى المديني: قيل: هو تمر أحمر، وروى الترمذي (٢٠٦٦)، وابن ماجه (٣٤٥٦) من حديث أبي هريرة: «**العجوة من الجنة وهي شفاء من السم**»، وفي (الصحيحين) [البخاري (٥٤٤٥)، ومسلم (٢٠٤٧)] من حديث سعد بن أبي وقاص: «**من تصبح سبع تمرات من عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر**». اهـ

(٤) قال الحافظ العراقي: روى أبو نعيم في (الطب النبوي) من حديث ابن عباس: «**عليكم بالهندباء فإنه ما يوم إلا ويقطر عليه قطرة من قطر الجنة**» وله من حديث الحسن بن علي وأنس بن مالك نحوه وكلها ضعيفة، وأما الباذروج فلم أجد فيه حديثاً، وأما الرِّجلة [البقلة] فروى أبو نعيم من رواية ثوير قال: «**مر النبي ﷺ بالرجلة وفي رجله قرحة فداواها بها فبرئت، فقال رسول الله ﷺ: بارك الله فيك انبتي حيث شئت فأنت شفاء من سبعين داء أدناه الصداع**» وهذا مرسل ضعيف. اهـ

(٥) قال الحافظ العراقي: روى ابن ماجه (٣٥٦٦)، والحاكم (١/ ٣٥٤)و(٤/ ١٨٥) من حديث ابن عباس: «**خير ثيابكم البياض فألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم**»، قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وله (٤/ ١٨٥) ولأصحاب السنن [أبو داود (٤٠٦١)، وابن ماجه (٣٥٦٧)]من حديث سمرة: «**عليكم بهذه الثياب البياض فليلبسه أحياؤكم وكفنوا فيها موتاكم**» لفظ الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين [ووافقه الذهبي]، وقال الترمذي: حسن صحيح. اهـ

المربوط يتذكر به الشيء[1]، وكان يلبس القلانس تحت العمائم وبغير عمامة، وربما ينزع قلنسوته من رأسه، فيجعلها سترة بين يديه، ثم يصلي إليها[2]، وكان ﷺ إذا لبس الثوب لبسه من قِبَل ميامنه[3]، ويقول: «**الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمل به في الناس**»[4] وإذا نزع ثوبه خرج من مياسره[5]، وكان ﷺ له ثوب لجمعته خاصة[6] وكان ﷺ إذا لبس جديداً أعطى خَلِقَ ثيابه مسكيناً، يقول: «**ما من مسلم يكسو مسلماً من فضل ثيابه ولا يكسوه إلا لله تعالى إلا كان في ضمان الله وحرزه وخيره ما واراه حياً وميتاً**»[7]، وكان ﷺ له فراش من أدم

---

(١) قال الحافظ العراقي: روى ابن عدي(٢٥٠) من حديث واثلة بسند ضعيف: «**كان إذا أراد الحاجة أوثق في خاتمه خيطاً**» وزاد الحارث بن أبي أسامة في (مسنده) من حديث ابن عمر: «**ليذكره به**» وسنده ضعيف. اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: روى الطبراني وأبو الشيخ والبيهقي في (شعب الإيمان) (٦٢٥٩) من حديث عمر: «**كان رسول الله ﷺ يلبس قلنسوة بيضاء**»، ولأبي الشيخ (٣١٦) من حديث ابن عباس: «**كان لرسول الله ﷺ ثلاث قلانس، قلنسوة بيضاء مضربة، وقلنسوة برد حبرة، وقلنسوة ذات آذان يلبسها في السفر فربما وضعها بين يديه إذا صلى**» إسنادهما ضعيف، ولأبي داود (٤٠٧٨) والترمذي (١٧٨٤) من حديث ركانة: «**فرق ما بيننا وبين المشركين العمائم على القلانس**» قال الترمذي: غريب وليس إسناده بالقائم. اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (١٧٦٦) من حديث أبي هريرة ورجاله رجال الصحيح، وقد اختلف في رفعه. اهـ

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (٣٥٦٠) وقال: غريب، وابن ماجه (٣٥٥٧)، والحاكم (٤/ ١٩٣) وصححه من حديث عمر بن الخطاب. [ووافقه الذهبي] اهـ.

(٥) قال الحافظ العراقي: روى أبو الشيخ من حديث ابن عمر: «**كان إذا لبس شيئاً من الثياب بدأ بالأيمن وإذا نزع بدأ بالأيسر**» وله من حديث أنس: «**كان إذا ارتدى أو ترجل أو انتعل بدأ بيمينه وإذا خلع بدأ بيساره**» وسندهما ضعيف. اهـ

(٦) في الإحياء بلفظ: (ثوبان) وقال الحافظ العراقي: رواه الطبراني في (الصغير) (٤٢٤) و(الأوسط) (٣٥١٦) من حديث عائشة بسند ضعيف زاد: «**فإذا انصرف طويناهما إلى مثله**»ويرده حديث عائشة عند ابن ماجه (٣٥٥٤): «**ما رأيته يَسُبُّ أحداً ولا يطوى له ثوب**». اهـ

(٧) قال الحافظ العراقي: روى الحاكم في المستدرك (٤/ ١٩٣)، والبيهقي في الشعب (٦٢٨٦) من حديث عمر قال: رأيت رسول الله ﷺ دعا بثيابه فلبسها فلما بلغ تراقيه قال: «**الحمد لله الذي كساني ما أتجمل به في حياتي وأواري به عورتي**» ثم قال: «**ما من مسلم يلبس ثوباً جديد...**»الحديث دون ذكر تصدقه ﷺ بثيابه وهو عند الترمذي (٣٥٦٠) وابن ماجه (٣٥٥٧) دون ذكر لبس النبي ﷺ لثيابه وهو أصح وقد تقدم، قال البيهقي: وهو غير قوي. اهـ

حشوه ليف[1]، طوله ذراعان أو نحوه وعرضه ذراع وشبر، وكان ﷺ له عباءة تفرش له حيثما تنقل، تثنى طاقتين[2]، وكان ﷺ يلبس المِنْطَقَةَ من الأدم، فيها ثلاث حلق من فضة[3].

بيان شجاعته ﷺ:

قال علي رضي الله عنه: لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو، وكان ﷺ من أشد الناس يومئذ بأساً[4].

بيان معجزاته ﷺ:

اعلم أن من شاهد أحواله وأخلاقه وأصغى إلى ما نقل عنه علم أن الأولين والآخرين يعجزون عن أمثالها، وأن ذلك لا يتصور إلا أن يكون من الوحي والتنزيل، وكان الجلف العربي يرى وجهه الكريم فيقول: والله ما هذا وجه كذاب قط، فذو البصيرة يكفيه ذلك دلالة على صدقه ونبوته، ونحن نورد بعض ما ظهر على يده من خرق العادات.

منها أنه شُقَّ له القمر بمكة إذ سألته قريش ذلك[5]، ومنها أنه أطعم النفر

---

(١) قال الحافظ العراقي: متفق عليه [البخاري (٦٤٥٦)، ومسلم (٢٠٨٢)] من حديث عائشة مقتصراً على هذا دون ذكر عرضه وطوله، ولأبي الشيخ من حديث أم سلمة: «**كان فراش النبي ﷺ نحو ما يوضع الإنسان في قبره**» وفيه من لم يسم.

(٢) قال الحافظ العراقي: روى ابن سعد في (الطبقات) (١/ ٤٦٥) وأبو الشيخ من حديث عائشة: «**دخلت علي امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية ..** » الحديث، ولأبي سعيد عنها: «**أنها كانت تفرش للنبي ﷺ عباءة باثنين ..** » الحديث، وكلاهما لا يصح، وروى الترمذي في (الشمائل) (٣٢٣) من حديث حفصة: «**وسئلت ما كان فراشه قالت: مِسْحاً نثنيه ثنيتين فينام عليه ..** » الحديث وهو منقطع. اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: لم أقف له على أصل، ولابن سعد في (الطبقات) (١/ ٤٨٨) وأبي الشيخ من رواية محمد بن علي الحسين مرسلاً: «**كان في درع النبي ﷺ حلقتان من فضة**». اهـ

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه أبو الشيخ في (أخلاق النبي ﷺ) بإسناد جيد اهـ.

(٥) رواه البخاري (٣٦٣٦)، ومسلم (٢٨٠٠).

الكثير في منزل جابر ومنزل أبي طلحة ويوم الخندق [1]، ونبع الماء من بين أصابعه، فشرب العسكر كلهم، وهم عطاش، وتوضؤوا من قدح صغير ضاق عن أن يَبْسُطَ عليه الصلاة والسلام فيه يَدَهُ [2]، وأمثال ذلك كثير، والبصير لا يتوقف إيمانه على ذلك، والله أعلم.



(١) رواه البخاري (٣٥٧٨)، ومسلم (٢٠٤٠).

(٢) قال الحافظ العراقي: متفق عليه [البخاري (٣٥٧٢)، ومسلم (٢٢٧٩)] من حديث أنس في ذكر الوضوء فقط، ولأبي نعيم من حديثه: «خرج إلى قباء فأتي من بعض بيوتهم بقدح صغير» وفيه: «ثم قال: هلم إلى الشرب، قال أنس: بصر عيني نبع الماء من بين أصابعه، ولم يرد القدح، حتى رووا منه» وإسناده جيد، وللبزار واللفظ له، والطبراني في (الكبير) (٢٧٧) من حديث ابن عباس: «كان في سفر فشكا أصحابه العطش فقال: ائتوني بماء، فأتوه بإناء فيه ماء فوضع يده في الماء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه..» الحديث. اهـ.

الربع الثالث

المهلكات

يتضمن الأبواب التالية:

١ـ عجائب القلب.

٢ـ رياضة النفس.

٣ـ كسر الشهوتين.

٤ـ آفات اللسان.

٥ـ آفة الغضب والحقد والحسد.

٦ـ ذم الدنيا.

٧ـ ذم حب المال وذم البخل.

٨ـ ذم الجاه والرياء.

٩ـ ذم الكبر والعجب.

١٠ـ ذم الغرور.

الباب الحادي والعشرون

في عجائب القلب

وهو الأول من ربع المهلكات

قال رسول الله ﷺ: «**إن في جسد ابن آدم مُضْغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وصلح لها سائر البدن، ألا وهي القلب**»[1] فقد تبين بهذا الحديث أن الأصل هو القلب، وهو الأمير المطاع في عالم الجسد، والبقيّة رعيّة، ونحن نبين معنى القلب والروح والنفس والعقل:

فالأول: لفظ القلب: وهو يطلق لمعنيين:

أحدهما: اللحم الصَّنَوبري الشَّكل، المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وفي باطنه تجويف يسكنه دم أسود، وهو منبع الروح ومعدنها، وهذا اللحم على الشكل أيضاً موجود للبهائم وللموتى.

والمعنى الثاني: هو لطيفة ربانية روحانية، لها بهذا اللحم اتصال ما، وهذه اللطيفة هي العالِمَة بالله تعالى، المدْرِكة لما ليس يدركه الخيال والوهم، وهو حقيقة الإنسان، وهو المخاطب، وإلى هذا المعنى أشار بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

﴿لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، ولو كان المراد بالقلب هو اللحم الصنوبري الشكل لكان موجوداً لكل أحد.

فإذا عرفت هذا فاعلم أن تعلق هذه اللطيفة بهذا اللحم الصنوبري هو تعلق غامض، لا يدرك بالبيان، بل يتوقف على المشاهدة والعيان، والذي يمكن أن يذكر فيه أنه كالملِك، وهذا اللحم له كالدار والمملكة، إذ لو كان تعلقه به تعلق الأعراض لما صحَّ فيه أن يقال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

اللفظ الثاني: الروح: وله أيضاً معنيان:

أحدهما: الروح الطبيعي، وهو دخان منبعه دم أسود في تجويف القلب، وهو اللحم الصنوبري، وينتشر بواسطة العروق والضوارب في جميع أجزاء البدن، ومثاله كسراج في بيت، إذ يستضاء في جميع زوايا البيت به، وهو الذي يريده الأطباء بإطلاق الروح.

والمعنى الثاني: هو اللطيفة الربانية التي هي معنى حقيقة القلب، فالروح والقلب متواردان على تلك اللطيفة على نسق واحد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

اللفظ الثالث: النفس: ولها معنيان:

أحدهما: المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة والصفات المذمومة، وهو المراد بقوله عليه الصلاة والسلام: «**أعدى عدوِّك نفسُك التي بين جنبيك**»(١)، وهي المجاهدَةُ والمأمورُ بكسرها.

المعنى الثاني لها: اللطيفة الربانية التي هي إحدى معنَيَي الروح والقلب، والنفس أيضاً مع لفظ القلب والروح مطلقة على تلك اللطيفة، وهو حقيقة الإنسان التي يتميز بها عن سائر الحيوانات، فإذا صَفَتْ وتَجَلَّتْ بذكر الله تعالى ومحي عنها

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه البيهقي في كتاب (الزهد) من حديث ابن عباس، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان، أحد الوضاعين.

آثار الشهوات والصفات المذمومة سميت النفس المطمئنة، وهي المراد بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ الآية[الفجر: ٢٧]، والنفس قبل أن تنتهي إلى هذه الدرجة لها درجتان باعتبار صفاتها؛ أحدهما أن تسمى النفس اللوَّامة، وهي التي أقسم الله بها في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ [القيامة: ٢] وهي التي تلوم على المعاصي، ولا تركن إليها، ولا ترضى بها، وقبل أن تنتهي إلى هذه الدرجة لها درجة، وهي أن تكون أمَّارة بالسوء، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وهي في حالة لا تأمر بالخير ولا تلوم على الشر، وهي حضيض النفس، والمطمئنة سماكها، واللوَّامة بينهما لا هي ترضى بالشر فتركن إليه، ولا تستطيع الاطمئنان فتطمئن إلى الخير، وهو ذكر الله تعالى.

اللفظ الرابع: العقل:

وقد ذكر له عدة معان، ونحن نريد منه معنيين:

أحدهما: العلم بحقائق الأشياء.

والثاني: العالم الذي يكون العلم له كالصفة، وهذا المعنى هو اللطيفة الربانية التي سبق ذكرها إذ لا يمكن أن يكون المراد بالعقل المعنى الأول، لقوله ﷺ: **«أول ما خلق الله تعالى العقل، ثم قال له: أقبِل فأقبَل، ثمْ قال له: أدبِر فأدبَر»** الحديث[1]. (٣)

فإذا تبين لك أن القلب والعقل والروح والنفس في الأخبار والآيات المراد منها هي اللطيفة الربانية، ونحن إذا أطلقناها أردنا بها تلك اللطيفة، فاعلم ذلك.

وقد قال سهل التُسْتَرِي[2]: القلب هو العرش، والصدر هو الكرسي.

وهو يدل أيضاً على أن المراد عنده من القلب شيء وراء اللحم الصنوبري.

---

(١) تقدم تخريجه صفحة (٤٢) في كتاب العلم.

(٢) هو: سهل بن عبد الله بن يونس التُسْتَرِي، أبو محمد، أحد أئمة القوم وعلمائهم، والمتكلمين في الإخلاص وعيوب الأفعال، صحب خاله محمد بن سوار وشاهد ذا النون المصري، توفي سنة ٢٨٣هـ. (طبقات الصوفية/ صـ٢٠٦ـ).

فصل: إذا عرفت القلب فنحن نبين لك جنوده، وله جندان، جند يشاهد بالبصر، وهو اليد والرجل والعين وسائر الأعضاء، وجند يشاهد بالبصيرة، وهو الصفات على ما سيأتي ذكرها، ودلَّ الحديث وهو قوله ﷺ: «**إن في جسد ابن آدم مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد ألا وهي القلب**»(1) على أن القلب ينبغي أن يكون أميراً مطاعاً وتكون النفس وسائر البدن مطيعة لأوامره ونواهيه، فإذا لم يكن كذلك وغلبت الشهوات صار الأمير مأموراً، وانعكس الأمر، فيصير المِلِكُ ـ مثلاً ـ أسيراً مسخراً في يد كلب أو عدو، ولهذا إن الرجل إذا أطاع داعيةَ الشَّرَهِ أو الشَّهوة يرى نفسه في النوم أو في اليقظة ـ وهي الحالة الصوفية ـ ساجدة بين يدي خنزير أو حمار، وإن أطاع الغضب يرى نفسه ساجدة بين يدي كلب، فإنه على الحقيقة أطاع الحمار، وهو الشهوة، وأطاع الخنزير، وهو الشَّره، وهو في هذه الحالة ـ أعني في طاعة الشهوة والشَّره ـ مطيع للشيطان المسلط على الآدمي، فإذا طال تسلط هواه بهذه الصفات التي هي جند الشيطان على القلب، ولم يكن للقلب نصرة على هزم هذا الجند، وصار القلب مقهوراً مدة، صار ذلك سبباً في إبطال خاصية تلك اللطيفة، وهو المراد بسواد القلب في الأخبار، وهو المراد بالطبع والرين في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [محمد: ١٦] وفي قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٤] ومثال القلب: المرآة، فإنها ما دامت صافية من الصدأ والخبث يشاهد فيها الأشياء، وإذا غلب عليها الصدأ ولم يكن لها ما يصقلها ويدفع الصدأ عنها ويجلوها تمكن منها وغاص في جرمها وهلكت، وصارت بحيث لا يقدر المصقل على صقلها وجلائها، وهو المراد بالطبع والرين، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «**إن القلب ليصدأ كما يصدأ الحديد**»، قيل: وما جلاؤه؟ قال ﷺ: «**ذكر الموت، وتلاوة القرآن**»(2)، فإذا بطلت ولاية القلب بالكلية استولى الشيطان، فتقلب الصفات المحمودة مذمومة، وقد قال ﷺ: «**القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر، فذاك قلب المؤمن، وقلب أسود منكوس، فذاك قلب الكافر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، فذاك قلب المنافق، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه مثل البقلة، يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة،**

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) بنحوه.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه البيهقي في الشعب (٢٠١٤) من حديث ابن عمر بسند ضعيف. اهـ

يمدها القيح والصديد، فأي المادتين غلبت عليه حكم له بها»[1] وفي رواية: «ذهبت به»، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١]. أخبر: أن إبصار القلب وجلاءه يحصل بالذكر، وأنه يتمكن من الذكر بالتقوى، فالتقوى باب الذكر، والذكر باب الكشف، والكشف مفتاح الفوز الأكبر.

فصل: اعلم أن القلب مثاله مثال المرآة، والعلوم والحقائق مثالها مثال الصور التي تُرَى في المرآة، فالمرآة شيء، والحقائق في أنفسها شيء، والحصول في المرآة شيء، فهي ثلاثة أشياء، فالعلم مثال الحصول في المرآة، والقلب مثال المرآة، والحقائق في أنفسها شيء ثالث، فإذا عرفت هذا فاعلم أن امتناع انكشاف الصور في المرآة له خمسة أسباب:

أحدها: فساد صورتها، أعني المرآة، وهو قبل أن تدور وتتشكل وتصقل.

والثاني: خبثه وصدؤه.

والثالث: كونه معدولاً به عن جهة الصورة، بأن تكون الصورة وراء المرآة.

والرابع: الحجاب المرسل بين المرآة والصورة.

الخامس: لجهلها بالجهة التي فيها الصورة، فكذلك القلب هو مستعد لأن يتحلى بحلية الحق في الأمور كلها، وإنما خلا بهذه الأسباب الخمسة التي:

أولها: النقصان في ذات القلب، كالصبي والمجنون.

الثاني: لِكدورة المعاصي والخبثِ التي تراكمت على القلب من كثرة الشهوات، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٤]، وقوله ﷺ: «**من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد إليه أبداً**»[2] إذ غايته أن يصقل القلب بحسنة يتبعها، ولو كانت الحسنة دون الذنب لزاد إشراق القلب.

الثالث: أن يكون معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة، فيكون وجهه إلى

(١) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (١٧/٣) والطبراني في الصغير (١٠٧٥) من حديث أبي سعيد الخدري. اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: لم أرَ له أصلاً. اهـ

ترتيب الطاعات، وينبغي أن يكون كما قال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٧٩].

الرابع: الحجاب، وذلك أن يكون في سر القلب بقية شهوة، أو فساد عقيدة سبقت في الصبا، وبقي أثرها.

الخامس: الجهل بالجهة التي منها يطلب، فإنه ينبغي أن يكون له إيمان كُلّي بما لا يحصل له، وهو الإيمان بالغيب، وما لم يكن له هذا الإيمان كيف يمكنه أن يطلب ما لا يعلم وجوده؟ فالغفلة مانعة، وقد قال ﷺ: **«لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء»**(١)، وقال ﷺ: **«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يُمجّسانه»**(٢).

وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قيل: يا رسول الله أين الله؟ في الأرض أو في السماء؟، قال ﷺ: **«في قلوب عباده المؤمنين»**(٣).

وفي الخبر: قال الله تعالى: **«لم يسعني أرضي وسمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن»**(٤).

ولذلك قال عمر رضي الله عنه: رأى قلبي ربي، فإنه كان زكّى قلبه، وقد قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩].

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (٢/ ٣٥٣) من حديث أبي هريرة بنحوه، وقد تقدم في الصيام [الحاشية (٦) (ص: ٨١)].

(٢) رواه البخاري (٦٥٩٩)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٣) قال الحافظ العراقي: لم أجده بهذا اللفظ، وللطبراني [في مسند الشاميين (٨٤٠)] من حديث أبي عتبة والخولاني يرفعه إلى النبي ﷺ قال: **«إن لله آنية من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين..»** الحديث فيه بقية بن الوليد وهو مدلس لكنه صرح فيه بالتحديث. اهـ

(٤) قال الحافظ العراقي: لم أر له أصلاً، وفي حديث أبي عتبة قبله عند الطبراني [في مسند الشاميين (٨٤٠)] بعد قوله: **«وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين، وأحبها إليه ألينها وأرقها»**. اهـ

واعلم أن قبول الحق له ثلاث درجات:

أولها: القبول بالسماع في أول الفطرة، وهو يمكن فيه الخطأ، وهو تقليد العوام.

والثاني: أن يسمع كلام من يطلبه مثلاً من داخل البيت فيستدل به على أن ذلك الرجل المطلوب.

الثالث: أن تدخل البيت فتشاهده وتعاينه، وهو المراد بقول علي رضي الله عنه: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً. وهو إيمان الأنبياء والصِّدِّيقين والأولياء، فهذا الذي لا يدور السهو والغفلة حواليه.

وأما مثال امتناع الكافر والصبي والمجنون عن استطلاع الحقائق مثال رجل بصير في ظلمة، فإن البصر رُبما يكون كاملاً ولكن يمتنع الإبصار حتى يشرق نور الشمس، فيبصر ببصيرة سابقة عند طلوع الشمس، فكذا العلم لم ينكشف في قلب الصبي والمجنون وهو قبل التمييز والعقل، لأن لوح قلبه لم يتهيأ بعدُ لقَبول نقش القلم، والقلم عبارة عن خلق من خلائق الله تعالى جعله سبباً لحصول نقش العلوم في قلوب العباد، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٤ـ٥]، وقلم الله تعالى لا يشبه قلم خلقه، كما أن وصفه لا يشبه وصف خلقه، فليس قلمه من قصب ولا خشب، كما أن ذاته ليست من جوهر ولا عرض.

فصل: قد تبين لك أن مثال القلب ـ أعني اللطيفة الربانية ـ كالمَلِك، والبدن كالولاية له، والقوة العقلية المفكرة كالوزير له، والصفات المذمومة هي كالشُّرَط، فالقلب ما دام متمكناً من استعمال إشارة الوزير، والتصرف في المملكة بحسب إشارة العقل فهو مستقيم في ولايته، وإن تسلطت الشهوات والصفات المذمومة على نقض إشارة العقل فذلك على خلاف العدل، ونحن نضرب له مثالاً آخر فنقول: اللطيفة الربانية مثالها الفارس الصياد، والبدن مركبه، والغضب والشهوة كلابه، فإن أذعنت له فرسه، وانقاد له سباعه وكلابه، تَحَصَّل على غرضه من الصيد، وهو اقتناص العلوم، واقتفاء سعادة الأبد، وإن كان الفرس جموحاً لم تطعه أو الكلب غير معلم لم يسترسل بإرساله ولم يمسك بإشارته، فَسَدَ الأمر، وامتنع المقصود، ويخاف أن يستولي عليه كلبه، فيأكله فضلاً من أن يمتنع عليه للصيد.

فصل: اعلم أن اقتناص العلوم للقلب على مراتب:

منها ما يكون للعلماء، فيتوسلون بالمقدمات إلى النتائج، وبالأدلّة إلى المدلولات.

ومنها ما يكون على سبيل الكشف والإرادة من الله تعالى، كما يكون للأنبياء قال تعالى لإبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥]، وقال نبينا ﷺ: «**اللهم أرنا الأشياء كما هي**» (١)، فتنكشف لهم الحقائق كفاحاً من غير توسط دليل أو برهان أو مقدمات، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢]، وهذه الرحمة مبذولة في الجود الإلهي والكرم الأبدي في القلوب المتعرضة لها، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «**إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها**» (٢) فالتعرض هو الفلاح، والسعادة بالتزكية، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩]، والإعراض هو الإدبار والشقاء بصده، وقد قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ١٠]، وإذا كان القصد الاستكشاف من جهة العبد كان مثاله الدعاء واستنزال الهدى، وإن كان من جهة الله تعالى من غير استنزال وسبب من جهة العبد كان مثاله النزول، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «**ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا**» (٣)، وبقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن ربه عز وجل: «**لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم لأشد شوقاً**» (٤) وإلى طرفي الاستكشاف والتكشف الإشارة بقوله ﷺ حكاية عن ربه

---

(١) لم يذكره المصنف في (الإحياء)، ولم أجده.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه الحكيم في (النوادر)، والطبراني في الأوسط (٢٨٥٦) و (٦٢٤٣) من حديث محمد بن مسلمة، ولابن عبد البر في (التمهيد) (٥/٣٣٩) نحوه من حديث أنس ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب (الفَرَج بعد الشدة) (٢٧) من حديث أبي هريرة واختلف في إسناده. اهـ

(٣) رواه البخاري (٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨).

(٤) قال الحافظ العراقي: لم أجد له أصلاً إلا أن صاحب الفردوس خرجه من حديث أبي الدرداء، ولم يذكر له ولده في (مسند الفردوس) إسناداً. اهـ

سبحانه وتعالى: «من تقرَّب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً»[1]، وعلى الجملة فاعلم أن الجود الإلهي اقتضى أن تكون السعادة مبذولة من غير بخل، والكرم السَّرمدي اقتضى أن يكون القلب في أصل الفطرة مستعداً لقبول هذه السعادة، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة»[2]، وقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤]، نعم بعد ذلك يعترض في وسط الأمرين أمور مانعة شاغلة، وهي الشهوات والخبائث والشواغل، فإذا رفعت الموانع رجعت الأمور إلى أصل مقتضياتها، وانكشف للقلب جلال الله وعظمته، ووصل إلى سعادة الأبد، فبقدر ما تُفرغُ الإناءَ من شيء يتسع لغيره، قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤]، فمن حصلت له هذه السعادة صار ملَكاً كريماً وصار ربانياً، وإليه الإشارة بقول علي رضي الله عنه: إن لله تعالى في أرضه آنية وهي القلوب، فأحبُّها إلى الله أرقُّها وأصفاها وأصلبُها، ثم فسَّرها فقال: وأصلبها في الدين، وأصفاها في اليقين، وأرقّها على الإخوان، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]، قال أُبيُّ بن كعب: هذا مثل نور المؤمن وقلبه، وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ [النور: ٤٠]، مثل قلب المنافق، وقال زيد بن أسلم[3]: قوله تعالى: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ [البروج: ٢٢] هو قلب المؤمن.

فصل: اعلم أن الإنسان في أصل فطرته وتركيبه قد اجتمع فيه أربع شوائب، فمنها الصفات السَّبُعيَّة والبهيميّة والشيطانيّة والربانيّة، فهو من حيث سُلِّط عليه الغضب يتعاطى أفعال السِّباع، ومن حيث سُلِّط عليه الشهوات يتعاطى أفعال البهائم، ولتركب هاتين الصفتين فيه وتولد حب الشره والقهر والغلبة والمكر

---

(١) رواه مسلم (٢٦٨٧).

(٢) رواه البخاري (٦٥٩٩)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٣) هو: أبو عبد الله، زيد بن أسلم العدوي العمري المدني، الإمام الحجة القدوة الفقيه، حدَّث عن والده أسلم مولى عمر، وعن عبد الله بن عمر، وحدَّث عنه مالك بن أنس، وسفيان الثوري، قال عنه الإمام مالك: كان زيد يحدث من تلقاء نفسه، فإذا قام فلا يجترئ عليه أحد، توفي سنة ١٣٦هـ. «سير أعلام النبلاء» (٣١٦/٥)

والخديعة غلبت عليه الشيطنة، ومن حيث إنه في نفسه أمر رباني كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] فإنه يدّعي لنفسه الربوبية والاستعلاء وترك الانقياد، ويفرح بما يناسب هذا الأمر من المعرفة والوصف بها، ويحزن بما يناقضه من الجهل والوصف به، فإذا عرفت هذا فاعلم أن الاشتغال بالعبادات والمواظبة عليها القصد منه تحصيل الغرض من قهر ما لا ينبغي وإبقاء ما ينبغي في القلب، وسيأتي في باب رياضة النفس ذلك إن شاء الله تعالى، واعلم أن العلم الصالح الحاصل في القلب إن كان بطريق التعلم وتقديم المقدمات فهو طريق العلماء، وما وراءه فهو طريق الصوفية، وهو بكشف ومشاهدة، وذلك قسمان: أحدهما مثل وقوع إلهام في النفس، وهو النَّفْثُ في الرُّوع، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «**إن روح القدس نَفَثَ في رُوعِي: أحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، وعش ما شئت فإنك ميت**»[١]، وقسم آخر هو من جنس الإلهام، وذلك أن يكشف له حقائق الأشياء، ويرى الملك الموكل بها الذي منه يستفيد.

واعلم أن القلب إذا كان كالمرآة الصقيلة المجلوَّة ـ وقد علمت قبل ذلك أن حقائق الأشياء منقوشة في اللوح المحفوظ ـ فمهما ارتفع الحجاب وكانت المرآة في محاذاة اللوح المحفوظ انكشف فيه حقائق العلوم، وارتفاع الحجاب تارة يكون في النوم، وتارة يكون في اليقظة، وهو المعتاد للصوفية، وتارة بهبوب رياح الألطاف من غير سبب من جهة العبد أو استعداد، فيلمع في القلب من وراء ستر الغيب شيء من أسرار العلوم، وتمام هذا الكشف بالموت، فبه ارتفاع الحجاب بالكلية، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «**الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**»[٢]، ويقرب من الموت تصفية الصوفية، فلذلك لا يشتغلون بدراسة العلم، بل يشتغلون بتصفية القلب وقطع العلائق ليكون ذلك سبباً في الإقبال على الله تعالى بالكلية، ثم تفويض الأمر إليه، فهو أعلم بما يكشف لقلوبهم من الأنوار والألطاف، وهو طريق الأنبياء والأولياء، فإنهم لم يحصلوا العلوم والحقائق بالمدارسة، بل وجدوا الكنوز

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (١٠٥٤٠) عن جابر، ورواه الحاكم (٤/ ٣٢٥) والقضاعي (٧٤٦) من حديث سهل بن سعد، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

(٢) قال الحافظ العراقي رحمه الله: لم أجده مرفوعاً وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب اهـ. انظر «كشف الخفاء» (٢٧٩٥) وذكره صاحب الحلية (٧/ ٥٢) من كلام سفيان الثوري.

فاشتغلوا بها عن الاكتساب، ومثال العلم الكسبي ومثال طريقتهم الكنز والكيمياء، وإياك أن تترك الكسب ما لم تعثر على الكنز، فذلك هو الهلاك.

بيان حال القلب بالنسبة إلى العلوم، والفرق بين التعلم وحال الصوفية:

اعلم أن للقلب بابين، باب ينفذ إلى عالم الحواس، وباب ينفذ إلى عالم الغيب، ويعرف صدق هذا القول بالتأمل في النوم، فإنك ترى فيه من العجائب، ويظهر لك الغيب، وما سيكون بعدُ بمدة مديدة، وفي اليقظة إنما يفتح ذلك الباب للأنبياء والأولياء وذلك لمن طهَّر قلبه عما سوى الله تعالى وأقبل بالكلية عليه، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «سبق المفردون» قيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال ﷺ: «**المجتهدون بذكر الله، وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافاً**»، ثم قال الله تعالى في صفتهم: «**أقبل عليهم بوجهي، أترى أن من واجهته بوجهي يعلم أحد أي شيء أريد أن أعطيه؟**»، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «**أول ما أعطيهم أن أقذف من نوري في قلوبهم، فيخبرون عني كما أخبر عنهم**»[1]، فإذاً مدخل هذا كله هو الباب الداخل من القلب الذي ينفذ إلى عالم الغيب، وهو عالم الإله.

وقد قال بعضهم: من القلب إلى الغيب رَوْزَنَة[2].

ونحن نبين الفرق بين التعلم والتصوف بمثال في حكاية، قد حكي أن أهل الصين وأهل الروم تباهوا بين يدي بعض الملوك بحسن النقش والصور، فاستقرَّ رأيُ الملك على أن يسلم إليهم صفَّة تنقش أهل الصين منها جانباً، وأهل الروم جانباً، ويرخى بينهما حجاب يمنع اطلاع كل فريق منهم على صاحبه، ففعل ذلك، وجمع أهل الروم غرائب الأصباغ، ودخل أهل الصين يصقلون جانبهم، فلما فرغ

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه مسلم (٢٦٧٦) من حديث أبي هريرة مقتصراً على أول الحديث، وقال فيه: «وما المفردون؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات» ورواه الحاكم (١/ ٤٩٥) بلفظ: «قال: الذين يهترون بذكر الله» وقال: صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي، وزاد فيه البيهقي في (الشعب) (٥٠٦): «يضع الذكر عنهم أثقالهم ويأتون يوم القيامة خفافاً» ورواه هكذا الطبراني في (المعجم الكبير) من حديث أبي الدرداء دون الزيادة التي ذكرها المصنف في آخره، وكلاهما ضعيف. اهـ

(٢) رَوْزَنَة: قال في القاموس: الروزنة الكوة، وهي خِرق في الجدار. اهـ

أهل الروم ادعى أهل الصين أنهم أيضاً قد فرغوا، فتعجب الملك منهم، وقال: كيف الفراغ ولم تأتوا بشيء من الأصباغ؟ فقيل: ما عليكم من ذلك، ارفعوا الحجاب وتأملوا، ففعلوا: ورفع الحجاب، فإذا عجائب الأصباغ والألوان والنقوش تزهر وتتلألأ بزيادة بريق وصفاء، إذ كانوا هم يصقلون ما دام غيرهم ينقش، فالصوفية يصقلون، والعلماء ينقشون، فما ينكشف للعلماء ينكشف لهم بزيادة بريق، ووراء ما يحصله العلماء ينكشف لهم أمور لا يتصور الوصول إليها بتكلف التعلم، وإليه الإشارة بقوله: «**ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[(١)]، وبقوله عليه الصلاة والسلام [في الحديث القدسي]: «**أيعلم أحد إذا واجهته بوجهي أي شيء أريد أن أعطيه؟**»[(٢)]، وذلك هو الحياة المرادة بقوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فعند ذلك لا يموت قلبه، قال الحسن: التراب لا يأكل محل الإيمان.

فيكون إذاً لكل أحد الأجر على قدر النصب، فالمؤمنون يسعون بأنوارهم إلى لقاء الله تعالى، وإلى هذا الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «**إن بعضهم يعطى نوراً مثل الجبل، وبعضهم يعطى أصغر، حتى يكون آخرهم رجل يعطى نوره على إبهام قدمه، فيضيء مرة، ويطفأ مرة، فإذا أضاء قدَّم قَدَمَه فمشى، وإذا أطفِئ أقام، ومرورهم على الصراط على قدر نورهم، فمنهم من يمر كطرف العين، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم كالسحاب، ومنهم كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمرُّ كشدِّ الفرس، والذي أعطي نورَه على إبهامه، يحبو على وجهه ويديه ورجليه، يجر يداً ويتعلق بأخرى، ويجر رجلاً ويتعلق بأخرى، وتصيب جوانبه النار فلا يزال كذلك حتى يَخْلُصَ**»[(٣)] الحديث، وبهذا تتفاوت درجات الإيمان، قال عليه الصلاة والسلام: «**لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالم سوى النبيين لرجح**»[(٤)]، وهذا أيضاً كقول القائل: لو وزن نور الشمس بنور السُّرُج كلها لرجح، فإيمان الناس

---

(١) رواه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) تقدم تخريجه (ص: ١٩١).

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني (٩٧٦٣)، والحاكم (٢/٣٧٦) من حديث ابن مسعود، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين [ووافقه الذهبي].

(٤) تقدم تخريجه (ص: ٣٧).

كالسُّرج والشموع، وإيمان الأولياء كنور القمر والنجوم، وإيمان الأنبياء كنور الشمس.

فصل في الدلالة على صحة طريق الصوفية رضي الله عنهم:

قال أبو الدرداء: المؤمن ينظر من وراء ستر رقيق، فوالله إن للحق قولاً يقذفه الله في قلوبهم، ويجريه على ألسنتهم.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**»[1] وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن من أمتي محدَّثين ومكلَّمين، وإن عمر منهم**»[2] وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «**وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدَّث**» يعني الصِّدِّيقين، وعلى الجملة من رأى في عمره ولو مناماً واحداً صحيحاً استغنى عن البراهين.

والأخبار والآثار والآيات الدالة على ذلك أكثر من أن تحصى.

فصل: واعلم أن للقلب باباً ينفذ فيه الشيطان في مقابلة بابه النافذ إلى عالم الغيب، وللشيطان لَمَّة[3] كما أن للملك لَمَّة، والصفات المذمومة مداخل الشيطان إلى القلب، فبقدر قمع جميع تلك الصفات تضيق مجاري الشيطان أو تنسد، وبقدر إهمالها تتسع على الشيطان تلك الأبواب والمنافذ، وأنت بين أن تسد هذا الباب فيكون القلب محل الحكمة ومهبط الملائكة، وبين أن تهمله فيكون القلب معشش الشياطين، وجميع هذه الأبواب التي ستأتي من بعد هذا الباب في قمع الشهوات وتخلية القلب عنها، فافهم تغنم، والله أعلم بالصواب.

---

(١) رواه الترمذي (٣١٢٧) وقال: حديث غريب.

(٢) رواه البخاري (٣٦٨٩)، ومسلم (٢٣٩٨) بنحوه.

(٣) اللمة: بفتح اللام، المسُّ والإصابة.

الباب الثاني والعشرون

في رياضة النفس
وفيه فصول

قال رسول الله ﷺ: **«رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»** [1].

واعلم أن النفس لها رذائل لا بد من تنقيتها وتصفيتها عنها، فبذلك تصل إلى سعادة الأبد وجوار الله تعالى، وقد عرفت مما سبق فضيلة حسن الخلق، قال ﷺ: **«إن حسن الخلق يذيب الخطيئة كما تذيب الشمسُ الجليد»** [2]، وقال عبد الرحمن ابن سَمُرة: كنا عند رسول الله ﷺ: فقال عليه الصلاة والسلام: **«إني رأيت البارحة عجباً، رأيت رجلاً من أمتي جاثياً على ركبتيه، بينه وبين الله حجاب، فجاء حسن الخلق فأدخله على الله تعالى»** [3].

فصل في بيان حسن الخلق وسوئه:

يقال: فلان حَسَنُ الخَلْق والخُلُق أي حَسَن الظاهر والباطن، فحُسْن الظاهر هو الجمال كما عرفت، وحُسن الباطن هو غلبة الصفات الحميدة على المذمومة،

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه البيهقي في (الزهد) من حديث جابر، وقال: هذا إسناد فيه ضعف. اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه الخرائطي في (مكارم الأخلاق) بسند ضعيف، ورواه الطبراني في الأوسط (٨٥٤)، والبيهقي في (الشعب) (٨٠٣٦) من حديث ابن عباس وضعفه اهـ، وكذا رواه من حديث أبي هريرة وضعفه أيضاً. اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه الخرائطي في (مكارم الأخلاق) بسند ضعيف. اهـ

والتفاوت في الباطن أكثر من التفاوت في الظاهر، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿...إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [ص: ٧١، ٧٢]، نبّه على أن صورة ظاهره مركبة من التراب، وصورة باطنه من عالم أمر الله تعالى، فنعني بحُسن الخُلُق حُسن صورة الباطن، فبقدر ما ينمحي عنه من الصفات المذمومة، يثبت بدلها من الصفات المحمودة، فهو حسن الخُلق، وتمام حسن الخلق لرسول الله ﷺ، إذ نال في هذا المعنى درجة الكمال، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**حسّنوا أخلاقكم**»(١)، نبّه على قبولها التغيير وانفعالها تحت التصرف، فعليك بالسعي في إذعان الغضب والشهوة والشّره، وجميع هذه الصفات لإشارة الشرع، فإذا فعلت ذلك فقد حصل الغرض، وذلك بالمجاهدة والصبر على ما تكره، ليصير بعد ذلك عادة، قال ﷺ: «**الخير عادة**»(٢)، فمن لم يكن في أصل الفطرة ـ مثلاً ـ سخياً جواداً فيتعود ذلك بالتكلف، وكذا مَن لم يخلق متواضعاً يفعل ذلك بالتكلف إلى أن يتعود ذلك، وكذا سائر الصفات يعالجها بضدها إلى أن يحصل الغرض، فالمداومة على العبادات ومخالفة الشهوات يحسِّن صورة الباطن، ويحصل الأنس بالله تعالى، قال ﷺ: «**اعبد الله في الرضا، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير**»(٣)، ففي الابتداء الصبر إلى أن تصير راضياً، إذ أصل الفطرة يقتضي حسن صورة الباطن فيميل إليه، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «**الحسنة بعشر أمثالها**»(٤)، إذ هي موافقة أصل الفطرة.

بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق:

إنا قد عرفنا أن المعالجة في مرض البدن أن يقابل الشيء بضده، وكذلك في

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه أبو بكر بن لال في (مكارم الأخلاق) من حديث معاذ: «**يا معاذ حسّن خلقك للناس**»، منقطع ورجاله ثقات اهـ، وفي رواية الترمذي (١٩٨٨) من حديث معاذ: «**وخالق الناس بخلق حسن**». اهـ

(٢) رواه ابن ماجه (٢٢١) مع زيادة، وقال في الزوائد: رواه ابن حبان في صحيحه (٣١٠) من طريق هاشم بن عمار بإسناده ومتنه. اهـ

(٣) رواه البيهقي في الشعب (١٠٠٠٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «**فإن استطعت أن تعمل بالله بالرضا واليقين فافعل، وإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً...**».

(٤) رواه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١).

مرض القلب، وذلك يختلف باختلاف الأشخاص، إذ الطباع مختلفة، والشيخ في قومه كالنبي في أمته، وهو ينظر في حال المريد، فيعلم ما يغلب عليه من الصفات، وما ينبغي أن يعالج به، فيشغله في ابتداء أمره بالعبادات، وتنظيف الثياب وتطهيرها، والمواظبة على الصلوات، وذكر الله تعالى في الخلوات، فبذلك تظهر عيوبه الكامنة كمون النار في الحجر، وإن كان معه فضل مال أخذه منه وصرفه إلى حاجات أرباب القلوب ليفرغ قلبه، ويكون فراغ قلبه هو الأصل، ثم فراغ قلب غيره وباله بماله، ويمده بالهمم، فيتيسر عليه مقصوده ببركة تلك الهمم، ومن الطرق في تهذيب أخلاقه أن يسلط بعض صفاته على بعض، فيرغب في السخاء والجود بوسيلة الرياء ليترك البخل وحب الدنيا وجمعها، ويترك استعمال الغضب والشهوة ليحمل على العفة والسداد، ثم بعد ذلك يتوجه إلى الرياء فيقمعه بقوة دينه التي حصلت في مدة الرياضة والإقبال على الله تعالى، وبالمعالجة بالضدية عن النفس للمداومة على الطاعات، وقد حكي أن بعض الشيوخ كانت نفسه تكسل عن قيام بعض الليل فألزمها القيام على الرأس مدة، فرضيت بالقيام على الرِّجل واغتنمت.

بيان معرفة عيوب النفس:

قال ﷺ: **«إذا أراد الله بعبد خيراً بصَّره بعيوب نفسه»**[1].

ولهذه المعرفة طرق أعلاها أن يجلس بين يدي شيخ من مشايخه، ويشتغل بما يأمره فعند ذلك ينكشف له تارة، وتارة يكشفه له شيخه، وهذه أعلى الطرق وأولاها إلا أنه قد عزَّ في هذا الزمان هذا الطريق، وطريقه الآخر أن يطلب رفيقاً صالحاً عالماً بأسرار هذا الأمر فيصحبه ويجعل رقيباً على نفسه ليلاحظ أحواله وينبهه على عيوبه، فهكذا كان يفعل الأكابر من أئمة الدين.

كان عمر رضي الله عنه يقول: رحم الله امرأً أهدى إليَّ عيوبي، وكان يسأل سلمان عن عيوبه رضي الله عنه لمَّا قَدِم عليه، وقال له: ما الذي بلغك عني مما كرهته؟ فاستعفى، فألح عليه، فقال: سمعت أنك جمعت أدمين على مائدة، وإن

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (١٠٥٣٥): «وإذا أراد الله بعبد خيراً جعل فيه ثلاث خلال: فقهه في الدين، وزهده في الدنيا، وبصره عيوبه».

لك حُلتين حلة بالليل وحلة بالنهار، فقال: وهل بلغك غيرهما؟ قال: لا، قال: أما هذان فقد كفيتهما، وكان يسأل حذيفة رضي الله عنه ـ وهو صاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين ـ: هل ترى عليَّ شيئاً من آثار النفاق؟ فهو على جلالة قدره وعلوِّ منصبه هكذا يتهم نفسه.

فإن لم تجد رفيقاً فاصغ إلى قول الحساد، فلا تعدم حاسداً يطلب معايبك ويزيد فاستفد منه، واتهم نفسك في كل ما ترمى به من العيوب، ولا تغضب ولا تحرد إذا نبهك إنسان على عيب من العيوب، فإن العيوب حيَّات وعقارب تلدغك في الدنيا والآخرة، فمن نبهك على أن حية في ثيابك تلدغك فاقبل منه المنة، فإن حردت عليه دلَّ على ضعف إيمانك بالآخرة، وإذا اغتنمت ذلك دلّ على قوة إيمانك، واعلم أن عين السخط تبدي المساويَ، فقوة الإيمان تفيدك هذه الفائدة، وهي أن تغنم عذل الحسود وتعييْرَهُ إياك. قيل لعيسى عليه السلام: من أدَّبك؟ قال: ما أدبني أحد، رأيت جهل الجاهل فجانبتُه.

فصل: اعلم أن ما ذكرناه إذا تأملته انفتحت لك عين تنتفع بها، فإن لم تُرزَق فلا أقلَّ من الإيمان والتصديق، فالأول هو الإيمان ثم الوصول، قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجادلة: ١١]، فالتقوى رأس المال في تحصيل هذه الأعمال، قال الله تعالى: ﴿...وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ويقال: إن امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام: يا يوسف إن الحرص والشهوة صيَّرا الملوك عبيداً، والصبر والتقوى صيرا العبيد ملوكاً، فقال يوسف: قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وقال الجنيد [١] رضي الله عنه: أرِقتُ ليلة فقُمتُ إلى وردي فلم أجد الحلاوة التي كنت أجدها، فأردت أن أنام فلم أقدر، فقعدت فلم أطق القعود، فخرجت، فإذا رجل ملتفٌّ في عباءة مطروح على الطريق، فلما أحس بي قال: يا أبا القاسم إليَّ الساعة، فقلت: يا سيدي من غير موعد، فقال: بلى، سألت محرك القلوب أن

(١) تقدمت ترجمته صفحة (٧٧).

يحرك إليَّ قلبك، فقلت: فقد فعل، فما حاجتك؟ فقال: متى يصير داء النفس دواءها؟ فقلت: إذا خالفت النفس هواها، فأقبل على نفسه وقال: اسمعي قد أجبتك بهذا سبع مرات فأبيت إلا أن تسمعيه من الجنيد، قال: فانصرف وما عرفته.

بيان علامات حسن الخلق:

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١، ٢] إلى قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾ [المؤمنون: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

[بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوءهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم](١)

ومن الناس من يكفيه في ذلك أدنى شيء لما اتفق له في ابتداء نشوّه من رعاية مُشْفِقٍ، كما نقل عن سهل التستري (٢) أنه قال: كنت ابن ثلاث سنين، وكنت أقوم بالليل أنظر إلى خلوة خالي محمد بن محمد بن سَوَّار (٣)، فقال لي خالي يوماً: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ قلت: كيف أذكره؟ قال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك: الله معي، الله ناظر إلي، الله شاهدي، فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته، فقال: قل في كل ليلة سبع مرات، فقلت ذلك ثم أعلمته، فقال: قل في كل ليلة إحدى عشر مرة، فقلت ذلك فوقع في قلبي حلاوته، فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علَّمتك، ودُم عليه إلى أن تدخل القبر، فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة، فلم أزل على ذلك سنين، فوجدت لها حلاوة في سرِّي، ثم قال لي خالي يوماً: يا سهل من كان الله معه وهو ناظر إليه وشاهده كيف

---

(١) زيادة من الإحياء

(٢) تقدمت ترجمته صفحة (١٣٢).

(٣) هو: محمد بن سَوَّار البصري خال سهل بن عبد الله التُسْتَري، الزاهد، شيخ من الطبقة العاشرة من القرن الثالث الهجري. روى عن سفيان بن عيينة وأبي عاصم النبيل وغيرهما. «تهذيب الكمال» (٢٥/ ٣٣٢).

يعصيه؟ فإياك والمعصية، فكنت أخلو بنفسي، فبعثوا بي إلى المكتب، فقلت: إني لأخشى أن تتفرَّق عليَّ همَّتي ولكن شارطوا المعلم أني أذهب إليه ساعة فأتعلم ثم أرجع، فمضيت إلى الكتَّاب، وحفظتُ القرآن وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين، وكنت أصوم الدهر وقوتي من خبز الشعير اثنتي عشرة سنة، فوقعت لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة، فسألت أن يبعثوني إلى البصرة أسأل عنها علماءها، فلم يكشف أحد عني شيئاً، فخرجت إلى عبَّادان [1]، إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة ابن عبد الله العبَّاداني، فسألته عنها، فأجابني، وأقمت عنده أنتفع بكلامه، وأتأدب بآدابه، ثم رجعت إلى تُسْتَر، فجعلت قوتي اقتصاداً على أن يُشترى لي بدرهم من الشعير الفرق، فيطحن ويخبز لي فأفطر عند السحر كل ليلة على أوقية واحدة بحتاً بغير ملح ولا أدم، فكان يكفيني ذلك الدرهم سنة، ثم عزمتُ أن أطوي ثلاث ليال ثم أفطر ليلة، ثم خمساً، ثم سبعاً، ثم خمساً وعشرين ليلة، فكنت على ذلك عشرين سنة، ثم خرجت أسيح في الأرض، ثم رجعت إلى تُسْتر، وكنت أقوم الليلة كلها، فالموفق هو الله تعالى القوي الكريم.

بيان شروط الإرادة:

اعلم أن من يريد حرث الآخرة فعلامته الإقلاع عن حرث الدنيا، فمن شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين فعلامته استحقار الدنيا، فمن شاهد الجوهر النفيس وفي يده خَرَزَة لم يبق له رغبةٌ في الخَرَزَة، ومن لم يفعل فذاك لعدم الإيمان بالله واليوم الآخر، فإذاً المانع من الوصول عدم السلوك، والمانع من السلوك عدم الإرادة، والمانع من الإرادة عدم الإيمان، وسبب عدم الإيمان في الظاهر عدم الهداة والعلماء بالله الهادين إلى طريقه، فمن تنبه من نفسه أو من غيره فله شروط لابد من تقدمها:

الشرط الأول: رفع الحجاب والسَّدِّ، وهو أربعة: المال، والجاه، والتقليد، والمعصية.

فالمال بأن تفرِّقه إلا قدر الحاجة، والجاه الخلاص منه بالبعد عن الوطن، أو بإيثار التواضع والخمول والإقبال على ما يذهب بالجاه، والتقليد يرتفع بأن يترك

(١) **عَبَّادَان**: بلدة قريبة من البَصْرَة وهي جزيرة بين نهرين متفرعين عن نهر دجلة. انظر: «معجم البلدان» (٤/ ٧٤).

تعصب المذاهب، وأن يصدق بمعنى قوله: لا إله إلا الله محمد رسول الله، تصديقَ إيمان، ويخوض في تحقيقه بالإقبال على أعماله المصدقة المحققة له، ورفع الآلهة كلها من الهوى والدنيا وجميع ما تركن إليه النفس، فعند ذلك يقبل على الله بكُنْه همته، ويداوم على ذكره، فينكشف له الاعتقاد الحق، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وأما المعصية فيتركها جانباً، ويضع مكانها الطاعاتِ والندمَ على ما قدم والتوبَةَ وردَّ المظالم، فإذا فعل وفرغ من هذه الأمور الأربعة صار كمن توضأ ورفع الحدث والخبث وستر العورة واستعدَّ للصلاة، فعند ذلك لابد له من شيخ سلك طريق الآخرة لنفسه حتى يهتدي به، وعند ذلك يكون بين يدي شيخه كالميت بين يدي الغاسل، لا يتحرك لنفسه بل يقلبه الغاسل كيف شاء، وعندها ليذكر قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، فلا يعترض على شيخه بحال من الأحوال، وعند ذلك يؤمر بأربعة أشياء: الخلوة والصمت والجوع والسهر.

فالجوع مراد لتقليل دم القلب، ففيه بياضه ونوره، ولذوبان شحم الفؤاد، وفيه رقته، وهي مفتاح المكاشفة، كما أن القسوة التي هي ضد الرِّقَّة سبب الحجاب، وإليه الإشارة بقوله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «ضيِّقي مجاري الشيطان بالجوع»(١)، وقال عيسى عليه السلام للحواريين: جوِّعوا بطونكم لعلَّ قلوبكم ترى ربكم. وقال سهل رضي الله عنه: ما صار الأبدال أبدالاً إلا بأربع خصال: إخماص البطون، والسهر، والصمت، والاعتزال عن الناس.

أما السهر فإنه أيضاً يجلو القلب فينوِّره، والجوع يعين على السهر، ويتعاضدان في تنوير القلب، والنوم يقسي القلب ويميته إلا إذا كان بقدر الضرورة، فقيل في حق الأبدال: إن نومهم غلبة، وأكلهم فاقة، وكلامهم ضرورة، وقال إبراهيم الخواص (٢): اجتمع رأي سبعين صدِّيقاً على أن كثرة النوم من كثرة شرب الماء.

وأما الصمت فيتيسر بالعزلة والخلوة، وشره الكلام ـ خصوصاً لمن ذاق شيئاً من العَلم ـ عظيم، والفطام عنه شديد لكنه كثير الفائدة، غزير الجدوى، فبه يتوجه الباطن إلى الغيب، ويعرض عن هذه الحياة الدنيا.

---

(١) انظر تخريجه صفحة (٧٨).

(٢) انظر ترجمته صفحة (٧٧).

وأما الخلوة ففائدتها دفع الشواغل ليتفرغ للمقصود، إذ لابد من ركود حواسه حتى يتحرك قلبه، وذلك بالخلوة فحسب، ثم الأولى أن يكون في بيت مظلم حتى لا يقع بصره على شيء يشغله، فإن لم يكن مظلماً فليلف رأسه في شيء أو يغمض عينيه، فعند ركود الحواس يسمع نداء الحق، ويشاهد جمال الحضرة الربوبية، ألا ترى أنه نودي عليه الصلاة والسلام فقيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ [المزمل: ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾[المدثر: ١]، فإذا فعل ذلك من الجوع والخلوة والسهر والصمت فيلقن ذكراً من الأذكار، وهو أن يجلس في زاوية بيت على الوضوء مستقبل القبلة، فيقول بلسانه: الله، الله، لا يزال يقول ذلك ويحضر القلب والحواس كلها لاستماع الكلمة من اللسان، ويواظب عليه إلى أن يسقط عنه حركة اللسان بالتكلف، فيصير بحيث تجري على لسانه من غير اختياره، ثم يرجع من اللسان إلى القلب، وهو كلما يسكت القلب عاد إلى الذكر باللسان فإذا أخذ القلب في الذكر سكت اللسان، ولا يزال كذلك إلى أن ينمحي عن القلب الحروف، ويبقى ذكر صافٍ عريٌّ عن الحروف، ثم يرتفع عن الذكر فيصير حالة مستدامة ويتيقظ لما يجري عليه من الوقائع، فيذكرها لشيخه، وهو يرى في تلك الوقائع ما سيجري عليه من الصفاء والكدورة، وما يتجدد عليه من الخيالات والوساوس، والأحوال الصحيحة لا يمكن أن يعلمها بنفسه بل يلقيها إلى الشيخ فهو أعلم بذلك، وهو على جميع الأحوال ما دام عالماً بوجود نفسه فعليه بالذكر، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١)]، فإذا غلب عليه وسوسة أو خاطر سوء فما دام غائباً لا يدري ما يجري فلا حرج عليه، فإذا ثاب إلى نفسه ورجع إلى علمه يرجع إلى الذكر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١﴾ [الأعراف: ٢٠١]، ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾ [الأعراف: ٢٠٠] ويلازم الذكر طول العمر فعساه يرزق أن يكون من ملوك الدين، الذين تكشف لهم الحقائق، ويرى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فإذا لم يكشف له شيء فليداوم، فإنه عند ظهور ناصية ملك الموت عليه السلام ينكشف له ذلك، ويصل إلى المقصود إن شاء الله تعالى، فافهم تغنم، والله أعلم.

الباب الثالث والعشرون

في كسر الشهوتين

(شهوة البطن والفرج)

وفيه فصول

اعلم أن منشأ جميع الآفات شهوة البطن، ومنها تنبعث شهوة الفرْج، ومنها أصيب آدم عليه السلام فأُخرج من الجنَّة، وهي التي تنتهي بالرجل إلى أن يطلب الدنيا، ويرغب فيها.

بيان فضيلة الجوع وذم الشبع:

قال رسول الله ﷺ: «**جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش، فإن الأجر في ذلك كأجر المجاهد في سبيل الله تعالى، وإنه ليس من عمل أحب إلى الله تعالى من جوع وعطش**»(١)، وقال ابن عباس رضي الله عنه: قال النبي ﷺ: «**لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه**»(٢)، وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**البسوا واشربوا وكلوا في أنصاف البطون، فإنه جزء من النبوة**»(٣)، وقال

---

(١) قال الحافظ العراقي: لم أجد له أصلاً. اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: لم أجد له أصلاً. اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: لم أجد له أصلاً. اهـ

الحسن رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**أفضلكم منزلة عند الله تعالى أطولكم جوعاً وتفكراً، وأبغضكم إلى الله كل نؤوم أكول شروب**»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الله تعالى يباهي الملائكة بمن قلَّ طعامه في الدنيا، يقول: انظروا إلى عبدي ابتليته بالطعام والشراب في الدنيا فتركهما لأجلي، اشهدوا يا ملائكتي ما من أكلة يدعها إلا أبدلته بها درجات في الجنة**»[2] وقال أبو سليمان[3]: لأن أترك لقمة من عشائي أحب إلي من قيام ليلة إلى الصبح.

وقد بيّنا أنه يجلب الرقة والانكسار، ويدفع الأشر والبطر، ومن فوائده أن لا ينسى البلاء وأهله والعذاب وكسر سائر الشهوات، وبه يستولي على النفس والشيطان فيقهرهما، وبه يدوم السهر، ويندفع النوم ولذلك كان بعض الشيوخ يقف على رأس السُّفرة، ويقول: معاشر المريدين لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فترقدوا كثيراً فتخسروا كثيراً.

فبالجوع تتيسر المواظبة على العبادة، فمن شبع كسل عن الطاعات، وكثرة الأكل تستدعي كثرة الاستعداد من الطلب والطبخ وغسل اليد والخلال والتردد إلى بيت الماء للاستفراغ.

حكى السَّرِي[4] عن بعض الشيوخ أنه كان يستفُّ سَوِيقاً[5]، فقيل له في ذلك، فقال: إني حسبت ما بين المضغ إلى الاستفاف سبعين تسبيحة، فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة.

واعلم أن من تيقن أن كل نَفَسٍ جوهر لا قيمة له حاسب على تضييعه.

---

(١) قال الحافظ العراقي: لم أجد له أصلاً. اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه ابن عدي في (الكامل). اهـ

(٣) أبو سليمان: سبقت ترجمته (ص: ١٠٣).

(٤) هو: **أبو الحسن، سَري بن المغلس السقطي**، أحد الأوتاد، كان أوحد زمانه في الورع وعلوم التوحيد، وهو تلميذ معروف الكرخي، وأستاذ الجنيد وخاله، توفي سنة ٢٥٣ هـ «طبقات الأولياء» (ص: ١٦٠).

(٥) **السَّويق**: طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير، سمي بذلك لانسياقه.

ومن فوائد الجوع صحة النفس والبدن، فإن من قلَّ أكله قلَّ مرضه.

ومن فوائده القدرة على الإيثار ونيل الفضيلة.

بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن:

اعلم أنه بعد أن يكون الطعام حلالاً كما سبق ذكره فعليه ثلاث وظائف، وهي: تقدير قدر الطعام في القلة والكثرة، وتقدير وقته في الإبطاء والسرعة، وتعيين جنس المأكول.

الوظيفة الأولى: في تقليل الطعام: وسبيله التدريج، فمن انتقل من الكثير إلى القليل دفعة واحدة فَسَدَ مزاجه، فليتدرج فيه بأن يحسب على نفسه، فإن كان يأكل كل يوم ثلاثة أرغفة مثلاً فينقص كل يوم نحواً من ثلث عُشْرِ رغيف، وهو جزء من ثلاثين جزءاً من رغيف، ففي شهر ينقص رغيف، وفي شهرين رغيفان، ولا يشقُّ عليه، ويكون هذا التدريج بحيث يبقى ويعتمد عليه، وله الآن فيما يرد إليه درجات: واقتنع الصِّدِّيقون في ذلك بقدر ما يقيم الحياة والعقل، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: **«حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه»**[1].

والدرجة الثانية: أن يرد نفسه بالرياضة في اليوم والليلة إلى نصف مدّ[2]، وهو رغيف وشيء، فهو مما يكون الأربعة منه منّاً، ويقرب منه عادة عمر رضي الله عنه، فإنه كان يأكل سبع لقم أو تسعاً.

الدرجة الثالثة: أن يرد بالرياضة في اليوم والليلة إلى مقدار المد، وهو رغيفان ونصف، وهذا يزيد على ثلث البطن.

والدرجة الرابعة: أن يزيد على المدِّ إلى المنِّ، وهذا هو النهاية، وما وراءه إسراف، يكاد يدخل تحت قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١].

وله طريق آخر فهو أن يمد يده بعد الجوع، ويمسك قبل الشبع، ولا يتجاسر،

(١) رواه الترمذي (٢٣٨٠) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٣٤٩).

(٢) تقدم شرح المدّ والمنّ صفحة (٧٩).

لكنه فيه خطر إذ لعله لا يطلع على صدق الجوع فيلتبس عليه الأمر، وقد قيل: إن الجوع الصادق أن لا يطلب الأدم، وقيل: أن لا يميز بين خبز وخبز.

واعلم أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فلا يمكن تقديره، بل على كل أحد أن ينظر في حق نفسه، وقال سهل [(١)]: لو كانت الدنيا دماً عبيطاً [(٢)] لكان قوت المؤمن منها حلالاً، لأن أكل المؤمن بقدر الضرورة، وبقدر القوام.

الوظيفة الثانية: في وقت الأكل: ومن المريدين من رد الرياضة إلى الطيّ، لا إلى المقدار، فمنهم من طوى ثلاثة أيام، ومنهم من زاد إلى الثلاثين والأربعين، وانتهى إليه جمع كثير، منهم سليمان الخوَّاص [(٣)] وسهل بن عبد الله[(١)] وإبراهيم الخوَّاص [(٤)].

وروي أن بعض العلماء قال: من طوى أربعين يوماً عن الطعام ظهرت له قدرة من الملكوت، أي: كوشف ببعض الأسرار الإلهية، وقد وقف بعض هذه الطائفة على راهب فذاكره بحاله وطمع في إسلامه، فقال له الراهب: إنَّ المسيح كان يطوي أربعين يوماً، وإنَّها معجزة لا تكون إلا لنبي صادق، فقال له الصوفي: فإن طويت خمسين يوماً تترك ما أنت عليه، وتدخل في دين الإسلام؟ قال: نعم، فقعد لا يبرح إلا حيث يراه حتى طوى خمسين يوماً، فقال: أزيدك إلى تمام الستين وفعل، فتعجب الراهب، وقال: ما ظننت أنّ أحداً يزيد على المسيح، وكان ذلك سبب إسلامه. وهذه درجة عظيمة لا يبلغها إلا مكاشف محمول شغل بمشاهدة ما قطعه عن طبعه وعادته، واستوفى نفسه في لذته، وأنساه جوعه وحاجته، فيأتيه القوت الروحاني من عالم الغيب، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «**أنا أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني**» [(٥)].

---

(١) سهل التستري، تقدمت ترجمته صفحة (١٣٢).

(٢) دماً عبيطاً: دماً طرياً.

(٣) هو: **سليمان الخوّاص**، من العابدين الكبار بالشام، قال عنه الأوزاعي: لو كان في السلف لكان علاّمة. (سير أعلام النبلاء: ٨/١٧٨).

(٤) تقدمت ترجمته (ص: ٧٧).

(٥) رواه البخاري (١٩٦٤ـ١٩٦٥)، ومسلم(١١٠٣).

الدرجة الثانية: أن يطوي يومين إلى ثلاثة وذلك معتاد.

الدرجةالثالثة: الاقتصار في اليوم والليلة على أكلة واحدة، وهذا هو الأقل، وقد روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا تغدى لم يتعش، وإذا تعشى لم يتغد [١] وقال عليه الصلاة والسلام لعائشة رضي الله عنها: **«إياك والإسراف فإنَّ أكلتين في يوم من السرف»** [٢].

فصل:

اعلم أنَّ الجوع المحمود هو الذي لا يشغل عن ذكر الله تعالى، وإذا خرج عن الحد شغل إلا في حق من غلبت عليه شهوة عظيمة، فيفعل ذلك لكسرها، فإن لم يكن كذلك فخير الأمور أوسطها.

ثم لكسر هذه الشهوة آفتان يجب التحفظ عنهما:

إحداهما: أنَّه ربما يأكل في الخلوة حتى لا يأكل في الجماعة، وهذا هو الشرك الخفي، وربما انتهى بصاحبه إلى النفاق.

والآفة الثانية: أنّ يحب أن يُعرَف بقلة الأكل والعفة، فقد ترك آفة سهلة، وارتكب أمراً فوق ذلك، وهو الجاه والشهرة، قال أبو سليمان [٣]: إذا قدّمت إليك شهوة، وقد كنت تاركها، فأصب منها شيئاً يسيراً، ولا تعط نفسك مناها، فتكون قد أسقطت عن نفسك الشهوة، وقد نقصت على نفسك إذ لم تعطها من شهوتها ما تتهنأ به، فذلك يكون إسقاطاً للشهوة وعصياناً للنفس، وقال جعفر بن محمد الصادق [٤]: إذا قدمت إلي شهوة نظرت إلى نفسي، فإن أظهرت شهوتها لها أطعمتها منها، وكان ذلك أفضل من منعها، فإن أخفت شهوتها، وأظهرت العُرُوض

---

(١) قال الحافظ العراقي: لم أجد له أصلاً في المرفوع، ورواه البيهقي في الشعب (٥٦٤٤) من فعل أبي جحيفة. اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه البيهقي في الشعب (٥٦٤٠) من حديث عائشة، وقال: في إسناده ضعف. اهـ

(٣) أبو سليمان، تقدمت ترجمته صفحة (١٦٨).

(٤) هو: جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الإمام أبو عبد الله الصادق، لقب به لصدقه في مقاله وفعاله، توفي سنة ١٤٨ هـ. «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٢٥٥).

عنها عاقبتها بالترك، ولم أنلها منها شيئاً، وهذا طريق في عقوبة النفس على هذه الشهوة، واعلم أنّ من ترك شهوة الطعام ووقع في الرياء كان كمن هرب من العقرب وفزع إلى الحية.

القسم الثاني من هذا الباب: في كسر شهوة الفرج:

اعلم أنَّ لذة الوقاع سلطت على الإنسان لفائدتين:

إحداهما: أن يدرك لذته فيقيس عليها لذة الآخرة، إذ هي أقوى لذات الأجساد إن دامت، كما أنّ النار وألمها أعظم آلام الجسد.

والفائدة الثانية: بقاء النسل ودوام الوجود.

ولكن فيها بعد هاتين الفائدتين من الآفات ما يهلك الدين والدنيا إن لم تضبط ولم تقهر، ولم ترد إلى حد الاعتدال، وقد قيل في معنى قوله تعالى: ﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦]: معناه الغُلْمة، وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ [الفلق: ٣]: هو قيام الذَّكر، وقد أسنده بعض الرواة إلى رسول الله ﷺ [1]، وكان عليه الصلاة والسلام يقول: «**أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي ومنيّي**»[2]، وقال ﷺ: «**النساء حبائل الشيطان**»[3]، ولولا هذه الشهوات لما كانت كذلك، وقد رُوي أنّ موسى عليه السلام كان جالساً في بعض مجالسه إذ أقبل إبليس وعليه برنس يتلون فيه ألوان، فلما دنا منه خلع البرنس، فوضعه ثم أتاه. فقال: السلام عليك، فقال موسى عليه السلام: من أنت؟ فقال: أنا إبليس، قال: فلا حياك الله، ما جاء بك؟ قال: جئت لأسلم عليك لمنزلتك من

---

(١) قال الحافظ العراقي: حديث ابن عباس موقوفاً ومسنداً لا أصل له اهـ. والمشهور عن ابن عباس: «**من شر غاسق إذا وقب**» قال: الليل إذا أقبل.اهـ

(٢) رواه أبوداود (١٥٥١)، والنسائي (٨/ ٢٥٥)، والترمذي(٣٤٩٢).

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه الأصبهاني في(الترغيب والترهيب) (١/ ١٣٨) من حديث زيد بن خالد الجهني بإسناد فيه جهالة اهـ. ورواه الديلمي عن عبد الله بن عامر، وأبو نعيم (١/ ١٣٨) من حديث عبد الرحمن بن عابس بلفظ: «**الشباب شعبةمن الجنون، والنساء حبالة الشيطان**». ورواه القضاعي في (مسند الشهاب) (١١٦) عن زيد بن خالد الجهني.

الله تعالى، ومكانتك منه، قال: فما الذي رأيت عليك؟ قال: به أختطف قلوب بني آدم، قال: فما الذي إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه؟، قال: إذا أعجبته نفسه، واستكثر عمله، ونسي ذنوبه، وأحذرك ثلاثاً: لا تخل بامرأة لا تحلُّ لك، فإنه ما خلا رجل بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أفتنه بها، ولا تُعاهِد الله عهداً إلا وفَّيت به، ولا تخرجن صدقة إلا أمضيتها، فإنه ما أخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبين الوفاء بها، ثم ولّى وهو يقول: يا ويلتاه، علم موسى ما أخدع به بني آدم.

وقد ينتهي الأمر بصاحب الشهوة إلى أن يعشق محلاً مخصوصاً فلا يريد قضاء الوطر إلا منه، وهو زيادة في البهيمية وهو مذموم، فالإسراف أبداً مذموم، وهو غلبة الشهوة إلى حد لا يطيع العقل آثاره، وعدمها بالكلية في حق العنين أيضاً مذموم، وخير الأمور أوساطها، ومهما زادت على الحد فاكسرها بالجوع أو بالنكاح، قال رسول الله ﷺ: «**معاشر الشباب عليكم بالباءة، فمن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنّ الصوم له وجاء**»[1].

بيان ما على المريد في ترك التزويج وفعله:

اعلم أنّ المريد لا ينبغي أن يشغل نفسه في ابتداء أمره بالتزوج، فإن ذلك يمنعه عن الإقبال بكنه الهمة على الله تعالى كما سبق، ولذلك قال أبو سليمان الداراني[2]: من تزوج فقد ركن إلى الدنيا، وقال: ما رأيت مريداً تزوج فثبت على ما كان.

واعلم أنَّك إن قِسْت نفسك برسول الله ﷺ فقد أخطأت الطريق، فإنَّه عليه الصلاة والسلام كان لا تشغله الدنيا والآخرة وما فيهما، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾[النجم: ١٧]، فإنه كان لا يشغله عن الله تعالى شاغل، فإذاً مهما غلبت عليك الشهوة فعليك بالصوم والجوع والعطش والسهر، والغالب أن تندفع بذلك، فإن كانت خارجة عن الحد على خلاف المعتاد، وليس يقدر على

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٦)، ومسلم(١٤٠٠).

(٢) تقدمت ترجمته صفحة (١٠٣).

حفظ العين، فقد وجب بحكم خصوص الحال النكاح حتى يستريح، وإلا فمن لا يقدر على حفظ العين لا يقدر على حفظ القلب، وإذا تفرق همه فلا فائدة في عزوبته، بل يخاف عليه ما قال عيسى عليه السلام، قال: إياكم والنظرة، فإنها تزرع في القلب شهوة، وكفى بها فتنة، وقال سعيد بن جبير: إنَّما جاءت فتنة داود من أجل النظر، وقال داود لابنه عليه السلام: يا بني امش خلف الأسد والأسود ولا تمش خلف المرأة، وقيل ليحيى بن زكريا عليهما السلام: ما بدءُ الزنا؟ قال عليه السلام: النظر والتمنِّي.

نعم إن لم تطالبه نفسه مطالبة لا يقدر على كسرها فله أن لا ينكح، وقد روي أن محمد بن سليمان (١) مَلَك غلةً كل يوم ثمانين ألف درهم، ثم كتب لأهل البصرة وعلمائهم في امرأة يتزوجها، فأجمعوا كلهم على رابعة العدوية (٢)، فكتب إليها: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فإن الله تعالى ملّكني من غلة الدنيا في كل يوم ثمانين ألف درهم، وليس تمضي الأيام والليالي حتى أُتمها مائة ألف درهم، وأنا أصيِّر لك مثلها ومثلها، فأجيبيني.

فكتبت إليه: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فإنَّ الزهد في الدنيا راحة البدن، والرغبة فيها تورث الغم والحزن، فإذا أتاك كتابي هذا فهيئ زادك، وقدم لمعادك، وكن وصيَّ نفسك، ولا تجعل الرجال أوصياءك، فيقسموا تراثك، وصم الدهر، واجعل فطرك الموت، وأما أنا فلو أنَّ الله عز وجل خولني أمثال ما خوَّلك وأضعافه ما سرَّني ذلك أن أشتغل عن الله عزَّ وجل طرفة عين.

فتبين بهذا أن ما يشغل عن الله تعالى لا سبيل إليه.

فصل في بيان فضيلة من يخالف الشهوة:

اعلم أنَّ من العصمة ألا تقدر، فأما مخالفة الشهوة مع القدرة فذلك أفضل،

---

(١) هو: محمد بن سليمان بن علي، ولي البصرة، كان فارس بني هاشم، قتل إبراهيم بن عبد الله الخارج على المنصور، كان جواداً ممدَّحاً، توفي سنة ١٧٣هـ «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٢٤٠).

(٢) هي: رابعة العدوية: أم الخير، بنت إسماعيل، البصرية، صالحة من أعيان عصرها، فضلها مشهور توفيت سنة ١٣٥هـ.«سير أعلام النبلاء» (٨/ ٢٤١).

وهو درجة الصدِّيقين، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «**من عشق فعفّ فكتم فمات فهو شهيد**»[1]، وقال ﷺ: «**سبعة يظلهم الله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله**»، وعدَّ منهم: «**رجلاً دعته امرأة ذات حسب وجمال، فقال: إني أخاف الله رب العالمين**»، ورُوي أن سليمان بن يَسَار [2] كان من أحسن الناس وجهاً فدخلت عليه امرأة، فسألته نفسه، فامتنع عنها، وخرج هارباً من منزله، وتركها فيه، قال سليمان: فرأيت في المنام يوسف عليه السلام وكأني أقول له: أنت يوسف؟ قال: نعم، أنا يوسف الذي هممت، وأنت سليمان الذي لم تهمَّ، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.



(١) قال الحافظ العراقي: رواه الحاكم في (التاريخ) من حديث ابن عباس، وقال: أنكر على سويد بن سعيد، ثم قال أيضاً: يقال: إن يحيى لما ذكر هذا الحديث قال: لو كان لي رمح وفرس غزوت سويداً، ورواه الخرائطي من غير طريق سويد بسند فيه نظر. اهـ

(٢) هو: سليمان بن يسار، أبو أيوب، مولى أم المؤمنين ميمونة الهلالية، وأخو عطاء بن يسار، كان فقيهاً إماماً من أوعية العلم توفي سنة ١٠٧هـ. (سير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٤٤).

الباب الرابع والعشرون

في آفات اللسان

اعلم أن خطر اللسان عظيم، ولا نجاة من خطره إلا بالصمت، فلذلك مدح رسول الله ﷺ الصمت وحثَّ عليه، فقال ﷺ: «**من صمت نجا**»[1]، وقال ﷺ: «**الصمت حِكَم، وقليل فاعله**»[2]، وقال ﷺ: «**من يتكفل لي ما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة**»[3].

وروي أنَّ معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: يا رسول الله أوصني، قال: «**اعبد الله كأنك تراه، وعدَّ نفسك في الموتى، وإن شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله، وأشار بيده إلى لسانه ﷺ**»[4].

وعن معاذ رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله، أنؤاخذ بما نقول؟ فقال:

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (٢٥٠١) من حديث عبد الله بن عمر بسند فيه ضعف وقال: غريب، وهو عند الطبراني في الأوسط(١٩٥٤) بسند جيد.اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أبو منصور الديلمي في (مسند الفردوس)من حديث ابن عمر بسند ضعيف، والبيهقي في الشعب(٥٠٢٦)، ورواه كذلك هو وابن حبان في كتاب (روضة العقلاء) بسند صحيح إلى أنس.اهـ

(٣) رواه البخاري (٦٤٧٤) من حديث سهل بن سعد بلفظ: «من يضمن».

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في (الصمت)(٢٢)، والطبراني في (الكبير)(٣٧٤) ورجاله ثقات وفيه انقطاع.اهـ

«ثكلتك أمك يا ابن جبل، وهل يكُبُّ الناسَ في النار على مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتهم» [1]

عن الصِّدِّيق رضي الله عنه أنه كان يضع حجراً في فيه يمنع به نفسه عن الكلام، وكان يشير إلى لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: والله الذي لا إله إلا هو ما من شيء أحوج إلى طول سجن من اللسان.

ونحن الآن نبيِّن آفات اللسان، ونبدأ بأخف الآفات ثم نترقى:

الآفة الأولى: الكلام فيما لا يعنيك: اعلم أنك إذا تكلمت بما لا يعنيك فقد ضيعت زمانك، وتعرضت به للحساب، وقد استبدلت الذي هو أدنى بالذي هوخير، فإنك لو ذكرت الله بدله أو سكت أو اشتغلت بالفكر لكنت تنال به معالي الدرجات، وقال عليه الصلاة والسلام: **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»** [2]، وقال أنس رضي الله عنه: استشهد غلام منا يوم أحد فوُجِد على بطنه حجر مربوط من الجوع، فمسحت أمه التراب عن وجهه، وقالت: هنيئاً لك الجنة يا بني، فقال النبي ﷺ: **«فما يدريكِ، لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويمنع مالا يضره»** [3]

واعلم أن الكلام فيما لا يعني أن تجلس فتحكي من أحوالك التي لحقتك في أسفارك من الجبال والبراري التي رأيتها مما لا كذب فيه.

الآفة الثانية: فُضول الكلام: وهو أن تكرر ما لا فائدة في تكراره، وتقرر زيادة

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي(٢٦١٦)، والحاكم (٣٥٤٨)، وقال: صحيح على شرط الشيخين. اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي(٢٣١٧) وقال: غريب، وابن ماجه (٣٩٧٦) من حديث أبي هريرة.اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (٢٣١٦) من حديث أنس مختصراً، وقال: غريب، ورواه ابن أبي الدنيا في (الصمت)(١٠٩) بلفظ المصنف بسند ضعيف.اهـ

الألفاظ المستغنى عنها، قال عطاء بن أبي رباح [١]: إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فُضُول الكلام.

ومن هذا الجنس أن تقول: اللهم اخز هذا الكلب مثلاً، قال مطرّف [٢]: ليعظُم جلال الله في قلوبكم، فلا تذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والحمار وما أشبهه: اللهم اخزه.

وفضول الكلام لا تنحصر، قال عليه الصلاة والسلام: «**طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه، وأنفق الفضل من ماله**» [٣]

قال بلال بن الحارث: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، ما يظن أن تبلغ به ما بلغت، يكتب الله تعالى له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ به ما بلغت، فيكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم القيامة**» [٤] قال: وكان علقمة [٥] يقول: كم من كلام وحديث قد منَعَنِيه حديث بلال بن الحارث. وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوي بها أبعد من الثريّا**» [٦]

---

(١) هو: **عطاء بن أبي رباح**، أبو محمد الجندي اليماني المكي القرشي، مولى ابن خيثم القرشي الفهري، من كبار التابعين، وأحد الفقهاء والأئمة، كان عالماً كثير الحديث، انتهت إليه الفتوى بمكة، توفي سنة ١١٤هـ. (سير أعلام النبلاء: ٥/ ٧٨).

(٢) هو: **أبو عبد الله، مطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير الحَرَشي العامري البصري**، الإمام، القدوة، الحجة، حدّث عن أبيه رضي الله عنه وعمار وأبي ذر وعثمان وغيرهم وحدّث عنه الحسن البصري وثابت البناني مات رحمه الله سنة ٨٦هـ. (سير أعلام النبلاء: ٤/ ١٨٧).

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه البغوي وابن قانع في (معجمي الصحابة) والبيهقي [في الشعب(٣٣٨٨)] وابن أبي الدنيا في (الصمت)(٤٣)، والقضاعي(٦١٥) من حديث ركب المصري وقال ابن عبد البر: إنه حديث حسن، وقال البغوي: لا أدري أسمع من النبي ﷺ أم لا؟ وقال ابن منده: مجهول لا تعرف له صحبة، ورواه البزار من حديث أنس بسند ضعيف. اهـ

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (٢٣١٩) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه(٣٩٦٩).

(٥) هو: **علقمة بن قيس بن عبد الله، أبو شبل**، فقيه الكوفة وعالمها ومقرئها، ولد في حياة الرسول ﷺ، كان يشبه بابن مسعود في هديه ودلّه وسمته، توفي ٦١هـ(سير أعلام النبلاء: ٤/ ٥٣).

(٦) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند حسن، وللشيخين [البخاري(٦٤٧٧)، ومسلم(٢٩٨٨)] والترمذي (٢٣١٤): «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً في النار**» لفظ الترمذي، وقال: حسن غريب. اهـ

الآفة الثالثة: الخوض في الباطل والمعاصي: كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [المدثر: ٤٥]، فقد ذكرنا حديث بلال بن الحارث في الآفة الثانية.

الآفة الرابعة: المِرَاء والمجادلة في ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر في التوصل إليها: وذلك منهيٌّ عنه، قال عليه الصلاة والسلام: «**لا تمار أخاك، ولا تمازحه، ولا تعده موعداً فتخلفه**»(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: «**من ترك المِرَاء وهو محق بني له بيت في أعلى الجنة، ومن ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في رَبَضِ الجنة**»(٢).

الآفة الخامسة: الخصومة: وهي أيضاً مذمومة، وهي أن تخاصم إنساناً لتستوفيَ حقاً أو مالاً، قالت عائشة رضي الله عنها: قال عليه الصلاة والسلام: «**أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**»(٣)، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال ﷺ: «**من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع**»(٤).

الآفة السادسة: التشدُّق في الكلام بتكلف السّجع والتصنع فيه: قال عليه الصلاة والسلام: «**أنا وأتقياء أمتي برآء من التكلّف**»(٥)، وقالت فاطمة رضي الله عنها: قال عليه الصلاة والسلام: «**شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم، يأكلون أنواع الطعام، ويلبسون ألوان الثياب، ويتشدقون في الكلام**»(٦).

---

(١) رواه الترمذي (١٩٩٥) وقال: حديث غريب.

(٢) رواه الترمذي (١٩٩٣)، وابن ماجه (٥١) بلفظ: «**من ترك الكذب وهو باطل بني له قصر في ربض الجنة، ومن ترك المراء وهو محق بني له في وسطها**».

(٣) رواه البخاري(٢٤٥٧)، ومسلم(٢٦٦٨).

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا والأصفهاني في (الترغيب والترهيب) وفيه رجاء أبو يحيى ضعفه الجمهور اهـ. ورواه الحاكم (٤/٩٩) وقال: صحيح الإسناد، وأقرّه الذهبي، وابن ماجه(٢٣٢٠) بلفظ: «**من أعان على خصومة بظلم لم يزل في سخط الله حتى ينزع**».

(٥) قال الحافظ العراقي رحمه الله: أخرجه الدارقطني في (الأفراد) من حديث الزبير بن العوام بلفظ: «**ألا إني بريء من التكلف وصالحوا أمتي**» وإسناده ضعيف اهـ، قال الزبيدي: ويشهد له حديث البخاري(٧٢٩٣) عن أنس وعمر رضي الله عنهما: (نهينا عن التكلف).

(٦) رواه ابن عدي (٥/٣١٨) والبيهقي في (الشعب) (٥٦٦٩) وابن عساكر من طريق عبد الله بن الحسين عن أمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ. قال الحافظ العراقي: وفيه انقطاع اهـ.

الآفة السابعة: السبُّ والفحش وبذاءة اللسان: وهو مذموم، قال عليه الصلاة والسلام: «**إيّاكم والفحش، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش**»[1]، نهى أن يسبَّ قتلى بدر من المشركين، وقال عليه الصلاة والسلام: «**البذاء - أي الكلام الفحش - والبيان شعبتان من النفاق**»[2].

الآفة الثامنة: اللعن إما لحيوان أو لجماد، أو لإنسان، قال عليه الصلاة والسلام: «**المؤمن ليس بلعّان**»[3].

وقال حذيفة رضي الله عنه: ما تَلاعنَ قومٌ إلا حق عليهم القول.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه وهو يلعن بعض رقيقه، فالتفت إليه وقال: «**يا أبا بكر صدِّيقِين ولعّانين، كلا وربِّ الكعبة**» وأعاد مرتين أو ثلاثاً، فأعتق أبو بكر يومئذ بعض رقيقه، وجاء إلى النبي ﷺ وقال: لا أعود[4].

واعلم أن من ثبت بالشرع أنه ملعون كأبي جهل وفرعون فلا بأس بلعنه، وإن تركه أيضاً لا بأس به، أما يهودي بعينه فلعنه فيه خطر، لأنه يمكن أن يكون ممن قدر الله تعالى عليه أن يرزق الإسلام فهو فيه خطر إلا أن يقيد ويقول: إن مات على ما هو عليه، وعلى الجملة فترك اللعن على إبليس لا بأس به فضلاً عن غيره، فالأولى ترك اللعن وفطام اللسان عنه.

الآفة التاسعة: الغِنَاء والشّعر: أما الغناء فقد سبق في باب السماع ذكره، وأما الشّعر فكلام حَسَنُه حَسَن، وقبيحه قبيح، إلا أن التحري له مذموم، قال ﷺ: «**لَئن**

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه النسائي في (الكبرى) في التفسير (٦٠٣)، والحاكم (١/ ١٢) وصححه من حديث عبد الله بن عمرو، ورواه ابن حبان(٥١٧٧) من حديث أبي هريرة. اهـ

(٢) رواه الترمذي (٢٠٢٧) وحسنه، والحاكم (١/ ٩) وصححه على شرط الشيخين من حديث أبي أمامة ووافقه الذهبي.

(٣) روى الترمذي (١٩٧٧) من حديث ابن مسعود: «**ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان ولا الفاحش ولا البذيء**» قال الترمذي: حسن غريب، وله (٢٠١٩) من حديث ابن مسعود: «**لا يكون المؤمن لعاناً**».

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في (الصمت) وشيخه بشار بن موسى الخفاف ضعفه الجمهور، وكان أحمد حسن الرأي فيه. اهـ ورواه البيهقي في الشعب(٥١٥٤).

يمتلئ بطن أحدكم قيْحاً خيرٌ له من أن يمتلئ شِعْراً»[1]، والمحذور منه المداومة وقطع الزمان، وإلا فقد ورد ما يدل على جوازه.

الآفة العاشرة: المزاح: وأصله منهي عنه مذموم، إلا قدر يسير، قال عليه الصلاة والسلام: «**لا تمار أخاك ولا تمازحه**»[2]، واعلم أن المنهي عنه من المزاح الإفراط، إذ هو يورث كثرة الضحك، وكثرة الضحك تميت القلب، وقال عليه الصلاة والسلام: «**إني لأمزحُ ولا أقولُ إلا حقاً**»[3]، روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لصهيب: «**تأكل التمر وأنت رمد**»، فقال: آكل بالشق الآخر، فتبسم رسول الله ﷺ[4].

الآفة الحادية عشرة: السُّخرية والاستهزاء: وهو مُحرَّم، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١]، ومعناه الاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب، وربما كان بالمحاكاة في الأفعال والأقوال، وقال ﷺ: «**إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال: هلمَّ هلمَّ فيجيء بكربه وغمه، فإذا أتاه أُغلق دونه، ثم يفتح له باب آخر، فيقال: هلمَّ هلمَّ، فيجيء بكربه وغمه، فإذا أتاه أغلق دونه، فما يزال كذلك حتى إن الرجل ليفتح له الباب فيقال: هلمَّ هلمَّ فما يأتيه**»[5]، وقال معاذ بن جبل: قال رسول الله ﷺ: «**من عيَّر أخاه بذنب قد تاب منه لم يمتْ حتى يعمله**»[6].

---

(١) رواه البخاري(٦١٥٥)، ومسلم(٢٢٥٧).

(٢) رواه الترمذي (١٩٩٥) من حديث ابن عباس وقال: حديث غريب.

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (٢/ ٣٤٠) من حديث أبي هريرة، وهو عند الترمذي (١٩٩٠) بلفظ: «**قالوا: إنك تداعبنا، قال: ولا أقول إلا حقاً**» وقال: حسن. اهـ

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه ابن ماجه(٣٤٤٣) والحاكم(٤/ ٤١١) من حديث صهيب [وقال: إسناده صحيح، وأقره الذهبي] ورجاله ثقات. اهـ

(٥) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في (الصمت) من حديث الحسن مرسلاً، ورويناه في (ثمانيات النجيب) من رواية أبي هدبة أحد الهالكين عن أنس. اهـ

(٦) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (٢٥٠٥) دون قوله: «**قد تاب منه**» وقال: حسن غريب وليس إسناده بمتصل، قال الترمذي: قال أحمد بن منيع: قالوا: من ذنب قد تاب منه.

الآفة الثانية عشرة: إفشاء السر: وهو منهي عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق الأصدقاء، وقال ﷺ: «**الحديث بينكم أمانة**»[1].

الآفة الثالثة عشرة: الوعد الكاذب: وذلك منهي عنه، وذلك من أمارات النفاق، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] وقال عليه الصلاة والسلام: «**العِدةُ عطيّة**»[2].

الآفة الرابعة عشرة: الكذب في القول واليمين: وهو من قبائح الذنوب، روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يخطب بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامي هذا، ثم بكى، فقال: «**إياكم والكذب، فإنه مع الفجور، وهما في النار**»[3]، وقال ﷺ: «**إن الكذب باب من أبواب النفاق**»[4]، وقال بعض السلف: إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب[5]، وقال عمر رضي الله عنه: إن في المعاريض ما يكفي الرجل عن الكذب[6].

الآفة الخامسة عشرة: الغيبة: فنذكر أولاً ما ورد من الشرع في ذمها: قال الله عزَّ وجل: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ الآية [الحجرات: ١٢]، وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تناجشوا، ولاتدابروا، ولا يغتب بعضكم بعضاً،**

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا [في الصمت(٤٠٣)] من حديث ابن شهاب مرسلاً. اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني في (الأوسط) (١٧٥٢) من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف، وأبو نعيم في (الحلية) (٨/٢٥٩) من حديث ابن مسعود، ورواه ابن أبي الدنيا في (الصمت) (٤٥٣)، والخرائطي في (مكارم الأخلاق) من حديث الحسن مرسلاً. اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه ابن ماجه(٣٨٤٩)، والنسائي في (اليوم والليلة)(٨٨٣) ورواه الإمام أحمد في المسند (١/٣). اهـ

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه ابن عدي في (الكامل) بسند ضعيف، وفيه عمر بن موسى الوجيهي ضعيف جداً، ويغني عنه قوله ﷺ: «**ثلاث من كُنَّ فيه فهو منافق**» وحديث: «**أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً**» قال في كل منهما: «**وإذا حدث كذب**» وهما في الصحيحين. [البخاري (٣٣)، مسلم(٥٨)(٥٩)]. اهـ

(٥) رواه ابن عدي في الكامل وابن السني مرفوعاً في عمل اليوم والليلة(٣٢٧) عن عمران بن حصين.

(٦) رواه الديلمي مرفوعاً عن علي رضي الله عنه.

وكونوا عباد الله إخواناً»[1]، وقال ﷺ: «إياكم والغيبة، فإن الغيبة أشدُّ من الزنا، لأن الرجل إذا زنى وتاب فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يُغفر له حتى يغفر له صاحبه»[2]، قال أنس رضي اله عنه: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أسري بي على قوم يخمشون وجوههم بأظافيرهم، فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الذين يغتابون الناس، ويقعون في أعراضهم»[3].

وأوحى الله تعالى إلى موسى ﷺ فقال: من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة، ومن مات مصرّاً عليها فهو أول من يدخل النار.

وحد الغيبة أن تذكر إنساناً بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرت نقصاناً في بدنه أو نسبه أو فعله أو قوله أو دينه أو دنياه، حتى في ثوبه وداره ودابته.

واعلم: أن التعريض والتفهيم فيها كالتصريح، لا فرق بين الحركة المفهمة والقول الصريح، والمستمع فيه شريك القائل، والإصغاء والتعجب مما يذكره استخراج الغيبة، وهو إعانة وشركة، وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «من ردَّ عن عرض أخيه بالغيبة كان حقاً على الله تعالى أن يرد عن عرضه يوم القيامة»[4].

بيان ما يرخَّص في الغيبة:

وذلك أن يكون له غرض صحيح في الشرع، وذلك ستة أشياء:

الأول: التظلم، كمن تظلم من قاض ظلمه، أو أخذ الرشوة منه أو غيره، فهو جائز مندوب إليه.

---

(١) رواه البخاري(٦٠٦٦) ومسلم(٢٥٦٤) دون قوله: «ولا يغتب بعضكم بعضاً».

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في (الصمت)، وابن حبان في الضعفاء(٢/ ١٦٨)، والبيهقي في الشعب (٦٧٤١)، وابن مردويه في التفسير. اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه أبو داود (٤٨٧٨) مسنداً ومرسلاً، والمسند أصح. اهـ

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في (الصمت) وفيه شهر بن حوشب، وهو عند الطبراني [في الكبير(٤٤٣)] من وجه آخر بلفظ: «رد الله عن وجهه النار يوم القيامة» وفي رواية له: «كان له حجاباً من النار» وكلاهما ضعيف اهـ. وهو عند الترمذي(١٩٣١) بلفظ الطبراني.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر، ورد المعاصي إلى الصلاح.

الثالث: الاستفتاء، بأن يقول: ظُلِم أبي أو أخي في كذا، فكيف السبيل إلى الخلاص؟ والتعريض في مثل هذا أسلم.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر، قال رسول الله ﷺ: «**اذكروا الفاجر بما فيه من مساويه يحذره الناس**»[1].

الخامس: أن يعرف باسم، كالأعرج والأعمش، فذلك لا حرج فيه.

السادس: أن يكون مجاهراً بالفسق، كالمخنث وصاحب الماخور[2]، والمجاهر بشرب الخمر، قال رسول الله ﷺ: «**من ألقى جِلبَاب الحياء عن وجهه فلا غيبة له**»[3].

بيان كفارة الغيبة:

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج من حق الله تعالى، ثم يستحلَّ من المغتاب ليحلَّه فيخرج من مظلمته، ولكن ذلك بإظهار حزن وتندم.

وقال الحسن: يكفيه الاستغفار دون الاستحلال.

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**كفارة من اغتبت أن تستغفر له**»[4]، وقال مجاهد[5]: كفارة أكلك لحم أخيك أن تثني عليه، وتدعو له بخير.

والأولى الاستحلال بإظهار التندم.

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني[في الكبير(١٠١٠)]، وابن حبان في الضعفاء(١٩٥)، وابن عدي (٢/ ١٧٣) من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده .اهـ

(٢) الماخور: مجلس الشراب. اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه ابن عدي (١/ ٣٨٦)، وأبو الشيخ في كتاب (ثواب الأعمال) من حديث أنس بسند ضعيف. اهـ

(٤) رواه الخرائطي في (المساوي)، والبيهقي في (الشعب)(٦٧٨٦)، والخطيب في (التاريخ)، وقال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في (الصمت)، والحارث بن أبي أسامة في (مسنده) من حديث أنس بسند ضعيف. ا هـ

(٥) هو: **مجاهد بن جبر**، مولى السائب بن أبي السائب، أبو الحجاج المكي المقرئ، الإمام المفسر روى عن ابن عباس وقرأ عليه، توفي بمكة وهو ساجد سنة ١٠٢هـ. «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٤٩).

الآفة السادسة عشرة: النميمة: قال الله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾ [القلم: ١١]، قال عبد الله بن المبارك [١]: ولد الزنى لا يكتم الحديث. وأشار إلى أن كل من لم يكتم الحديث ومشى بالنميمة دل على أنه ولد الزنى استنباطاً من قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ [القلم: ١٣]، والزنيم هو الدَّعيّ، وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة: ١]، الهُمَزَة: هو النمّام، وقال الله تعالى: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤]، قيل: كانت نمّامة، حمّالة للحديث، وقال الله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [التحريم: ١٠]، وفي الحديث: «**لا يدخل الجنة قتّات**» [٢]، والقتات هو النمّام، وفيه أحاديث كثيرة.

وحدُّ النميمة كشف ما يُكره كشفه، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو ثالث، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز والإشارة، فحقيقة النميمة إذاً إفشاء السرِّ وهتك الستر.

الآفة السابعة عشرة: كلام ذي اللسانين، وذلك من يتردد بين المتعادين، ويكلم كل واحد بما يوافقه، وذلك عين النفاق، قال عمار بن ياسر رضي الله عنه: قال النبي ﷺ: «**من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة**» [٣]. وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بحديث هؤلاء، وهؤلاء بحديث هؤلاء**» وفي لفظ آخر: «**الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه**» [٤].

الآفة الثامنة عشرة: المدح: فهو منهي عنه في بعض المواضع، وأما الذم فهو

---

(١) هو: عبد الله بن المبارك بن واضح، أبو عبد الرحمن، الإمام شيخ الإسلام، عالم زمانه وأمير الأتقياء في وقته، وحديثه حجة بالإجماع، صنف التصانيف الكثيرة النافعة توفي سنة ١٨١هـ. «سير أعلام النبلاء» (٨/٣٧٨).

(٢) رواه البخاري(٦٠٥٦)، ومسلم(١٠٥).

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه البخاري في (الأدب المفرد)(١٣١٠)، وأبو داود (٤٨٧٣) بسند حسن. اهـ

(٤) قال الحافظ العراقي: متفق عليه [البخاري(٦٠٥٨)، ومسلم(٢٥٢٦)] بلفظ: «**تجد من شر الناس**» لفظ البخاري، وهو عند ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف. اهـ

الغيبة والوقيعة، وقد سبق حكمها، والمدح يدخله ست آفات، أربع في المادح، واثنان في الممدوح:

أما المادح: فهو أن يفرط فينتهي إلى الكذب.

الثانية: أن يدخله الرياء، فإنه بالمدح مُظهر للحبِّ.

الثالثة: أنه قد يقول ما لا يتحقق، ولم يطلع عليه.

الرابعة: أن يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق، وذلك غير جائز، قال ﷺ: **«إن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق»**[1].

وأما الممدوح: فيضره من وجهين:

أحدهما: أن يحدث فيه كِبراً وإعجاباً.

الثانية: إذا أثنى عليه بالخير رضي هو عن نفسه بذلك، فنسي نقصان نفسه، فيقل تشميره للخير، ولهذا قال ﷺ: **«قطعتَ عنقَ صاحبك، ويحك لو سمعها ما أفلح»**[2].

الآفة التاسعة عشرة: في الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام، لا سيما فيما يتعلق بالله وبصفاته، **مثاله:** ما قال حذيفة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **«لا يقل أحدكم: ما شاء الله وشئتُ، ولكن ليقل: ما شاء الله ثم شئتُ»**[3]، وذلك لأن العطف المطلق يوهم التشريك، وقال عليه الصلاة والسلام: **«لا تقولوا للمنافق: سيدنا، فإنه إن يكن سيدكم فقد أسخطتم ربكم»**[4].

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في (الصمت)، والبيهقي في (الشعب)(٤٨٨٥) من حديث أنس، وفيه أبو خلف خادم أنس ضعيف، ورواه أبو يعلى الموصلي(١٧١و١٧٢) وابن عدي (٨٨٠) بلفظ: **«إذا مدح الفاسق اهتزَّ العرش وغضب منه الرب»**، قال الذهبي في (الميزان): منكر.اهـ

(٢) رواه ابن أبي الدنيا، ورواه البخاري (٢٦٦٢) ومسلم(٣٠٠٠) بلفظ: **«ويحك قطعت عنق صاحبك، إن كان أحدهم مادحاً أخاه فليقل: أحسبه ولا أزكي على الله أحداً»**.اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه أبو داود (٤٩٨٠)، والنسائي في (الكبرى)(١٠٨٢١) بسند صحيح.اهـ

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه أبو داود (٤٩٧٧) من حديث بريدة بسند صحيح اهـ. وصححه الحاكم (٤/ ٣١١) [وفيه عقبة قال عنه الذهبي: ضعيف].

وقال ﷺ: «**من قال: أنا بريء من الإسلام، فإن كان صادقاً فهو كما قال، وإن كان كاذباً، فليس يرجع إلى الإسلام سالماً**»[1].

الآفة العشرون: سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه، وأنها قديمة أوحادثة، وهو منهم فضول، بل حقهم الاشتغال بالعمل دون العلم، لأن العوام إذا خاضوا فيه ربما تكلموا بما هو كفر ولا يشعرون بذلك، وسؤالهم عن ذلك كسؤال السّاسة عن أسرار الملوك.

في الحديث: «**نهى رسول الله ﷺ عن القيل والقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**»[2].

وعلى الجملة اشتغال الناس أن الحروف قديمة أوحادثة، كمن كتب إليه الملك بكتاب رسم له فيه أموراً فلم يشتغل بشيء منه، وضيع زمانه في أن قرطاس الكتاب قديم أو حادث، فيستحق العقوبة منه لا محالة، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.



(١) قال الحافظ العراقي: رواه النسائي (٦/٧) وابن ماجه (٢١٠٠) من حديث بريدة بإسناد صحيح، ورواه أبو داود (٣٢٥٨) [وفيه عقبة بن عبد الله الأصم قال الذهبي: ضعيف] ا.هـ.

(٢) رواه البخاري(٥٩٧٥)، ومسلم (١٧١٥).

٢٥

الباب الخامس والعشرون

في آفة الغضب والحقد والحسد

اعلم أن الغضب نار مستكنَّة في القلب استكنان الجمر تحت الرماد، ويستخرجها الكبر الدفين، ولعله من النار التي خلق منها الشيطان.

بيان ذم الغضب:

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، مرني بعمل وأقلل، قال ﷺ: «**لا تغضب**»، ثم أعاد عليه، فقال ﷺ: «**لا تغضب**»[1]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: «**ما تعدون الصُّرعة فيكم؟**»، قلنا: الذي لا يصرعه الرجال، قال ﷺ: «**ليس ذلك، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب**»[2] وقال عليه الصلاة والسلام: «**ما غضب أحد إلا أشفى على جهنم**»[3]

بيان حقيقة الغضب:

اعلم أن الآدمي لمَّا كان معرَّضاً لأن يُقصد بالإهلاك، وكان بقاؤه مقصوداً

---

(١) رواه البخاري(٦١١٦).

(٢) رواه البخاري(٦١١٤)،ومسلم(٢٦٠٨).

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه البزار وابن عدي (٦/ ٥١) من حديث ابن عباس: «**للنار باب لا يدخله إلا من أشفى غيظه بمعصية الله**» وإسناده ضعيف.اهـ

أُعطِيَ الغضَبَ، وهو قوّة حميَّةٍ تثور من باطنه، فخلق الله الغضب من النار، وغرزَها في باطن الإنسان، فإذا قصد اشتعل نار الغضب، وثار ثوراناً يغلي بها دمُ القلب، وينتشر في العروق، وترتفع إلى أعلى البدن كما ترتفع النار أو الماء الذي يغلي، وكذلك ينصبُّ إلى البشرة فيحمر، فإذا كان الغضب على من دونه واستشعر القدرة عليه احمر، وإن كان على من فوقه واستشعر الخوف والبأس تولد منه انقباض الدم، وصار حزناً، واصفرَّ لونه، وإن كان على نظيره تردد الدم بين انقباض وانبساط، فيصفر تارة، ويحمر أخرى، ويضطرب.

وعلى الجملة فمحل الغضب القلب، ومعناه: غليان دم القلب لطلب الانتقام.

وللناس فيه ثلاث درجات:

أولها: التفريط، وهو فقد هذه القوة أو ضعفها، وذلك عدم الحمية، وهو مذموم، وهو المراد بقول الشافعي رضي الله عنه: من استغضب ولم يغضب فهو حمار.

والمطلوب منه الاعتدال **[وهو الدرجة الثانية]**، وهو الذي وصف الله تعالى به الصحابة رضي الله عنهم فقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

والثالث: هو الإفراط، وهو أن يخرج من الحد فيغلب صاحبه بحيث لا يدخل تحت سياسة العقل وإشارة الشرع، فيصير المرء معه كالمضطر، وهذا مذموم، ويرى ظاهره يتغير ويقبح، وصورة باطنه أقبح، وروي أن عائشة رضي الله عنها غضبت مرة، فقال ﷺ: «جاء شيطانك» فقالت: ومالك شيطان؟ قال ﷺ: **«بلى، ولكن دعوت الله فأعانني عليه فأسلم، فلا يأمر إلا بالخير»** [1].

وقال علي رضي الله عنه: كان ﷺ لا يغضب للدنيا، فإذا أغضبه الحق لم يعرفه أحدٌ، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له [2].

---

(١) رواه مسلم(٢٨١٥).

(٢) رواه الترمذي في (الشمائل).

واعلم: أن الغضب وإن لم يمكن إزالته بالكلية فيمكن أن يقلَّل ويجاهَد، خصوصاً إذا لم يكن في ضروريات المعيشة، وذلك بأن يعرف نفسه وخستها، ويعلم أنه لا ينبغي لها الاستعلاء مع تلك الخسة والدناءة، ونحن نبين ذلك.

بيان علاج الغضب عند هيجانه: وذلك بأمور:

منها أن يعلم ثواب كظم الغيظ كما سبق، ثم يخوف نفسه بعقاب الله، ويعلم أنه تعالى أقدر عليه منه على غيره، وأن يحذِّر نفسه عاقبة الانتقام، فإن العدو أيضاً يتشمَّر لإيذائه، ويصير ذلك عداوة طويلة، وأن يتفكر في قبح صورة غيره عند الغضب، ويقيس نفسه عليه، ويعلم أنه يشبه السَّبُع الضَّاري إن استعمله، وإن استعمل الحِلم فلا يشبَّه إلا بالأنبياء والأولياء.

وإذا تأمل علم أن غضبه لجريان الأمر على وفق مشيئة الله تعالى لا على وفق مراده، ولذلك ورد في الخبر أنه سبب غضب الله تعالى، فإذا علمت هذه الأمور فعليك أن تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أمر رسول الله ﷺ أن يقال عند الغضب[١] وكان عليه الصلاة والسلام إذا غضبتْ عائشة أخذ بأنفها، وقال ﷺ: **«يا عويشُ قولي: اللهم رب النبي محمد ﷺ اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن، ما ظهر منها وما بطن»**[٢]، فليقل ذلك، وليجلس إن كان قائماً، وليضطجع إن كان جالساً، وقد قال ﷺ: **«إن الغضب جمرٌ يتوقد في القلب، ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحُمرة عينيه، فإذا وجَد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس، وإن كان جالساً فلينم، فإن لم يَزُل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو ليغتسل، فإن النار لا يطفئها إلا الماء»**[٣].

بيان فضيلة الحلم:

اعلم أن الحِلْم أفضل من الكظم، لأن الكظم هو التحلم وتكلف الحِلْم، والحِلْم الطبيعي دلالة كمال العقل، وانكسار قوة الغضب تحت سياسة العقل،

---

(١) رواه البخاري (٦١١٥)، ومسلم(٢٦١٠).

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه ابن السني في «اليوم والليلة» رقم (٤٥٥) اهـ.

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي(٢١٩١) من حديث أبي سعيد (بنحوه) دون قوله: «يتوقَّد»، ورواه بهذه اللفظة البيهقي في (الشعب) (٨٢٩١).اهـ

ولعل ابتداءه بالتحلم ثم يصير ديدناً وعادةً، قال النبي عليه الصلاة والسلام: **«إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم، ومن يتحرَّ الخير يُعطه، ومن يتوقَّ الشر يُوقه»** [(١)]، وقال ﷺ: **«اطلبوا العلم، واطلبوا مع العلم السكينة والحِلْم، لينوا لمن تَعلّمون منه ولمن يتعلمون منكم، ولا تكونوا من جبابرة العلماء، فيغلب جهلُكم علمَكم»** [(٢)]، وقال في دعائه: **«اللهم أغنني بالعلم، وزيِّنّي بالحلم، وأكرمني بالتقوى، وجمّلني بالعافية»** [(٣)]، وقال ﷺ: **«ابتغوا الرفعة عند الله»**، قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال ﷺ: **«تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتحلم عمن جهل عليك»** [(٤)]، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، قال [الحسن] [(٥)]: حلماء إن جُهل عليهم لا يجهلون.

وإذا سبَّك إنسان أو اغتابك أو عيّرك فعليك بالحلم ففيه النجاة في الدارين، أما في الحال فلأنه يزاد في احترامه، وهو يزيد في الآخرة جزيل الثواب، وقد قال عليه الصلاة والسلام: **«إن امرؤ عيّرك بما فيك فلا تعيره بما فيه»** [(٦)].

بيان فضيلة العفو:

وهو أن يستحق حقاً فيسقطه، كالعفو عن القصاص أو المال والغرامة، قال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقال: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال ﷺ: **«ثلاث والذي نفسي بيده إن كنت حالفاً عليهن: ما نقصت صدقة من مال، فتصدّقوا، ولا عفا أحد عن مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا**

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني[في «الأوسط» (٢٦٦٣)]، والدارقطني في «العلل» (٦/ ٢١٩) من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف، ورواه البيهقي في «الشعب» (١٠٧٣٩). اهـ

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٦١٨٤)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ٣٣٥) بنحوه، وقال الحافظ العراقي: رواه ابن السني في (رياضة المتعلمين) بسند ضعيف. اهـ

(٣) رواه ابن النجار في «التاريخ»، والرافعي في «تاريخ قزوين» من حديث ابن عمر. اهـ (الزبيدي).

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه الحاكم (٢/ ٥١٨) بنحوه [وقال الذهبي: سليمان ضعيف]، والبيهقي (٨٠٨٠). اهـ

(٥) هي هكذا في الإحياء.

(٦) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (٥/ ٦٣) من حديث جابر بن سليم. اهـ

زاده الله عزّاً يوم القيامة، ولا فتح رجل باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر»[1] وقال ﷺ: «التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا يرفعكم الله ، والعفو لا يزيد العبد إلا عزاً، فاعفوا يعزكم الله، والصدقة لا تزيد المال إلا كثرةً، فتصدّقوا يرحمكم الله»[2]، وقال ﷺ: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر»[3]

بيان فضيلة الرِّفق:

اعلم أن الرفق محمود، وهو ثمرة حسن الخلق، ويضادّه العنف والحدّة، قال ﷺ لعائشة رضي الله عنها: **«إنه من أعطي حظه من الرفق أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، ومن حُرم حظه من الرفق، حُرِم حظه من خير الدنيا والآخرة»**[4]، وقال ﷺ: **«إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق»**[5].

بيان ذم الحسد:

وهو من نتائج الحقد، والحقد من نتائج الغضب، قال عليه الصلاة والسلام: **«الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»**[6]

وحقيقته أنه يكره نعمة الله على أخيه، فيحب زوالها عنه، فإن كان لا يكره ذلك

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (٢٣٢٥) من حديث أبي كبشة الأنماري، ولمسلم (٢٥٨٨) وأبي داود نحوه من حديث أبي هريرة. اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أبو الشيخ الأصفهاني في (الترغيب والترهيب)، وأبو منصور الديلمي في (مسند الفردوس) من حديث أنس بسند ضعيف. اهـ

(٣) رواه الترمذي (٣٥٤٧) وقال: حديث غريب، ورواه ابن أبي شيبة (٢٩٥٧٦).

(٤) رواه الترمذي (٢٠١٣) وأحمد (٦/ ٤٥١) من حديث أبي الدرداء، وقال الحافظ العراقي: رواه أحمد (٦/ ١٥٩)، والعقيلي في (الضعفاء)(٢/ ٣٢٤) في ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي وضعفه عن القاسم عن عائشة، وفي (الصحيحين) [البخاري (٦٠٢٤) ومسلم(٢١٦٥)] من حديثها: **«يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله»**.

(٥) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (٦/ ٧١) بسند جيد، والبيهقي في (الشعب) (٦٥٦٠) بسند ضعيف من حديث عائشة. اهـ

(٦) قال الحافظ العراقي: رواه أبو داود (٤٩٠٣) من حديث أبي هريرة، وابن ماجه(٤٢١٠) من حديث أنس. اهـ

لأخيه، ولا يريد زواله، ولكن يريد لنفسه مثل ذلك فيسمَّى هذا غبطة، قال ﷺ: «**المؤمن يغبط، والمنافق يحسد**»[1]، وقال الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا﴾ [البقرة: ١٠٩]، فأخبر أن حبهم زوال نعمة الإيمان حسد منهم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢]، والمراد به النهي عن تمني انتقال تلك النعمة إليه بعينها، أما أن يتمنى أن ينعم الله تعالى عليه بمثله فذلك غير مذموم، وإن كان في دين فهو محمود.

واعلم أن للحسد أسباباً كثيرة، وهي: العداوة، والتعزز، والبغض، والكبر، والعجب، والخوف من فوات المقاصد المحبوبة، وحب الرياسة، وخبث النفس وبخلها، وكلها مذمومة.

وعلاجه أنك تعلم أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فلأنك تتأذى بذلك، وهو ضجيعك لا يفارقك ليلاً ونهاراً، وأما في الدين فهو تسخط لنعمة الله تعالى، وهو ثواب له، وذنب مكتوب عليك، فإذا علمت ذلك ولم تكن صديقاً لعدوّك فلا بد أن تتكلّف الإقلاع عن الحسد، وقد روى الحسن مرفوعاً وموقوفاً أنه قال: «**ثلاثة في المؤمن له منهن مخرج، ومخرجه من الحسد أن لا يبغي**»[2]، والحمد لله وحده.



---

(١) قال الحافظ العراقي: لم أجد له أصلاً مرفوعاً، وإنما هو من قول الفضيل بن عياض، كذلك رواه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد. اهـ

(٢) قال الزبيدي: الموقوف هو مرسل الحسن رواه ابن أبي الدنيا في (ذم الحسد)، ورسته في كتاب (الإيمان)، والمرفوع رواه أبو الشيخ في كتاب (التوبيخ) والطبراني في (الكبير).

الباب السادس والعشرون

في ذم الدنيا

اعلم أن الدنيا عدوة لله تعالى، وعدوة لأوليائه، وعدوة لأعدائه، فعداوتها لله تعالى بأنها قطعت الطريق على أوليائه، ولذلك لم ينظر الله إليها مذ خلقها، وأما عداوتها لأولياء الله تعالى لأنها تزينت لهم بزينتها، وغرّتهم بزهرتها ونضارتها، حتى تجرَّعوا مرارة الصبر في مقاطعتها، وأما عداوتها لأعداء الله تعالى فلاستدراجها إلهم بمكرها وبكيدها، فقد اقتنصَتْهم بشبكتها حتى وثقوا بها وعوَّلوا عليها، فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها.

بيان ذمّ الدنيا:

اعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بُعِثوا لدعوة الناس إلى الآخرة، وفيه أنزلت الكتب، فأكثر الآيات دالة عليه، وقد روي أنه ﷺ لما مرَّ على شاة ميْتَة قال: «**أترون هذه الشاة هيِّنة على صاحبها؟**» قالوا: نعم، قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده إن الدنيا أهون على الله عزَّ وجل من هذه على صاحبها، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة من ماء**»(1)، وقال ﷺ: «**الدنيا**

(1) قال الحافظ العراقي: رواه ابن ماجه(٤١١٠)، والحاكم[(٤/٣٠٦)] وصحح إسناده من حديث سهل ابن سعد، وآخره عند الترمذي (٢٣٢٠)، وقال: حسن صحيح، ورواه الترمذي (٢٣٢١) وابن ماجه(٤١١١) من حديث المستورد بن شداد دون هذه القطعة الأخيرة، ولمسلم (٢٩٥٧) نحوه من حديث جابر. اهـ

سجن المؤمن وجنة الكافر» (١)، وقال ﷺ: **«الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها»** (٢).

وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **«من أحب دنياه أضرَّ بآخرته، ومن أحبَّ آخرته أضرَّ بدنياه، فآثِروا ما يبقى على ما يفنى»** (٣)، وقال ﷺ: **«حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة»** (٤)، وقال زيد بن أرقم: كنا مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه فدعا بشراب فأتي بماء وعسل، فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه، فسكتوا وما سكت، ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لم يقدروا على مسألته، قال: ثم مسح عينيه، فقالوا: يا خليفة رسول الله ما أبكاك؟ قال: كنت مع رسول الله ﷺ فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً، ولم أر معه أحداً، فقلت: يا رسول الله ما الذي تدفع عن نفسك؟ فقال: هذه الدنيا تمثلت لي فقلت لها: إليك عني، ثم رجعت فقالت: إنكَ إن خلصتَ وأفلتَّ مني لم يفلت منّي مَنْ بعدكَ (٥)، وقال ﷺ: **«يا عجباً كل العجب للمصدِّق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور»** (٦).

وقال ﷺ: **«إن الدنيا حُلوة خضِرة، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، إن بني إسرائيل لمَّا بسطت لهم الدنيا ومُهِّدت تاهوا في الحلية والنساء والطيب والثياب»** (٧).

---

(١) رواه مسلم(٢٩٥٦) من حديث أبي هريرة.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (٢٣٢٢) وحسنه من حديث أبي هريرة وزاد: **«إلا ذكر الله وما والاه، وعالم ومتعلم»**. اهـ وابن ماجه (٤١١٢).

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (٤/ ٤١٢) والبزار، والطبراني [في الكبير(٨٧٥٧)]، وابن حبان (٧٠٩)، والحاكم (٤/ ٣١٩) وصححه [وأقره الذهبي]اهـ.

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في (ذم الدنيا)، والبيهقي في (شعب الإيمان) (١٠٥٠١) من طريقه من رواية الحسن مرسلاً. اهـ

(٥) حديث زيد بن أرقم قال الحافظ العراقي: رواه البزار (٤٤) بسند ضعيف بنحوه، والحاكم (٤/ ٣٠٩)، وصحح إسناده [وقال الذهبي: عبد الصمد تركه البخاري وغيره]، وابن أبي الدنيا والبيهقي[في الشعب(١٠٥٩٦)] من طريقه بلفظه. اهـ

(٦) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في (ذم الدنيا) من حديث أبي جعفر مرسلاً. اهـ [وابن أبي شيبة في مصنفه(٣٤٣٦٢)].

(٧) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (٢١٩١) وابن ماجه (٤٠٠٠) من حديث أبي سعيد دون

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: «لا تتخذوا الدنيا ربّاً فتتخذكم عبيداً، اكنزوا كنزكم عند من لا يضيِّعُه، وإن صاحب الدنيا يخاف عليها الآفة، وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة».

وقال ﷺ في بعض خطبه: **«المؤمن بين مخافتين، بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه، فليتزود العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن حياته لموته، ومن شبابه لهرمه، فإن الدنيا خلقت لكم، وأنتم خلقتم للآخرة، والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار»** (1) (8)

وقال عليه الصلاة والسلام: **«إن حقاً على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه»** (2). (9)

وقال عيسى عليه السلام: «من ذا الذي يبني على موج البحر داراً، وتلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً».

وقال أيضاً: «يا معشر الحواريين ارضُوا بدنيِّ الدنيا مع سلامة الدِّين، كما رضي أهل الدنيا بدنيِّ الدين مع سلامة الدنيا».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء: جزءاً للمؤمن، وجزءاً للمنافق، وجزءاً للكافر، فالمؤمن يتزوّد، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع.

وقيل:

يا خاطب الدنيا إلى نفسهِ   تنحَّ عن خِطبتها تسلمِ

= قوله: **«إن بني إسرائيل.. الخ»**، والشطر الأول متفق عليه [البخاري(١٤٦٥) ومسلم (٢٧٤٢)] ورواه ابن أبي الدنيا من حديث الحسن مرسلاً بالزيادة التي في آخره اهـ وعند ابن ماجه (٤٠٠١): **«إن بني إسرائيل لم يلعنوا حتى لبس نساؤهم الزينة وتبخترن في المساجد»**. اهـ

(1) قال الحافظ العراقي: رواه البيهقي في (الشعب) (١٠٥٨١) من حديث الحسن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ وفيه انقطاع. ا هـ

(2) رواه البخاري (٦٥٠١).

إن الــتــي تــخــطــبُ غــدّارة ... قــريــبــة الــعــرس مــن الــمــأتــمِ

وقيل:

إذا امتحنَ الدنيا لبيبٌ تكشفتْ ... لـه عـن عـدوٍّ فـي ثـيـاب صـديـقِ

وقيل:

يـا راقـد الـلـيـل مـسـروراً بـأوّلـهِ ... إن الحوادث قد يَطرقن أسحارا

أفنى القرون التي كانت منعمَّةً ... كـرُّ الـلـيـالـي إقـبـالاً وإدبـارا

وقال بعض الحكماء: الأيام سهام، والناس أغراض، والدهر يرميك كل يوم بسهامه، ويتحزمك بلياليه وأيامه، حتى يستغرق جميع أجزائك، فكيف تكون بقاء سلامتك مع وقوع الأيام بك، وسرعة الليالي في بدنك، لو كشف لك عما أُحدث فيك من النقص لاستوحشت من كل يوم يأتي عليك، واستثقلت ممرّ الساعات بك، ولكن تدبير الله فوق تدبير الاعتبار، وبالسلو عن غوائل الدنيا وجد طعم لذاتها، وإنها لأمرٌّ من العلقم إذا عجنها الحكيم، وقد أغنت الواصف لعيوبها بظاهر أفعالها.

وقال آخر: الدنيا من حيث الاغترارُ بخيالاتها ثم الإفلاسُ منها بعد إفلاتها تشبه خيالات المنام وأضغاث الأحلام.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**الدنيا حلم، وأهلها عليها مجازون ومعاقبون وهالكون**»[1].

وكتب علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه بمثالها فقال: مثل الدنيا مثل الحيَّة، يلين مسها، ويقتل سُمها، فأعرضْ عما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها، وضعْ عنك همومها بما أيقنت من فراقها، وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحبها كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصه عنه بمكروه، والسلام.

(١) قال الحافظ العراقي: لم أجد له أصلاً. اهـ

وقال ﷺ: **«إنما مثل صاحب الدنيا كمثل الماشي في الماء، هل يستطيع الذي يمشي في الماء أن لا تبتل قدماه؟»** [1].

وقال ﷺ: **«ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبُعَه في اليَمِّ، فلينظر ما يرجع إليه»** [2].

بيان حقيقة الدنيا وماهيتها:

اعلم أن الدنيا والآخرة عبارتان عن حالتين لك، والقريب الداني دنياك، وهو كل ما قبل الموت، والمتراخي المتأخر يسمى آخرة، وهي كل ما بعد الموت، فأما الذي يصحبك من الدنيا بعد الموت من العلم والعمل فذلك معدود من الآخرة، وإن كان من حيث الصورة في هذا العالم كما قال عليه الصلاة والسلام: **«حبب إليَّ من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة»** [3]، عدّ الصلاة من الدنيا وملاذها لدخول حركاتها الحس والمشاهدة الظاهرة، والقسم الذي يقابل هذا القسم كل ما فيه لذة عاجلة لا ثمرة لها بعد الموت، كالمعاصي، والمباحات الزائدة على الحاجات، القسم الثالث متوسط بينهما، وهو كل حظ في العاجل يعين على أعمال الآخرة، كقدر الحاجة من المطعم والمشرب والملبس والمنكح، وذلك ليس من الدنيا كالقسم الأول، ويجمع هذه الأقسام قول بعضهم: دنياك ما شغلك عن الله تعالى.

وقد جمع الله مجامع الهوى في خمسة أمور في قوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠]، والأعيان التي تحصل هذه الخمسة سبعة يجمعها قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا، والبيهقي في (الشعب) (١٠٥٨٣) من رواية الحسن، وقال: «بلغني أن رسول الله ﷺ قال:...» فذكره، ووصله البيهقي في (الشعب) وفي(الزهد) من رواية الحسن عن أنس. اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه مسلم (٢٨٥٨) من حديث المستورد بن شداد. اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه النسائي (٧/ ٦١)، والحاكم (٢/ ١٦٠) من حديث أنس دون قوله: «ثلاث» وتقدم. اهـ

ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ [آل عمران: ١٤].

واعلم أن مثال العبد في نسيان نفسه ومآبه مثال الحاج الذي يقف في منازل الطريق، ولا يزال يعلف الناقة، ويتعهدها، وينظفها، ويكسوها ألوان الثياب، ويحمل إليها أنواع الحشيش، ويبرد لها الماء بالثلج حتى تفوته القافلة، وهو غافل عن الحج ومرور القافلة وبقائه في البادية وحده فريسة السباع، والعاقل لا يهمه أمر الجمل إلا بقدر الحاجة فكذلك البصير بالآخرة لا يهمه أمر نفسه ودنياه إلا بقدر ما يتقوى به على سلوك طريق الآخرة، وطائفة غلبت عليهم الشهوة والغفلة، فيكتسبون حتى يأكلوا ويلبسوا، ويأكلون ويلبسون ليكتسبوا، وطائفة عرفوا ما خلقوا له، فاستعدوا له وعدّوا عما سواه من الحاجات والضرورات، فلم يقدموا عليها إلا للحاجة والضرورة.



الباب السابع والعشرون

في ذم حب المال وذم البخل

أما ذم حب المال فيعرف من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون: ٩].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

ومن قوله ﷺ: «**حب المال والشرف ينبتان النفاق كما ينبت الماءُ البقلَ**» (١).

وقال ﷺ: «**ما ذئبان ضاريان أُرسلا في زريبة غنم بأكثر إفساداً من حبِّ المال والجاه في دين الرجل المسلم**» (٢).

وقال ﷺ: «**هلك المكثرون إلا من قال به في عباد الله: هكذا وهكذا، وقليل ماهم**» (٣).

---

(١) قال الحافظ العراقي: لم أجده بهذا اللفظ، وذكره بعد هذا بلفظ (الجاه) بدل (الشرف) اهـ. ورواه ابن عدي (٤/ ٢٧٨) في الكامل بلفظ «إن الغنى ينبت النفاق في القلب» واختلفوا بالغنى، ما يقابل الفقر أم أنه بالمد (الغنا) بمعنى غناء الشعر.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٧٦) من حديث كعب بن مالك بنحوه، وقال: حسن صحيح.

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني من حديث عبد الرحمن بن أبزى بلفظ: «المكثرون» ولم يقل: «في عباد الله»، ورواه أحمد (٢/ ٣٠٩) من حديث أبي هريرة بلفظ: «المكثرون» وهو متفق عليه [البخاري (٦٦٣٨)، ومسلم (٩٩٠)] من حديث أبي ذر بلفظ: «هم الأخسرون فقال أبو ذر: من هم؟ فقال: هم الأكثرون أموالاً إلا من قال: هكذا..» الحديث. اهـ

وقال ﷺ: «سيأتي بعدي قومٌ يأكلون أطايب الدنيا وألوانها، وينكحون أجمل النساء، ويلبسون ألين الثياب وألوانها، ويركبون فُرَّهَ الخيل وألوانها، لهم بطون من القليل لا تشبع، وأنفس بالكثير لا تقنع، عاكفين على الدنيا يغدون ويروحون إليها، اتخذوها آلهة من دون إلههم، وربّاً دون ربِّهم، إلى أمرها ينتهون، وهواهم يتبعون، فعزيمة من محمد بن عبد الله ﷺ لمن أدركه ذلك الزمان من عقِب عقِبكم وخلف خلفكم أن لا يسلم عليهم، ولا يعود مرضاهم، ولا يتبع جنائزهم، ولا يوقر كبيرهم، فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما تصدّقت فأبقيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت»(٢).

وقال رجل: يا رسول الله ما لي لا أحب الموت؟ فقال ﷺ: «ألك مال؟» فقال: نعم يا رسول الله، فقال ﷺ: «قدّم مالك أمامك، فإن قلب المؤمن مع ماله، إن قدّمه أحب أن يلحقه، وإن خلفه أحب أن يتخلف معه»(٣).

وقال عليه الصلاة والسلام: «أخلاء ابن آدم ثلاث: واحد يتّبَعه إلى قبض روحه، والثاني إلى قبره، والثالث إلى محشره، فالذي يتبعه إلى قبض روحه فهو ماله، والذي يتّبَعه إلى قبره فهو أهله، والذي يتّبَعه إلى محشره فهو عمله»(٤).

---

(١) قال الحافظ العراقي: روى الطبراني في (الكبير) (٧٥١٢) و(الأوسط) (٢٣١٥) من حديث أبي أمامة: «سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام ويشربون ألوان الشراب ويلبسون ألوان الثياب يتشدقون في الكلام أولئك شرار أمتي» وسنده ضعيف، ولم أجد لباقيه أصلاً اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه مسلم (٢٩٥٨) من حديث عبد الله بن الشخير، و(٢٩٥٩) من حديث أبي هريرة. اهـ

(٣) قال الزبيدي رحمه الله في التعليق على هذا الحديث: قال الحافظ العراقي: لم أقف عليه، بل رواه ابن المبارك في (الزهد) (٦٣٤) عن عبد الله بن عبيد قال: قال رجل . . فذكره، وفيه: «هل لك مال؟ فقدم مالك بين يديك، والباقي سواء»، ثم رأيت بخط المحدث الشمس محمد بن أحمد بن علي الداودي تلميذ الحافظ السيوطي على هامش المغني ما نصه: رواه أبو نعيم في الحلية (٣/٣٥٩) من حديث أبي هريرة وفيه طلحة بن عمرو ضعيف، وأخرجه من وجه آخر أقوى منه لكن مرسلاً اهـ.

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد والطبراني في (الكبير) و(الأوسط) من حديث النعمان بن بشير بإسناد جيد نحوه، ورواه أبو داود الطيالسي وأبو الشيخ في كتاب (الثواب) والطبراني في (الأوسط)
=

بيان أن المال محمود من وجه، ومذموم من وجه:

وذلك أن الله تعالى سمّاه خيراً في بعض المواضع، فقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: ١٨٠]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**نِعْم المال الصالح للرجل الصالح**»[1].

وكل ما جاء في ثواب الصدقة والحج فهو ثناء على المال.

واعلم أن مقصد الأكياس والكرام سعادة الأبد، والمال وسيلة إليها، تارة للتزود منه ليقوى على التقوى والعبادة، وتارة بإنفاقه في طريق الآخرة، ومن أخذه للتَّرفُّه، أو توسل به إلى المعاصي والشهوات فهو مذموم في حقه، واعلم أن مثاله مثال حية فيها سمٌّ وترياق، ففوائدها ترياقها، وغوائلها سمُّها، فمن علمها وقدر على الاحتراز من سمِّها والانتفاع بترياقها فهو محمود في حقه.

فصل في ذم الحرص والطمع، ومدح القناعة والإياس مما في أيدي الناس:

اعلم أن الفقر محمود ولكنَّه ينبغي أن يكون الفقير منقطع الطمع مما في أيدي الناس، ولا يتأتى ذلك إلا بالقناعة بقدر الضرورة من المطعم والمشرب والملبس، فيقتصر على أقله في القدر وأخشنه نوعاً، ويَردُّ أمله إلى يوم أو إلى شهر لئلا يكثر في نفسه الصبر على الفاقة، فيؤدي ذلك إلى الطمع والطلب والتذلل للأغنياء، قال ﷺ: «**إن روح القُدُس نَفَثَ في رُوعي: إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب**»[2]، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال

= من حديث أنس بسند جيد أيضاً، وفي (الكبير) من حديث سمرة بن جندب، وللشيخين [البخاري(٦٥١٤) بنحوه، ومسلم(٢٩٦٠)] من حديث أنس: «**يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد**»الحديث. اهـ

(١) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (١٩٧/٤)، والطبراني في (الكبير) و(الأوسط) (٩٠١٢) من حديث عمرو بن العاص بسند صحيح بلفظ: «**نعما**»وقالا: «**للمرء**». اهـ

(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس، ورواه أبو نعيم (٢٧/١٠)، والطبراني في الكبير(٧٦٩٤)، وابن أبي الدنيا في (القناعة)، وصححه الحاكم (٢/ ٤) عن ابن مسعود.

رسول الله ﷺ يوماً: «**يا أبا هريرة إذا اشتد بك الجوع فعليك برغيف وكوز من ماء وعلى الدنيا الدمار**»[1].

بيان علاج الحرص والطمع والدواء الذي يكتسب به صفة القناعة:

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان: الصبر، والعلم، والعمل.

الأول: هوالعمل، وهوالاقتصاد في المعيشة، والرفق في الإنفاق، فمن أراد عز القناعة فليقلل الخرج والنفقة، ففي الخبر: «**التدبير نصف المعيشة**»[2].

الثاني: قصر الأمل حتى لا يضطرب بسبب الحاجة في ثاني الحال.

الثالث: أن يعلم ما في القناعة من العزِّ والاستراحة عن السؤال وذل الطمع، فبذلك يتخلص.

فصل في فضيلة السخاء:

اعلم أن المال إن كان مفقوداً فينبغي أن يكون حال العبد القناعة، وإن كان موجوداً فالإيثار والسخاء والتباعد عن البخل، قال عليه الصلاة والسلام: «**السخاء شجرة من شجر الجنة، أغصانها متدلية إلى الأرض، فمن أخذ منها غصناً قاده ذلك الغصن إلى الجنة، والشح شجرة في النار، فمن كان شحيحاً أخذ بغصن من أغصانها، فلم يتركه ذلك الغصن حتى يدخله النار**»[3].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**قال جبرائيل عليه السلام: قال الله تعالى: إن هذا**

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (١٠٣٦٦) وابن عدي في الكامل (٦/ ٤٣٢) بنحوه.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أبو منصور الديلمي في (مسند الفردوس) من حديث أنس، وفيه خلاد بن عيسى جهله العقيلي، ووثقه ابن معين. اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه ابن حبان في الضعفاء (١/ ٢٤٥) من حديث عائشة، وابن عدي (٢/ ٢٣٦) والدارقطني في المستجاد من حديث أبي هريرة وسيأتي بعده، وأبو نعيم(٧/ ٩٢) من حديث جابر وكلاهما ضعيف، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات(٢/ ٩٨) من حديثهم ومن حديث حسين وأبي سعيد. اهـ

دين ارتضيته لنفسي، ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق، فأكرموه بهما ما استطعتم» وفي رواية: **«فأكرموه بهما ما صحبتموه»** [(١)].

وقال عليه الصلاة والسلام: **«ما جبل الله ولياً إلا على السخاء وحسن الخلق»** [(٢)].

وعن جابر قال: قيل: يا رسول الله أي الإيمان أفضل؟ قال: **«الصبر والسماحة»** [(٣)].

وعن عائشة رضي الله عنها أن ابن الزبير بعث إليها مالاً في غِرارتَين ثمانين ألفاً ومائة ألف، فدعت بطبق فجعلت تقسمه بين الناس، فلما أمست قالت: يا جارية هلمِّي فطوري، فجاءتها بخبزٍ وزيت، فقالت لها أمُّ درة: ما استطعتِ فيما قسمتِ اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نُفطِر عليه؟ فقالت: لو كنت ذكرتيني لفعلت.

فصل في ذم البخل:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وقال ﷺ: **«إياكم والشحَّ، فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن يسفكوا دماءهم، ويستحلُّوا محارمهم»** [(٤)].

---

(١) رواه القضاعي في مسند الشهاب (١٤٦١) وابن عدي (٤/ ١٩٠) عن جابر بن عبد الله، وقال الحافظ العراقي: رواه الدارقطني في المستجاد اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه الدارقطني في المستجاد دون قوله: **«وحسن الخلق»** بسند ضعيف، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ٩٥)، وذكره بهذه الرواية ابن عدي (١/ ١٨٧) من رواية بقية عن يوسف بن السفر عن الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة، ويوسف ضعيف.

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء (٣/ ١٣٥) بلفظ **«سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان»** وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعفه الجمهور، ورواه أحمد من حديث عائشة وعمرو بن عبسة بلفظ **«ما الإيمان ؟ قال الصبر والسماحة»** وفيه شهر بن حوشب، ورواه البيهقي في الزهد بلفظ: أي الأعمال أفضل؟ قال: **«الصبر والسماحة وحسن الخلق»**.

(٤) رواه مسلم (٢٥٧٨)

وقال عيسى عليه السلام: «لا يدخل الجنة بخيل ولا خِبٌّ ولا خائنٌ ولا سيِّئ الملكة».

بيان الإيثار وفضيلته:

اعلم أن أرفع الدرجات في السخاء الإيثار، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة إليه، والسخاء هو الجود بما فضل عنك، وقد أثنى الرب سبحانه وتعالى على الصحابة، فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر: ٩]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**أيما رجل اشتهى شهوة فردّ شهوته وآثر على نفسه غُفر له**»[(١)].

ونزل برسول الله ﷺ ضيف فلم يجد عند أهله شيئاً، فدخل عليه رجل من الأنصار وحمله إلى أهله، فوضع بين يديه الطعام، وأمر امرأته بإطفاء السراج، وجعل يمد يده في الطعام كأنه يأكل، ولا يأكل حتى أكل الضيف الطعام، فلما أصبح قال له رسول الله ﷺ: «**لقد عجب الله من صنيعكم إلى ضيفكم**»[(٢)] فنزلت هذه الآية: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

بيان علاج البخل:

اعلم أن البخل سببه حبّ المال، ولحبّ المال سببان:

أحدهما: حب الشهوات، ولا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل، فإنه لو قدر بقاء نفسه يوماً أو شهراً فلربما سمحت نفسه بإخراج المال، ولعلّ ولده يقوم مقام طول الأمل، فيمسك ما يحتاجون إليه لأجلهم، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «**الولد مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَجْهَلَةٌ**»[(٣)]، وإذا أضيف إلى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بمجيء الرزق قوي البخل لا محالة.

والسبب الثاني: أن يحب عين المال، فيعلم أنه قط لا يحتاج إليه وهو شيخ

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن حبان في الضعفاء(٢/ ٧٦)، وأبو الشيخ في (الثواب) من حديث ابن عمر بسند ضعيف اهـ. ورواه ابن عدي(٥/ ١٢٦).

(٢) رواه البخاري (٣٧٩٨) بنحوه، ومسلم (٢٠٥٤).

(٣) رواه ابن ماجه(٣٦٦٦) دون قوله: «مجهلة».

ولا ولد له ولكنه يحب المال لعينه، وهذا مرض في القلب مزمن، والعياذ بالله، وهو كمن عشق شخصاً ثم أحب رسوله ونسيه، إذ المقصود من الدنانير والدراهم الوصول إلى الأغراض، وهذا قد نسي المقصود وعشق الوسيلة والواسطة، فمن رأى بينه وبين الحجر فرقاً إلا من حيث كونه وسيلة إلى الحاجات فقد جهل.

واعلم أن علاج البخل تقليل الشهوة وكثرة ذكر الموت، والتأمل في موت الأقران، وزيارة القبور وتأمل ما فيها من الديدان، والتفكر في تلك الأحوال، ويعالج التفات القلب إلى الولد بأن خالقه خلق معه الرزق، فكم من ولد ورث ولم يكن ذلك رزقه، وكم من ولد لم يرث ورزقه الله تعالى أموالاً، وإنَّ ولده إن كان صالحاً فالله تعالى يتولى الصالحين، وإن كان فاسقاً فلا كثَّر الله في المسلمين أمثاله، فإنه يستعين بماله على المعاصي، ومن النافع التأمل في ذم الناس للبخلاء، ونفرة الطباع عنهم، ومدحهم للأسخياء، ورغبتهم فيهم، وقال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ [البقرة: ٢٦٨] فلعله ينفعه ذلك.

بيان ذم الغنى ومدح الفقر:

بلغنا أن عيسى عليه السلام قال: يا علماء السوء، الناس بأمركم يصومون ويصلون ويتصدقون، ولا تفعلون ما تؤمرون، تدرسون مالا تعلمون، فيا سوء ما تحكمون، تتوبون بالقول، وتعملون بالهوى، وما يغني عنكم أن تنقوا جلودَكم وقلوبُكم دنسة، بحقٍ أقول لكم: لا تكونوا كالمنخل، يخرج منه الدقيق الطيب، ويبقى فيه النخالة، كذلك أنتم تخرجون الحكمة من أفواهكم، ويبقى الغل في قلوبكم، يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته، ولا تنقطع منها رغبته، بحق أقول لكم: إن قلوبكم تبكي من أعمالكم، جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم، والعمل تحت أقدامكم، بحق أقول: أفسدتم آخرتكم، فصلاح الدنيا عندكم أحب إليكم من صلاح الآخرة، فأي الناس أخسر منكم لو تعلمون، ويلكم حتى متى تصفون الطريق للمدلجين، وتقيمون في محل المتحيرين، كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم، مهلاً مهلاً ويلكم، ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه موحش مظلم، كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم، وأجوافكم منه موحشة معطَّلة، يا عبيد الدنيا، لا كعبيد أتقياء، ولا

كأحرار كرام، توشك الدنيا أن تقلَعَكم من أصولكم فتلقيَكم على وجوهكم ثم تكُبَّكم على مناخركم ثم تأخذَ خطاياكم بنواصيكم ثم تدفعَكم من خلفكم حتى تُسلمَكم إلى الملِك الدَّيان عراةً فُرادى، فيوقفَكم على سوآتكم، ثم يجزيَكم بسوء أعمالكم.

فلقد بان لك أن الفقر أولى وأفضل، ومن ذهب إلى أن الغنى أفضل فقد ازدرى بمحمد ﷺ وبجميع الأنبياء والسلف الصالحين، فنعوذ بالله من ذلك، وإنما احتجَّ بعض من سوّلت له نفسه وغلبت عليه شقوته بما لعبد الرحمن بن عوف، فنحن نورد حكاية يتبين بها فساد غرضه، ونقول:

قال أناس: نحن نخاف على عبد الرحمن فيما ترك، فقال كعب: سبحان الله وما تخافون على عبد الرحمن؟ كسب طيباً، وأنفق طيباً، وترك طيباً، فبلغ ذلك أبا ذرٍّ رضي الله عنه، فخرج مغضباً يريد كعباً، فمرَّ بلحى عظم بعير فأخذه بيده ثم انطلق يطلب كعباً، فقيل لكعب: إن أبا ذر يطلبك، فخرج هارباً حتى دخل على عثمان رضي الله عنه يستغيث به وأخبره الخبر، وأقبل أبو ذر يقصُّ الأثر في طلب كعب حتى انتهى إلي دار عثمان، فلما دخل قام كعب فجلس خلف عثمان هارباً من أبي ذر، فقال له أبو ذر: هيه يا ابن اليهودية، تزعم أن لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف، لقد خرج رسول الله ﷺ يوماً نحو أحد وأنا معه، فقال: يا أبا ذر، قلت: لبيك يا رسول الله، فقال: الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال: هكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله، وقدامه وخلفه، وقليل ما هم، ثم قال ﷺ: يا أبا ذر، قلت: نعم يا رسول الله بأبي أنت وأمي، قال: ما يسرني أن لي مثل أحد ذهباً أنفقه في سبيل الله، أموت يوم أموت وأبقي منه قيراطين، قلت: أو قنطارين يا رسول الله، قال: بل قيراطين، ثم قال: يا أبا ذر أنت تريد الأكثر وأنا أريد الأقل، ورسول الله ﷺ يريد هذا، وأنت تقول يا ابن اليهودية: لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف، كذبت وكذب من قال، فلم يرد عليه أحد حرفاً حتى خرج[1]!

(١) قال الحافظ العراقي: حديث أبي ذر «**الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال: هكذا وهكذا... الحديث**» متفق عليه [البخاري(٦٦٣٨)، مسلم(٩٩٠)] وقد تقدم دون هذه الزيادة التي في أوله من قول كعب حين مات عبد الرحمن بن عوف: كسب طيباً، وترك طيباً، وإنكار أبي ذر عليه فلم أقف على هذه الزيادة إلا في قول الحارث بن أسد المحاسبي بلغني كما ذكره المصنف، وقد رواها أحمد
=

وبلغنا أن عبد الرحمن قدمت عليه عيرٌ من اليمن فضجت المدينة ضجة واحدة، فقالت عائشة رضي الله عنها: ما هذا؟ فقيل: عيرٌ قدمت لعبد الرحمن بن عوف، قالت: صدق رسول الله، فبلغ ذلك عبد الرحمن، فسألها، فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إني رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلون سعياً فلم أر أحداً من الأغنياء يدخلها معهم غير عبد الرحمن بن عوف رأيته يدخلها معهم حَبواً»** [1]، فقال عبد الرحمن: إن العير وما عليها في سبيل الله تعالى، وإن أرقاءها أحرار لعلّي أدخلها معهم سعياً.

وروي عن عمران بن حصين رضي الله عنه: أنه قال: كانت لي من رسول الله ﷺ منزلة وجاه، فقال: **«يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاه، فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ؟»** قال: فقلت: نعم بأبي وأمي أنت يا رسول الله، فقام، وقمت معه حتى وقفت بباب فاطمة رضي الله عنها، فقرع الباب، وقال: **«السلام عليكم أأدخل؟»** قالت: بأبي وأمي أنت يا رسول الله، ادخل، قال ﷺ: **«أنا ومن معي؟»** قالت: ومن معك يا رسول الله؟ قال: عمران بن حصين، فقالت: والذي بعثك بالحق نبيّاً ما عليّ إلا عباءة، قال: **«اصنعي بها هكذا وهكذا»**، وأشار بيده، قالت: هذا جسدي قد واريته، فكيف برأسي؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خَلِقَة، فقال: **«شدي بها على رأسك»**، ثم أذنت له فدخل، فقال: **«السلام عليكِ يا بنتاه، كيف أصبحت؟»** فقالت: أصبحت والله وجعة، وزادني وجعاً على ما بي أني لست أقدر على طعام آكله، فقد أضرَّني الجوع، فبكى النبي ﷺ، وقال: **«لا تجزعي يا بنتاه، فوالله ما ذقت طعاماً منذ ثلاثٍ، وإني لأكرم على الله منك، ولو سألت ربي لأطعمني ولكن آثرت الآخرة على الدنيا»**، ثم ضرب بيده على منكبها، فقال لها: **«أبشري، فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة»**، فقالت: وأين آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران؟ فقال ﷺ: **«آسية سيدة نساء عالمها، ومريم سيدة نساء عالمها،**

= (٢/٣٠٩) وأبو يعلى أخصر من هذا، ولفظ كعب: «إذا كان قضى عنه حق الله فلا بأس به، فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعباً وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما أحب لو كان هذا الجبل لي ذهباً..» الحديث وفيه ابن لهيعة. اهـ

(١) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (٦/ ١١٥) مختصراً في كون عبد الرحمن يدخل حبواً دون ذكر فقراء المهاجرين والمسلمين وفيه عمارة بن زاذان مختلف فيه. اهـ

وخديجة سيدة نساء عالمها، وأنت سيدة نساء عالمك، إنكن في بيوت من قصب، لا أذى فيها ولا صخب»، ثم قال لها: «اقنعي بابن عمك، فوالله لقد زوّجتك سيداً في الدنيا سيداً في الآخرة»(١) فافهم تغنم، والله أعلم بالصواب.



(١) قال الحافظ العراقي: لم أجده من حديث عمران، ولأحمد (٥/ ٢٦) والطبراني[في الكبير (٥٣٨)] من حديث معقل بن يسار: «وضأت النبي ﷺ ذات يوم فقال: هل لك في فاطمة تعودها..» الحديث وفيه: «أما ترضين أن زوّجتكِ أقدم أمتي سلماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلماً» وإسناده صحيح.

الباب الثامن والعشرون

في ذم الجاه والرياء

اعلم أن الجاه محبوب القلوب، فلا يسمح بتركه إلا الصدّيقون، ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصدّيقين حب الرياسة.

ونبين الغرض من ذلك بفصول:

فصل: اعلم أن أصل الجاه هو انتشار الصيت، وهو مذموم إلا لمن شهره الله تعالى لنشر دينه، قال أنس: قال رسول الله ﷺ: **«حسب امرئ من الشرّ - إلا من عصمه الله تعالى - أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه»** [1].

وقال علي رضي الله عنه: تبذل ولا تشتهر، ولا ترفع شخصك لكي تذكر، وتعلم واكتم، واصمت تسلم، وتسرُّ الأبرار، وتغيظ الفجار.

وقال إبراهيم بن أدهم: ما صدقَ اللهَ من أحبَّ الشهرةَ.

ورأى طلحة قوماً يمشون معه، فقال: ذباب طمع، وفراش نار.

وقال سليمان بن حنظلة: بينما نحن حول أُبي بن كعب نمشي خلفه إذ رآه عمر، فعلاه بالدرَّة، فقال: انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع، فقال: إن هذا ذِلَّة للتابع، وفتنةٌ للمتبوع.

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه البيهقي في (الشعب) (٦٩٧٧) بسند ضعيف. اهـ

وعن الحسن قال: خرج ابن مسعود يوماً من منزله فاتبعه الناس فالتفت إليهم، فقال: علام تتبعونني؟ فوالله لو تعلمون ما أُغلق عليه بابي ما اتبعني أحد منكم. وقال الحسن: إن خفق النعال خلف الرجال قلما تثبت معه قلوب الحمقى.

فضيلة الخمول:

قال رسول الله ﷺ: «**رُبَّ أشعث أغبر، ذي طمرين، لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك**»[1].

وقال ابن مسعود: قال عليه الصلاة والسلام: «**رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره، لو قال: اللهم إني أسألك الجنة، لأعطاه الجنة، ولم يعطه من الدنيا شيئاً**»[2].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال النبي ﷺ: «**إن أهل الجنة كلُّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم، وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا، وإذا قالوا لم ينصت لهم، حوائج أحدهم تتلجلج في صدره، لو قُسِم نوره يوم القيامة بين الناس لوسعهم**»[3].

وروي أن عمر دخل المسجد، فإذا هو بمعاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله ﷺ، فقال: ما يبكيك؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اليسير من الرياء**

---

(١) رواه الترمذي(٣٨٥٤) وقال: صحيح حسن من هذا الوجه، وقال الحافظ العراقي: روى مسلم(٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة: «**رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره**» وللحاكم (٤/ ٣٢٨): «**رب أشعث أغبر ذي طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره**» وقال: صحيح الإسناد [ووافقه الذهبي]، ولأبي نعيم في الحلية (١/ ٣٥٠) من حديث أنس بسند ضعيف: «**رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم علَى الله لأبره منهم البراء بن مالك**» وهو عند الحاكم نحوه بهذه الزيادة وقال: صحيح الإسناد قلت: بل ضَعيفه اهـ، والطِّمرين: مثنى طِمْر، وهو الثوب الخَلِق البالي.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا، ومن طريقه أبو منصور الديلمي في (مسند الفردوس) بسند ضعيف. اهـ

(٣) رواه البيهقي في الشعب (١٠٤٨٦).

شرك، وإن الله تعالى يحب الأتقياء الأخفياء، الذين إن غابوا لم يفقدوا، وإن حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، ينجون من كل غبراء مظلمة»[1].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس[2] البيوت، سرج الليل، جدد القلوب، خلقان الثياب، تُعرفون في أهل السماء، وتخفون في أهل الأرض.

فصل في ذم حب الجاه:

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾. [القصص: ٨٣].

واعلم أن حقيقة الجاه هو ملك القلوب، كما أن معنى المال ملك الأعيان، وكما أن مالك المال يتوصل بماله إلى المقاصد فمالك القلوب يتوصل بها إلى المقاصد، فالجاه أحد المقاصد، وكما أن المال يكتسب بالحرف والصناعات، فالقلوب تكتسب بأنواع المعاملات، ولا تصير القلوب مسخرات إلا بالاعتقادات، فكل من يعتقد الإنسان فيه وصفاً من أوصاف الكمال فقد انقاد له قلبه، بل ملك القلوب استعباد للناس، واسترقاق لهم، وإذا كان المال محبوباً فالجاه أولى.

واعلم أن الجاه قوت الروح الطالبة للاستعلاء والربوبية، إذ الروح من عالم أمر الله تعالى، وهو يطلب الربوبية والعلو والاستعباد للناس، ويحب الكمال ويطلبه، ولذلك لا ترى أحداً ينفك عن هذه الإرادة.

فصل: اعلم أن النفس ترتاح للمدح وتهتز له لأن فيه شعوراً بالكمال، والنفس محبة للكمال، وعلى العكس تكره الذم لأن فيه شعوراً بالنقصان، وهي تكره النقصان.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير(٣٢١) والحاكم (١/ ٤) واللفظ له، وقال: صحيح الإسناد وقال الذهبي: صحيح ولا علة له.

(٢) **أحلاس البيوت**: أي لازمين بيوتكم لزوم الحِلْس، وهو بالكسر الحصير الذي يفرش تحت الفرش. (إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين: ٨/ ٢٢٧).

بيان علاج حب الجاه:

اعلم أن من ابتلي بحب الجاه صار همُّه مقصوراً على حب الجاه، وطلب الزيادة فيه، واصطياد قلوب الخلق، وذلك يضطره إلى الرياء والنفاق، ولذلك شبَّه رسول الله ﷺ ذلك ـ أعني حب المال والجاه ـ بذئبين ضاربين في زريبة غنم[1]، وقال: «**إنه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل**»[2]، وعلاجه مركَّبٌ من العلم والعمل، أما العلم فهو أن يعلم أن مقصوده ملك القلوب، وقد بينا أن ذلك إن صفا وسلم فآخره الموت، فليس ذلك من الباقيات الصالحات، بل لو سجد لك كل من على بسيط الأرض من المشرق إلى المغرب مقدار خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له، وتكون حالك كحال من مات من قبلك من ذوي الجاه، وقد ماتوا، فذلك كمال وهمي لا حقيقة له لأنه يزول بالموت، وهذا كما كتب الحسن البصري، حيث كتب إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فكأنك بآخر من كتب عليه الموت، وقد مات. فكتب في جوابه: أما بعد فكأنك بالدنيا لم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزل. فهؤلاء نظروا إلى العواقب، وعلموا أنّ ما هو آتٍ قريب.

وأما العمل فلهم فيه طرق، منهم من شرب شراباً حلالاً يشبه الخمرة فهجره الناس، وظنوا أنه شارب خمر، ومنهم من عرف بالزهد فدخل الحمام ثم خرج ولبس ثياب غيره، ووقف في الطريق حتى عرفُوه وأخذوه وخلعوا عنه الثياب وضربوه وقالوا: إنه طرار فهجروه، وأقرب الطرق فيه الغُربة والهجرة إلى موضع الخمُول، فإنه لو اعتزل في بلده فلا يخلو عن نوع من الرياء بمعرفة الناس باعتزاله وانزوائه.

بيان العلاج في الخلاص من حب المدح وكراهة الذم:

وقد بيَّنَّا أن سببه الكمال الوهمي، فإذاً عرفت أنه لا أصل له، ولا فائدة له إلا

(١) تقدم صفحة(٢٣٥).

(٢) تقدم صفحة(٢٣٥).

في العاجل، فأما في الآخرة فلا فائدة، وإن كان المدح بأمر ديني فذلك أيضاً هوس، إذ تمام ذلك بحسن الخاتمة، وبعدُ ما جاوزت هذا الخطر.

بيان القسم الثاني من هذا الباب

وهو الرياء

اعلم أن الرياء حرام، وصاحبه ممقوت عند الله تعالى، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ [الماعون: ٤-٦].

وقال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقيل: يا رسول الله، فيم النجاة؟ فقال ﷺ: **«أن لا يعمل العبد بطاعة الله تعالى يريد بها الناس»**(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: **«إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»**، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: **«الرياء»** يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جازى العبيد بأعمالهم: **«اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء»**(٢).

وقال ﷺ: **«استعيذوا بالله من جُبِّ الحزن»**، قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال ﷺ: **«واد في جهنم أُعِدَّ للقرَّاء المرائين»**(٣).

---

(١) أغفله العراقي، وهو بنحوه في كتاب «تنبيه الغافلين» لأبي الليث السمرقندي. «إتحاف السادة المتقين» (٨/ ٢٦٢).

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (٥/ ٤٢٨)، والبيهقي في «الشعب» (٦٨٣١) من حديث محمود بن لبيد، وله رواية، ورجاله ثقات، ورواه الطبراني[في الكبير(٤٣٠١)] من رواية محمود بن لبيد عن رافع ابن خديج. اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (٢٣٨٣) وقال: غريب، وابن ماجه(٢٥٦) من حديث أبي هريرة، وضعفه ابن عدي(٥/ ٧١). اهـ

وروى عبد الله بن المبارك [1] بإسناده عن رجل أنه قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: حدِّثْني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، قال: فبكى معاذ حتى ظننت أنه لا يسكتُ، ثم سكتَ، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لي: يا معاذ، قلت له: لبيك يا رسول الله، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، قال: «**إني محدثك حديثاً، إن أنت حفظته نفعك، وإن أنت ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند الله تعالى يوم القيامة، يا معاذ إن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السماوات والأرض، ثم خلق السماوات، فجعل لكل سماء من السبعة ملكاً بوّاباً عليها قد جللها عِظَماً، فتصعد الحفَظَة بعمل العبد من حين أصبح إلى حين يمسي، له نور كنور الشمس، حتى إذا طلعت الملائكة به إلى سماء الدنيا زكته فكثرته، فيقول الملك الموكل للحفظة: اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه،أنا صاحب الغيبة أمرني ربي أن لا أدع عمل من اغتاب الناس يجاوزني إلى غيري، قال: ثم تأتي الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد، فتزكيه وتكثره حتى تبلغ به إلى السماء الثانية، فيقول لهم الملك الموكل بالسماء الثانية: قِفُوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، أنا ملك الفخر إنه أراد بعمله هذا عرض الدنيا، أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري، إنه كان يفتخر على الناس في مجالسهم، قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد يبتهج نوراً من صدقة وصيام وصلاة، قد أعجب الحفظة، فيجاوزون به إلى السماء الثالثة، فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، وأنا ملك الكبر، أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني، إنه كان يتكبر على الناس في مجالسهم، قال: وتصعد بعمل العبد يزهر كما يزهر الكوكب الدريّ، له دويٌّ كدويِّ النحل من تسبيح وصلاة وحج وعمرة حتى يجاوزوا به إلى السماء الرابعة، فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، واضربوا به ظهره وبطنه، أنا صاحب العجب، أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري، إنه كان إذا عمل عملاً أدخل العجب في عمله، قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد حتى يجاوزوا به إلى السماء الخامسة، كأنه العروس المزفوفة إلى أهلها، فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، واحملوه على عاتقه،**

---

(١) تقدم ترجمته صفحة (٢٢٠).

أنا ملك الحسد، إنه كان يحسد الناس، من يتعلم ويعمل بمثل عمله، وكل من كان يأخذ فضلاً من العبادة يحسدهم ويقع فيهم، أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري، قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وحج وعمرة وصيام، فيجاوزون به إلى السماء السادسة، فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، إنه كان لا يرحم إنساناً قط من عباد الله أصابه بلاء أو ضُر، بل كان يشْمَت به، أنا ملك الرحمة، أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري، قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء السابعة من صوم وصلاة ونفقة واجتهاد وورع، لها دويٌّ كدويّ الرعد، وضوء كضوء الشمس، معها ثلاثة آلاف ملك، فيجاوزون به إلى السماء السابعة، فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، واضربوا به جوارحه، اقفلوا به على قلبه، إني أمرني ربي أحجب عنه كل عمل لم يرد به وجه ربي، إنه أراد بعمله غير الله تعالى، إنه أراد رفعة عند الفقهاء، وذكراً عند العلماء، وصيتاً في المدائن، أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري، وكل عمل لم يكن خالصاً لله تعالى فهو رياء، ولا يقبل الله عمل المرائي، قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر لله تعالى، وتشيعه ملائكة السماوات السبع، حتى يقطع الحجب كلها إلى الله تعالى، فيقفون بين يديه ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله تعالى، قال: فيقول الله تعالى لهم: أنتم الحفظة على عمل عبدي، وأنا الرقيب على نفسه إنه لم يردني بهذا العمل، وأراد به غيري، فعليه لعنتي، فتقول الملائكة كلها: عليه لعنتك، وعليه لعنتنا، وتلعنه السماوات السبع ومن فيهن»، قال معاذ: قلت: يا رسول الله: أنت رسول الله وأنا معاذ، كيف النجاة؟ قال: «اقتد بي وإن كان في عملك نقص، يا معاذ حافظ على لسانك من الوقيعة في إخوانك من حملة القرآن، واحمل ذنوبك عليك، ولا تحملها عليهم، ولا تزك نفسك بذمّهم، ولا ترفع نفسك عليهم، ولا تدخل عمل الدنيا في عمل الآخرة، ولا تتكبر في مجلسك لكي يحذر الناس من سوء خُلُقِك، ولا تُنَاجِ رجلاً وعندك آخر، ولا تتعظم على الناس فينقطع عنك خير الدنيا، ولا تمزّقِ الناس فتمزقك كلاب النار يوم القيامة في النار، قال الله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢﴾ [النازعات: ٢]، أتدري ما هن يا معاذ؟» قلت: ما هن بأبي أنت وأمي يا

رسول الله؟ قال ﷺ: «**كلاب النار تنشط اللحم والعظم**»، قلت: بأبي وأمي يا رسول الله، فمن يطيق هذه الخصال، ومن ينجو منها؟ قال: «**يا معاذ إنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه إنما يكفيك من ذلك أن تحب للناس ما تحب لنفسك، وتكره لهم ما تكره لها**»، قال: فما رأيت أكثرَ تلاوةً للقرآن من معاذ، للحذر مما في هذا الحديث [1].

وقال عكرمة [2]: إن الله تعالى يعطي العبد على نيته مالا يعطيه على عمله لأن النية أبلغ ولا رياء فيها.

بيان حقيقة الرياء:

والرياء مشتق من الرؤية، والسمعة مشتقة من السماع، والرياء أصله طلب رؤية الناس للمنزلة عندهم، وطلب المنزلة عند الناس تارة تكون عند الناس بعمل غير العبادة، وتارة تكون بالعبادة، فالرياء في غير العبادة المُراءاة بالثياب الخشنة، وتشميرها، وصفار اللون، وإغارة العين، وتشعيث الشعر، وخفض الصوت، والمشي بالتكلف على سكينة وهدوء، والتطليس، كل هذه متممات للرياء بالعبادة، وكل ذلك حرام إذا كان القصد منها المراءاة، وكذلك مراءاة العلماء بالألفاظ المسجعة في المواعظ لإظهار غزارة العلم إلا أن يقصد بذلك أن يكون أقرب إلى قبول الدين منه، ويكون قد صحت نيته في أصل الوعظ، فإن ذلك ربما يجوز.

والمراءاة بأصل العبادة هو أن يطوِّلَ الركوع والسجود بين يدي الناس، ليظنوا به الزهد والورع، وربما تكلَّفَ ذلك في الخلوة لئلا يحتاج إلى التكلف بين يدي الناس، ويَظنُّ أن يخلص من الرياء بأن يُطوِّلَ الركوع والسجود في البيت، وإذا كان عزمه ذلك فقد زاد في ريائه، لا أنه يخلص منه، والقول الحق فيه أن يقال: الرياء هو طلب الجاه فلا يخلو إما أن يكون بالعبادات أو بغيرها، فإن كان بغير العبادات

---

(١) قال الحافظ العراقي: هو كما قال المصنف رواه ابن المبارك بطوله في (الزهد) له، وفي إسناده كما ذَكَر رجل، ورواه ابن الجوزي في (الموضوعات) (٢/ ٣٣٩). اهـ

(٢) هو: **عكرمة مولى ابن عباس**، أبو عبد الله القرشي، العلامة الحافظ المفسر، البربري الأصل، حدث عن ابن عباس وعائشة وأبي هريرة وابن عمر وغيرهم رضي الله عنهم، توفي في المدينة سنة ١٠٤هـ. «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٢).

فهو كطلب الحلال من المال، فلا يحرم إلا أن يكون بتلبيس، فذلك في المال والجاه محرّم على السّواء، ولا ينبغي أن يظن أن طلب الجاه محرّم بالكلية، فإن القدر الذي يحتاج إليه من الجاه لضرورة المعيشة كالقليل من المال يجوز طلبه للحاجة، وهو المراد بقول يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: ٥٥]، فإذاً في الجاه سمٌّ وترياق كما سبق في المال، وكما أن كثير المال يطغي ويلهي عن ذكر الله تعالى، فكذا كثير الجاه، فإن حَصَلَ سعة الجاه من غير حرص منك، ولم يشغلك عن الله تعالى، وكان استعمالك له كاستعمالك للمال الكثير بالسخاء والإيثار وإيصال النفع إلى الخلق فحكمه حكم المال الكثير كما سبق، إذ لا يمكن أن يكون جاه أوسع من جاه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن جاه الأئمة والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، ولكن ينبغي أن لا يلهيه عن الله تعالى، ولا يحزن بزواله، فعلى هذا الخروج إلى الناس بالثياب الحسنة رياء، ولكن ليس بحرام إذ ليس فيه رياء بالعبادة، ويدل عليه ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إن رسول الله ﷺ إذا أراد الخروج إلى أصحابه كان ينظر في جب الماء، ويسوّي عمامته وشعره، قال: قلت: أوتفعل ذلك يا رسول الله؟ قال: **«نعم إن الله تعالى يحب العبد أن يتزين لإخوانه إذا خرج إليهم»**[1] نعم هذا كان من رسول الله ﷺ عبادة لأنه كان مأموراً بدعوة الخلق، ولو سقط من أعينهم لفسد ذلك.

واعلم أن للرياء درجات، فإن كان مقصوده من الفعل الرياء فهو مبطل للعبادة قطعاً، ويقرب من هذا أن يكون الرياء غالباً على نية العبادة. وإن كان قصد العبادة والرياء سواء، بأن يستقل كل واحد بنفسه، فهذا إن نجا رأساً برأس، لا له ولا عليه، فقد ربح، وإن كان الأصل قصد العبادة، والرياء مرجح ولو لم يكن الرياء لأقدم على العبادة، ولو كان محض الرياء من غير قصد العبادة لما استقل الرياء، فلعله لا يحبط أصل العمل ولكنه ينقص من الثواب، أو يعاقب على مقدار مراءاته، ولعله يحمل قوله ﷺ حكاية عن ربه تعالى: **«أنا أغنى الأغنياء عن الشرك»**[2] على المساواة بين القصدين فيخرج عن هذا القسم الأخير.

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن عدي في (الكامل). اهـ

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥).

واعلم أنه إن كان الرياء بأصل الإيمان فهو النفاق، وهو مخلد في الدرك الأسفل من النار، وإن كان بأصول الفرائض لا بأصل الإيمان فهو أخف، وإن كان بالنوافل أو بأوصاف العبادات فقد سبق ذكره.

بيان الرياء الخفي:

الذي هو أخفى من دبيب النمل، وذلك ما لا يستقل بحمله على العبادة، ولا يؤثر في تخفيف العبادة عليه بسبب رؤية الخلق، ولكن يحب أن يُعرَف أو يُطَّلع على عبادته، ويسرُّ بذلك، فهذا هو الرياء الخفي.

وطريق دفع الرياء وعلاجه أن يعلم أن منشأه حب المال والجاه وحب المدح، وقد سبق ذكره، والذي يتحدد بعده أنه ينبغي أن يتأمل أن الله تعالى مطلع على سرِّه، وسيقول له: كنت أهون الناظرين إليك، فإذا تأمل فيما يرجع إليه حاصله وإنه يزول ذلك بالموت علم أنَّ الإقلاع منه أولى.

بيان الرخصة في كتمان الذنوب:

اعلم أن الأصل في الإخلاص استواء السريرة والعلانية، قال عمر: عليكم بعمل العلانية، قالوا: وما عمل العلانية يا أمير المؤمنين؟ قال: ما إذا اطَّلع عليه أحدكم لم يستحِ منه، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله تعالى**»[1]، وينبغي أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضاً كما يكره من نفسه.

بيان أنه لا يجوز ترك العبادات خوفاً من الرياء:

فنقول: إذا لم يكن الباعث أصل الرياء ولكنه يخاف أن يعترض له في أثنائه رياء فينبغي أن لا يترك العبادة، فإن غرض الشيطان يحصل بترك العبادة، بل يقدم

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٤٤) و(٤/ ٣٨٣) [وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي]. اهـ

على العبادة، وليدفع الرياء بدوائه، ولهذا قال بعضهم: الرياء أن يترك العبادة لرؤية الخلق، وأما الإقدام عليها لأجل الخلق فهو نفاق محض.

فصل:

اعلم أن من العبادات ما يتعلق بالخلق، كالخلافة والإمامة والسلطنة والتدريس والوعظ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاماً**»[1].

واعلم أن المتقين كانوا يهربون منها لأن فيها أخطاراً عظيمة، إذ يتحرك فيها صفات الباطن بحب المال والجاه وسائر الآفات، ولذلك قال النبي ﷺ: «**ما من والي عشيرة إلا جاء يوم القيامة مغلولةً يده إلى عنقه، أطلقه عدلُه أو أَوْبَقه جورُه**»[2]، فالعاقل إذن حقيق به أن يهرب عن محل الخطر، فلينظر إلى نفسه، فإن كان الغالب عليه طلب الثواب فليفعل، وعلامة ذلك أنه إذا ظهر من ينوب عنه ويكفيه ذلك يغتنمه ولا يغتاظ منه، فافهم تغنم، والله أعلم بالصواب.



(١) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني [في الكبير(١١٩٣٢)] والبيهقي [في الشعب(٧٣٧٩)] من حديث ابن عباس. اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (٥/ ٣٢٣) من حديث عبادة بن الصامت، ورواه أحمد (٥/ ٢٨٤) من رواية رجل لم يسم، عن سغد بن عبادة، وفيهما يزيد بن أبي زياد متكلم فيه، ورواه أحمد (٢/ ٤٣١) والبزار وأبو يعلى (٦٦١٤) والطبراني في «الأوسط» (٦٢٢٥) من حديث أبي هريرة. اهـ

الباب التاسع والعشرون

في ذم الكبر والعجب

وفيه فصول

اعلم أن الكبر مذموم، قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [إبراهيم: ١٥]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من الكبر**»(١)، وقال النبي ﷺ: «**قال الله تعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقيتُه في جهنم**»(٢).

ومعنى الكبر: صفة في النفس تنشأ من رؤية النفس وما يظهر من التكبر في الظاهر، فهو كالأثر لتلك الصفة، قال ﷺ: «**أعوذ بك من نفخة الكبرياء**»(٣).

---

(١) رواه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه مسلم (٢٦٢٠)، وأبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه(٤١٧٤) واللفظ له.اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: لم أره بهذا اللفظ، وروى أبو داود (٧٦٤) وابن ماجه (٨٠٧) من حديث جبير ابن مطعم، عن النبي ﷺ في أثناء حديث: «**أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه**» قال: نفثه الشِّعر، ونفخه الكبر، وهمزه الموتة، ولأصحاب السنن من حديث أبي سعيد الخدري نحوه، تكلم فيه أبو داود، وقال الترمذي: هو أشهر حديث في هذا الباب.اهـ

فالكبر إن كان على الله بأن لا يذعن لأمره فذلك هو الكفر التام، وإن كان على الرسل بأن لا يذعن لبشر مثله فهو أيضاً كفر تام، والثالث أن يتكبر على الخلق ويدعوهم إلى خدمة نفسه والتواضع له، وذلك أيضاً منازعة الله تعالى في كبريائه، فإنه لا ينبغي لغيره أن يكون مطاعاً ألبتة، والكبر إن كان بالمال والجاه فذلك قد سبق علاجه، وإن كان برؤية الصلاح فذلك يناقض نفس الصلاح، وإن كان بفعل الخيرات والعلم والعمل فذلك حقيق بأن يكون لله، فإذا تكبر به على الناس فقد أخذ الأجر عليه كما ورد في الأخبار، فيكاد يحبط أجر ذلك، فهذا هو الطريق في معالجته، وبالمقابلة لما يجده فيها من الخواطر يستريح، فإذا مالت نفسه إلى الترفع على الناس يتعمّد التواضع، ويداوم عليه، فلعلّ الله يخلّصه عن هذه الرذيلة، ومهما حدثته نفسه بالخلاص عن الكبر فعليه أن يمتحن نفسه بأربعة أمور:

أولها: أن يجرِّب نفسه في المناظرة مع خصم حتى يظهر أنه هل يغضب لظهور الحق على يد غيره؟ وهل يشتهي الاستعلاء أم لا؟

الثاني: أن يقدم الأقران على نفسه في المحافل.

الثالث: أن يحمل حاجته إلى بيته من طعام وغيره، فهو من السنة، ويتعاطى الأعمال في بيته مع غلامه، ويأكل معه، فذلك كله من السنة، ومن جملة ذلك إجابة دعوة الفقراء، والخروج معهم إلى الأسواق، وحمل حاجاتهم معهم.

الرابع: لبس ثياب بِذْلَة في الملأ، قال عليه الصلاة والسلام: «**البذاذة من الإيمان**»[١] وقال ﷺ: «**من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برئ من الكبر**»[٢]، وقال ﷺ: «**من حمل حاجته إلى بيته فقد برئ من الكبر**»[٣].

فإذا عرفت هذا فاعلم أن خير الأمور أوساطها، فالتواضع المحمود أن يتواضع للأقران من غير ذلة.

---

(١) رواه أبو داود (٤١٦١)، وابن ماجه (٤١١٨) من حديث أبي أمامة بن ثعلبة.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه البيهقي في (الشعب) (٦١٦١) من حديث أبي هريرة بزيادة فيه وفي إسناده القاسم العمري ضعيف جداً. اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه البيهقي في (الشعب) (٨٢٠١) من حديث أبي أمامة وضعفه بلفظ: «**من حمل بضاعته**».

فصل في العجب:

اعلم أن العُجْب مذموم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**»(١).

وحقيقة العجب: تكبر يحصل في الباطن بتخيل كمال من علم أو عمل، فإن كان خائفاً على زواله فهو غير معجب، وإن كان يفرح بكونه نعمة من الله فهو ليس أيضاً بعجب، بل هو مسرور بفضل الله تعالى، وإن كان ناظراً إليه من حيث هو صفته، غير ملْتفتٍ إلى إمكان الزوال ولا إلى المنعم به، بل إلى صفة نفسه، فهذا هو العجب، وهو من المهلكات.

وعلاجه: أن يتأمل في العاقبة، وأن يتأمل في (بَلْعام)(٢) كيف ختم له بالكفر، وكذلك إبليس، فمن تأمل في إمكان سوء الخاتمة، وأنه ممكن لا يعجب بشيء من صفاته، والله اعلم.



---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٥٤٥٢) والبزار وأبو الشيخ في (التوبيخ) والبيهقي [في الشعب (٧٤٥)] والخطيب في (المتفق والمفترق).

(٢) هو: بلعام بن باعوراء، من بني إسرائيل في زمن موسى عليه السلام، قيل: إنه كان مجاب الدعوة، فسأله الجبارون أن يدعو على موسى، فقام ليدعو فتحول لسانه بالدعاء على أصحابه، واندلع لسانه على صدره، قيل: هو المعني بقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥] (مختصر من تفسير القرطبي).

الباب الثلاثون

في ذم الغرور

اعلم أن الغرور أظهر أسباب الهلاك، وأصناف المغترين كثيرة، ونحن نورد منها أربعة أصناف:

الأول: من العلماء.

الثاني: من العباد.

الثالث: من المتصوّفة.

والرابع: من أرباب الدنيا وأصحاب الأموال.

ونبدأ بما ورد في ذم الغرور:

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الآية [الحديد: ١٤].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**حبّذا نوم الأكياس وفطرهم، كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم، ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترين**»[١].

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب (اليقين) من قول أبي الدرداء بنحوه وفيه انقطاع، وفي بعض الروايات أبي الورد موضع أبي الدرداء، ولم أجده مرفوعاً. اهـ

والغرور أن يعتقد الشيء على خلاف ما هو به، فهو نوع من الجهل وسكون النفس إلى ما يوافق الهوى من الخيال والشبهة، فمن المغترين من غره ظنه الفاسد بأن الحياة الدنيا نقد ويقين، والآخرة نسيئة وشك، والنقد واليقين لا يترك بالنسيئة والشك، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [البقرة: ٨٦]، وهؤلاء هم الكفار، فإيمانهم تارة يحصل بغْتَةً، وتارة ببرهان ودليل، وتارة بتقليد، ولا شك أن المريض يشرب الدواء بقول الطبيب رجاءً للصحة، فلو قال: لا أشرب الدواء إلا أن أتيقن كونه نافعاً فذلك دليل هلاكه، كيف والعقل يقتضي سوء الظن والاحتراز بمجرد الاحتمال، فهذا المُدبر إن كان قول الأنبياء ومعجزاتهم لا تورثه يقيناً فلا أقل من أن يورث ظناً غالباً أو احتمالاً، والعاقل بمجرد الاحتمال يحترز، لذلك قال علي رضي الله عنه لبعض الملحدين بعد أن أورد الحجج على الملحد: إن كان الأمر على ما تزعمه فقد تخلَّصْتُ أنا وتخلَّصْتَ أنت، وإن كان على ما أزعمه فتخلَّصتُ أنا وهلكْتَ أنت.

ومن الناس من غرّهم قولهم: إن الله كريم رحيم، ومن الناس من يدلي بتقوى الآباء وورعهم، وذلك كله محال، أما قوله: إن الله كريم رحيم، فقد صدق ولكن جميع آي القرآن دالة على أن كرمه ورحمته بأن يوفق في الدنيا للخيرات، وقال الله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ [النجم: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ثم هلّا اعتمد على كرمه في الرزق و قد قال تعالى : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق : ٣] و قال تعالى : ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣]، فأمر بالتوكل على الله في الرزق والتعويل على كرمه فلا يفعل، و أمر بالعمل للآخرة فيتوكل، و هذا غاية الانعكاس، وأما من يدلي بورع الآباء وتقوى النسب فلينظر إلى قوله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، وإلى قوله عليه الصلاة والسلام لما استأذن من الله تعالى أن يزور قبر أمه ويستغفر لها، فأذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الاستغفار، فبكى لذلك، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

«**الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني**»[1].

واعلم أن العاقل البصير المشتغل طول الليل والنهار بالطاعات مع اجتناب المعاصي أبداً يكون خائفاً من سوء الخاتمة، ويسأل الله تعالى أن يثبته بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويخاف صواعق القدر، فإن قلت: فأين موضع الرجاء؟ قلنا: إن الرجاء والخوف شرطان، لكل واحد منهما موضع، فموضع الرجاء اثنان: أحدهما أن يرجي نفسه الغفران بالتوبة حين استبعد ذلك بسبب كثرة الذنوب، ودلاه الشيطان بحبل غروره وقنَّطه، والآخر موضعه أن يرجي نفسه نعيم الفردوس ومعالي الدرجات كما ورد في الأخبار لئلا يقتصر على الفرائض، ونحن الآن نبين أصناف المغترين:

الصنف الأول: العلماء، وقد سبق ذكر غرورهم في (كتاب العلم) وإن العلماء بالله من زاد علمه من خشيته، قال عليه الصلاة والسلام: «**أنا أعلمكم بالله، وأخشاكم لله**»[2] فمن لا يعلم عيوب باطنه، أو يعلم ولا يجتهد في إزالتها فهو مغرور، لا ينفعه علمه ألبتة.

الصنف الثاني: أرباب العبادة، والمشغول بكل صنف منها ـ أعني أنواع العبادة ـ لا يخلو عن نوع من الغرور إلا الأكياس الذين وفقهم الله تعالى، وقليل ما هم، فمنهم من أهمل الفرائض وضيعها بأحكام السنن والشروط، كمن تشغله الوسوسة في الوضوء وتنظيف الثياب حتى يفوت وقت الفرض أو يضيق، ومنهم من لا تستقيم له النية فتغلبه الوسوسة فيها حتى تفوته الجماعة، ومنهم من تحمله الوساوس على أنه يعود في قراءة الفاتحة، ويقول: إني أخرج الحروف من مخارجها، ولا يهمه غيره، ومثال هؤلاء كرسول بعث برسالة إلى ملك، فأخذ يتأنق في إيراد الحروف، ولا يزال يردّدها ويعيدها وهو غافل عن احترامه المجلس، فهو

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (٢٤٥٩) [بلفظ: «**والعاجز من أتبع نفسه..**»] وابن ماجه (٤٢٦٠) من حديث شداد بن أوس. اهـ

(٢) رواه البخاري(٦١٠١) بنحوه، ومسلم (٢٣٥٦) من حديث عائشة.

جدير بأن يردّ إلى دار المرضى عند المجانين، أو تقام عليه السياسة، وهكذا من اشتغل بالحج والصوم، وأقبل على شيء من هذه العبادات ولم يقدم شروطها من التوبة ورد المظالم، ولم يتعلم علم آفات الأعمال وما يحتاج إليه من تنقية الظاهر والباطن فلا بد وأن يكون مغروراً بعلمه.

الصنف الثالث: الصوفية والمتصوفة: وهم فِرقٌ، فمنهم من رضي بمجرد زيِّهم وآدابهم الظاهرة، وظنوا أن الأمر إلى هذا الحدِّ، ومنهم من زاد فلبس المرقعات الرفيعة التي تزيد في القيمة على الإبريسم[١]، ومثالهم كعجوز سمعت أن رجال الحرب أثبتت أساميهم في ديوان السلطان فلبست الدروع، وحملت الأسلحة، ونهضت إلى بين يدي السلطان، فأمر بتعريتها عن السلاح وتجربتها في القتال والمبارزة، فلما رفع المِغْفَر عن رأسها، وخلع الدروع عن بدنها انكشفت عن عجوز، فقيل لها: هذا استهانة بالملك، فتؤخذ وتطرح بين يدي الفيل، ويقام عليها السياسة.

وفرقة تلقنت ألفاظ القوم في علوم المعرفة فادّعت المعرفة، وذلك ـ والعياذ بالله ـ هو الهلاك، ومنهم من وقع في الانخلاع زاعماً أنه لا حاجة إلى أعمالنا، ولا يدرون أن الحاجة لهم إلى أعمال أنفسهم لا لغيرهم، ومنهم من انبسط في جميع أنواع النعم لا يفرق ولا يميز، ولا يدري أن التكثير من الحلال يخالف شأنه، فكيف من الحرام، ومنهم من فتح له الطريق، فلما أحس بنسيم المعرفة وقف عنده، وظن أنه قد وصل، وعجائب هذا الطريق لا تنقضي، فمن وقف عند كل واحد من هذه العجائب طال مقامه.

وفرقة أخرى جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا إلى ما يفيض عليهم من الأنوار في الطريق، ولا ما يتيسر لهم من العطايا الجزيلة، ولم يعرِّجوا على الفرح بها، جادين في المسير حتى قاربوا فوصلوا إلى حد القربة إلى الله عز وجل، فظنوا أنهم وصلوا إلى الله عز وجل فغلطوا، فإن لله عز وجل سبعين حجاباً من نور، فلا يصل السالك إلى واحد من تلك الحجُب إلا ظن أنه قد وصل، ولعل إليه الإشارة بقول إبراهيم

---

(١) الإبريسيم: أحسن أنواع الحرير.

عليه الصلاة والسلام بما أخبر الله تعالى عنه قال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٦]، وليس المعني به هذه الأجسام المضيئة، فإنه كان يراها في الصغر وكان يعلمها ويعلم أنها ليست آلهة، وهي كثيرة وليست بواحدة، وكيف يغتر مثل الخليل بما لا يغتر به آحاد العوام والجهال، ولكن المراد به نور من أنوار الله تعالى، وهي أول الحجب وهي على طريق السالك، ولا يتصوّر الوصول إليه إلا بعبور هذه الحجب، وهي حجب من نور، بعضها أصغر وبعضها أكبر، بقدر القرب والبعد، وأصغر الأنوار السماوية هي الكواكب، فاستعير لفظه لأول تلك الأنوار لأنها أصغر تلك الأنوار، وأعظمها الشمس، وبينهما القمر، فلم يزل إبراهيم لما رأى ملكوت السماء حيث قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآية [الأنعام: ٧٥]، يتصل إلى نور بعد نور، وحجاب بعد حجاب، وكلما ظهر ما ظهر من الأنوار الإلهية وقد شاهد من عظمتها ونورها ظن أنه وصل، فيقول: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٦] فينكشف له بنور النبوّة والتوفيق الإلهي أن وراءه نوراً، فكلما ينكشف له ما بعد ذلك ظهر للأوّل درجة الانحطاط عن ذروة الكمال، ويطلع على أنه له نهاية، فيقول: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] ولا يزال كذلك إلى أن يتجاوز عن كل ما يتناهى، فلما انتهى إلى جناب لا نهاية له، وانقطع طمعه عما دون ذلك، قال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، والسالك لا يصل إلى هذه الأنوار والحجب ما لم يخرج عن حجاب نفسه، وهو أيضاً أمر رباني، بل هو نور من أنوار الله تعالى، أعني سر القلب والروح الذي فيه ينجلي حقيقة الحق، حتى إنه ليتسع بجملة العالم ويحيط به، وتتجلى فيه صورة الكل حتى قيل: إنه اللوح المحفوظ فإذا انتهى إليه السالك فيشرق نوره إشراقاً عظيماً إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه، وهو في أوّل الأمر محجوب بمشكاة هي كالساتر له، كما دل عليه القرآن، فإذا انجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله تعالى ربما التفت صاحب القلب إلى القلب، ويرى من جماله الفائق ما يدهشه فربما سبق في تلك الشك والدهشة لسانه فيقول: أنا الحق، فإن أخذ التوفيق بيده ومدَّته الألطاف الإلهية سار منه، ولم يقف عنده، فهو يعرف بعدُ منازل الأنوار الإلهية، وإلا هلك، فهذا محل الغرور إذ ربما

يلتبس عليه المتجلي والمتجلى فيه كما يلتبس لون ما تراآى في المرآة، فيظن أنه لونها، وكما يلتبس لون ما في الزجاج بالزجاج، كما قيل:

رقَّ الـزجـاج وراقَـتِ الـخـمـر فـتـشـابـهـا فـتـشـاكَـلَ الأمـرُ
فـكـأنـمـا خـمـر ولا قـدحٌ وكـأنـمـا قـدحٌ ولا خـمـرُ

وبهذه العين نظرت النصارى إلى المسيح فرأوا إشراق نور الله قد تلألأ فيه فغلطوا فيه، كمن يتراءى له كوكب في مرآة أو ماء فيظن أن الكوكب في المرآة أو في الماء فيمد اليد إليه ليأخذه وهو مغرور.

وأنواع الغرور في هذا الباب لا تحصى في مجلدات، ولعلّ هذا القدر أيضاً الأولى تركه، إذ السالك لا يحتاج إلى السماع من غيره، والذي لم يذقه لا ينتفع به وبسماعه، بل ربما يستضر به إذ يورثه ذلك دهشة من حيث يسمع ما لا يفهم، ولكن لا يخلو السامع من فائدة ما، وهو أن يسمع فلعله يمده التوفيق فيعلم أن الأمر فوق ما يظنه ويقدره في ذهنه المختصر، وخياله القاصر، وجدله المزخرف، ويصدق أيضاً بما يسمع من الحكايات والمكاشفات التي أخبر عنها الأولياء لله تعالى، ومن غلبت عليه شقوته وأحاطت به خطيئته كذب بهذا كما كذب بما سمع من قبل، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

الصنف الرابع: أرباب الأموال: فمنهم من يبني المساجد والرباطات والقناطر، ويأمر بكتب اسمه عليها، وهو مريد بذلك الصيت والذكر المخلد في الناس، ويطمع بعد ذلك في المغفرة، وهو خطأ وغرور من وجهين:

أحدهما: أنه من الأموال المكتسبة بالظلم والغصب والنهب، وردها إلى ملاكها والإمساك عن أمثالها أولى بهم من ذلك.

والوجه الثاني: أنهم يريدون به الرياء والسمعة حتى لو كلفوا أن ينفقوا ديناراً على موضع لا يكتبون عليه أساميهم لا تسمح به نفوسهم، والله تعالى مطّلع عليه، سواء كتب اسمه أو لم يكتب، فيعلم بذلك أن قصده الرياء والسمعة لا غير.

وفرقة أخرى أموالهم من الحلال بنوا بها المساجد فزخرفوها، وهو مغرور من

وجهين: أحدهما أنه لعله ترك فقيراً جائعاً في جواره وهو أولى بذلك، والآخر أنه يشغل المصلين عن الصلاة بتلك النقوش والزخارف، فغروره من حيث إنه رأى المنكر معروفاً، ويدل عليه ما قاله الحسن رضي الله عنه، قال: لما أراد رسول الله ﷺ أن يبني مسجد المدينة أتاه جبريل عليه السلام فقال: ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء، لا تزخرفه ولا تنقشه[1].

وعلى الجملة فكل من أنفق مالاً على مسكين أو فقير أو موضع فيه خير فليطالب نفسه هل تسمح بالإخفاء؟ فإن لم تسمح فلعلّ فيه رياء وإرادة سمعة.

فإن قلت: فما الحيلة بعد هذا التقسيم؟ فإنك ذكرت أن جميع هذه الفرق لا تخلوا من أنواع الغرور.

فالجواب: أنه لو صحّ منك الهوى أرشدت للحيَل، وإنه يسير على من يسره الله تعالى عليه، فمن يقدر على استخراج الذهب والفضة من المعادن واستصعاد الحوت من أعماق البحر واستنزال الطير من الهواء لا يعجز عما هو أهون منه، فإذا عرف غوائل الأعمال، وعلم أن ما سبق ذكره من الرياء والجاه والصيت في الناس لا يبقى، بل الموت يطوي كل ذلك، وعلم نفسه وذلّها، وعرف ربه وعزته وجلاله، والدنيا وأنها دار الغرور، والآخرة وأنها دار الحَيوان، فما له لا يعمل بعمل لله، ويحترز من آفاته، فإن قلت: فما الذي يخاف عليه بعد ذلك، فأقول: يخاف عليه أن يتسلط عليه الشيطان فيقول: أنت رجل سلمت من هذه الآفات فيجب عليك أن تدعو الخلق إلى ذلك وتنصحهم، وهذا دأب الشيطان فإن من استعصى عليه في الدنيا جاءه من قبل الدين، وقد ذكرنا شرائط الوعظ والنصح، فإن وجد نفسه أهلاً بعد استعمال تلك الشرائط فعل ذلك موفقاً إن شاء الله تعالى.

تم ربع المهلكات

(١) قال الحافظ العراقي: لم أجده. اهـ

الربع الرابع

المنجيات

يتضمن الأبواب التالية:

١ ـ التوبة.

٢ ـ الصبر والشكر.

٣ ـ الرجاء والخوف.

٤ ـ الفقر والزهد.

٥ ـ التوحيد والتوكل.

٦ ـ المحبة والشوق والرضا.

٧ ـ النية والإخلاص والصدق.

٨ ـ المراقبة والمحاسبة.

٩ ـ التفكر.

١٠ ـ الموت وما بعده.

الباب الحادي والثلاثون

في التوبة

وفيه فصول

(وهو الأول من ربع المنجيات)

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم من ثلاثة أمور: علم، وحال، وفعل.

فأما العلم فهو معرفة ضرر الذنوب، وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب، فإذا وجدت هذه المعرفة ثار منها حال في القلب، وهي التألم بخوف فوات المحبوب، وهو الندم، وباستيلائه يثور إرادة التوبة وتلافي ما مضى، فالتوبة ترك الذنب في الحال، والعزم على أن لا يعود، وتلافي ما مضى، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «الندم توبة»[1] إذ الندم يكون بعد العلم كما ذكرنا.

بيان وجوب التوبة وفضلها:

دلّ عليها العقل على ما بينا.

وفضلها: اعلم أن الآيات والأخبار دلت على وجوب التوبة، كما دل العقل

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن ماجه (٤٢٥٢) وابن حبان (٦١٢)، والحاكم (٤/ ٢٤٣) وصحح إسناده من حديث ابن مسعود [وأقره الذهبي]، ورواه ابن حبان (٦١٣) والحاكم (٤/ ٢٤٣) من حديث أنس، وقال: صحيح على شرط الشيخين. اهـ

فيما بيناه، قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ الآية [التحريم: ٨]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: **«التائب حبيب الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له»**(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: **«لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها، حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش ما شاء الله تعالى قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها طعامه وشرابه، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته»**(٢).

وقد أجمعت الأئمة على وجوب التوبة، فإن قلت: فكيف تجب التوبة، وهي ثمرة الندم الحاصل في القلب، وذلك لا يدخل تحت الاختيار؟ قلنا: إنَّه يدخل سببه تحت الاختيار، وهو طلب عمله، ولذلك قلنا: وجب العلم، لأنه داخل في التوبة الواجبة، لا إن العبد يحدثه، بل العلم والندم والفعل والإرادة والقدرة من القادر، فالله تعالى خلقكم وما تعملون، فهذا هو الحق عند ذوي البصائر، وما عداه فهو ضلال، فإن قلت: أليس للعبد اختيار في الفعل والترك؟ قلنا: نعم، وهذا لا يناقض قولنا إن الكل من عند الله، بل الاختيار أيضاً من خلق الله تعالى، والعبد مضطر في اختياره، فإن الله تعالى إذا خلق اليد الصحيحة، وخلق الطعام اللذيذ، وخلق الشهوة للطعام في المعدة، وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام مسكن للشهوة، وخلق الخواطر المتعارضة في أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن ماجه (٤٢٥٠) من حديث ابن مسعود بالشطر الثاني دون الأول، وأما الشطر الأول فروى ابن أبي الدنيا في (التوبة)، وأبو الشيخ في كتاب (الثواب) من حديث أنس بسند ضعيف: **«إن الله يحب الشاب التائب»**، ولعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (١/ ٨٠-١٠٣) وأبو يعلى بسند ضعيف من حديث علي: **«إن الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب»**. اهـ والبيهقي في الشعب من حديث علي موقوفاً(٧١٢٢).

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤).

الشهوة؟ وهل دون أن يتناوله مانع يتعذر معه تناوله أوْ لا؟ ثم خلق العلم بأنه لا مانع، فعند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الإرادة الباعثة على التناول، فهذه الأمور مترتبة في سُنَّة الله تعالى، فلا يخلق مثلاً حركة اليد بكتابة منظومة ما لم يخلق صفة تسمى قدرة وما لم يخلق فيها حياة، وما لم يخلق إرادة مجزومة، ولا يخلق الإرادة المجزومة ما لم يخلق شهوةً وميلاً في النفس، ولا ينبعث هذا الميل ما لم يخلق علماً بأنه موافق للنفس في الحال أو المآل، ولا يخلق العلمَ أيضاً إلا بأسباب أُخر ترجع إلى قدرة وإرادة وعلم، فالعلم والميل الطبيعي أبداً يستتبع الإرادة الجازمة، والإرادة والقدرة أبداً تستردف الحركة، وهكذا الترتيب في كل فعل، والكل مخلوق لله تعالى، ولكن البعض شرط للبعض، وذلك سنة الله تعالى التي خلت في عباده وفي قضائه الذي هو كلمح البصر، ترتيباً كلياً لا يتغير، وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]، ومن جملة القدر خَلْق حركة في يد الكاتب بعد خَلْق القدرة والقصْد والعلم والإرادة، فإذا ظهرت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسَخّر تحت قهر التقدير سبق أهل علم المُلْك والشهادة، والمحجوبون عن عالم الغيب والملكوت قالوا: أيها الرجل قد تحركت وكتبت ورميت، ونودي من وراء حجب الغيب وسرادقات الملكوت: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، ﴿قَتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، وعند هذا تحيرت عقول القاعدين في بحبوحة عالم الشهادة، فمن قائل: إنه جبر محض، ومن قائل: إنه اختراع صِرْف، ومن متوسط قائل: إنه كسب، ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم أن كل واحد منهم صادق من وجه ولكن القصور شامل لجميعهم، فلم يدرك واحد منهم كُنْهَ هذه الأمور، وإنما يدرك ذلك بإشراق النور من كُوَّة نافذة إلى عالم الغيب، وإنه تعالى عالم الغيب والشهادة لا يُطلع على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول، ومن حرَّك سلسلة الأسباب والمسببات، وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناط تسلسلها بمسَبِّب الأسباب انكشف له سر القدر، وعلم علماً يقيناً أن لا خالق إلا الله ولا مبدع سواه، فإن قلت: قد قضيت بأن كل هؤلاء في الجبر والاختراع والكسب صادق من وجه، قاصر من وجه، فأقول: نعم، وذلك أعرِّفك بمثال، فأقول: جماعة من العميان سمعوا أنه حُمِل إلى بلدهم حيوان عجيب يسمّى الفيل، وما

كانوا سمعوا به ولا رأوه، فقالوا: لابد لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذي نقدر عليه، فجاؤوا إليه ولمسوه، فوقع يد بعضهم على رجله، ووقع يد بعضهم على نابه، ووقع يد بعضهم على أذنه، فقالوا: قد عرفنا، فلما انصرفوا سألهم بقية العميان، فاختلفت أجوبتهم، فقال الذي لمس الرِّجل: ما هو إلا مثل أُسطوانة خشنة إلا أنه ألين منه، وقال الذي لمس الناب: ليس كما تقول بل هو صُلب لا لِين فيه،وأملس لا خشونة فيه، وليس فيه غلظ الأُسطوانة أصلاً، بل هو مثل عمود، وقال الذي لمس الأذن: إنما هو مثل كِسَاء، فالآن قد صدق كل واحد منهم إذ أخبر عما وصل إليه من الفيل، ولم يخرج أحد عنه، ولكن أخطؤوا إذ ظنوا أنهم أدركوا الكل، فاعتبرْ بهذا فإنه مثال أكثر ما اختلف فيه الناس.

ونرجع إلى الغرض فنقول: قد بينَّا وجوب التوبة بثلاثة أجزائها، والآن نقول: هو واجب على الفور، لأن الخلع عن المعاصي واجب على الدوام، وكذلك طاعة الله واجبة على الدوام، وقال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [النور: ٣١]، وبه تعلم أيضاً أنه واجب على جميع الناس على العموم، وذلك لأنه لا يخلو أحد عن ذنب يصيبه إما بالجوارح أو بالخواطر، وأقله الذهول والغفلة عن الله تعالى، والتوبة عنه شأن الأنبياء والصديقين، وشأن من لم يرض من حياته بمجرد الوجود بلا فائدة، وأما الأولياء الذين شرح الله صدورهم للإسلام وكتب في قلوبهم الإيمان فقد علموا أن كل نَفَسٍ من أنفاسهم جوهرة نفيسة لا قيمة لها، حتى أن الدنيا وما فيها لو قُوبلت بنَفَس لم تبلغ قيمته، فحافظوا على أوقاتهم، وغيرُهم تاهوا في غفلاتهم، حتى إذا جاء أحدهم الموتُ ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠،١١]، ومعناه أن يقول العبد عند كشف الغطاء: يا ملك الموت أخِّرني يوماً أعتذر فيه إلى ربي، فأتوب وأتزوّد صالحاً لنفسي، فيقول: فنيت الأيام فلا يوم، فيقول أخرني ساعة، فيقول: فنيت الساعات فلا ساعة،فيغلق عليه باب التوبة، فيغرغر بروحه، وتتردّد أنفاسه في شراسيفه[1]، ويتجرع غصة اليأس عن التدارك، وحسرة الندامة على تضييع العمر، فيضطرب ـ والعياذ بالله ـ إيمانه في صدمات تلك الأهوال، فإذا زهقت نفسه فإن كانت سبقت

(١) الشراسف: عظام الحلق.

له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد، فذلك حسن الخاتمة، وإن سبق له القضاء بالشقاوة ـ والعياذ بالله ـ خرجت روحه على الشك والاضطراب، وذلك سوء الخاتمة، ولمثل هذا قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء: ١٨]، الآية لمثل هذا، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]، ومعناه أن يتبع السيئة بالحسنة تمحوها كما ورد في الخبر(١).

بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة:

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك أن كل توبة صحت فلابد أنها مقبولة، فالناظرون بنور البصيرة إلى أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم عند الله تعالى مقبولٌ مستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى، وعلموا أن القلب خُلِقَ سليماً في الأصل، وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها، وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة، وأنه لا طاقة لظلمة المعاصي مع نور الحسنات، كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار، وكما لا تبقى كدورة الوسخ مع بياض الصابون لا تبقى الذنوب مع نور التوبة والاستغفار والندم إلا أن يكون ـ والعياذ بالله ـ قد أفسدت الذنوب جرم القلب لكثرتها ودوامها، كما قال الله تعالى في حق الكفار: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]، وكما قال الله تعالى: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٩٣]، وذلك في حق الكفار والمنافقين، أما المسلمون فلا، قال عليه الصلاة والسلام: «**لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم**»(٢).

بيان ما عنه التوبة:

وهي الذنوب كلها، وقد علمت ذلك فيما سبق ذكره في الصفات المذمومة،

---

(١) رواه الترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر، وقال: حسن صحيح.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه ابن ماجه (٤٢٤٨) من حديث أبي هريرة، وإسناده حسن بلفظ: «**لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب عليكم**»اهـ

وما يتولد منها من الأعمال، فالتوبة عن الكبائر والصغائر جميعاً، وقد قيل: لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار، فإذا عرفت ذلك فاعلم أن ما يتعلق به حق الغير لا تصح التوبة عنه إلا بتحكيمه وتفويض الأمر إليه، كالقصاص والمظالم وأنواع الغرامات وحد القذف، هذا لمن أراد التوبة، ومن امتنع عنها فطريق حل عقدة الإصرار عن قلبه أن نخوفه بما ورد من الآيات والأخبار في أحوال المذنبين، ونذكره بحال من مات على الفسق والتسويف قبل التوبة وعقوبته، ونبين له أن العقوبة قد تعجل في الدنيا، حتى إنه إن كان أعمى عن عقوبة الآخرة فلعله أن يخاف الخذلان في الدنيا، والله أعلم بالصواب.



الباب الثاني والثلاثون

في الصبر والشكر

اعلم أن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر[1]، على ما شهدت به الأخبار والآثار.

أما الصبر: فقد قال الله تعالى في الثناء عليه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾[السجدة: ٢٤]، وقال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [النحل: ٩٦].

وسئل عليه الصلاة والسلام عن الإيمان فقال ﷺ: «**الصبر والسماحة**»[2]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**الصبر كنز من كنوز الجنة**»[3].

بيان حقيقة الصبر: اعلم أنه مركب من العلم والحال والعمل، فالعلم فيه كالشجرة، والحال كالأغصان، والعمل كالثمار، فتعلم أن المصلحة الدينية في

(١) قال الحافظ العراقي: رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس(٣٧٨) من رواية يزيد الرقاشي عن أنس، ويزيد ضعيف.اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني في (مكارم الأخلاق) وابن حبان في (الضعفاء)(٣/ ١٣٥) وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعيف، ورواه الطبراني في (الكبير) من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده.اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: غريب لم أجده.اهـ

الصبر، فتورث ذلك قوة وداعية متقاضية لفعل الصبر، وذلك إما على عبادة أو عن إمضاء شهوة، وهو في جميع الأحوال مدفوع إلى نوع من الصبر حتى لا يتجاوز في المباحات عن حد الاعتدال إلى حد الإسراف، وأما الصبر على العبادة بأن يعلم أنه يصبر أياماً قلائل، ويسعد في مقابلته أبد الآبدين، ويحتاج فيه إلى الصبر عن إفشائه وإفساده بالرياء، وأعظم الصبر ما يلزمه في الإمساك عن الشهوات، والاسترسال على موجبها كما سبق ذكره، ومما يلزمه الصبر عليه هو أن يجني عليه إنسان بقول أو فعل، قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: ما كنا نعد إيمان الرجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى، وقال تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، وهذا الصبر تارة على نفس الفعل واحتماله، وتارة على المكافأة، وفيها تمام الإيمان.

القسم الآخر: ما يهجم من غير اختيار، كالمصائب من الأمراض وذهاب العين وفساد الأعضاء وموت الأعزاء، قال ابن عباس رضي الله عنه: الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه: صبر على أداء الفرائض لله تعالى، فله ثلاثمائة درجة، وصبر عن محارم الله تعالى، وله ستمائة درجة، وصبر في المصيبة عند الصدمة الأولى، وله تسعمائة درجة. وقد قيل: إن الصبر الجميل هو أن لا يعرف من صاحب المصيبة، ولا يمكن الوصول إلى هذا إلا برياضة طويلة في مدة مديدة، والله أعلم.

أما الشكر: ففضيلته أن الله تعالى قرنه بالذكر مع أنه قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

ومن الأخبار قوله عليه الصلاة والسلام: «**الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر**»[(١)]، وحقيقة الشكر أن يعرف أنه لا منعم إلا الله تعالى، ثم إذا عرفت

---

(١) قال الحافظ العراقي: علّقه البخاري (في الأطعمة/باب٥٦)وأسنده الترمذي (٢٤٨٦) وحسَّنه، وابن ماجه(١٧٦٤)، وابن حبان(٣١٥) من حديث أبي هريرة، ورواه ابن ماجه(١٧٦٥) من حديث سنان ابن سَنَّة وفي إسناده اختلاف. اهـ

تفاصيل نعمة الله عليك في أعضائك وجسدك وروحك وجميع ما تحتاج إليه من أمور معيشتك ظهر في قلبك فرح بالله تعالى وبنعمته وبفضله عليك، ثم تحرص في العمل بموجبه، وذلك بالقلب واللسان وسائر الجوارح.

أما بالقلب فبأن يضمر الخير لجميع الخلق، ويحضره أبداً في ذكر الله تعالى، فلا ينساه.

وأما باللسان فتظهر به الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه.

وأما بالجوارح فباستعمال نعم الله تعالى في طاعته، والتوقي من الاستعانة بنعمته على معصيته، فشكر العينين أن تستر كل عيب تراه من مسلم، ولا تنظر بها إلى المعاصي، وشكر الأذنين أن تستر ما تسمع من العيوب، ولا تسمع بهما إلا ما أباح لك، وقد قال ﷺ لرجل: «**كيف أصبحت؟**» قال: بخير، فأعاد السؤال، فأعاد الجواب، حتى قال في الثالثة: بخير أحمد الله تعالى وأشكره، قال عليه الصلاة والسلام: «**هذا الذي أردت منك**»[1]، وكل أحد إذا سئل عن شيء فهو بين أن يشكر فيكون به مطيعاً، أو يشكو فيكون به عاصياً، فإن قال قائل: ما معنى الشكر والشكر نعمة ثانية من الله تعالى؟ فنقول: هذا السؤال قد خطر ببال داود وموسى عليهما السلام، فقال موسى عليه السلام: كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك؟ فأوحى الله تعالى إليه: إذا عرفت هذا فقد شكرتني، وفي خبر آخر: إذا عرفت أن النعم مني رضيت بذلك منك شكراً.

فإن قلت: لم أفهم هذا الجواب، فإن العلم أيضاً نعمة منه ثالثة، فاعلم أن هذا قرع باب من التوحيد، وهو أنه الشاكر والمشكور، والمحب والمحبوب، ولا شيء في الوجود سوى الله، وأن كل شيء هالك إلا وجهه، وهذا صدق أزلاً وأبداً، إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى له قيام بذاته، فهو القائم بذاته، وكل ما سواه

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني في (الدعاء) (١٩٣٩) من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعاً نحوه: «**قال في الثالثة: أحمد الله**» وهذا معضل، ورواه في «المعجم الكبير والأوسط» (٤٣٧٧) من حديث عبد الله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال: «**أحمد الله إليك**» وفيه رشدين بن سعد ضعفه الجمهور لسوء حفظه، ورواه مالك في (الموطأ) (٢/ ٩٦١) موقوفاً على عمر بإسناد صحيح. اهـ

فقائم به، فهو القيوم الحي، فإذاً ليس في الوجود غير القيوم الحي، فهو الشاكر والمشكور، والمحب والمحبوب، ومن هنا نظر حبيب بن أبي حبيب[1]، حيث قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، فقال: واعجباه أعطى وأثنى. أشار إلى أنه إذا أثنى على عطائه فعلى نفسه أثنى، فهو المثني وهو المثنى عليه، ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهني[2]، حيث قُرِئَ بين يديه: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، فقال: لعمري يحبهم، ودعه يحبهم، فبحق يحبهم، لأنه إنما يحب نفسه.

أشار به إلى أنه المحب، وأنه المحبوب، وهذه رتبة عالية لا تصل إلى فهمك إلا بمثال على قدر عقلك، وذلك أنه لا يخفى عليك أن المصنف إذا أحب تصنيفه فقد أحب نفسه، والصانع إذا أحب صنعته فقد أحب نفسه، والوالد إذا أحب ولده من حيث إنه ولده فقد أحب نفسه، وكل ما في الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله وصنعته، فإن أحبه فما أحب إلا نفسه، وهذا نظر بعين التوحيد، وإليه الإشارة بقول الصوفية حيث يقولون: فني عن نفسه وعن غير الله تعالى، فلم ير إلا الله تعالى، والناس لا يفهمون هذا، فينكرون عليهم، ويقولون كيف فني وطول ظله كما كان وهو في اليوم والليلة يأكل أرطالاً من الطعام؟ ويضحكون عليهم من جهلهم، وشرط العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾، الآية [المطففين: ٢٩].

رجعنا إلى ما كنا فيه، فنقول: الشكر هو استعمال النعمة في الطريق الذي خلق له، ومثاله: إنَّ ملكاً بَعَثَ إلى بعض غِلمانه فرساً بجميع ما يحتاج إليه ليركب إليه، فإنْ ركبه إليه واستعمله في الطريق الذي بعث له كان مستعملاً للنعمة فيما هي له، وإن ركبه وتباعد عن الملك وهرب منه فهو سَفَهٌ وكفران للنعمة، فافهم تغنم، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

---

(١) هو: حبيب بن أبي حبيب البجلي، البصري، أبوعمرو، نزيل الكوفة، صدوق روى له الترمذي (إتحاف السادة المتقين: ٩/ ٧).

(٢) هو: أبو سعيد فضل بن أبي الخير محمد بن أحمد، المِيْهَني، الصوفي، له أحوال ومناقب، ووقع في النفوس وجلالة، توفي سنة ١٤٤ هـ (سير أعلام النبلاء: ١٧/ ٦٢٢).

١٤

الباب الثالث والثلاثون

في الرجاء والخوف

اعلم أن الرجاء والخوف من مقامات السالكين وأحوال الطالبين، وإنما يسمَّى الوصف حالاً ما دام يعرض ويزول، ويسمَّى مقاماً إذا ثبت، فنقول:

اعلم أن المنتظَر فيما بعد إذا كان مما يتألم به القلب سمي خوفاً، وإذا كان مما يفرح به القلب سمي رجاءً، فإذاً الرجاء ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب ولكن لابد وأن يكون له سبب، فإذا كان قد حصل أكثر أسبابه فيصدق اسم الرجاء عليه، وإن كان انتظاراً مع انخرام أسبابه فاسم الغرور عليه أصدق، وإن تعادل طرفا حصول الأسباب وانتفائها كان اسم التمني عليه أصدق، وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطاعات جارية مجرى سقي الماء وقلب الأرض وإمدادها بما يقويها، والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر، ويوم القيامة يوم الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان، وقلما ينمو الإيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه، كما لا ينمو بذر في الأرض السبخة، فمن استجمعت له الأسباب من الأرض الطيبة والماء والمدد وتطهير الأرض كما سبق، وألقى فيها بذراً جيداً ثم انتظر الحصاد راجياً من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة فهذا له وجه، ويسمى رجاء، وإن بث البذر في الأرض الصلبة السبخة التي لا ماء لها، وانتظر الحصاد، فهذا يسمى غروراً، وإن بث البذر في

أرض طيِّبة ولكن لا ماء لها، وانتظر الحصاد اعتماداً على ماء المطر، فهذا يسمَّى تمنِّياً، فقد تبين لك أن من زرع الإيمان في قلبه، وسقاه بماء الطاعات، وطهَّر القلب عن الخبائث كما تطهر الأرض عن الشوك والحشيش، فله أن يرجو، وما دون ذلك فتمنٍ أو غرور، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**»[1]، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن مثل ذلك فقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، بيَّن أن هذا الرجاء لا أصل له إذا لم يتقدَّم عليه ما ينبغي أن يتقدم، ويدل عليه أيضاً ما روي عن زيد الخيل أنه قال لرسول الله ﷺ: جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد، فقال ﷺ: «**كيف أصبحت**»؟ قال: أصبحتُ أُحب الخير وأهله، وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه، وأيقنت بثوابه، وإن فاتني شيء منه حزنت عليه، وحننت إليه، فقال ﷺ: «**هذه علامة الله فيمن يريد، ولو أرادك للأخرى هيأك لها، ثم لا يبالي في أي أوديتها هلكت**»[2]، فقد ذكر ﷺ علامة من أريد به الخير، ويحصل منه الرجاء.

بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه:

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف، لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبُّهم إليه، والحب يغلب بالرجاء، فإن رجاء الخير يقرِّب ويحبِّب، والخوف موجب للهرب، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله**»[3] ودخل ﷺ على رجل وهو في النزع فقال: «**كيف تجدك؟**» فقال: أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي، فقال ﷺ: «**ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله تعالى ما رجا، وآمنه مما يخاف**»[4].

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (٢٤٥٩) وقال: حسن، وابن ماجه (٤٢٦٠) من حديث شداد بن أوس. اهـ

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٤/١٠٩).

(٣) رواه مسلم (٢٨٧٧) من حديث جابر.

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (٩٨٣)، وقال: غريب، والنسائي في الكبرى (٧٩٠١)، وابن ماجه (٤٢٦١) من حديث أنس، وقال النووي: إسناده جيد. اهـ

فصل:

اعلم أن من غلب عليه اليأس حتى أورثه القنوط، أو غلب عليه الخوف حتى أضرَّ بنفسه وأهله، فهذان يحتاجان إلى المعالجة بالمداواة، وأما من غلب عليه الأماني فأسباب الرجاء سمٌّ قاتل في حقه، فهو كالعسل فيه شفاءٌ لمن غلبت عليه البرودة، فإن تناوله المحرور هلك، فمن غلب عليه التمني وأسرف في المعاصي فهو جدير بأن يعالج بما يورث الخوف، ومن غلب عليه الخوف عولج بالرجاء، فهما شطران يسقى بكل واحد منهما من له حالة مخصوصة، قال علي رضي الله عنه: إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم من مكر الله، ولما كان العلماء ورثة الأنبياء كانوا أطباء القلوب، واستعملوا ما كان لائقاً بحال كل مريض.

ومن الدواء النافع في جلب الرجاء أن يتأمل الإنسان فيما أنعم الله تعالى به عليه من صحة البدن وسلامة الأعضاء، ثم بعثة الأنبياء لهدايته، ثم خلق الأطعمة والأشربة والأدوية لإصلاحه، ومما يقوي أسباب الرجاء ما قاله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [الشورى: ٥]، وقال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ﴾ [الزمر: ١٦]، بيّن أنه يخوّف المؤمنين إلا أنها للكافرين لأنها خلقت لهم، وقد روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**أمتي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة**»(١)، والآيات والأخبار الواردة في هذا الباب أكثر من أن تُحصى، وقد ورد في حديث طويل عن أنس رضي الله عنه أن الأعرابي لما قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله من يلي حساب الخلق يوم القيامة؟ قال: «**الله عز وجل**»، فقال: هو بنفسه، قال: نعم، فتبسم الأعرابي، فقال رسول الله ﷺ: «**مم ضحكت يا أعرابي؟**» فقال: إن الكريم إذا قدر عفا، وإذا

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٧٨).

حاسب سامح، قال النبي ﷺ: «صدق الأعرابي، ألا ولا كريم أكرم من الله تعالى، وهو أكرم الأكرمين»، ثم قال ﷺ: «فَقُهَ الأعرابي»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «قال الله تعالى: سبقت رحمتي غضبي»[2].

الشطر الثاني: في الخوف:

وقد بينا معنى الخوف:

اعلم أن الخوف والرجاء زمامان يقاد بهما من لم يظهر لقلبه جمال الحق، فمن شاهد بقلبه ذلك الجمال ترقى عن الخوف والرجاء، وإليه الإشارة بقول الواسطي[3]: الخوف حجاب بين الله وبين العبد، وقال أيضاً: إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضيلة لا لرجاء ولا لخوف.

وعلى الجملة إذا وصل المحب إلى جمال المحبوب فالتفاته إلى خوف الفراق مضيع للوصال، ولكنا نتكلم في أوائل المبدأ، فعند هذا نقول دواء جلب الخوف أن ينظر ويتأمل في الآيات الواردة في شدة العذاب والحساب، والأخبار الواردة في ذلك، ويتأمل أيضاً حال نفسه بالنسبة إلى جلال الله وعظمته، وقوله تعالى: «**هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي**»[4]، ويعلم أنه بجنايته وتركه أوامر الله تعالى وارتكابه المناهي مستحق للعقاب الأليم، والله تعالى لو أهلك العالمين فهو لا يبالي، وهذا المسكين قد ارتكب الجرائم والآثام فهو أولى بأن يخاف، فإنه إن أهلك لم يبال به، كيف وسيد المرسلين صلوات الله عليهم يقول: «**أنا أعلمكم بالله وأخشاكم لله**»[5]، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود خفني كما تخاف السبع الضاري، وحقيقة السبع أنه مهلكك ولا

---

(١) قال الحافظ العراقي: لم أجد له أصلاً. اهـ

(٢) رواه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).

(٣) هو: **أبو الحسن بنان بن محمد الحمال الواسطي**، نزيل مصر، والمتوفى بها سنة ٣١٦هـ، كان كبير الشأن، صاحب الكرامات «طبقات الصوفية» (ص: ٢٩١).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (١٨٦/٤).

(٥) رواه البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦).

يبالي، وقد قال ﷺ: «**من خاف من الله خافه كل شيء، ومن خاف غير الله خاف من كل شيء**»(١)، وقالت عائشة رضي الله عنها: قلت يا رسول الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أهو الرجل يسرق ويزني؟ قال: «**لا بل يصوم ويتصدق ويصلي، ويخاف أن لا يقبل منه**»(٢)، وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**ما من عبد مؤمن يخرج من عينيه دموع وإن كانت مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى ثم يصيب شيئاً وقت خروجه إلا حرمه الله على النار**»(٣).

بيان أحوال الأنبياء في الخوف:

روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه، ويقوم ويتردد في الحجرة، ويدخل ويخرج(٤)، كل ذلك خوفاً من عذاب الله تعالى، وقرأ عليه الصلاة والسلام آية في سورة الحاقة فصعق(٥)، وقال تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ورأى رسول الله ﷺ صورة جبريل في الأبطح فصعق(٦)، وقال ﷺ: «**ما جاءني جبريل قط إلا وهو يرعد خوفاً**

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه أبو الشيخ ابن حيان في كتاب (الثواب) من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جداً، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب (الخائفين) من رواية الحسن مرسلاً. اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، والحاكم (٢/ ٣٩٣)، وقال: صحيح الإسناد. قلت: بل منقطع بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب، قال الترمذي: وروي عن عبد الرحمن بن سعد عن أبي حازم عن أبي هريرة. اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني [في الكبير (٩٧٩٩)] والبيهقي في (الشعب) (٨٠٢) من حديث ابن مسعود بسند ضعيف. اهـ

(٤) رواه البخاري (٣٢٠٦)، ومسلم (٨٩٩) بنحوه.

(٥) قال الحافظ العراقي: المعروف فيما يروى من هذه القصة أنه قرئ عنده: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾ [المزمل: ١٢، ١٣] فصعق، كما رواه البيهقي في (الشعب) (٩١٧) مرسلاً. اهـ

(٦) رواه البزار من حديث ابن عباس بسند جيد: «**سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته فقال: ادع ربك فدعا ربه فطلع عليه من قبل المشرق فجعل يرتفع ويسير فلما رآه صعق**» رواه الطبراني في الكبير (١١٠٣٣) وابن المبارك من رواية الحسن مرسلاً بلفظ «فغشي عليه».

من الجبار جل جلاله»[1]، وقيل: لما ظهر على إبليس ما ظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان، فأوحى الله تعالى إليهما: ما لكما تبكيان كل هذا البكاء؟ فقالا: يا رب ما نأمن من مكرك، فقال الله تعالى: هكذا كونا لا تأمنا مكري.

وقال أبو الدرداء: كان يُسمَعُ أزير قلب [إبراهيم] خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام إذا قام في الصلاة من مسيرة ميل خوفاً من ربه.

وقال مجاهد رضي الله عنه: بكى داود عليه السلام أربعين يوماً ساجداً لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموعه، وحتى غطس رأسه، فنودي: يا داود أجائع أنت فتطعم؟ أم ظمآن فتسقى؟ أم عارٍ فتكسى؟ فتنفس الصعداء فاحترق العود من حَرِّجوفه، فأنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة، فقال: يا رب اجعل خطيئتي في كفِّي، فصارت خطيئته في كفه مكتوبة، فكان لا يبسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيرهما إلا رآها فأبكته، قال: وكان يؤتى بالقدح ثلثاه ماء، فإذا تناوله أبصر خطيئته، فلا يضعه على شفته حتى يفيض من دموعه.

وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه ما رفع رأسه إلى السماء حتى مات حياء من الله تعالى.

وكان يقول في مناجاته: إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت عليَّ الأرض برحبها، وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إليَّ روحي، سبحانك، إلهي أتيت أطباء عبادك ليداووا خطيئتي فكلهم عليك يدلني، فبؤساً للقانطين من رحمتك.

وقال الفضيل رحمة الله عليه: بلغني أن داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صارخاً واضعاً يده على رأسه حتى لحق بالجبال، فاجتمعت إليه السباع، فقال: ارجعوا فلا أريدكم إنما أريد كل بَكَّاء على خطيئته، فلا يستقبلني إلا بالبكاء، ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء، وكان يعاتَب في كثرة

---

(١) قال الحافظ العراقي: لم أجد هذا اللفظ، وروى أبو الشيخ في كتاب (العظمة) (٢/ ٧٩٠) عن ابن عباس، قال: «**إن جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ترتعد فرائصه فرقاً من عذاب الله** . . .» الحديث، وفيه زميل بن سماك الحنفي يحتاج إلى معرفته. اهـ

البكاء، فيقول: دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء، قبل تحرق العظام واشتعال الحشا، وقبل أن يؤمر فيَّ ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وقال عمر بن عبد العزيز: لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته، فقال: إلهي بُحَّ صوتي في صفاء أصوات الصدِّيقين.

وروي أنه عليه الصلاة والسلام لما طال بكاؤه ولم ينفعه ذلك فضاق ذرعه واشتد غمُّه، قال: يا رب أما ترحم بكائي، فأوحى الله تعالى إليه: يا داود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك، فقال: إلهي وسيدي كيف أنسى ذنبي وكنتُ إذا تَلَوتُ الزبور كف الماء الجاري عن جريه، وسكن هبوب الريح، وأظلني الطير على رأسي، وأنست الوحوش إلى محرابي، إلهي وسيدي فما هذه الوحشة التي بيني وبينك، فأوحى الله تعالى إليه يا داود ذاك أنس الطاعة، وهذه وحشة المعصية، يا داود آدم خَلْقٌ من خَلْقِي، خلقته بيدي، ونفخت فيه من روحي، وأسجدت له ملائكتي؟، وألبسته ثوب كرامتي، وتوجته بتاج وقاري، وشكا إليَّ الوحدة فزوجته بحواء أَمَتي، وأسكنته جنتي، فلما عصاني طردته عن جواري عرياناً ذليلاً، يا داود اسمع مني والحقَّ أقول، أطعتنا فأطعناك، وسألتنا فأعطيناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك.

وقال يحيى بن أبي كثير[1]: بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعاً لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، ولا يقرب النساء، فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له منبر إلى البرية، فيأمر سليمان أن ينادي بصوت يستغرق البلاد وما حولها من الغياض والآكام والبراري، وتأتي السباع من الغياض وتأتي الهوام من الجبال، وتأتي الطير من الأوكار، وتأتي العَذَارى من خدورهن، وتجتمع الناس لذلك اليوم، ويأتي داود عليه السلام حتى يرقى على المنبر، ويحيط به بنو إسرائيل، وكل صنف على حدته محيطون به، وسليمان عليه السلام قائم على

(١) هو: **يحيى بن أبي كثير، أبو نصر الطائي**، الإمام الحافظ الحجة، روى عن أبي أمامة الباهلي وعن أنس بن مالك، توفي سنة ١٢٩ هـ (سير أعلام النبلاء: ٦/٢٧).

رأسه، فيأخذ في الثناء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فيموت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع، ثم يأخذ من أهوال يوم القيامة وفي النياح على نفسه، فيموت من كل نوع طائفة، فإذا رأى سليمان عليه السلام كثرة الموتى قال: يا أبتاه قد مزقت المستمعين كل ممزق، وماتت طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والهوام، فيأخذ في الدعاء فبينما هو كذلك إذ ناداه بعض عبَّاد بني إسرائيل: يا داود عجلت بطلب الجزاء على ربك، قال: فخر داود مغشياً عليه، فلما نظر سليمان عليه السلام إلى ما أصابه أتى بسرير فحمله عليه، ثم أمر منادياً ينادي: ألا من كان له مع داود قريب أو حميم فليأت بسريره فليحمله عليه، فإن الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار، وكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها، وتقول: يا من قتله ذكر النار، يا من قتله خوف الله تعالى، ثم أفاق داود عليه السلام، ووضع يده على رأسه، ودخل بيت عبادته، وأغلق بابه، وقال: يا إله داود أغضبان أنت على داود؟ ولا يزال يناجي حتى يأتي سليمان عليه السلام ويقعد على الباب ويستأذن، ثم يدخل ومعه قرص شعير، ويقول: يا أبتاه تقوَّ بهذا على ما تريد فيأكل من ذلك القرص ما شاء الله تعالى، ثم يخرج إلى بني إسرائيل فيكون بينهم.

وقال يزيد الرقاشي(١): خرج داود ذات يوم بالناس يعظهم ويخوفهم، فخرج في أربعين ألفاً، فمات ثلاثون ألفاً، وما رجع إلا في عشرة آلاف، وكان له جاريتان اتخذهما حتى إذا جاءه الخوف وسقط واضطرب قعدتا على صدره ورجليه مخافة أن تتفرق أعضاؤه.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لطير: ليتني كنت مثلك يا طير ولم أخلق بشراً.

وقال أبو ذر: وددت أني شجرة تُعضد.

وقال عثمان رضي الله عنه: وددت أني إذا مت لم أبعث.

(١) هو: **يزيد بن أبان الرقاشي البصري، أبو كلمة القاصّ**، زاهد ضعيف روى له البخاري في (الأدب المفرد)، والترمذي، وابن ماجه. اهـ «تهذيب الكمال» (٣٢/ ٦٤).

وقالت عائشة رضي الله عنها: وددت لو كنت نسياً منسياً.

وكان في وجه عمر رضي الله عنه خطان أسودان من الدموع، وقال عمر رضي الله عنه: من خاف الله لم يشف غيظه، ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون.

وقال علي رضي الله تعالى عنه ذات يوم، وقد سلم من صلاة الفجر، وقد علاه كآبة وهو يقلب يده: لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فلم أر اليوم شيئاً يشبههم، لقد كانوا يصبحون صفراً شعثاً غبراً، بين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله، يزاوجون بين جباههم وأقدامهم، وإذا أصبحوا ذكروا الله، مادوا كما تميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبلّ ثيابهم، والله كأني بالقوم باتوا غافلين، ثم قام فما رؤي بعد ذلك ضاحكاً حتى ضربه ابن ملجم. وكان عمر رضي الله تعالى عنه إذا سمع آية من القرآن يسقط من الخوف مغشياً عليه، فكان يعاد أياماً، وأخذ يوماً تبنة من الأرض فقال: يا ليتني كنت هذه التبنة، يا ليتني لم أك شيئاً مذكوراً، يا ليتني لم تلدني أمي، يا ليتني كنت نسياً منسياً، وكان علي بن الحسين رضي الله عنه إذا توضأ اصفر لونه، فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟.

وروي أن الفضيل[١] رضي الله عنه رؤي يوم عرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة، حتى إذا كادت الشمس تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: واسوأتاه منك وإن غفرت لي، ثم انقلب مع الناس.

وسئل ابن عباس رضي الله عنه عن الخائفين، فقال: قلوبهم من الخوف قرحة، وأعينهم باكية، يقولون: كيف نفرح والموت وراءنا، والقبر أمامنا، والقيامة موعدنا، وعلى جهنم طريقنا، وبين يدي ربنا موقفنا؟

وكان حماد بن عبد ربه إذا جلس جلس مستوفزاً[٢] على قدميه، فيقال له: لو اطمأننت، فيقول: تلك جلسة الآمنين، وأنا غير آمن إذا عصيت الله عز وجلّ.

---

(١) الفضيل بن عياض: سبقت ترجمته في صفحة (١٠٨).

(٢) مستوفزاً: غير مطمئن، كأنه يريد القيام.

وقال عمر بن عبد العزيز: إنما جعل الله تعالى هذه الغفلة رحمة في قلوب عباده كيلا يموتوا من خشية الله تعالى.

وروي أن فتى من الأنصار دخلته خشية من النار، فدخل النبي ﷺ فاعتنقه فخرَّ ميتاً، فقال ﷺ: «**جهزوا صاحبكم فإن الفَرَق فتت كبده**»[1]، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.



(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في (الخائفين)، من حديث حذيفة، والبيهقي في (الشعب) (٩٣٦) من حديث سهل بن سعد بإسنادين فيهما نظر. اهـ

الباب الرابع والثلاثون

في الفقر والزهد

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥].

اعلم أن الفقير من احتاج إلى ما ليس يملك، والناس كلهم فقراء إلى الله تعالى لأنهم محتاجون إليه في دوام وجودهم، وابتداءُ وجودهم منه، وليس لهم ذلك بل ذلك لله تعالى، فهو الغني المطلق، ونحن الآن نذكر فقير المال، وهو أن لا يكون له مال يحتاج إليه لمعيشته، وللفقير أحوال:

فمنها: أن يكون كارهاً لوجود المال، هارباً منه، وهو الزاهد.

الثاني: أن يكون بحيث لا يهرب منه ولا يرغب فيه، ولكن إذا وجد لا يكرهه، وهو الراضي.

الثالث: أن يكون وجود المال أحب إليه من فقده إذا جاءه عفواً وصفواً ولكن لا ينهض للطلب.

الرابع: أن يكون مريداً للمال راغباً فيه، ولكنه ترك الطلب للعجز.

الخامس: أن يكون ما فقده من المال يضطر إليه، كالجائع الفاقد للخبز، والعاري الفاقد للثوب لنفسه أو لعياله، فصاحب هذه الحالة إن خلا عن الرغبة، وهو من النوادر، فهو الزاهد الحقيقي، وأعلى من هذه الأحوال كلها أن يكون وجود المال وعدمه عنده سواء، قَلَّ المال الذي بيده أو كثر لا يبالي، ولا يمنع

طالباً ولا تخطر حاجة نفسه بباله، كما نقل عن عائشة رضي الله عنها أنها أتاها مائة ألف درهم من العطاء ففرقتها، ولم يخطر ببالها حاجتها إلى شيء للإفطار، حتى قالت لها خادمتها: لو اشتريتِ لنا بدرهم لحماً كنا نفطر عليه، قالت: لو ذكرتيني لفعلت.

فصل في فضيلة الفقر:

وقد روى ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «**أي الناس خير؟**». فقالوا: موسر من المال يؤدي حق الله تعالى في نفسه وماله، فقال ﷺ: «**نِعْمَ الرجل هذا وليس به**»، قالوا: فمن يا رسول الله خير الناس؟ فقال ﷺ: «**فقير يعطي جهده**»[1].

وفي الخبر المشهور: «**تدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام**»[2].

وروي أن عيسى عليه السلام مرَّ برجل نائم على التراب، وتحت رأسه لبنة، ووجهه ولحيته في التراب، وهو متزر بعباءة، فقال: يا رب عبدك هذا في الدنيا ضائع، فأوحى الله تعالى إليه: يا عيسى أما علمت أني إذا نظرت إلى عبدي بوجهي كله زويت عنه الدنيا كلها.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن لي حبيبين اثنين، فمن أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني، الفقر والجهاد**»[3].

وروي أن جبريل عليه الصلاة والسلام نزل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إن الله تعالى يُقرِئُك السلام ويقول لك: أتحب أن أجعل لك هذه الجبال ذهباً، وتكون معك حيثما كنت؟ فأطرق رسول الله ﷺ ساعة ثم قال: «**يا جبريل إن الدنيا**

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصراً على المرفوع من دون سؤاله لأصحابه وسؤالهم له. اهـ

(٢) رواه الترمذي (٢٣٥١) من حديث أبي هريرة بلفظ: «**فقراء المهاجرين..**»، وقال: حسن صحيح.

(٣) قال الحافظ العراقي: لم أجد له أصلاً. اهـ

دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ويجمعهما من لا عقل له»، فقال جبريل: يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت[1].

وروي أن عيسى عليه السلام مرَّ في سياحته برجل نائم ملتف في عباءة، فأيقظه فقال: يا نائم قم فاذكر الله تعالى، فقال: ما تريد مني؟ إني قد تركت الدنيا لأهلها، فقال له: فنم إذاً حبيبي. وقال رسول الله ﷺ: «**اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء**»[2] وقال عليه الصلاة والسلام: «**يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بالثواب لفقركم، وإلا فلا**»[3].

وأوحى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السلام: اطلبني عند المنكَسِرة قلوبهم، قال: ومن هم؟ قال: الفقراء الصادقون.

فإذاً للفقراء فضيلة قد نطقت بها الأخبار والآثار، ولا بأس بالاكتساب من المال، وقال ﷺ: «**اللهم اجعل قُوتَ آل محمد كفافاً**»[4]، وبعد الكفاف فما زاد عليه فهو منقصة، وإمساكه يوجب نقصان الدرجة كما نطقت به الأخبار.

فصل:

اعلم أن الأخبار دلت على تحريم السؤال، فمنها قوله ﷺ: «**من سأل عن ظهر غنى فإنما يستكثر من نار جهنم**»[5]، وقد ورد أيضاً ما يدل على الرخصة في السؤال، ويدل عليه قوله ﷺ: «**للسائل حق وإن جاء على فرس**»[6]، ولولا أنه جائز

(١) قال الحافظ العراقي: هذا ملفق من حديثين، فروى الترمذي (٢٣٤٧) من حديث أبي أمامة: «**عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، قلت: لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً..**» الحديث وقال: حسن، ولأحمد (٦/ ٧١) من حديث عائشة: «**الدنيا دار من لا دار له..**» الحديث. اهـ

(٢) رواه البخاري (٦٤٤٩)، ومسلم (٢٧٣٧).

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وهو ضعيف جداً فيه أحمد بن الحسن بن أبان المصري متهم بالكذب ووضع الحديث. اهـ

(٤) رواه البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥). بلفظ: «**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً**».

(٥) رواه أبو داود (١٦٢٩)، وروى مسلم (١٠٤١) من حديث أبي هريرة: «**من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً.. الحديث**».

(٦) رواه أبو داود (١٦٦٥)، (١٦٦٦).

لما كان له حق ألبتة، فإذاً السؤال إنما يرخص فيه بقدر الضرورة والحاجة، وما زاد على ذلك فلا سبيل إلى الرخصة فيه.

بيان أحوال السائلين:

كان بشر[1] رضي الله عنه يقول: الفقراء ثلاثة، فقير لا يسأل وإن أعطي لم يأخذ، فهذا مع الروحانيين في عليين، وفقير لا يسأل وإن أعطي أخذ، فهذا مع المقربين في جنات الفردوس، وفقير يسأل عند حاجته، فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين، فتبين بهذا حال الفقراء الخمسة والتي شرحناها في صدر هذا الباب، وإن السؤال وإن كان عن ضرورة أو حاجة فلا بد وأن ينقص من الدرجة، وقال إبراهيم بن أدهم[2] لشقيق بن إبراهيم[3] حين قدم عليه من خراسان: كيف تركت الفقراء من أصحابك؟ قال: تركتهم إن أُعطُوا شكروا وإن مُنِعُوا صبروا ـ وظن أنه لما وصفهم من ترك السؤال قد أثنى عليهم عند إبراهيم ـ قال له إبراهيم: هكذا تركتُ كلاب بلخ؟ قال له شقيق: كيف والفقراء عندك يا أبا إسحاق؟ فقال: الفقراء عندنا إن مُنِعُوا شكروا، وإن أعطوا آثروا، فقبل رأسه، وقال: صدقت يا أستاذ.

واعلم أنه قد يعرض من الأحوال لبعض الأشخاص ما يكون للسؤال في حقه فضيلة زائدة على تركه، وذلك كما روي أن بعضهم رأى أبا الحسين النوري[4] يمد

---

(١) هو: **بشر بن الحارث الحافي، أبو نصر**، أحد رجال الطريقة، ومعدن الحقيقة، أصله من مرو، وسكن بغداد وصحب الفضيل بن عياض، توفي رحمه الله سنة ٢٢٧هـ. «طبقات الأولياء» (ص: ١٠٩).

(٢) هو: **إبراهيم بن أدهم، أبو إسحق البلخي**، ولد بمكة، وطافت به أمه على الحِلَق، وسألت الدعاء له أن يكون صالحاً، فاستجيب لها، وترك الإمارة وما كان فيه، صحب سفيان الثوري، والفضيل بن عياض، توفي سنة ١٦١هـ. «طبقات الأولياء» (ص: ٥).

(٣) هو: **شقيق بن إبراهيم البلخي، أبو علي الأزدي**، من أهل بلخ، من مشاهير مشايخ خراسان، صحب إبراهيم بن أدهم وأخذ عنه الطريقة، وكان أستاذ حاتم الأصم. «طبقات الصوفية» (ص: ٦١).

(٤) هو: **أبو الحسين النوري، أحمد بن محمد**، بغدادي المنشأ والمولد، خرساني الأصل، كان من أجلِّ مشايخ القوم وعلمائهم، لم يكن في وقته أحسن طريقة منه، ولا ألطف كلاماً، صحب السري السقطي، توفي رحمه الله سنة ٢٩٥ هـ. «طبقات الصوفية» (ص: ١٦٤).

يده ويسأل الناس في بعض المواطن، قال: فعظم عندي، فذكرته للجنيد، فقال: لا يعظم هذا عليك فإن النوري لم يسأل الناس إلا ليعطيهم، وإنما سألهم ليثيبهم في الآخرة فيؤجروا من حيث لا يضره، وكأنه أشار به إلى قوله ﷺ **«يد المعطي هي العليا»**[1]، فقال بعضهم: يد المعطي هي يد الآخذ للمال لأنه يعطي الثواب، والقدر له لا لما يأخذه، ثم قال الجنيد رضي الله عنه: هات الميزان، فوزن مائة درهم، ثم قبض قبضة فألقاها على المائة الموزونة، ثم قال: احملها إليه، فقلت في نفسي: إنما يوزن الشيء ليعرف مقداره فكيف خلط به مجهولاً وهو رجل حكيم؟ واستحييت أن أسأله، فذهبت بالصرَّة إلى النوري، فقال: هات الميزان، فوزن مائة، وقال: ردها عليه، وقل له: لا أقبل منك شيئاً، وأخذ ما زاد على المائة، قال: فزاد تعجبي، قال: فسألته، فقال: الجنيد رجل حكيم، أحب أن يأخذ الحبل بطرفيه وزن المائة لنفسه طلباً لثواب الآخرة، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عزوجل، فأخذت ما كان لله عز وجل، ورددت ما جعله له، قال: فرددتها إلى الجنيد فبكى، ثم قال: أخذ ماله ورد مالنا فالله المستعان.

فانظر الآن كيف صفة قلوبهم وأحوالهم، وكيف أخلصوا لله تعالى أعمالهم حتى شاهد كل واحد قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان.

الشطر الثاني الزهد:

وحقيقة الزهد أن يرغب عن شيء ويعدل إلى غيره، فمن ترك فضول الدنيا ورغب عنها في الآخرة فهو زاهد في الدنيا، وأعلى درجات الزهد أن ترغب عن كل ما سوى الله تعالى حتى عن الآخرة، والزهد لا بد له من علم أن الآخرة خير من الدنيا، وعمل صادر عن حال، هو تمام الرغبة في الآخرة، والعمل تسليم الثمن بحفظ القلب والجوارح عما يناقض هذا البيع، ويدل على فضيلة الزهد جميع الآيات والأخبار الواردة، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: ٧]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾

(١) رواه مسلم (١٠٤٢) من حديث أبي هريرة: بلفظ: «.. **فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلى**».

[الشورى: ٢٠]، وقال ﷺ: «**من أصبح وهمُّه الدنيا شتّت الله تعالى عليه أمره، وفرّق عليه ضيعته، وجعل فقرة بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح وهمُّه الآخرة جمع الله له همه، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة**»[(١)]، وقال ﷺ: «**إذا رأيتم العبد قد أوتي صمتاً وزهداً في الدنيا فاقربوا منه فإنه يُلقّى الحكمة**»[(٢)]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا**»[(٣)]، ولما قال حارثة لرسول الله ﷺ: أنا مؤمن حقاً، قال: «**وما حقيقة إيمانك؟**» فقال: عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها، وكأني بالجنة والنار، وكأني بعرش ربي بارزاً، فقال ﷺ: «**عرفت فالزم، عبد نور الله قلبه بالإيمان**»[(٤)]، ولما سئل رسول الله ﷺ: عن معنى الشرح في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢] وفي قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] فقيل له: ما هذا الشرح؟ فقال ﷺ: «**إن النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر فانفتح**» قيل: يا رسول الله وهل لذلك علامة؟ قال ﷺ: «**نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله**»[(٥)]، وقال جابر رضي الله عنه: خطبنا رسول الله ﷺ قال: «**من جاء بلا إله إلا الله لم يخلط معها شيئاً دخل الجنة**»، فقال علي رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما لم يخلط بها غيرها؟ فسّره لنا، فقال عليه الصلاة والسلام: «**حب الدنيا طلباً لها واتباعاً لها، وقوم يقولون قول الأنبياء ويعملون أعمال الجبابرة، فمن جاء بلا إله إلا الله ليس فيها شيء من هذا وجبت له الجنة**»[(٦)].

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن ماجه (٤١٠٥) من حديث زيد بن ثابت بسند جيد، والترمذي (٢٤٦٥) من حديث أنس بسند ضعيف نحوه. اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه ابن ماجه (٤١٠١) من حديث أبي خلاد بسند فيه ضعف. اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه ابن ماجه (٤١٠٢) من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف نحوه. اهـ

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه البزار من حديث أنس، والطبراني [في الكبير (٣٣٦٧)] من حديث الحارث بن مالك وكلا الحديثين ضعيف. اهـ

(٥) قال الحافظ العراقي: رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣١١) [وقال الذهبي: عدي ساقط]. اهـ

(٦) قال الحافظ العراقي: لم أره من حديث جابر، وقد رواه الترمذي الحكيم في (النوادر) من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف نحوه. اهـ

وفي الخبر: «السخاء من اليقين، ولا يدخل النار موقن، والبخل من الشك، ولا يدخل الجنة من شك»[1].

بيان درجات الزهد:

وله ثلاث درجات:

الأولى: أن يتكلف الزهد في الدنيا، ويجاهد نفسه في تركها مع اشتهائها، فهذا متزهد، ولعله يديم فيصل إلى الزهد.

الثانية: أن يزهد في الدنيا طوعاً لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه، كالذي يترك درهماً لأجل درهمين، وهذا لا يشق عليه ولكنه لا يخلو عن ملاحظة ما تركه، وملاحظة حال نفسه، وهي الزهد، وهذا أيضاً فيه نقصان.

الثالثة: وهي العليا، أن يزهد طوعاً ويزهد في زهده، إذ لا يرى أنه ترك شيئاً لمعرفته بأن الدنيا لا شيء، فيكون كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة، والدنيا بالنسبة إلى الآخرة لا نسبة بينهما، قال أبو يزيد[2] رضي الله عنه لأبي موسى عبد الرحمن: في أي شيء تتكلم؟ قال: في الزهد، قال: في أي شيء؟ قال: في الدنيا، فنفض يده، فقال: ظننت أنه يتكلم في شيء، الدنيا لا شيء يزهد فيه.

ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه عن باب الملك كلب فألقى إليه لقمة من الخبز فشغله بنفسه، ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى أنفذ أمره في جميع مملكته، أفترى أنه يرى لنفسه يداً عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه في مقابلة ما يناله؟ والشيطان كلب على باب الملك، وهو الله تعالى يمنع الناس من الدخول مع

---

(١) قال الحافظ العراقي: ذكره صاحب (الفردوس) من حديث أبي الدرداء ولم يخرجه ولده في (مسنده). اهـ

(٢) هو: أبو يزيد البسطامي، طيفور بن عيسى بن شروشان، كان جده مجوسياً فأسلم، كان زاهداً عابداً، له أحوال، وهو من أهل بسطام، توفي سنة ٢٦١هـ. «طبقات الأولياء» (ص: ٣٩٨).

أن الباب مفتوح، والحجاب مرفوع، والدنيا كلقمة خبز، إن أكلت فلذتها في الحال، وتفنى على قرب الابتلاع، ثم تبقى ثقيلة في المعدة ثم تنتهي إلى النتن، وتحتاج إلى إخراج الثُّفَلِ، فمن تركها لينال عند الملك قرباً كيف يلتفت إليها ونسبة الدنيا ـ أعني ما يسلم لكل واحد منها ـ بالنسبة إلى الآخرة أقل من لقمة، بالإضافة إلى ملك الدنيا إذ لا نسبة لمتناهٍ إلى ما لا نهاية له، والدنيا متناهية على القرب، ولو تمادت ألف ألف سنة صافية عن الكدورات فمصيرها إلى الزوال.

فإذا عرفت هذا فاعلم أن أعلى الدرجات أن تزهد فيما سوى الله تعالى طلباً لوجهه، وذلك بمعرفته بلذته وعلو رتبته[1]، فلا تأخذ من المطعم والملبس والمنكح والمسكن وكل ما أنت محتاج إليه إلا قدر الضرورة الذي به قوام بدنك، وما تقدر به على المدافعة، هذا هو الزهد الحقيقي، والله اعلم.



(١) أي: من عرف لذة النظر إلى وجه الله سبحانه في الآخرة وعلو رتبته زهد عن كل نعيم سوى ذلك.

الباب الخامس والثلاثون

في التوحيد والتوكل

أما التوكل ففضيلته تعرف بالآيات والأخبار، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[المائدة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه ابن مسعود: **«رأيت الأمم في الموسم، فرأيت أمتي قد ملؤوا السهل والجبل، فأعجبني كثرتهم وهيئتهم، فقيل لي: أرضيت؟ قلت: نعم، قال: ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، قيل: من هم؟ قال: الذين لا يكتوون ولا يتطيرون، ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون»**، فقام عكاشة فقال: يا رسول الله ، ادع الله تعالى أن يجعلني منهم، فقال ﷺ: **«اللهم اجعله منهم»**، فقام آخر فقال: ادع الله تعالى أن يجعلني منهم، فقال ﷺ: **«سبقك بها عكاشة»**[(١)].

وقال ﷺ: **«لو أنكم تتوكلون على الله تعالى حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً، وتروح بطاناً»**[(٢)].

ولما قرأ الخوّاص[(٣)] رضي الله تعالى عنه قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى

---

(١) رواه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠) بنحوه.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٤٤) والحاكم (٣١٨/٤) وصححاه من حديث عمر وابن ماجه (٤١٦٤).

(٣) **إبراهيم الخواص**، تقدمت ترجمته صفحة (٧٧).

﴿لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان : ٥٨]، إلى آخر الآية، قال: لا ينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلتجئ إلى أحد غير الله تعالى.

فصل في بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل ودرجاته:

فاعلم أن معنى التوحيد الذي هو أصل التوكل ما يترجمه قولك: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، والإيمان بالقدرة التي يترجمها قولك: له الملك، والإيمان بالجود والحكمة التي يدل عليها قولك: وله الحمد، فمن غلب معنى هذه الجملة على قلبه صار متوكلاً.

وأصل ذلك التوحيد، وله أربع مراتب، فهو ينقسم إلى لب، وإلى لب اللب، وإلى قشر، وإلى قشر القشر كالجوز:

الأول: الإيمان بالقول المحض قشر القشر، وهو إيمان المنافقين، والعياذ بالله.

الثاني: التصديق بمعنى الكلمة، وهو إيمان عموم المسلمين.

الثالث: أن يشاهد ذلك بطريق الكشف، وهو مقام المقربين، وذلك بأن يرى أسباباً كثيرة ولكن مع كثرتها صدرت من الواحد القهار.

الرابع: أن لا يرى إلا واحداً، وهو مشاهدة الصديقين، وتسميه الصوفية الفناء في التوحيد، فلا يرى نفسه لكون باطنه مستغرقاً بالواحد الحق، وهو المراد بقول أبي يزيد[1]: أنساني ذكر نفسي.

فالأول: هو الإيمان باللسان وحده، ولا ينفع إلا في دفع السيف وعصمة المال والدم بقوله عليه الصلاة والسلام: «**فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم**»[2].

والثاني: موحد بمعنى أن يعتقد بقلبه معنى الكلمة خالياً عن شك فيه ولكن لا

---

(١) أبو يزيد البسطامي، تقدمت ترجمته صفحة (٢٩٥).

(٢) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢١-٢٢).

انشراح في باطنه، فهذه الحالة تحفظ صاحبها عن العذاب في الآخرة إن توفي عليها ولم يضعفها بالمواظبة إلى المعاصي، ولهذا العقد تتطرق حيلة المبتدع بالنقص، وحيلة المتكلم بدفع النقص.

الثالث: موحد بمعنى أنه انشرح له الصدر فلم يشاهد إلا واحداً وإن كثرت الأسباب، فعلم أن مصدرها من الواحد الحق.

الرابع: موحد بمعنى أنه لم يحضره في شهوده وقلبه إلا الواحد الحق، وفني عن الوسائط وعن نفسه، وهذه الحالة هي العليا، وهي دهن اللب من الجوز مثلاً، ولا كلام في هذه الحالة الرابعة، بل الكلام في الثالث، وهو الذي يرى الواحد الحق، ويرى الكل واحداً لصدوره من الواحد الحق، وعند هذا يقول من لم يشرق على قلبه نور الله المراد بقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]: كيف يرى الكل واحداً وهو يرى تعدد الأسباب من السماوات والأرض ويرى الأعداد الكثيرة؟.

واعلم أن كشف هذه الأسرار لا يمكن، إذ قال بعض العارفين: إفشاء سر الربوبية كفر، ولكن نورد ما يسكن به استبعادك، وهو أن الشيء يكون كثيراً باعتبار وقليلاً باعتبار، كالإنسان من حيث أجزاؤه كثير، ومن حيث أنه شخص واحد يراه واحداً لا عدد فيه، فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات كثيرة، وهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد، ومثال الإنسان وإن كان لا يطابق لكنه ينبه على أن الشيء قد يكون باعتبار ما كثيراً، وباعتبار ما واحداً، وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج(١) حيث رأى الخوَّاص(٢) يبعد في الأسفار فقال: فيماذا أنت؟ فقال: أبعد في الأسفار لأصحح حالي في التوكل، قال الحسين: قد أفنيت عمرك في عمران باطنك، فأين أنت من الفناء في التوحيد، فالخوَّاص في المقام الثالث، فطالبه بالعبور إلى الرابع.

---

(١) هو: **الحسين بن منصور، أبو مغيث الحلّاج**، من أهل بيضاء فارس، ونشأ بواسط والعراق، وصحب الجنيد، وأبا الحسين النوري، والمشايخ في أمره مختلفون، رده البعض، وقبله البعض، قُتِلَ ببغداد سنة ٣٠٩هـ. «طبقات الصوفية» (ص: ٣٠٧).

(٢) **إبراهيم الخواص**، تقدمت ترجمته صفحة (٧٧).

فإن قلت: فاشرح لنا الحالة الثالثة إن كنت لا تشرح الرابعة، فأقول: ذلك بأن تعلم أنه لا خالق إلا الله تعالى، وأنه لا تتحرك ذرة في السماوات والأرض إلا بإذن الله تعالى، وأنه لا فقر ولا غنى ولا موت ولا حياة إلا بإذن الله تعالى، وأنه مخترع الكل، فمن شاهد هذا وعلم أنه لا إله إلا هو استغنى عما سواه، ولم ينظر إلى شيء، إذ الكل مسخر تحت قدرته، وهذا كما أن الملك إذا وقع منه العفو فلم ينظر إلى القلم والكاغد[1] والشكر لهما، بل نظر إلى الكاتب وهو الملك فشكره، ومن ينظر سوى الله تعالى من الأسباب فهو كمن ينظر إلى القلم ويشكره، والكاغد والمداد، والموحد الذي ذكرناه هو الذي أدهشه جمال الملك عن أن يشاهد القلم، أو أن يخطر بباله وجود القلم والمداد، بل لا يراه ولا يذكره، فإن قلت: هذا في الجمادات المسخرة قد فهمته ولكن كيف أفهم ذلك في الإنسان المختار للخير والعفو، والإعطاء والمنع؟ وكيف لي بحوالة فعله على الأصل؟ فأقول: عند هذا زلَّ فيه أقدام الأكثرين إلا عباد الله المخلصين، الذين لا سلطان عليهم للشياطين، فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخراً مضطراً، كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم في يد الكاتب مسخراً وإنَّ غلط الضعفاء في ذلك كغلط نملة على كاغد يكتب عليه، قصر بصرها عن إدراك الكاتب، فأبصرت القلم، وأحالت الكتابة عليه، وهذا كبصر الضعفاء، والذين أمدهم الله تعالى بتوفيقه وشرح صدورهم بنوره شاهدوا ما فوق ذلك، إذ قد أنطق الله تعالى في حقهم كل ذرة في السماوات والأرض بقدرته التي أنطق بها كل شيء، حتى بمناجاته سمعوا تقديسها وتسبيحها الله، وشهادتها على أنفسها بالعجز بلسان طلْقٍ، تكلمهم بلا صوت ولا حرف، لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون، فلكل ذرة في العالم مع أرباب القلوب مناجاة، وذلك من بحر كلام الله تعالى الذي لا نهاية له كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩]، فهذا أبداً يناجي أرباب القلوب بأسرار الملكوت، ولكن إفشاء السر لؤم، بل صدور الأحرار قبور الأسرار، وهل رأيت قط أميناً على سر الملك نادى على ملأ من الأشهاد بسرِّه؟ ولو جاز إفشاء كل سرٍّ لما قال عليه الصلاة والسلام: «**لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**»[2]، بل كان

(١) **الكاغد**: الصحيفة التي يكتب بها.

(٢) رواه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).

يذكر لهم ذلك حتى لا يضحكوا بل يبكون، ولما نهى عن إفشاء سر القدر[1]، ولما قال: «**إذا ذكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا**»[2]، ولما خصَّ حذيفة رضي الله عنه ببعض أسراره[3]، ونحن نودع بعض ما كنا فيه مثالاً فلعلك تفهمه، فنقول:

قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد وقد رآه اسودَّ وجهُه بالحبر: ما بال وجهك أسود، وما السبب فيه؟ فقال الكاغد: ما أنصفتني في هذه المطالبة، فإني ما سوَّدت وجهي بنفسي، ولكن سل الحبر، فإنه كان مجموعاً في المحبرة، فسافر من وطنه ونزل بساحة وجهي ظلماً وعدواناً، فقال: صدقت، فسأل الحبر عن ذلك، فقال الحبر: ما أنصفتني، فإني كنت ساكناً في قعر المحبرة عازماً على أن لا أبرح، فاعتدى علي القلم واختطفني من وطني، وفرَّق جمعي وبددني على ساحة بيضاء كما تراني، فالسؤال عليه لا عليَّ، قال: صدقت، ثم سأل القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه بإخراجه الحبر من أوطانه، قال: اسأل اليد والأصابع، فإني كنت قصباً نابتاً على شط الأنهار، متنزهاً بين خضرة الأشجار، فجاءتني اليد بسكين فنحَّت عني القشر، وأقلعتني من أصلي، وفرقت بين أنابيبي، ثم برتني وشقت رأسي وغمرتني في سواد الحبر، وهي التي تستخدمني وتمشيني على قمة رأسي، فلقد نثرتَ المِلْح على جرحي بسؤالك وعتابك، فتنحَّ عنِّي وسل من قهرني، فقال: صدقت، ثم سأل اليد عن ظلمها على القلم، فقالت: ما أنا إلا لحم ودم، وعصب وعظم، وهل رأيت جسداً يتحرك بنفسه؟ وإنما أنا مركب مسخَّر، ركبني فارس يقال له: القدرة والقوة، فهي التي ترددني وتجول بي في نواحي الأرض، أما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدى شيء منها عن مكانه، وما يتحرك بنفسه إذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوي القاهر، أما ترى أيدي الموتى مساوية لهؤلاء في الصورة، ثم هي لا تتحرك، ولا معاملة بينها وبين القلم، وأنا

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن عدي (٧/ ١٠٢) وأبو نعيم في (الحلية) (٦/ ١٨٢) من حديث ابن عمر: «**لا تكلموا في القدر فإنه سر فلا تفشوا لله سره**» لفظ أبي نعيم، وقال ابن عدي: «**لا تكلموا في القدر فإنه سر الله**» الحديث وهو ضعيف.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني (١٤٢٧) و (١٠٤٤٨) وابن حبان في (الضعفاء) (١٢٠٠). اهـ

(٣) كان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، صاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين.

أيضاً من حيث أنا لا معاملة بيني وبين القلم، فسل القدرة عن شأني، فإني مركب أزعجني من ركبني، فقال: صدقت، ثم سأل القدرة عن شأنها، في استعمالها اليد واستخدامها، فقالت: دع عنك لومي ومعاتبتي، فكم من لائم ملوم، وكم من ملوم لا ذنب له، فكيف خفي عليك أمري، وكيف ظننت أني ظلمت اليد وقد كنت راكبة لها قبل التحريك، وما كنت أحركها ولا أستسخرها، بل كنت هادياً ساكناً، ظن الظانون بي أني ميت أو معدوم لأني كنت ما أحرك ولا أتحرك حتى جاءني موكل فأزعجني وأرهقني إلى ما تراه مني، فكانت لي قوة على مساعدته، ولم يكن لي قوة على مخالفته. وهذا الموكل يسمى إرادة، ولا أعرفه إلا باسمه وبهجومه وصياله إذ أزعجني من غمرة النوم، وأرهقني إلى ما كان لي مندوحة عنه لو خلاني ورأيي، فقال: صدقت، ثم سأل الإرادة: ما الذي جرأك على القدرة الساكنة المطمئنة حتى صرفتيها إلى التحريك إصرافاً لم تجد عنه مخلصاً؟ فقالت الإرادة: لا تعجل علي فلعلَّ لنا عذراً وأنت تلوم، فإني ما انتهضت بنفسي ولكني أُنهضتُ، وما انبعثت ولكني بُعِثْت بحكم قاهر وأمر جازم، ولقد كنت ساكنة قبل مجيئه، ولكن ورد علي من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة فأشخصتها باضطرار، فأنا مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل، ولا أدري لأي سبب سخرت له وألزمت طاعته، لكني أدري أني في دَعَة وسكون ما لم يرد علي هذا الوارد وهذا الحاكم العادل أو الظالم، وقد وُقفت عليه وقفاً، وأُلزمت طاعته إلزاماً، بل لا يبقى لي معه مهما جزم حكمه طاقةٌ في المخالفة، لعمري ما دام هو في التردد مع نفسه والتحير في حكمه، فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه، فإذا انجزم حكمه انزعجت بطبع وقهر تحت طاعته، وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه، فاسأل العلم عن شأني فإني كما قال القائل:

مهما ترحلت عن قوم وقد قدروا ... أن لا تفارقهم فالراحلون هم

فقال: صدقت، فأقبل على العلم والعقل والقلب مطالباً ومعاتباً إياهم على استنهاض الإرادة وتسخيرها لاستنهاض القدرة، فقال العقل: أما أنا فسراج، ما اشتعلت بنفسي ولكني أُشعِلتُ، وقال القلب: أما أنا فلوح، ما انبسطت بنفسي، ولكن بُسطت، وقال العلم: أما أنا فنقش، نقشت في بياض اللوح الذي هو القلب لمَّا أشرق سراج العقل، وما انحططت بنفسي، فكم كان هذا اللوح قبلي خالياً

عني، فاسأل القلم عني، فإن الخط لا يكون إلا بالقلم، فعند هذا تتعتع السائل، ولم ينفعه جوابه، وقال: طال تعبي في هذا الطريق، وكثرت منازلي، ولا يزال يحيلني من طمعت فيه على غيره، ولكن كنت أطيِّبُ نفسي بكثرة التردد لما كنت أسمع كلاماً مقبولاً في الفؤاد، وعذراً ظاهراً في دفع السؤال، فأما قولك: إني خط ونقش، وإنما خطني قلم، فلست أفهمه، فإني لا أعلم قلماً إلا من القصب، ولا لوحاً إلا من الحديد أو الخشب، ولا خطاً إلا بالحبر، ولا سرجاً إلا من النار، وإني لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولا أشاهد منه شيئاً، أسمع جعجعة ولا أرى طحناً، فقال له العلم: إن صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجاة، وزادك قليل، ومركبك ضعيف، والمهالك في الطريق الذي توجهت إليه كثيرة، فالصواب لك أن تنصرف وتدع ما أنت فيه، فما هذا بعشك، فادرج عنه، فكل ميسَّر لما خلق له، وإن كنت راغباً في استتمام الطريق إلى المقصد فألق سمعك وأنت شهيد.

واعلم أن العوالم في طريقك هذا ثلاثة:

عالم الملك والشهادة أولها: ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة.

والثاني عالم الملكوت: وهو وراءه، فإذا جاوزته وانتهيت إلى منازله، وفيه المهامة الفسيحة والجبال الشاهقة والبحار المغرقة، ولا أدري كيف تسلم فيها.

والثالث عالم الجبروت: وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت، ولقد قطعت منها ثلاثة منازل إذ في أوائلها منزل القدرة والإرادة والعلم، وهو واسطة بين عالم الملك والملكوت، لأن عالم الملك أسهل منه طريقاً، وعالم الملكوت أوعر منه منهجاً.

وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي بين الأرض والماء، فلا هي في حدِّ اضطراب الماء، ولا هي في حدِّ سكون الأرض وثباتها، فكل من يمشي على الأرض في عالم الملك والشهادة، فإن جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت، فإن انتهى

إلى أن يمشي على الماء من غير سفينة مشى في عالم الملكوت من غير تتعتع تعب، فإن كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف فقد جاوزت الأرض وخلفت السفينة ولم يبق إلا الماء الصافي، وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم، وحصول اليقين الذي يمشي به على الماء، أما سمعت قول رسول الله ﷺ في عيسى عليه السلام: «**لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء لما قيل له: كان يمشي على الماء**»[1].

فقال السالك السائل: قد تحيرتُ في أمري، واستشعر قلبي خوفاً مما وصفته من خطر الطريق، ولستُ أدري أطيق قطع هذه المهامة التي وصفتها أم لا، فهل لذلك من علامة؟ فقال: نعم، افتح بصرك، واجمع ضوء عينيك، واصرفه نحوي، فإن ظهر لك القلم الذي به أكتب في لوح القلب فيشبه أن تكون أهلاً لذلك الطريق، فإنَّ كلَّ من جاوز عالم الجبروت وقرع أول باب من أبواب الملكوت كوشف بالقلم، أما ترى أن النبي أول ما كوشف بالقلم ونزل عليه قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٣-٥] فقال السالك: لقد فتحتُ بصري وحدقتُه، والله ما أرى قصباً ولا خشباً، ولا أعلم قلماً إلا كذلك، فقال العلم: لقد أبعدت النُّجعة، أما سمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت، أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات، فكذلك لا تشبه يده سائر الأيدي، ولا قلمه الأقلام، ولا كلامه سائر الكلام، ولا خطه سائر الخطوط، وهذه أمور إلهيَّة من عالم الملكوت، فليس الله في ذاته بجسم، ولا هو في مكان بخلاف غيره، ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الأيدي، ولا قلمه من قصب، ولا لوحه من خشب، ولا كلامه بصوت وحرف، ولا خطه رَقْم ورسم،

---

(١) قال الحافظ العراقي: هذا حديث منكر لا يعرف هكذا، والمعروف ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب (اليقين) من قول بكر بن عبد الله المزني قال: «**فقد الحواريون نبيهم فقيل لهم: توجه نحو البحر، فانطلقوا يطلبونه فلما انتهوا إلى البحر إذا هو قد أقبل يمشي على الماء**» فذكر حديثاً فيه: «**إن عيسى قال: لو أن لابن آدم من اليقين شعرة مشى على الماء**» وروى أبو منصور الديلمي في (مسند الفردوس) بسند ضعيف من حديث معاذ بن جبل: «**لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال**». اهـ

ولا جِبره زاج ولا عفص، وإن كنت لا تشاهد هذا هكذا فما أراك إلا مخنثاً بين فحولة التنزيه وأنوثة التشبيه، مذبذباً بين هذا وذاك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فكيف نزهتَ ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام؟ وكيف نزهت كلامه عن الحروف والأصوات، وأخذت تتوقف في يده وقلمه ولوحه وخطه؟ فإن كنت قد فهمت من قوله ﷺ: «**إن الله خلق آدم على صورته**»(١) الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكن مشبهاً مطلقاً كما يقال: كن يهودياً صرفاً وإلا فلا تلعب بالتوراة، وإن فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك بالبصائر لا بالأبصار فكن منزهاً صِرفاً ومقدِّساً فحلاً، واطوِ الطريق فإنك بالواد المقدس طوى، واستمع بسرِّ قلبك لما يوحى، فلعلك تجد على النار هدى، ولعلك من سرادقات العرش تنادى بما نودي به موسى عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١٢]، فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه، وأنه مخنَّث في التشبيه والتنزيه، فاشتغل قلبه ناراً من حدة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص، ولقد كان زيته الذي في مشكاة قلبه يكاد يضيء ولو لم تمسسْه نار، فلما نفخ فيه العلم بحدته اشتعل زيته، فأصبح نوراً على نور، فقال له العلم: اغتنم الآن هذه الفرصة، وافتح بصرك فلعلك تجد على النار هدى، ففتح بصره فانكشف له القلم الإلهي، وإنه كما وصفه العلم في التنزيه لا هو خشب ولا قصب، ولا له رأس ولا ذنب، وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر كلهم أصناف العلوم، وكان له في كل قلب رأس، ولا رأس له، فقضى منه العجب، فقال: نِعم الرفيق العلم، جزاه الله عني خيراً، إذ الآن ظهر لي صدقُ إنبائه عن أوصاف القلم، فإني أراه قلماً لا كالأقلام، فعند هذا ودَّع العلم وشكره، وقال: طال مقامي عندك، ومرادَّتي لك، وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم، فأساله عن شأنه، فسافر إليه، وقال له: ما بالك تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبعث به الإرادة إلى إشخاص القدرة، وصرفها إلى المقدورات؟ فقال: لقد نسيتَ ما رأيتَ في عالم الغيب والشهادة، وسمعته في جواب القلم إذ سألته، فأحالك على اليد؟ فقال: لا، قال: فجوابي مثل جوابه، قال: فكيف وأنت لا

(١) رواه البخاري (٦٢٢٧).

تشبهه؟ قال القلم: أما سمعت أن الله تعالى خلق آدم على صورته؟ قال: نعم، قال: فسل عن شأني الملقب بيمين الملك، فإني في قبضته، هو الذي يرددني، وأنا مقهور ومسخر، ولا فرق بين القلم الإلهي وقلم الآدمي في معنى التسخير، وإنما الفرق في ظاهر الصورة، فقال: فما يمين الملك؟ قال القلم: أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، قال: نعم، قال: فالأقلام أيضاً في قبضة يمينه، هو الذي يرددها.

فسافر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم، ولا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه، بل لا تحوي مجلدات كثيرة عشر عشير وصفه، والجملة وفيه أنه يمين لا كالأيمان، ويد لا كالأيدي، وأصبع لا كالأصابع، فرأى القلم محركاً في قبضته فظهر له عذر القلم، فسأل اليمين عن شأنها وتحريكها للقلم، فقالت: جوابي ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة، وهو الحوالة على القدرة، إذ اليد لا حكم لها في نفسها، وإنما تحركها القدرة لا محالة، فسار إلى عالم القدرة ورأى فيها من العجائب ما استحقر فيها ما قبله، وسألها عن تحريك اليمين، فقالت: إنما أنا صفة، فاسأل القادر، إذ العهدة على الموصوفات لا على الصفات، وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجراءة لسان السؤال، فثبت بالقول الثابت، ونودي من وراء سرادقات الحضرة ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فغشيته هيبة الحضرة، فخرَّ صَعِقاً يضطرب في غشيته مدةً، فلما أفاق قال: سبحانك ما أعظم شأنك، تبت إليك وتوكلت عليك، وآمنتُ بأنك الملك الجبار الواحد القهار، فلا أخاف غيرك، ولا أرجو سواك، ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك، وبرضاك من سخطك.

ونرجع إلى الغرض، ونبين معنى التوكل، فنقول:

التوكل هو اعتماد القلب على الوكيل وحده للعلم بأنه لا يخرج شيء عن علمه وقدرته، وأن غيره لا يقدر على ضره ونفعه كما سبق.

بيان ما قاله الشيوخ في التوكل:

قال أبو موسى الدبيلي[١]: قلت لأبي يزيد[٢]: ما التوكل؟ فقال: ما تقول أنت؟ قلت: إن أصحابنا يقولون: لو أن السباع والأفاعي عن يمينك ويسارك ما تحرك لذلك سِرُّك، فقال أبو يزيد: نعم هذا قريب، لكن لو أن أهل الجنة في الجنة يتنعمون، وأهل النار في النار يعذبون، ثم وقع لك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل.

وسئل أبو عبد الله القرشي[٣] عن التوكل، فقال: التعلق بالله في كل حال، فقال السائل: زدني، فقال: ترك كل سبب لا يوصل إلى الله.

فصل في بيان درجات التوكل: وله ثلاث درجات:

أولها: أن يكون وثوقه به كوثوقه بوكيل قد عرف صدقه وأمانته وعنايته وهدايته وشفقته.

وثانيها: أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل في حق أمه، فإنه لا يعرف غيرها، ولا يفزع في الأمور إلا إليها، فهي أول خاطر له فيما يخطر بباله، وهذا المقام يقتضي ترك الدعاء والسؤال لغير الله تعالى ثقة بكرمه وشفقته.

وثالثها: مثل صفرة المريض قد تدوم وقد تزول.

فإن قلت: فهل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالأسباب؟

---

(١) قال الزبيدي: هكذا في النسخ وهو يحتمل أن يكون بفتح الدال وكسر الموحدة نسبة إلى (دبيل الرملة) قرية بها، أوهو بفتح الدال وياء وتحته ساكنة وباء موحدة مضمومة إلى الدَّيْبُل مرسى من مراسي السند وقد نسب إلى كل منهما جماعة من أهل العلم ولم أجد لأبي موسى ترجمة اهـ «إتحاف السادة المتقين» (٩/٤٦٩).

(٢) **أبو يزيد البسطامي**، تقدمت ترجمته صفحة (٢٩٥).

(٣) هو: **أبو عبد الله القرشي، محمد بن أحمد بن إبراهيم**، زاهد، أندلسي الأصل، أقام بمصر مدة، سكن القدس وتوفي فيها، توفي سنة ٥٩٩ هـ (شذرات الذهب: ٤/٣٤٢).

فاعلم أن المقام الثالث ينفي التدبير رأساً ما دام باقياً على تلك الحالة، والمقام الثاني ينفي التدبير إلا من حيث الفزع إلى الله تعالى بالدعاء والابتهال، كالطفل الذي لا يدعو إلا أمه.

بيان أعمال المتوكلين:

وقد ظن الظانون أن المتوكل ينبغي أن يكون كلحم على وَضَم، وهذا غلط، ونحن نبين ذلك، فنقول: تلك الأعمال تنقسم إلى جَلْب النافع وحفظه، ودفع الضار وقطعه، وأما جَلْبُ النافع فمنقسم إلى ما جرت به سنة الله تعالى فلا يعهد خلافه، كمضغ الطعام الموضوع بين يديك، أو حمله إلى الفم، فإن تركه حمق وجنون، وأما ما يجري مجرى الغالب حتى يعد حصوله دون ذلك بعيداً كالذي يفارق الأمصار والقوافل، ويسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس إلا على الندور من غير زاد، فهذا ليس شرطاً في التوكل، ولكن إن فعل ذلك من غير استصحاب الزاد فذلك أعلى درجات المتوكلين، وأما ما لا يفضي إلى المقصود إلا على الندور كدقيق التدبير في تفاصيل الاكتساب فذلك يبطل التوكل بالكلية.

المقام الثاني: وأن يقعد في بيته أو في مسجده في بعض القرى أو الأمصار، فهذا من التوكل بكونه تاركاً للكسب، ولكنه أضعف من الأول لتعرضه بمجرد حاله لتعهد الناس وجلوسه في موضع يتعهده الناس.

والمقام الثالث: أن يكتسب على السنة كما سبق في باب الكسب، وقد قيل: إن هذا لا يخرجه عن التوكل، ولكنه أضعف المقامات، ولكنه من شرطه أن لا يكون اتكاله على بضاعته، وعلامته أن لا يحزن بالسرقة وضياع ماله.

بيان توكل المعيل:

اعلم أن المعيل لا يصح توكله في حق عياله، لأنه إنما يصح توكله في نفسه بأمور منها القدرة على الإمساك عن الطعام مثلاً أسبوعاً، وأن يرضى بالموت إن لم يأته رزقه وأمور أخر، وهذا لا يتصور في حق العيال فلا بد له من الكسب لهم، كما نقل عن الصديق رضي الله عنه إذ خرج إلى الكسب لعياله، وهذا هو المقام

الثالث الذي ذكرناه، فادخار الطعام سنة منقول بسبب العيال، فأما من ليس له عيالٌ وظهر له مال بإرث مثلاً أو سبب من الأسباب، فأعلى الدرجات أن يأخذ قدر الحاجة في الوقت، ويفرق الباقي ولا يدّخره لغده.

الثانية: أن يدخر لأربعين يوماً فما دونها، وقد اختلفوا في أن هذا هل يخرجه من التوكل؟ وهل يوجب حرمانه عن الدرجة الموعودة للمتوكلين؟

الثالثة: أن يدخر لشهر أو لسنة، وهذا يوجب الحرمان عن درجة المتوكلين، فقد قيل: لا يدخر من الحيوانات إلا ثلاث، الفأرة والنملة وابن آدم.

الفن الآخر أن يدفع الضرر عن نفسه، أو يحترز بأن يهرب من الجدار المائل والمَسْبَعَة[1] والسقف المنكسر، وذلك لا يبطل التوكل، بل كلُّ ذلك منقول، وهذه الأسباب تنقسم إلى موهوم ومظنون ومقطوع، فالموهوم لابد من تركه، كالرُّقية وما يشبهها، ولم يصف رسول الله ﷺ المتوكلين إلا بترك الرُّقية والكيّ والطّيَرَة[2]، ولم يصفهم بأنهم لا يلبسون ما يدفع البرد، نعم إذا أمكنه أن يصبر على أذى الغير واحتماله، فهو من شروط التوكل إذ قال تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٨]، وعلى هذا القياس ترك التداوي في بعض الأحوال، فذلك أيضاً منقول وذلك بحسب قوة مقام المتوكل.



(١) المَسْبَعَة: الأرض الكثيرة السباع.

(٢) الطّيَرَة: أصله التفاؤل بالطير، ثم استعمل في كل ما يتفائل به ويُتَشَاءم.

الباب السادس والثلاثون

في المحبة والشوق والرضا

اعلم أن المحبة لله هي الغاية القصوى، وهي من الدرجات العلى، وما عداها من الشوق والأنس والرضا تابع للمحبة، وقد أنكر بعض من حرمه الله هذه اللذة وإمكانها، ونحن نبين ذلك بالآيات والأخبار، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وفي الحديث: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إليه من أهله وماله والناس أجمعين**»[1].

وفي الخبر المشهور أن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت حين جاء ليقبض روحه: هل رأيت خليلاً يميت خليله؟ فأوحى الله تعالى إليه: فهل رأيت حبيباً يكره لقاء حبيبه؟ فقال: يا ملك الموت الآن اقبض روحي.

وقال رسول الله ﷺ: «**اللهم ارزقني حبَّك، وحبَّ من يحبُّك، وحبَّ ما يقربني إلى حبِّك، اجعل حبَّك أحب إلي من الماء البارد**»[2].

وقال أعرابي: يا رسول الله متى الساعة؟ فقال: «**ما الذي أعددت لها؟**» قال: ما أعددت لها كثرة صلاة ولا صيام إلا أني أحب الله ورسوله، فقال ﷺ له: «**المرء**

(١) رواه البخاري (١٥-١٦)، ومسلم (٤٣-٤٤) بنحوه.

(٢) رواه الترمذي (٣٤٩٠) بنحوه، وقال: حسن صحيح.

مع من أحب»[1]، قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: من ذاق خالص محبة الله عز وجل شغله ذلك عن طلب الدنيا، وأوحشه عن جميع البشر.

فصل في بيان معنى المحبة:

وهو أن يميل الطبع إليه لكونه لذيذاً عنده، والبغض ضده، وهو نفرة الطبع لكونه غير موافق له، وكل ما زادت لذته كان أبلغ في الحب، فلذة العين في الإبصار، ولذة السمع في السماع، ولذة الشم في المشمومات الطيبة، وكذا كل واحد من الحواس له موافق يلتذ به فيحبه بسببه، وقال عليه الصلاة والسلام: «**حبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وقرة عيني في الصلاة**»[2]، بيَّن أن وراء المحسوس بالحواس محبوباً ملتذاً به إذ ليست الصلاة مما يلتذ به شيء من الحواس الخمسة، فإذاً البصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر، والقلب أشد إدراكاً من العين، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم وأتم من جمال الصورة الظاهرة، فلا محالة تكون لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجِلُّ عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ، فيكون ميل الطبع السليم إليه أبلغ وأقوى، ولا معنى للحب إلا الميل إلى ما في إدراكه لذة، فلا ينكر هذه اللذة إلا من قعد به القصور في درجة البهائم، فلم يجاوز إدراك الحواس أصلاً.

واعلم أن أحب الأشياء إلى الإنسان نفسه، لأنه أعظم الأشياء ملايمةً لنفسه، فهو محب لدوام نفسه، ثم من أحسن إليه إذ الإنسان عبدٌ للإحسان، وقد يحب الشيء لذاته، لكونه جميلاً حسناً في نفسه، وذلك أبلغ أنواع الحب الذي لا يشوبه غرض، فإن كل جمال محبوب، بقي أن المحبوس في مضيق الخيالات يظن أن لا جمال إلا المحسوس أو المتخيل، فنقول: اعلم أن الحَسَنَ الجميل عبارة عن كل ما حضر كماله الممكن له، حتى أنّا نعلم أن الفرس يَحسُن بما لا يَحسُن به

(١) رواه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).

(٢) رواه النسائي (٧/ ٦١) دون لفظ: (ثلاث).

الآدمي، والخط يحسن بما لا يحسن به الصوت والصورة، وكل ذلك محبوب، وإن تخيل متخيل أن ذلك راجع إلى الحسّ فالأخلاق الحسنة والعلم والقدرة والعقل كل ذلك حسن ومحبوب مع أنه غير محسوس بالحسّ الظاهر بل يدرك بنور البصيرة، وكذلك حب النبيّ ﷺ وأصحابه والشافعي وأرباب المذاهب ممكن وهو غير محسوس، وغير مدرك بالحواس الخمس، بل لما سمع باجتماع خصال الخير، وكل ما خرج من المحسوس واستحسن فهو مستحسن بنور البصيرة، وإذا ثبت هذا فلا مستحق للمحبة غير الله تعالى، إذ هو الخالق والواهب لأصل الفطرة، ثم هو سبب الدوام والبقاء والسلامة، وهو المحسن بكل حال، وهو الجميل الحسن الذي كل جمال وحسن أثر من آثار جوده، فمن أحب الأنبياء والصحابة والأئمة لاستجماعهم خصال الخير فكل خير منه وإليه، وله الجمال الذي كل جمال أثر من آثاره، وقد عرفت أن كل جميل محبوب لذاته، وقد عرفت أيضاً أن خاصيَّة الإنسان تمكنه من التحلي بالصفات الحميدة، حتى قيل: تخلقوا بأخلاق الله تعالى، ففي باطن الإنسان حقيقة لا يلائمها إلا الله تعالى، ففي القلب غريزة تسمى النور الإلهي، لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، وهذه الغريزة هي التي تدرك جمال الحضرة الربوبية بقدر قوَّته، وإذا كان الجمال محبوباً فهل في الوجود شيء أجلّ وأعلى وأشرف وأعظم وأكمل من كل جمال مستعار من فضله، فبقدر ما يُدرك يلتذّ، وبقدر ما يلتذّ يحب.

فصل:

اعلم أن المدركات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال كالصور، وإلى ما لا يدخل في الخيال كذات الله تعالى، وكل ما ليس بجسم ولا صورة كالعلم والقدرة والإرادة، ومن رأى إنساناً ثم غضَّ بصره، وجد صورته حاضرة في خياله وكأنه ينظر إليها، ولكنْ إذا فتح العين وأبصرَ أدرك تفرقة بينهما، ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين بل إلى مزيد وضوح وكشف، فهو كمن يرى شخصاً في وقت الإسفار قبل انتشار ضوء النهار ثم رآه في حال تمام طلوع الشمس، فإنه لا فرق في الأمرين إلا بمزيد الكشف والوضوح، فإذا عرفت هذا فاعلم أن سنَّة الله جارية بأن النفس ما دامت محجوبة بصفاتها الذميمة لا تصل إلى مشاهدة المعاني

الخارجة عن عالم الحس والخيال، بل تلك الصفات للنفس كالأجفان المطبقة للعين، فبقدر ما ينمحي من تلك الصفات تزداد كشفاً ووضوحاً ولذة وحباً.

بيان الأسباب المقربة لحب الله تعالى:

اعلم أن أسعد الخلق في الآخرة أقواهم حباً لله تعالى إذ الآخرة هي القدوم على الله تعالى ودرك لقائه، وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه، وتمكن من دوام النظر من غير مشوّش ولا مزاحم، ولزيادة الحب سببان:

أحدهما: خلو القلب عما سواه، فإن الإناء كلما خلا عن شيء اتسع لغيره، وقطعُ العلائق سبب للتجريد والتفريد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ﴾ [الأنعام: ٩١].

والسبب الثاني: هو كمال المعرفة.

فالأول مثاله: تطهير الأرض عن الشوك والحشيش، والثاني مثاله: وضع البذر في الأرض لينمو فيتولد منه شجرة المعرفة، وهي الكلمة الطيبة، كما قال تعالى: ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]. والله اعلم.

فصل في الشوق:

وإذا ثبتت المحبة صحَّ الشوق إلى المحبوب، ودلت عليه الأخبار والآثار فقد روي أن أبا الدرداء قال لكعب: أخبرني عن أخصّ آية في التوراة، فقال: يقول الله عز وجل: طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً، قال: ومكتوب في جنبها: من طلبني وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني، فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ: يقول هذا.

وفي أخبار داود عليه السلام أن الله تعالى قال: يا داود بَلِّغْ أهلَ أرضي أني حبيب لمن أحبَّني، وجليس لمن جالسني ومؤنس لمن أَنِسَ بذكري، وصاحب لمن صاحبني، ومختار لمن اختارني، ومطيع لمن أطاعني، ما أحبني عبد أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلا قَبِلْته لنفسي، وأحببته حباً لا يتقدم عليه أحد من خلقي، من طلبني بالحق وجدني ومن طلب غيري لم يجدني، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه

من غرورها ، وهلموا إلى كرامتي ومصاحبتي، وائنسوا بي أونسكم وأسارع إلى محبتكم، فإني خلقت طينة أحبابي من طينة إبراهيم خليلي وموسى نجيِّي ومحمد صفوتي، إني خلقت قلوب المشتاقين من نوري ونعمتها بجلالي.

وروي عن بعض السلف أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصدِّيقين أن لي عباداً من عبادي يحبونني وأحبهم، ويشتاقون إليَّ وأشتاق إليهم، ويذكرونني وأذكرهم، وينظرون إليَّ وأنظر إليهم، فإن حذوتَ طريقتهم أحببتك، وإن عدلتَ عنهم مقتُّك، قال: يا رب ما علامتهم؟ قال: يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي الشفيق غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما تَحنّ الطير إلى أوكارها عند الغروب، فإذا أجنَّهم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الأسرَّة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا لي أقدامهم وفرشوا إلي وجوههم، وناجوني بكلامي، وتملقوا لي بإنعامي، ما بين صارخ وباك، ومتأوه وشاك، وبين قائم وقاعد، وبين راكع وساجد، بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشكون من محبتي، أول ما أعطيهم ثلاث: إحداهن أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم، والثانية لو كانت السماوات والأرض وما فيهما في موازينهم لاستقللتها لهم، والثالثة أقبل بوجهي عليهم، أفترى من أقبلت بوجهي عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيَه.

وفي خبر داود عليه السلام: إن الله تعالى أوحى إليه: يا داود إلى كم تذكر الجنة ولا تسألني الشوق إلي، قال: يا رب من المشتاقون إليك؟ قال: إن المشتاقين إلي صفيتهم من كل كَدَر، ونبهتهم بالحذر، وخرقت من قلوبهم إليَّ خرقاً ينظرون إلي، وإني لأحمل قلوبهم بيدي فأضعها على سمائي، ثم أدعو نُجَبَاءَ ملائكتي فإذا اجتمعوا سجدوا لي، فأقول: إني لم أدعُكُم لتسجدوا لي، وإنما دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين، وأباهي بأهل الشوق إليَّ، وإن قلوبهم لتضيء في سمائي لملائكتي كما تضيء الشمس لأهل الأرض، يا داود: إني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني، ونعمتها بنور وجهي، واتخذتهم لنفسي محدثين، وجعلت أبدانهم موضع نظري إلى الأرض، وقطعت من قلوبهم طريقاً ينظرون به إلي، يزدادون في كل يوم شوقاً، قال داود: رب أرني أهل محبتك، قال: يا داود ائت جبل لبنان فإن فيه أربعة عشر نفساً، فيهم شبان، وفيهم كهول، وفيهم مشايخ،

فإذا أتيتهم أقرئهم مني السلام، وقل لهم: إن ربكم يقرئكم السلام، ويقول لكم: ألا تسألون حاجة؟ فإنكم أحبابي وأصفيائي وأوليائي، أفرح لفرحكم، وأسارع إلى محبتكم، فأتاهم داود فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون في عظمة الله تعالى، فلما نظروا إلى داود نهضوا ليتفرقوا عنه، فقال داودِ عليه السلام: إني رسول الله إليكم، جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم، فأقبَلُوا نحوه، وألقوا بأسماعهم نحو قوله، وألقوا أبصارهم إلى الأرض، فقال داود: إني رسول الله إليكم، إن الله يقرئكم السلام ويقول لكم: ألا تسألون حاجة، ألا تنادوني أسمع أصواتكم وكلامكم وأنظر إليكم في كل ساعة نظرة الوالدة الشفيقة الرفيقة؟ قال: فجرت دموعهم على خدودهم، فقال شيخهم: سبحانك، سبحانك، نحن عبيدك وبنو عبيدك، فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من عمرنا.

وقال الآخر: سبحانك، سبحانك، نحن عبيدك وبنو عبيدك، فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك.

وقال الآخر: سبحانك، سبحانك، نحن عبيدك وبنو عبيدك، أفنجترئ على الدعاء وقد علمت أنه لا حاجة لنا في شيء من أمورنا، فأَدِمْ لنا لزوم الطريق إليك، وأتمم تلك المنة علينا.

وقال الآخر: من نطفة خلقتنا، ومَنْنتَ علينا بالتفكر في عظمتك، أفيجترئ على الكلام من هو مشغول بعظمتك، متفكر في جلالك، وطُلبتنا الدنو من نورك.

وقال الآخر: كلَّت الألسنة عن دعائك لعظم شأنك وقربك من أوليائك، وكثرة منتك على أهل محبتك.

وقال الآخر: أنت هديت قلوبنا لذكرك، وفرغتنا للاشتغال بك، فاغفر لنا تقصيرنا في شكرك.

وقال الآخر: قد عرفت حاجتنا، إنما هي النظر إلى وجهك الكريم.

وقال الآخر: نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا.

وقال الآخر: لا حاجة لنا بشيء من خلقك، فامنن علينا بالنظر إلى جمال وجهك الكريم.

وقال الآخر: أسألك من بينهم أن تعمي عيني عن النظر إلى الدنيا وأهلها، وقلبي عن الاشتغال بالآخرة.

وقال الآخر: قد عرفتُ أنك تباركت وتعاليت تحب أولياءك فأمنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء سواك.

فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: قل لهم: قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتم، فليفارق كل واحد منكم صاحبه، وليتخذ لنفسه سرباً، فإني كاشف الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى نوري وجمالي، فقال داود: يا رب بم نالوا منك؟ فقال: بحسن الظن، والكفِّ عن الدنيا وأهلها، والخلوات بي، ومناجاتهم لي، وإن هذا منزل لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها، ولم يشتغل بشيء من ذكرها، وفرَّغ قلبه إليَّ، واختارني على جميع خلقي، فعند ذلك أعطف عليه، وأفرغ نفسه، وأكشف الحجاب فيما بيني وبينه، حتى ينظر إلي نظر الناظر بعينه إلى الشيء، وأريه كرامتي في كل ساعة أقربه من نور وجهي، إن مرض مرضته كما تمرِّض الوالدة الشفيقة ولدها، وإن عطش أرويتُه، وأذيقه طعم ذكري، فإذا فعلتُ ذلك به يا داود أعميت نفسه عن الدنيا وأهلها، ولم أحببها إليه، لا يفتر عن الاشتغال بي، يستعجلني القدوم وأنا أكره أن أميته، لأنه موقع نظري من بين خلقي، لا يرى غيري ولا أرى غيره، فلو رأيته يا داود وقد ذابت نفسه، ونَحِل جسمه، وتهشَّمت أعضاؤه، وانخلع قلبه إذا سمع بذكري، أباهي به ملائكتي وأهلَ سماواتي، يزداد خوفاً وعبادةً، وعزتي وجلالي يا داود لأقعدنه في الفردوس، ولأشفين صدره من النظر إلي حتى يرضى وفوق الرضا.

وفي أخبار داود أيضاً عليه السلام: قل لعبادي المتوجهين إليَّ بمحبتي ما ضرَّكم إذا احتجبتم عن خلقي، ورفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إليَّ بعيون قلوبكم، وما ضرَّكم ما زويت عنكم الدنيا إذا بسطتُ يدي لكم، وما ضرَّكم مسخطةُ الخلق إذا التمستم رضايَ.

وفي أخبار داود عليه السلام: إن الله تعالى أوحى إليه: تزعم أنك تحبني، فإن كنت تحبني فأخرج حب الدنيا من قلبك، فإن حبِّي وحبَّها لا يجتمعان في قلب، يا داود خالص أهلَ محبتي مخالصة، وخالط أهل الدنيا مخالطة، ودينك فقلدنيه، ولا تقلد دينك الرجال، أما ما استبان لك مما وافق محبتي فتمسك به، وأما ما أشكل عليك فقلدنيه، حقاً عليَّ أن أسارع إلى سياستك وتقويمك، وأكون قائدك ودليلك، أعطيك من غير أن تسألني، وأعينُك على الشدائد، فإني قد حلفت على نفسي أن لا أثيب عبداً إلا عبداً عرفت من طلبه وإرادته خوف المقام بين يدي، وأنه لا غنى به عني، فإذا كنت كذلك نزعتُ الذلة والوحشة عنك، وأُسكن الغنى قلبَك، وإني قد حلفت على نفسي أنه لا يطمئن عبدٌ إلى نفسه وينظر إلى أفعالها إلا وكلته إليها، وأضِفِ الأشياء إليَّ لا تضاد عملك فتكون متعنتاً، ولا ينتفع بك من يصحبك، ولا تحدَّ لمعرفتي حداً فليس لها غاية، ومتى طلبت مني الزيادة أعطيتك ولا تجد للزيادة مني حداً، ثم أعِلمْ بني إسرائيل أنه ليس بيني وبين أحد من خلقي نسبٌ، فلتعظم رغبتهم وإرادتهم فيما عندي أُبِحْ لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ضعني بين عينيك، وانظر إلي ببصر قلبك، ولا تنظر بعينيك إلى الذين حجبت قلوبهم عني، فإني حلفت: وعزتي وجلالي لا أفتح ثوابي لعبد دخل في طاعتي للتجربة والتسويف، يا داود تواضع لمن تعلمه، ولا تتطاول على المريدين، فلو علم أهل محبتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم أرضاً يمشون عليها، يا داود لأن تُخرج مريداً من سكرة هو فيها تستنقذه منها أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، فأكتبك عندي جهبذاً، ومن كتبته عندي جهبذاً لا تكون عليه وحشة وَلا فاقة إلى المخلوقين، يا داود تمسك بكلامي، وخذ من نفسك لنفسك، ولا تؤتين منها فأحجب عنك محبتي، لا تؤيس عبادي من رحمتي أقطع شهوتك إلي، فإنما أبحت الشهوات لضعفة خلقي، وما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات، فإنها تنقص حلاوة مناجاتي، وإنما عقوبة الأقوياء عندي في موضع التناول، وأدنى ما يصل إليهم أن أحجب عقولهم عني، فإني لم أرض الدنيا لحبيبي، ونزهته عنها، يا داود لا تجعل بيني وبينك عالماً أسكره حب الدنيا، فيحجبك بسكره عن محبتي، أولئك قطاع الطريق على عبادي المريدين، استعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم، وإياك والتخمة في الإفطار، فإن محبتي للصوم إدمانه، يا داود تحبب إليَّ

بمعاداة نفسك ومنعها الشهوات أنظر إليك، وترى الحُجُبَ بيني وبينك مرفوعة، إنما أداريك مداراة لتقوى على ثوابي إذا مننت به عليك، ولن أحبسه عنك وأنت متمسك بطاعتي.

وهذه الأخبار دلّت على إمكان الشوق، والله أعلم .

بيان محبة الله تعالى للعبد:

فقد دلت عليه الآيات والآثار قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ الآية [الصف: ٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وروى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له»**[1]، ثم تلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ومعناه: إذا أحبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت، كما لا يضره الكفر الماضي بعد الإسلام، وقد اشترط الله تعالى لمحبته غفران الذنب فقال: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال ﷺ: **«إن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا لمن يحب»**[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: **«من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله، ومن أكثر ذكر الله أحبه الله»**[3].

وقال تعالى [في الحديث القدسي]: **«فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به..»**[4] الحديث.

---

(١) قال الحافظ العراقي: ذكره صاحب (الفردوس) ولم يخرجه ولده في (مسنده)، وروى ابن ماجه الشطر الثاني (٤٢٥٠) من حديث ابن مسعود، وتقدم في التوبة. اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه الحاكم (١/ ٣٣، ٣٤) وصحح إسناده [ووافقه الذهبي]، والبيهقي في (الشعب) (٥٥٢٤) من حديث ابن مسعود. اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه ابن ماجه (٤١٧٦) من حديث أبي سعيد بإسناد حسن، دون قوله: «ومن أكثر ... إلى آخره»، ورواه أبو يعلى (١١٠٩) وأحمد (٣/ ٧٦) بهذه الزيادة وفيه ابن لهيعة. اهـ

(٤) رواه البخاري (٦٥٠٢).

وقال زيد بن أسلم[1]: إن الله تعالى ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول: اعمل ما شئت فقد غفرت لك.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**قال الله تعالى: لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**»[2] الحديث.

وعلامة حب الله تعالى العبد أن يوحشه من غيره، ويحول بينه وبين جميع أسبابه، وقال ﷺ: «**إذا أحب الله عبداً ابتلاه، فإن أحبه الحب البالغ اقتناه**»، قيل: وما اقتناه؟ قال ﷺ: «**لم يترك له مالاً وأهلاً**»[3].

وقيل لعيسى عليه السلام: لِمَ لَم تشتر حماراً فتركبه؟ فقال: أنا أعز على الله من أن يشغلني عن نفسه بحمار.

وفي الخبر: «**إذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن رضي اصطفاه**»[4].

وقالوا: من علامة حب العبد لله عز وجل أن يؤثر من يحبه الله عز وجل على محبوب نفسه، وأن يكثر ذكره فلا يفتر، وتكون الخلوة والمناجاة أحب إليه من الاشتغال بغيره.

بيان فضيلة الرضا:

قال الله تعالى: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩].

وفي الحديث: «**إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول: سلوني، فيقولون: رضاك**»[5] فسؤالهم الرضا بعد النظر غاية التفضيل.

---

(١) زيد بن أسلم، تقدمت ترجمته صفحة (١٨٩).

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني. اهـ

(٤) قال الحافظ العراقي: ذكره صاحب (الفردوس) من حديث علي بن أبي طالب ولم يخرجه ولده في (مسنده). اهـ

(٥) قال الحافظ العراقي: رواه البزار والطبراني في (الأوسط) (٢/ ٣١٥) من حديث أنس في حديث =

وروي أنه عليه الصلاة والسلام سأل طائفة من أصحابه فقال: «**ما أنتم؟**» فقالوا: مؤمنون. فقال: «**ما علامة إيمانكم؟**» فقالوا: نصبر عند البلاء، ونشكر عند الرخاء، ونرضى بمواقع القضاء، فقال ﷺ: «**مؤمنون وربِّ الكعبة**»[1].

وفي خبر آخر أنه قال: «**حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء**».

وقال موسى عليه السلام: يا رب دلني على أمر فيه رضاك حتى أعمله، فأوحى الله تعالى إليه: إن رضائي في كرهك، وأنت لا تصبر على ما تكرهه، فقال: يا رب دلني عليه، قال: فإن رضائي في رضاك بقضائي.

واعلم أن الرضى باب الله تعالى الأعظم، فمن وجد إليه سبيلاً فهو أعلى الدرجات والرتب.

فصل:

ومما جاء في حكايات المحبين: (ما حكي) أن أبا تراب النخشبي[2] كان معجباً ببعض المريدين، وكان يدنيه ويقوم بمصالحه، والمريد مشغول بعبادته ومواجيده، فقال له أبو تراب يوماً: لو رأيت أبا يزيد[3]، فقال المريد: إني عنه مشغول، فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله: لو رأيت أبا يزيد، هاج وَجْدُ المريد، وقال: ويحك ما أصنع بأبي يزيد وقد رأيت الله تعالى فأغناني عن أبي يزيد. فقال أبو تراب: فهاج طبعي، ولم أملك نفسي، فقلت: ويلك تغترّ بالله تعالى، لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة، قال: فبهت الفتى من قولي وأنكره، قال: وكيف ذلك؟ فقلت له: ويلك إنما ترى الله تعالى عندك، فيظهر

= طويل بسند فيه لين، وفيه: «**فيتجلى لهم يقول: أنا الذي صدقتكم وعدي وأتممت عليكم نعمتي وهذا محل إكرامي فسلوني، فيسألونه الرضا..**» الحديث، ورواه أبو يعلى (٤٢٢٨) بلفظ: «**ثم يقول: ماذا تريدون؟ فيقولون: ربنا رضوانك..**» ورجاله رجال الصحيح. اهـ

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني في الأوسط (٩٤٢٧) من رواية يوسف بن ميمون، وهو منكر الحديث عن عطاء. اهـ

(٢) هو: **أبو تراب عسكر بن حصين النخشبي**، من جلة مشايخ خراسان، والمذكورين بالعلم والفتوة والتوكل والزهد والورع، توفي في البادية سنة ٢٤٥ هـ «طبقات الصوفية» (ص: ١٤٦).

(٣) **أبو يزيد البسطامي**، تقدمت ترجمته صفحة (٢٩٥).

لك على مقدارك، وترى أبا يزيد عند الله تعالى قد ظهر له مقداره، فعرف ما قلت، فقال: احملني إليه، فذكر قصة قال في آخرها: فوقفنا على تل ننتظره ليخرج علينا من الغيضة، وكان يأوي إلى غيضة فيها سباع، قال: فمر بنا وقد قلب فروة على ظهره، فقلت للفتى: هذا أبو يزيد، فنظر إليه الفتى فصعق صعقة، فحركناه فإذا هو ميت، فتعاونَّا على دفنه، فقلت لأبي يزيد: تلميذي نظره إليك قتله، قال: لا ولكن كان صاحبك صادقاً، واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه، فلما رآنا انكشف له سر قلبه فضاق عن حمله لأنه في مقام الضعفاء المريدين فقتله ذلك.

وفي الأخبار أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه: إنما أتخذ لخلَّتي من لا يفترُ عن ذكري ولا يكون له غيري، ولا يؤثر عليَّ شيئاً من خلقي، وإن أُحرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعاً، وإن تقطع بالمناشير لم يجد من الحديد ألماً.

فمن لم يغلبه الحب إلى هذا الحد، فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات، وكل ذلك وراء الحب، والحب وراء الإيمان، وفي الحديث: «**إن لله تعالى ثلثمائة خُلُق، من لقيه بخُلُق منها مع التوحيد دخل الجنة**»، فقال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: هل فيَّ خُلُقٌ منها؟ فقال: «**كلها فيك يا أبا بكر، وأحبها إلى الله تعالى السخاء**»[1]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**رأيت ميزاناً دلّي من السماء، فوُضِعْتُ في كَفَّة، ووُضِعَتْ أمتي في كفة، فرجحتُ بهم، ووضع أبو بكر في كفة، وجيء بأمتي فوضعت في كفة فرجح بهم**»[2]. ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله ﷺ بالله تعالى بحيث لا يسع قلبه للخلة مع غيره، ولذلك قال: «**لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله تعالى**»[3].

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني في الأوسط (١٠٩٧) من حديث أنس مرفوعاً عن الله: «**خلقت بضعة عشر وثلاثمائة خلق من جاء بخلق منها مع شهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة**»، و(٨٧٠٩) من حديث ابن عباس: «**الإسلام ثلاثمائة شريعة وثلاثة عشر شريعة ليس منها شريعة يلقى الله بها صاحبها إلا وهو يدخل بها الجنة**»، وفيه (٧٣١٠) وفي (الكبير) من رواية المغيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه بلفظ: «**الإيمان**» وللبزار من حديث عثمان بن عفان: «**إن لله تعالى مائة وسبعة عشر شريعة. .**» الحديث وليس فيها كلها تعرض لسؤال أبي بكر وجوابه وكلها ضعيفة. اهـ

(٢) رواه الإمام أحمد (٥/ ٢٥٩) من حديث أبي أمامة بسند ضعيف.

(٣) رواه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢-٢٣٨٣).

وقال الشبلي[1] رضي الله عنه: الحب دهشة في لذة، وحيرة في تعظيم.

وقال: الشوق نار الله، أشعلها في قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والإرادات والحاجات والعوارض. فافهم تغنم، والله اعلم بالصواب.



(١) هو: أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي، بغدادي المولد والمنشأ، صحب الجنيد ومن في عصره، وكان شيخ وقته حالاً وظرفاً وعلماً، مالكي المذهب، توفي سنة ٣٣٤هـ. «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٣٦٧).

الباب السابع والثلاثون

في النية والإخلاص والصدق

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢] والمراد بتلك الإرادة النية.

وقال ﷺ: **«إنما الأعمال بالنيَّات»**[١]، وقال عليه الصلاة والسلام: **«الناس أربعة: رجل آتاه الله تعالى علماً ومالاً، فهو يعمل بعمله في ماله، فيقول رجل: لو آتاني الله تعالى مثل ما آتى فلاناً كنت أعمل كما عمل، فهما في الأجر سواء»**[٢].

وفي حديث الأحنف: **«إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»** قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: **«لأنه أراد قتل صاحبه»**[٣].

وقال عليه الصلاة والسلام: **«من تطيب لغير الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة، ومن تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك»**[٤].

---

(١) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه ابن ماجه من حديث أبي كبشة الأنماري (٣٢٢٨) بسند جيد بلفظ: **«مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر..»** الحديث، ورواه الترمذي (٢٣٢٥) بزيادة، وفيه: **«إنما الدنيا لأربعة نفر..»** الحديث وقال: حسن صحيح. اهـ

(٣) رواه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه أبو الوليد الصفار في كتاب (الصلاة) من حديث إسحق بن أبي طلحة مرسلاً. اهـ

بيان حقيقة النية:

اعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد، وهو حال وصفة للقلب، يكتنفها اقتران علم وعمل، العلم له كالتقدمة والشرط، والعمل يتبعه، فالنية هي عبارة عن الإرادة المتوسطة بين العلم السابق والعمل اللاحق، فيعلم الشيء فتنبعث إرادته ليعمل على وفق العلم، وقوله ﷺ: «**نية المؤمن خير من عمله، ونية الفاسق شر من عمله**»[1] فإن قوبل العمل بلا نية، والنية بلا عمل، فلا شك أن النية بلا عمل خير من العمل بلا نية، وإن وزن العمل الذي تقدم عليه النية بتلك النية السابقة، فالنية أيضاً خير لأنها هي الإرادة المنبعثة من أصل العلم، وهي أقرب إلى القلب، فعلى كل حال نية المؤمن خير من عمله كما نطق به الحديث، أما الأعمال فهي منقسمة إلى المعاصي والطاعات والمباحات، فما كان في نفسه معصية لا يصير بالنية عبادة، أما الطاعات فلا بد فيها من النية، فلا يصير أصلها طاعة إلا بالنية، ثم بدوام النية وحسن النية يضاعف درجة الطاعة، ورُبَّ فعل هو فعل واحد من حيث العدد، ويمكن أن يصير بسبب حسن النية عبادات، كما لو جلس في المسجد فنوى زيارة الله سبحانه وتعالى، كما ورد في الخبر: «**إن من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى، وحق على المزور أن يكرم الزائر**»[2]، ونوى انتظار الصلاة، والمنتظر للصلاة في صلاة، ونوى الاعتكاف في المسجد، ونوى كف الجوارح عن المعاصي والتحصن بالمسجد، ونوى الاستماع إلى ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، فكل ذلك خيرات تترادف وتكتسب بالنية، فأما المباحات فتصير عبادات بحسن النية، وهذا الفن ينبغي أن يقع الاعتناء به، وفيه تصير جميع الحركات والسكنات عبادات بحسن النية، فيفضي به إلى أن لا يضيع من عمره لحظة واحدة، ويتميز عن البهائم بذلك، فإن من شأن البهائم الإتيان بما يتفق من

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني [في الكبير (٥٩٤٢)] من حديث سهل بن سعد، ومن حديث النواس بن سمعان وكلاهما ضعيف اهـ، ورواه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٥٥)، والخطيب. اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه ابن حبان في (الضعفاء) (٦٥٢) من حديث سليمان، والبيهقي في (الشعب) (٢٩٤٣) نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يسموا بإسناد صحيح. اهـ

غير قصد ونية، وقد قال ﷺ: «**إن العبد ليسئل يوم القيامة عن كل شيء، حتى عن كحل عينيه، وعن فتات الطين بأصبعيه، وعن لبسه ثوب أخيه**»(١) ومن حافظ على أعماله لتكون على قدر السنة ونية الخير كان من المقربين، وقد قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٨].

وقال بعض السلف: كتبت كتاباً فأردت أن أترّبه من منزل جار لي، فتحرجت، ثم قلت: تراب، وما تراب؟ فترَّبته، فهتف بي هاتف: سيعلم من استخف بتراب ما يلقى غداً من سوء الحساب.

وصلى رجل مع الثوري فرآه منقلب الثوب فعرفه، فمد يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوّه، فسأله عن ذلك، قال: إني لبسته لله ولا أريد أن أسويه لغير الله.

قال الحسن: إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة، فيقول: بيني وبينك الله، فيقول: والله ما أعرفك؟ فيقول: بلى أنت أخذت لبنة من حائطي، وأخذت خيطاً من ثوبي.

بيان أن النية لا تدخل تحت الاختيار:

فنقول: ربما سمع الجاهل كلامنا في النية فيقول: أنا أنوي أن أدرس لله، أو أتّجر لله، أو آكل لله، وهيهات هيهات، إنما ذلك حديث نفس، وانتقال من خاطر إلى خاطر، والنية بمعزل عن ذلك، وإنما النية انبعاث النفس وميلها إلى ما ظهر لها من الغرض المهم المطلوب له، إما عاجلاً أو آجلاً، والميل ما لم يكن في الباطن لا يمكن اكتسابه واختراعه بالكسب والتكلف، بل ذلك يرجع حاصله إلى نقل خاطر من شيء إلى شيء، كما يقول الشبعان: نويت أن أجوع، أو آكل بسبب الجوع، أو يقول الفارغ: نويت أن أعشق فلاناً أو أحب أو أحترم، وليس ذلك في باطنه، فهو محال، فما لم يتقدم سبب ذلك لا يتصور انبعاث النفس، إذ الانبعاث إجابة للداعية والغرض الباعث، وهذا مثاله النكاح، فإن من غلبت الشهوة عليه وأراد النكاح ثم أراد أن يتكلف نية الاقتداء برسول الله ﷺ وسنته ونية الولد الصالح

---

(١) قال الحافظ العراقي: لم أجد له إسناداً. اهـ

فذلك لا يتأتى، لأنه ليس في باطنه هذه البواعث، بل في باطنه الشهوة فحسب، وقد نقل عن بعض السلف التأخر عن جملة من القربات لتخلف النية، حتى أن ابن سيرين[1] تخلف عن الصلاة على الحسن البصري[2] فقال: ليس يحضرني نية. ومات حماد بن أبي سليمان[3]، وكان من أعيان علماء الكوفة، فقيل للثوري[4]: ألا تشهد جنازته، فقال: لو كانت لي نية لفعلت، وكان طاووس[5] لا يحدِّث إلا بنيَّة، فكان يسأل أن يُحَدِّث فلا يُحَدِّث، فقيل له في ذلك، فقال: أتحبون أن أحدث بغير نية؟ إذا حضر لي نية فعلت، وقيل لطاووس: ادع لنا، فقال: حتى أجد له نية.

فصل في الإخلاص:

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٣].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**يقول الله تعالى: الإخلاص سرٌّ من سرِّي، استودعته قلب من أحببته من عبادي**»[6]

---

(١) هو: **محمد بن سيرين أبو بكر الأنصاري**، مولى أنس بن مالك رضي الله عنه، كان فقيهاً عالماً ورعاً أديباً كثير الحديث صدوقاً بشهادة أهل العلم والفضل، توفي سنة ١١٠هـ. «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٦٠٦).

(٢) **الحسن البصري**، تقدمت ترجمته ص (٤٠).

(٣) هو: **حماد بن أبي سليمان مسلم الكوفي**، مولى الأشعريين، فقيه العراق، روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وتفقه بإبراهيم النخعي، وهو شيخ أبي حنيفة، توفي سنة ١٢٠ هـ. «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٣١).

(٤) **سفيان الثوري**: تقدمت ترجمته ص (٣١).

(٥) هو: **طاووس بن كيسان** الفقيه القدوة عالم اليمن، أبو عبد الرحمن الفارسي، سمع من زيد بن ثابت وعائشة وأبي هريرة وزيد بن أرقم وابن عباس رضي الله عنهم، كان من عباد اليمن ومن سادات التابعين، مستجاب الدعوة، حج أربعين حجة، توفي بمكة سنة ١٠٦ هـ. «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٨).

(٦) قال الحافظ العراقي: رويناه في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلاً، يقول كل واحد من رواته سألت فلاناً عن الإخلاص فقال، وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمي عن عبد الواحد بن زيد، عن الحسن، عن حذيفة، عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله تعالى، وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك، وهما من الزهاد، ورواه أبو القاسم القشيري في (الرسالة) من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف. اهـ

وكان في بني إسرائيل رجل عابد، كان يعبد الله تعالى دهراً طويلاً، فجاءه قوم، فقالوا: إن ههنا قوماً يعبدون شجرة من دون الله تعالى، فغضب لذلك، فأخذ فأسه على عاتقه، وقصد الشجرة ليقطعها، فاستقبله إبليس في صورة شيخ، فقال: أين تريد؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة، فقال: وما أنت وذاك، تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك، قال: إن هذا من عبادتي، قال: إني لا أتركك أن تقطعها، فقاتله، فأخذه العابد وطرحه على الأرض وقعد على صدره، فقال إبليس: أطلقني حتى أكلمك، فقام عنه، وقال له إبليس: يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك، أنت ما تعبدها، وما عليك من غيرك، ولله تعالى أنبياء في الأرض، ولو شاء لبعثهم إلى أهلها، وأمرهم بقطعها، فقال العابد: لابد لي من قطعها، فقاتله الشيطان، فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره، فعجز إبليس فقال له: هل لك في أمر يفصل بيني وبينك، وهو خير لك وأنفع، قال: وما هو؟ قال: أطلقني حتى أقول لك، فأطلقه، فقال إبليس: أنت رجل فقير لا شيء لك، إنما أنت كَلٌّ على الناس يعولونك، ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك، وتواسي جيرانك، وتشبع وتستغني عن الناس، قال: نعم، قال: فارجع عن هذا الأمر، ولك علي أن أجعل عند رأسك كل ليلة دينارين، إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك، وتصدقت على إخوانك، ويكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها، ولا يضرهم قطعها، ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطع هذه الشجرة، فتفكر العابد فيما قال، وقال: صدق الشيخ، لست نبياً فيلزمني قطع هذه الشجرة، ولا أمرني الله تعالى أن أقطعها فأكون عاصياً بتركها، وما ذكره أكثر منفعة، فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له، فرجع العابد إلى متعبده، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما، وكذلك الغد، ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئاً، فغضب وأخذ فأسه على عاتقه، فاستقبله إبليس في صورة الشيخ، فقال: إلى أين؟ فقال: أقطع تلك الشجرة، فقال: كذبت والله، ما أنت بقادر عليها، ولا سبيل لك إليها، قال: فتناوله العابد ليأخذه كما فعل أول مرة، فقال: هيهات، فأخذه إبليس وصرعه، فإذا هو كالعصفور بين رجليه، وقعد إبليس على صدره، وقال: لتنتهين عن هذا الأمر وإلا قتلتك، فنظر العابد فإذا لا طاقة له به، فقال: يا هذا غلبتني خَلِّ عني، وأخبرني كيف غلبتك أول مرة،

وغلبتني الآن؟ فقال: لأنك غضبت أول مرة لله تعالى، وكانت نيتك الآخرة، فسخرني الله تعالى لك، وهذه المرة غضبتَ لنفسِكَ والدنيا فصرعتُك.

وهذه الحكاية تصديق لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٤٠].

وكان معروف[1] يضرب نفسه ويقول: يا نفس أخلصي تَخلُصي.

بيان حقيقة الإخلاص:

اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفى عن شوبه وتخلص عنه سمي خالصاً، ويسمى الفعل المصفى المخْلَص إخلاصاً، قال الله تعالى: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]، فإذا خلص الفعل عن الرياء وكان لله تعالى كان خالصاً.

بيان أقاويل المشايخ في الإخلاص:

قال السُّوسي: الإخلاص فقد رؤية الإخلاص، لأن من شاهد في إخلاصه الإخلاص احتاج إخلاصه إلى إخلاص.

وقيل لسهل: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص، إذ ليس لها فيه نصيب، وقال: الإخلاص سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة.

وقال الجنيد: الإخلاص تصفية الأعمال من الكَدَرات.

وقال الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيه الله تعالى منهما.

وقيل: الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها، والله اعلم.

---

(١) هو: معروف الكرخي، علم الزهاد، بركة العصر، أبو محفوظ البغدادي، واسم أبيه فيروز، قيل: كان أبواه نصرانيين فأسلماه إلى مؤدب كان يقول له: قل ثالث ثلاثة فيقول معروف: بل هو الواحد، فيضربه فيهرب، ثم إن أبويه أسلما، توفي سنة ٢٠٠هـ. «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٣٣٩).

بيان حقيقة الصدق:

قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عنه الله كذاباً**»(١) وقال تعالى في معرض المدح: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم: ٤١].

بيان معنى الصدِّيق:

اعلم أن لفظ الصدق مستعمل في ستة مواضع: صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العلم، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها، فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صدِّيق لأنه مبالغة من الصِّدْق، وبقدر ما يتمكن من هذه المقامات فهو صادق بالنسبة إليه، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.



(١) رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

الباب الثامن والثلاثون

في المراقبة والمحاسبة

اعلم أن الإيمان بالحساب يوم العرض الأكبر يوجب تعجيل المحاسبة والاستعداد، قال عليه الصلاة والسلام: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا**»[1]، وقال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

واعلم أن من حاسب نفسه على اللحظات والخطرات خفَّت في القيامة حسراته، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته، وكثرت في عرصات القيامة وقفاته، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فرابطوا أنفسكم أولاً بالمشارطة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقبة، ثم بالمجاهدة، ثم بالمعاتبة، فهذه ست مقامات، ونحن نشرح ذلك:

المقام الأول: المشارطة: اعلم أن العقل هو التاجر في طريق الآخرة، وشريكه النفس، إذ بمعاونتها يصل إلى المقصود، وهذا الشريك لا يؤدي الأمانة إن خلّي ورأيه إلا حياءً ورياءً، فيحتاج العقل إلى مشارطته أولاً، ومراقبته ثانياً،

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) موقوفاً على عمر رضي الله عنه، ولا يصح من قول النبي ﷺ.

ومحاسبته ثالثاً، ومعاقبته بعد ذلك، فيوظف عليه الأمر، ويشرط عليه الشروط، ويرشده إلى طريق الفلاح، ويجزم عليه الأمر.

المقام الثاني: المراقبة: لأنه إذا كانت النفس كالشريك الخائن فلا سبيل إلى إهمالها لحظة لئلا تخون فيفسد رأس المال فضلاً عن الربح، فإذاً لا بد من المراقبة على الدوام في السكنات والحركات واللحظات، قال عليه الصلاة والسلام: «**اعبد الله تعالى كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وقال المرتعش[2]: المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة.

المقام الثالث: محاسبة النفس بعد العمل: قال الله تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨].

وفي الخبر: «**ينبغي أن يكون للعاقل أربع ساعات، منها ساعة يحاسب فيها نفسه**»[3].

وعن عمر رضي الله عنه أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنح الليل، ويقول لنفسه: ماذا عملت؟.

فقد علمتَ بهذا أنه ينبغي لك أن تحاسب نفسك في آخر النهار على عمل اليوم.

المقام الرابع: المعاقبة: وذلك بأن يظهر تقصير النفس في الطاعات، وارتكابها المعاصي بعد الحساب، فلا ينبغي أن يهمل، لأنه إن أهملها سهل عليها الرجوع إلى مثلها، فإذا ظهر منها أكل لقمة بشبهة فليعاقبها بالجوع، وإذا نظرت إلى

---

(١) رواه مسلم (٨).

(٢) هو: المرتعش، أبو محمد، عبد الله بن محمد النيسابوري، لقي الجنيد وصحبه، وأقام ببغداد حتى صار أحد مشايخ العراق وأئمتهم، توفي سنة ٣٢٨هـ «طبقات الصوفية» (ص: ٣٤٩).

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه ابن حبان [في صحيحه (٢/٧٨)] من حديث أبي ذر، في حديث طويل: «إن ذلك في صحف إبراهيم». اهـ

غير مَحْرَم فليعاقبها بمنع النظر ومنع النوم، وكذا يعاقب كل طرف من أطرافه إذا طغى بمنع شهوته، كذلك نُقل عن سالكي طريق الآخرة.

المقام الخامس: المجاهدة: وذلك بأن تظهر خيانتها فيعاقبها، فلعلها لا تحتمل ولا تطيع فيجاهدها، ويحملها على المجاهدات الشاقة، مثلاً لو توانى عن صلاة الجماعة أو عن الإتيان بنافلة فيلزمها إحياء ليلة، وإن أبت فعلاجها أن تتلو على نفسك ما ورد من الأخبار والآيات في فضل المجاهدة.

المقام السادس: المعاتبة: اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، فقد خُلِقت أمارةً بالسوء، ميالةً إلى الشر، فرارةً من الخير، وأنت مأمور بمجاهدتها وحملها على عبادة ربك بالقهر، وتزكيتها بالعبادات وترك الشهوات، فإن أهملتها شردت وجمحت واستولت عليك فلا تطيعك بعد ذلك، وإن أَدَمْتَ توبيخها ومعاتبتها ربما أذعنت وترقَّت إلى أن صارت لوامة، وإن ترقت عن اللوامة صارت مطمئنة، فتدخل في عباد الله راضية مرضية، فلا تغفلن عنها ساعة، ولا تشتغل بوعظ غيرك ما لم تفرغ عنها، قال الله تعالى لعيسى عليه السلام: «يا ابن مريم عظ نفسك، فإن اتعظت فعظ الناس، وإلا فاستحي مني»، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الذاريات: ٥٥]، فعليك أن تقبل على نفسك، وتقرر عليها حماقتها وجهلها واغترارها، وتقول لها: أما تستحين أن تنسبي الناس إلى الحمق والجهل وأنت أجهل الناس، فإنك صائرة إلى الجنة أو إلى النار، فمالك تشتغلين باللهو والضحك وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم، فلعلك ترين الموت بعيداً وهو قريب، ولعله يكون اليوم أو الليلة أو غداً، وكل ما هو آت قريب، أما علمت أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول.

وحكي أن منصور بن عمار[١] قال: سمعت في بعض الليالي عابداً بالكوفة يناجي ربه ويقول: يا رب وعزتك ما أردت بمعصيتك مخالفتك، ولا عصيتك إذ

(١) هو: منصور بن عمار، أبو السَّرِيِّ، من أهل مَرْو، أقام بالبصرة وكان من أحسن الناس كلاماً في الموعظة، وكان من حكماء المشايخ، وأسند الحديث، وقال الذهبي: لم أجد وفاةً لمنصور وكأنها في حدود المئتين. اهـ «طبقات الصوفية» (ص: ١٣٠)، «سير أعلام النبلاء» (ج٩ ص٩٨).

عصيتك وأنا بمكانك جاهل، ولا لعقوبتك متعرض، ولا لنظرك مستخف، ولكن سوَّلت لي نفسي، وأعانني على ذلك شقوتي، وغرَّني سِترك المرخى عليَّ، فعصيتك بجهلي، وخالفتك بفعلتي، فمن عذابك الآن من يستنقذني؟ أو بحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عني؟ واسوأتاه من الوقوف بين يديك، إذا قيل للمخِفِّين جوزوا، وللمثقَلين حُطُّوا، أمع المخِفِّين أجوز أم مع المثقَلين أحطّ؟ ويلي كلما كبرَتْ سنِّي كثرت ذنوبي، ويلي كلما طال عمري كثرت معاصيَّ، فإلى متى أتوب؟ وإلى متى أعود؟ أما آن لي أن أستحي من ربي؟.

فإذن لك طريقان، طريق في معاتبة النفس، وطريق في مناجاة الرب تعالى وتقدس، والاستعانة به عليها، والتبري من الحول والقوة، والتضرع والاستكانة بين يديه لعله بفضله يكفيك شرها، والله اعلم.



الباب التاسع والثلاثون

في التفكر

قد ورد في السنة بأن «**تفكر ساعة خير من عبادة سنة**»[1]، والحث على التفكر والتدبر والنظر والاعتبار معلوم من الآيات والأخبار، إذ هو مفتاح الأنوار، ومبدأ الاستبصار، وشبكة العلوم.

أما فضيلته: فقد قال تعالى في معرض المدح: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال ابن عباس: إن قوماً تفكروا في الله عز وجل، فقال النبي ﷺ: «**تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله، فإنكم لن تقدروا قدره**»[2]، وعن النبي ﷺ أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون، فقال ﷺ: «**ما لكم لا تتكلمون؟**» قالوا: نتفكر في خلق الله تعالى، قال: «**فكذلك فافعلوا، تفكروا**

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن حبان في كتاب العظمة (٥/ ٢٩٩) من حديث أبي هريرة بلفظ: «**ستين سنة**» بإسناد ضعيف، ومن طريقه ابن الجوزي في (الموضوعات) (٢/ ٣٣٠) ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بلفظ: «**ثمانين سنة**» وإسناده ضعيف جداً، ورواه أبو الشيخ [في العظمة (٥/ ٢٩٧)] من قول ابن عباس بلفظ: «**خير من قيام ليلة**». اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أبو نعيم في (الحلية) (٦/ ٦٧) بالمرفوع منه بإسناد ضعيف، ورواه الأصبهاني في (الترغيب والترهيب) من وجه أصح منه، ورواه الطبراني في (الأوسط) (٦٣١٩) والبيهقي في (الشعب) (١٢٠) من حديث ابن عمر وقال: هذا إسناد فيه نظر، قلت: فيه الوازع بن نافع متروك. اهـ

في خلقه، ولا تتفكروا فيه، فإنَّ بهذا المغرب أرضاً بيضاء نورها بياضها، أو بياضها نورها، مسيرة الشمس أربعين يوماً، بها خلْقٌ من خَلقِ الله تعالى، لم يعصوا الله طرفة عين»، قالوا: يا رسول الله فأين الشيطان منهم؟ قال ﷺ: «ما يدرون خلق الشيطان أم لا؟» قالوا: من ولد آدم؟ قال: «لا يدرون خلق آدم أم لا؟»[1].

وعن عطاء قال: انطلقت يوماً أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها، وبيننا وبينها حجاب، فقالت: يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول رسول الله ﷺ: «زر غباً تزدد حبَّاً»، قال ابن عمير: حدثينا بأعجب ما رأيته من رسول الله ﷺ، فبكت، وقالت: كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي، فقال: ذريني أتعبد لربي عز وجل، فقام إلى القِربة فتوضأ منها، ثم قام يصلي فبكى حتى بلَّ لحيته، ثم سجد حتى بلَّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله وما يبكيك، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله تعالى علي في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]» ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»[2].

وقيل للأوزاعي: ما غاية التفكر فيهن؟ قال: يقرؤهن ويعقلهن.

قال الجنيد رضي الله عنه: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد، والتنسم بنسيم المعرفة، والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد، والنظر بحسن الظن بالله تعالى، ثم قال: يا لها من مجالس ما أجلها، ومن شراب ما ألذه، طوبى لمن رُزِقَه.

بيان حقيقة الفكر وثمرته:

اعلم أن الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منها معرفة ثالثة، ومثاله

(١) قال الحافظ العراقي: رويناه في جزء من حديث عبد الله بن سلام. اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أبو الشيخ ابن حيان في كتاب (أخلاق رسول الله ﷺ) ومن طريقه ابن الجوزي في (الوفاء) وفيه أبو خباب، واسمه يحيى بن أبي حبه ضعفه الجمهور، ورواه ابن حبان في صحيحه (٦٢٠) من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء دون قولها: (وأي أمره لم يكن عجباً)، وهو عند مسلم (٢٨٢٠) من رواية عروة عن عائشة مقتصراً على آخر الحديث. اهـ

أن يعرف أن الآخرة خير وأبقى، وما كان خيراً وأبقى كان بالاختيار أحرى، والغرض من التفكر تحصيل العلم في قلبه، فيوجب ذلك حالاً وفعلاً بهما نجاته، وهما من ثمرات العلم، والعلم ثمرة التفكر.

بيان مجاري الفكر:

اعلم أن العبد تارة ينظر في حال نفسه ويتفكر فيها كما سبق، وتارة في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله، أما التفكر في ذات الله تعالى فلا سبيل إليه إلا بمجرد الذكر، أما التفكر في صفاته وأفعاله وملكه وملكوته، فبقدر ما يتفكر في ملكه وملكوته وصفاته يزداد حبه لانكشاف جماله، وذلك بالتدبير في معاني أسمائه وصفاته، والتفكر في السماوات والأرض والكواكب، وكل شيء سوى الله تعالى فإنه خَلْقُه وصنعه، قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ﴾ [فصلت: ٥٣]، وقال الله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١].

فمجاري التفكر نفسك، ثم جميع خلق الله تعالى، فافهم تغنم، والله أعلم.



١٣٩

الباب الأربعون

في ذكر الموت وما بعده

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]، فمن الناس من لا يذكر الموت إلا على النُدُور، وإذا ذكره كرهه لانهماكه في الدنيا، وهذا يزيده ذكرُ الموت من الله تعالى بعداً، ومن الناس من أقبل بوجهه على الله تعالى فتاب عما لا ينبغي، فذكر الموت يزيده خشيةً وتأهباً واستعداداً ووفاءً بتمام التوبة، فهذا لا يكره الموت لانهماكه في الدنيا، وإنما يكرهه لقلة زاده، وعدم استعداده، فهذه الكراهية ليست كراهية للقاء الله تعالى، بل هو غير مذموم، فإنه يريد الحياة للتأهب والاستعداد، وبوده لو كُفي ما هو فيه فيفضي به الموت إلى لقاء الله تعالى وجواره الكريم، وأما العارف فإنه يذكر الموت دائماً لكونه موعداً للقاء الحبيب، والمحبُّ لا ينسى قطُّ موعد حبيبه، ومثل هذا العبد يستبطئ مجيء الموت، كما روي عن حذيفة رضي الله عنه أنه لما حضرته الوفاة قال: حبيب جاء على فاقة، لا أفلح من ندم، اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إلي من الغنى، والسقم أحبُّ إليَّ من الصحة، والموت أحب إليَّ من الحياة، فسهِّل عليَّ الموت حتى ألقاك.

وأعلى الرتب أن يفوض أمره إلى الله تعالى، فلا يختار لنفسه موتاً ولا حياةً، وقد انتهى الحبُّ به إلى مقام التسليم، فلا يختار لنفسه شيئاً إلا ما يختاره له مولاه.

بيان فضل ذكر الموت:

قال ﷺ: «**أكثروا من ذكر هاذم اللذات**»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**لو أن البهائم تعلم من الموت ما تعلمون ما أكلتم منها سميناً**»[2]، وقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد؟، قال ﷺ: «**نعم، من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة**»[3]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**تحفة المؤمن الموت**»[4]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**كفى بالموت واعظاً**»[5]، وخرج ﷺ ذات يوم إلى المسجد وإذا قوم يتحدثون ويضحكون، فقال ﷺ: «**اذكروا الموت، أما والذي نفسي بيده لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً**»[6].

واعلم أن الموت أمر هائل عظيم، والتفكر فيه يوجب التجافي عن دار الغرور وقلة السرور والتأهب له، نعم الإنسان إذا ذكره بقلب مشغول لا يظهر أثره فيه، فالسبيل فيه أن يفرغ قلبه عما عداه، ويتفكر فيه كما يتفكر في سفره الذي عزم عليه في بر أو بحر، فإنه يكون الغالب على قلبه التفكر فيه والاستعداد له لا غير.

فضيلة قصر الأمل وذم طوله:

قال ﷺ لعبد الله بن عمر: «**إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا**

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٠٧) وقال: حسن غريب، والنسائي (٤/ ٤)، وابن ماجه (٤٢٥٨).

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه البيهقي في (الشعب) (١٠٥٥٧) من حديث أم حبيبة الجهنية. اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: لم أقف له على إسناد . اهـ

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب (الموت) والطبراني [في الكبير (٨٧٧٦)]، والحاكم (٤/ ٣١٩) من حديث عبد الله بن عمرو مرسلاً بسند حسن، [وقال الذهبي: فيه ابن زياد الإفريقي وهو ضعيف] . اهـ

(٥) قال الحافظ العراقي: رواه البيهقي في (الشعب) (١٠٥٥٦) من حديث عائشة، وفيه الربيع بن بدر ضعيف، وورواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر، وهو معروف من قول الفضيل بن عياض، رواه البيهقي في (الزهد)اهـ.

(٦) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في (الموت) من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف. اهـ

أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من حياتك لموتك، ومن صحتك لسقمك، فإنك يا عبد الله ما تدري ما اسمك غداً»[1].

وروى علي رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان، اتباع الهوى، وطول الأمل، أما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق، وأما طول الأمل فإنه يوجب الحب للدنيا»، ثم قال: «ألا إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ويبغض، وإذا أحب عبداً أعطاه الإيمان، ألا إن للدين أبناء، وللدنيا أبناء، فكونوا من أبناء الدين، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولِّية، ألا إن الآخرة قد جاءت مقبلة، ألا وإنكم في يوم عمل ليس فيه حساب، ألا وإنكم توشكون أن تصيروا في يوم حساب ليس فيه عمل»[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: «أيها الناس أما تستحيون من الله تعالى؟»، قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال ﷺ: «تجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون، وتبنون ما لا تسكنون»[3].

وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر، فسمعه رسول الله ﷺ فقال: «ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر، إن أسامة لطويل الأمل، والذي نفسي بيده ما طرفت عيناي إلا ظننت أن شفري لا يلتقيان حتى يقبض الله روحي، ولا رفعت طرفي فظننت أني واضعه حتى أقبض، ولا لقمت لقمة إلا ظننت أني لا أسيغها حتى أغصَّ بها من الموت»، ثم قال ﷺ: «يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدُّوا أنفسكم من الموتى، والذي نفسي بيده إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين»[4].

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن حبان (٦٩٨)، ورواه البخاري (٦٤١٦) من قول ابن عمر. اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه بطوله ابن أبي الدنيا في كتاب (قصر الأمل)، ورواه أيضاً من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف. اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا، ومن طريقه البيهقي في (الشعب) (١٠٥٦٢) بإسناد ضعيف. اهـ

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في (قصر الأمل)، والطبراني في (مسند الشاميين) (١٥٠٥) وأبو نعيم في (الحلية) (٦/ ٩١)، والبيهقي في (الشعب) (١٠٥٦٤) بسند ضعيف. اهـ

وروى ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يخرج عليه الصلاة والسلام يهريق الماء فيتمسح بالتراب، فأقول له: يا رسول الله إن الماء منك قريب، فيقول: «**ما يدريني لعلي لا أبلغه**»[1].

وروي أنه عليه الصلاة والسلام أخذ ثلاثة أعواد، فغرس عوداً بين يديه، والآخر إلى جنبه، وأما الثالث فأبعده، فقال: «**هل تدرون ما هذا**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «**هذا الإنسان وهذا الأجل، وذلك الأمل يتعاطاه ابن آدم، ويختلجه الأجل دون الأمل**»[2].

فصل في سكرات الموت وما يستحب عنده من الأحوال:

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي ابن آدم هول سوى سكرات الموت لكان جديراً بأن لا يهنأ له عيش، وحقيق بأن يطول فيه تأمله وفكرته، ويحسن له استعداده وتأهبه، كما قال بعض الحكماء رحمه الله تعالى: كَرْبٌ بيدِ سِوَاك، لا تدري متى يغشاك. وقال لقمان لابنه: يا بني أمرٌ لا تدري متى يلقاك، استعد له قبل أن يفجأك.

والعجب أن الإنسان لو كان يتوقع أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات لتنغَّصَ عيشُه، وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت، كيف لا يتنغص عيشه.

واعلم أن شدة الألم في سكرات الموت، لا يعرفها إلا من ذاقها، ومن لم يذقها فإنما يعرفها بالقياس على الآلام التي أدركها، أو بالاستدلال بأحوال الموتى إذا شاهدها، أما القياس فبأن يعلم أن الآلام إنما يصل إلى الروح منها شيء قليل، وأما الموت فهو ألم في نفس الروح، وشدته في جميع الأعضاء فما أعظمه من

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن المبارك في (الزهد) (٢٩٢)، وابن أبي الدنيا في (قصر الأمل) والبزار بسند ضعيف. اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (١٨/٣) وابن أبي الدنيا في (قصر الأمل) واللفظ له، والرامهرمزي في (الأمثال) من رواية أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري وإسناده حسن، رواه ابن المبارك في (الزهد) (٢٥٤) وابن أبي الدنيا أيضاً من رواية أبي المتوكل مرسلاً. اهـ

ألم، ألا ترى النار إذا باشرت الجسد بالإحراق يزيد على الجرح ألمه لأنه يلقى سائر أجزاء الروح، وإنما انقطع صياحه وصوته مع شدة ألمه لأن الكرب فيه قد تصاعد إلى قلبه، واستغرق جميع أعضائه، فهدَّ منه كل عضو وقوَّة، ولم يبق له قوَّة الاستعانة، أما العقل فقد غشيه وشوّشه، وأما اللسان فقد أبكمه، وأما الأطراف فقد أضعفها، ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة، ولكنه لا يقدر على ذلك، فإن بقيت فيه بقية قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوراً وغرغرة في حلقه وصدره، وقد تغير لونه واربدَّ حتى كأنه ظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته، فتنزع الروح من كل عرق من عروقه على حياله، ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجياً، فتبرد أولاً قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه، ولكل عضو سكرة وحسرة على حيالها حتى يبلغ بها إلى الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها، ويغلق دونه باب التوبة، وقال عليه الصلاة والسلام: «**تقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»[1]، وعن الحسن رضي الله عنه أنه ﷺ ذكر الموت وغصته وألمه فقال: «**قدر ثلثمائة ضربة بالسيف**»[2].

وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: إذا بقي على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغها بعمله شُدِّد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته في الجنة وإذا كان للكافر معروف لم يُجْزَ به في الدنيا هوِّن عليه الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار.

وعن بعضهم أنه كان يسأل كثيراً من المرضى: كيف تجدون الموت؟ فلمَّا مرض سئل، فقال: كأن السماوات مطبقة على الأرض، وكأن نفسي تخرج من ثقب إبرة.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**موت الفجأة راحة للمؤمن، وأسف على الفاجر**»[3].

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٣٧) وحسنه، ورواه ابن ماجه (٤٢٥٣).

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب (الموت) هكذا مرسلاً ورجاله ثقات. اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (٦/ ١٣٦) من حديث عائشة بإسناد صحيح، قال: «**وأخذة أسف**»، ولأبي داود (٣١١٠) من حديث خالد السلمي: «**موت الفجاءة أخذة أسف**». اهـ

الداهية الثانية: مشاهدة صورة ملك الموت، ودخول الرَّوع والخوف منه على القلب، روي عن الخليل ﷺ أنه قال لملك الموت عليه السلام، هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح الفاجر؟ قال: لا تطيق ذلك، قال: فأعرض عني، فأعرض عنه، فالتفت فإذا هو برجل أسود، قائم الشعر، منتن الرائحة، أسود الثياب، يخرج من فيه ومناخره لهب ونار ودخان، فغشي على إبراهيم عليه السلام، ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى، فقال: يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند موته إلا صورة وجهك لكان حسبه.

وروى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن داود عليه السلام كان رجلاً غيوراً، وكان إذا خرج غلق الأبواب، فأغلق ذات يوم وخرج، فأشرفت امرأته فإذا هي برجل في الدار، فقالت: من أدخل هذا الرجل؟ لئن جاء داود ليلقين منه عناء، فجاء داود فرآه، فقال: من أنت؟ فقال: أنا الذي لا أهاب الملوك، ولا يمنعني الحجاب، فقال: فأنت والله إذاً ملك الموت، وزَمِل داود عليه السلام مكانه**»[1].

وروي أن عيسى عليه السلام مرَّ بجمجمة فضربها برجله، وقال: كلميني بإذن الله تعالى، فقالت: يا روح الله إنما أنا ملك زمان كذا وكذا، وأتاني آتٍ وأنا جالس في ملكي، وعليَّ تاجي، وحولي جنودي وحشمي، على سرير ملكي، إذ بدا لي ملك الموت، فزال مني كل عضو على حياله، ثم خرجت نفسي إليه، فيا ليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة، ويا ليت ما كان من ذلك الأنس كانت وحشة.

وروى ابن عباس رضي الله عنه أن إبراهيم عليه السلام كان رجلاً غيوراً، وكان له بيت يتعبد فيه، فإذا خرج أغلقه، فرجع ذات يوم فإذا برجل في جوف البيت، فقال: من أدخلك داري؟ فقال: أدخلنيها من هو أملك بها مني ومنك، فقال: من أنت، من الملائكة؟ قال: أنا ملك الموت، قال: هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن؟ قال: نعم، فأعرض ثم التفت فإذا هو شاب، وقد ذكر من حسنه وحسن ثيابه وطيب ريحه، فقال: يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه.

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد (٢/٤١٩) بإسناد جيد نحوه، وابن أبي الدنيا في كتاب (الموت) بلفظه. اهـ

ومنها مشاهدة الملكين الحافظين، قال وُهيب[1]: بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يتراءى ملكاه الكاتبان عمله، فإن كان مطيعاً قالا له: جزاك الله عنا كل خير، فرُبَّ مجلس صدق أجلستنا، ورُبَّ عمل صالح أحضرتنا. وإن كان فاجراً قالا له: لا جزاك الله عنا خيراً، فرُبَّ مجلس سوء أجلستنا، ومن كلام قبيح أسمعتنا، فذلك شخوص بصره إليهما.

الداهية الثالثة: مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم، لأنهم لن تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا ملك الموت بإحدى كلمتين: أبشر يا عدو الله بالنار، وأبشر يا وليَّ الله بالجنة، ومن هذا كان خوف أرباب الألباب، قال عليه الصلاة والسلام: «**لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره، وحتى يرى مقعده من الجنة والنار**»[2] ١٧

بيان ما يستحب من أحوال المحتضر:

والمستحب هو الهدوء والسكون، وأن يكون لسانه ناطقاً بالشهادة، ويستحب من قلبه أن يكون حَسَنَ الظن بالله تعالى، راجياً لغفرانه، قال ﷺ: «**ارقبوا الميت عند ثلاث: إذا رشح جبينه، وذرفت عيناه، ويبست شفتاه، فهو من رحمة الله تعالى، وقد نزلت به**»[3] ١٨

وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**لقنوا موتاكم قول لا إله إلا الله**»[4] ١٩ وفي رواية حذيفة: «**فإنها تهدم ما قبلها من الخطايا**».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**حضر ملك**

---

(١) هو: وهيب بن الورد، العابد الرباني، أبو أمية، مولى بني مخزوم، ويقال: اسمه عبد الوهاب. قال ابن معين: ثقة، توفي سنة ١٥٣هـ. «سير أعلام النبلاء» (١٩٨/٧).

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في (الموت) من رواية رجل لم يسم عن علي موقوفاً: «**لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره إلى الجنة أم إلى النار**» وفي رواية: «**حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار**» وفي (الصحيحين) البخاري (٦٥٠٧)، مسلم (٢٦٨٣) ما يشهد لذلك: «**إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته وأن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته..**» الحديث. اهـ

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول) من حديث سلمان ولا يصح. اهـ

(٤) رواه مسلم (٩١٦).

الموت رجلاً يموت، فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئاً، ففك لحييه فوجد طرف لسانه لاصقاً بحنكه، وهو يقول: **لا إله إلا الله، فغفر له بكلمة الإخلاص»**[1].

ويستحب الرفق في التلقين، فلعلّ لسانه لا ينطق للضعف، فإن ألحّ عليه يخشى أن يكره الكلمة، وأما حسن الظن فيستحب لقوله عليه الصلاة والسلام: «**أنا عند ظن عبدي بي فليظنَّ بي خيراً**»[2].

بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت:

قال وهب بن منبه[3]: كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض، فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه، وطلب غيرها ليلبسها، فما أعجبته، ثم لبس ما أعجبه بعد مرات، وكذلك طلب دابّة فأُتي بها فلم تعجبه، حتى أتي بدوابّ فركب أحسنها، فجاء إبليس فنفخ في منخريه فملأه كِبْراً، ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى الناس كبراً، فجاءه رجل رث الهيئة فسلم، فلم يرد عليه السلام، فأخذ بلجام دابته فقال: أرسل اللجام، فقد تعاطيتُ أمراً عظيماً، قال: إن لي إليك حاجة، قال: اصبر حتى أنزل، قال: لا، الآن، فقهره على لجام دابته، فقال: اذكرها، قال: هو سر، فأدنى إليه رأسه فسارَّه، وقال: أنا ملك الموت، فتغير لون الملك، واضطرب لسانه، ثم قال: دعني حتى أرجع إلى بيتي، وأقضي حاجتي وأودِّعهم، فقال: لا والله لا ترى أهلك وثَقَلك أبداً، فقبض روحَه فخرَّ كأنه خشبة، ثم لقي عبداً صالحاً في تلك الحال، فسلَّم، فردَّ عليه السلام، فقال: إن لي إليك حاجة، قال: فاذكرها لي، فسارَّه وقال: أنا ملك الموت، فقال: مرحباً وأهلاً وسهلاً بمن طالت غيبته عليَّ، فوالله ما كان في الأرض غائب أحبُّ إليَّ أن ألقاه

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه بن أبي الدنيا في كتاب (المحتضرين)، والطبراني [في الدعاء (١٤٧٣)]، والبيهقي في (الشعب)(١٠١٥) وإسناده جيد إلا أن في رواية البيهقي رجلاً لم يسم، وسمي في رواية الطبراني إسحق بن يحيى بن طلحة وهو ضعيف. اهـ

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه ابن حبان (٦٣٣) من حديث واثلة بن الأسقع، وهو في الصحيحين [البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)] من حديث أبي هريرة دون قوله: **(فليظن بي ما شاء)**. اهـ

(٣) هو: **وهب بن منبه بن كامل بن سيج بن ذي كبار، وهو الأسوار الإمام**، العلامة الأخباري القصصي، ولد في زمن عثمان رضي الله عنه وسمع من ابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم رضي الله عنهم. وكانت غزارة علمه في الإسرائيليات ومن صحائف أهل الكتاب، توفي سنة عشر ومئة. «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٤٤).

منك، فقال له ملك الموت: اقض حاجتك التي خرجت لها، فقال: ما لي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى، قال: فاختر على أي حال شئت أن أقبض روحك، فقال: تقدر على ذلك؟ قال: نعم إني أمرتُ بذلك، قال: فدعني حتى أتوضأ وأصلي، فاقبض روحي وأنا ساجد، فقبض روحه وهو ساجد.

وقال بكر بن عبد الله المزني(١): جمع رجل من بني إسرائيل مالاً، فلما أشرف على الموت قال لبنيه: أروني أصناف أموالي، فأتي بشيء كثير من الخيل والإبل والرقيق، فلما نظر إليه بكى تحسّراً عليه، فرآه ملك الموت وهو يبكي، فقال له: ما يبكيك؟ فوالذي خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك، قال: فالمهلة حتى أفرقه، قال: هيهات، انقطعت عنك المهلة، فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك، فقبض روحه.

فصل في وفاة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين:

اعلم أن في رسول الله ﷺ أسوة حسنة حياً وميتاً، وإذ توفي هو عليه الصلاة والسلام فلا طمع لأحد في البقاء، قال الله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وقال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[آل عمران: ١٨٥].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: دخلنا على رسول الله ﷺ في بيت أُمِّنا عائشة رضي الله عنها حين إذ دنا الفراق، فنظر إلينا فدمعت عيناه ﷺ، ثم قال: «**مرحباً، حياكم الله، آواكم الله، نصركم الله، أوصيكم بتقوى الله، وأوصي بكم الله، إني لكم منه نذير مبين، أن لا تعلوا على الله في عباده وبلاده، وقد دنا الأجل والمنقلب إلى الله تعالى، وإلى سدرة المنتهى، وإلى جنة المأوى، وإلى الكأس الأوفى، فاقرؤوا على أنفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدي مني السلام**»(٢). ٢١

(١) هو: بكر بن عبد الله بن عمرو، الإمام، القدوة، الواعظ، الحجة، أبو عبد الله المزني البصري، أحد الأعلام، كثير الحديث، كان مجاب الدعوة. توفي سنة ٨٨هـ. «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٣٢).

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه البزار وقال: هذا الكلام قد روي عن مُرَّة عن عبد الله من غير وجه وأسانيدها متقاربة، قال عبد الرحمن الأصبهاني: لم يسمع هذا من مرَّة وإنما هو عمن أخبره عن مرَّة، قال: ولا أعلم أحداً رواه عن عبد الله غير مرَّة، قلت: وقد روي من غير ما وجه، رواه ابن سعد في (الطبقات) من رواية الحسن العربي عن ابن مسعود، ولكنهما منقطعان ضعيفان، والحسن العربي إنما يرويه عن مرَّة كما رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في (الأوسط). اهـ

وروي أنه ﷺ قال لجبريل عليه السلام عند موته: «**من لأمتي من بعدي؟**» فأوحى الله تعالى إلى جبريل: أن بشِّر حبيبي أني لا أخذله في أمته، وبشره بأنه أسرع الناس خروجاً من الأرض إذا بعثوا، وسيدهم إذا جمعوا، وأنَّ الجنة محرمةٌ على الأمم حتى تدخلها أمته، فقال ﷺ: «**الآن قد قرت عيني**»[1].

وروي أن عائشة رضي الله عنها قالت: قبض رسول الله ﷺ في بيتي، وفي يومي، وبين سَحْري ونَحْري[2]، وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت، فدخل عَليَّ أخي عبد الرحمن وبيده سواك، فجعل ينظر إليه، فعرفت أنه يعجبه ذلك فقلت له: آخذه لك؟ فأومأ برأسه أن نعم، فناولته إياه، فأدخله في فيه فاشتد عليه، فقلت: ألينه لك؟ فأومأ برأسه أن نعم، فلينته، وكان بين يديه ركوة ماء، فجعل يدخل يده فيها ويقول: «**لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات**»، ثم نصب يده ويقول: «**الرفيق الأعلى، الرفيق الأعلى**»، فقلت: إذاً والله لا يختارنا[3].

وروى ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: «**سل يا أبا بكر**»، فقال: يا رسول الله دنا الأجل، فقال: «**قد دنا وتدلى**»، فقال: ليهنك يا نبي الله ما عند الله، فليت شعري عن منقلبنا، فقال ﷺ: «**إلى الله وإلى سدرة المنتهى، ثم إلى جنة المأوى، والفردوس الأعلى، والكأس الأوفى، والرفيق الأعلى، والحظ والعيش المُهنَّا**»، فقال: يا نبي الله من يلي غسلك؟ قال: «**رجل من أهل بيتي، الأدنى فالأدنى**»، فقلنا: ففيم نكفنك؟، قال ﷺ: «**في ثيابي هذه، وفي حلة يمانية، وفي قباطي مصر**»، قال: كيف الصلاة عليك منا؟، وبكينا وبكى، ثم قال: «**مهلاً، غفر الله لكم، وجزاكم عن نبيكم خيراً، إذا غسلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري، ثم اخرجوا عني ساعة، فإن أول من يصلي علي الله عز وجل، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ثم يأذن للملائكة في الصلاة عليَّ، فأول من يدخل علي من خلق الله ويصلي عليَّ جبريل**

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني [في الكبير (٣/ ٦٣)] من حديث جابر وابن عباس في حديث طويل، وإسناده ضعيف. اهـ

(٢) السَّحْرُ: الرِّئة، والنَّحْر: أعلى الصدر وهو موضع القلادة.

(٣) رواه البخاري (٤٤٤٩)، وروى مسلم (٢٤٤٣) أوله وآخره.

عليه السلام، ثم ميكائيل عليه السلام، ثم إسرافيل عليه السلام، ثم ملك الموت مع جنود كثيرة، ثم الملائكة بأجمعها صلى الله عليهم أجمعين، ثم أنتم فادخلوا عليَّ أفواجاً فصلوا عليَّ أفواجاً زمراً وسلموا تسليماً، ولا تؤذوني بتزكية ولا صيحة ولا صرخة ولا رنة، وليبدأ منكم الإمام وأهل بيتي، الأدنى فالأدنى، ثم زُمَرُ النساء، ثم زُمَرُ الصبيان»، قال: فمن يدخل القبر؟ قال: **«زُمَرُ أهل بيتي، الأدنى فالأدنى، مع ملائكة كثيرة لا ترونهم وهم يرونكم، قوموا فأدوا عني إلى من بعدي السلام»**(١).

وقالت عائشة رضي الله عنها: لما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ رأوا منه خفة في أول النهار، فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين، وأخلوا رسول الله ﷺ بالنساء، فبينا نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح مثل ذلك، فقال رسول الله ﷺ: اخرجن عني، هذا الملك يستأذن عليَّ، فخرج من في البيت غيري، ورأسه في حجري، وجلس وتنحيت في جانب البيت، فناجى الملك طويلاً، ثم إنه دعاني وأعاد رأسه في حجري، وقال للنساء: ادخلن؟، فقلت: ما هذا بحس جبريل عليه السلام، فقال رسول الله ﷺ: أجل يا عائشة، هذا ملك الموت جاءني، فقال: يا رسول الله إن الله تعالى أرسلني وأمرني أن لا أدخل عليك إلا بإذن، فإذا لم تأذن أرجع، وإن أذنت لي دخلت، وأمرني أن لا أقبضك حتى تأمرني، فماذا أمرك؟، فقال النبي ﷺ: اكفف عني حتى يأتيني جبريل عليه السلام، فهذه ساعة جبريل، قالت عائشة رضي الله عنها: فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأي، فوجمنا كأنما ضربنا بصاخة ما نحير إليه شيئاً، وما يتكلم أحد من أهل البيت تعظيماً لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا، قالت: وجاء جبريل عليه السلام في ساعته، فسلم فعرفت حسه، وخرج أهل البيت، ودخل جبريل، فقال: إن الله عز وجل يقرئك السلام، ويقول لك: كيف تجدك، وهو أعلم بالذي تجد منا، ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفاً، وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق، وتكون سنَّةً في أمتك، فقال: أجد وجعاً، قال: أبشر، فإن

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن سعد في (الطبقات) (٢/٢٥٦) عن محمد بن عمر وهو الواقدي بإسناد ضعيف إلى ابن عوف عن ابن مسعود وهو مرسل ضعيف. اهـ

الله تعالى أراد أن يبلغك ما أعدَّ لك، فقال: يا جبريل إن ملك الموت استأذن عليَّ، وأخبره الخبر، قال عليه السلام: يا محمد إن ربك إليك مشتاق، ألم أعلمْك الذي يريد بك، لا والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط، ولا يستأذن عليه أبداً إلا أن ربك متمّ لك، وهو إليك مشتاق، قال: فلا تبرح إذاً حتى يجيء، وأذن للنساء فقال: يا فاطمة، ادني، فأكبَّت عليه وجهها، فناجاها، فرفعت رأسها وعيناها تدمع، وما تطيق الكلام، ثم قال: أدني مني رأسك، فأكبت عليه، فناجاها، فرفعت رأسها وهي تضحك وما تطيق الكلام، فكان الذي رأينا منها عجباً فسألناها بعد ذلك، فقالت: قال لي إني ميت اليوم، فبكيت، ثم قال: إني دعوت الله أن يلحقك بي في أول أهلي، وأن يجعلك معي، فضحكت، قالت: وجاء ملك الموت فسلم، واستأذن فأذن له، فقال الملك: ما تأمر يا محمد؟ قال: ألحقني بربي الآن، قال: بلى من يومك هذا، أما إن ربك إليك مشتاق، ولم يتردد عن أحد تردده عنك، ولم ينهني عن الدخول على أحد إلا بإذن غيرك، ولكن ساعتك أمامك، وخرج، قالت: وجاء جبريل عليه السلام فقال: السلام عليك يا رسول الله، هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض، طوي الوحي، وطويت الدنيا، وما كان لي في الأرض حاجة غيرك، وما لي فيها حاجة إلا صورتك ثم لزوم موقفي، لا والذي بعث محمداً ﷺ بالحق ما في البيت أحد يستطيع أن يحير إليه في ذلك كلمة، ولا يبعث إلى أحد من رجاله لعظم ما يسمع من حديثه ووَجْدِنَا وإشفاقنا، فقالت: فقمت إلى النبي ﷺ حتى أضع رأسه بين ثديي، وأمسكت بصدره، وجعل يغمى عليه حتى يغلب، وجبهته ترشح عرقاً، ما رأيت من إنسان قط أطيب منه، وجعلت أرسل ذلك العرق، وما وجدت رائحة شيء قط أطيب منه، فكنت أقول له إذا أفاق: بأبي وأمي ونفسي وأهلي ومالي ما تلقى جبهتك من العرق والرشح، فقال: يا عائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح، ونفس الكافر تخرج من شدقه كنفس الحمار، فعند ذلك ارتعنا وبعثنا إلى أهلينا، فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخي، بعثه إليَّ أبي، فمات رسول الله ﷺ قبل أن يجيء أحد، وإنما صدهم الله عز وجل عنه لأنه تولاه جبريل وميكائيل، وجعل إذا أغمي عليه قال: «**بل الرفيق الأعلى**»(١)

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني في (الكبير) من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف في حديث طويل.. ثم قال: وهو حديث طويل في ورقتين كبار، وهو منكر.. اهـ

قالت عائشة رضي الله عنها، مات رسول الله ﷺ بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار، يوم الاثنين[1]، فصلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين أجميعن.

وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

لما احتضر أبو بكر رضي الله تعالى عنه جاءت عائشة رضي الله عنها وتمثلت بهذا البيت:

لعَمْرُكَ ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر.

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذلك ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق: ١٩]، انظروا ثوبيّ هذين فاغسلوهما وكفنوني فيهما، فإن الحيَّ إلى الجديد أحوج من الميت، وقالت عائشة رضي الله عنها عند موته هذا البيت:

وأبيضُ يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمةٌ للأرامل

فقال أبو بكر رضي الله عنه: ذاك رسول الله ﷺ.

ودخلوا عليه فقالوا: ألا ندعو لك طبيباً ينظر إليك؟ فقال: قد نظر إلي وقال: إني فعال لما أريد.

ودخل سلمان الفارسي رضي الله عنه يعوده فقال: يا أبا بكر أوصنا، فقال: إن الله فاتح عليكم الدنيا، فلا تأخذوا منها إلا بلاغكم، واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله تعالى، فلا تخفرن الله في ذمته فيكبك في النار على وجهك.

ولما ثقل أبو بكر رضي الله عنه وأراد الناس منه أن يستخلف فاستخلف عمر رضي الله عنهما، فقال الناس له: استخلفت علينا فظاً غليظ القلب، فما تقول لربك؟ فقال: أقول: استخلفت على خلقك خيرَ خلقك، رضي الله عنهما آمين.

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن عبد البر [الاستيعاب (٨/ ٤٧)]. اهـ

وفاة عمر رضي الله عنه:

قال عمرو بن ميمون[1]: كنت قائماً غداة أصيب عمر، ما بيني وبينه إلا عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما، فكان إذا مرَّ بين الصفين قام بينهما، فإذا رأى خللاً قال: استووا، حتى إذا لم يرَ فيهم خللاً تقدم فكبّر، قال: وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو غير ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبَّر فسمعته يقول: قتلني أو أكلني الكلب حين طعنه أبو لؤلؤة[2]، وطار العِلْج[3] بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يميناً وشمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، فمات تسعة أو سبعة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه.

وروي أنه بعث عبد الله إلى عائشة رضي الله عنها وقال: قل لها: يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل: أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه، فذهب عبد الله، فسلم واستأذن، ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي ولأوثرنه اليوم على نفسي، فلما أقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني، فأسنده رجل إليه، قال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، أَذِنَتْ، قال: الحمد لله ما كان شيء أهم إليّ من ذلك، فإذا أنا قبضتُ فاحملوني ثم سلموا وقولوا: يستأذن عمر، فإن أذنت لي فأدخلوني، وإن ردتني فردوني إلى مقابر المسلمين، وجاءت أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها والنساء يسترنها، فلما رأيناها قمنا، فولجت عليه، فبكت عنده ساعة، واستأذن الرجال فولجت داخلاً، فسمعنا بكاءها من داخل، فقيل: أوص يا أمير المؤمنين، واستخلف، فقال: ما أرى أحق بهذا الأمر من

---

(١) هو: **عمرو بن ميمون بن مهران الجزري**، أبو عبد الله، الإمام الحافظ الفقيه، حدث عن أبيه وسليمان بن يسار وعمر بن عبد العزيز ومكحول، توفي سنة ١٤٥هـ «سير أعلام النبلاء» (٦/٣٤٦).

(٢) هو: **أبو لؤلؤة المجوسي**، اسمه **فيروز**، كان غلاماً للمغيرة بن شعبة في المدينة، قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في المسجد سنة /٢٣/هـ، البداية والنهاية (٧/١٤٧). اهـ.

(٣) **العِلْج**: الرجل القوي الضخم من كفار العجم اهـ. لسان العرب.

هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو راض عنهم، فسمى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء.

قال عليه الصلاة والسلام: **«قال لي جبريل: ليبكِ الإسلام على موت عمر»**[1].

وفاة عثمان رضي الله عنه:

والحديث في قتله مشهور، قال عبد الله بن سلام: أتيت أخي عثمان لأسلم عليه وهو محصور، فدخلتُ عليه، فقال: مرحباً يا أخي، رأيت رسول الله ﷺ في هذه الخوخة، وهي خوخة في البيت، فقال: يا عثمان حصروك، قلت: نعم، قال: أعطشوك، قلت: نعم، فأدلى إلي دلواً فيه ماء فشربت حتى رويت حتى إني لأجد برده بين ثديي وبين كتفي، وقال لي: إن شئت نُصِرتَ عليهم، وإن شئت أفطرت عندنا، فاخترتُ أن أفطر عنده، فقتل ذلك اليوم رحمه الله تعالى.

وقال عبد الله بن سلام لمن حضر تشحُّطَ عثمان في الموت حين جرح: ماذا قال عثمان وهو يتشحَّط؟ قالوا: سمعناه يقول: اللهم اجمع أمة محمد (ثلاثاً)، قال: والذي نفسي بيده لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبداً ما اجتمعوا إلى يوم القيامة.

وفاة علي رضي الله عنه وأرضاه:

قال الحنظلي[2]: لما كانت الليلة التي أصيب فيها علي رضي الله عنه أتاه ابن النبَّاح[3] حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة، وهو مضطجع متثاقل، فعاد الثانية وهو كذلك متثاقل، فعاد الثالثة فقام ومشى وهو يقول هذه الأبيات:

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه أبو بكر الآجري في كتاب (الشريعة) من حديث أبي بن كعب بسند ضعيف جداً، وذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٣٩). اهـ

(٢) هو: الأصبغ بن نباتة التميمي الحنظلي الكوفي، يكنى أبا القاسم، متروك، رمي بالرفض، وروى له ابن ماجه. «الكامل في الضعفاء» (١/ ٤٠٧).

(٣) هو: ابن النباح مؤذن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان مكاتباً، وروى عن علي في المكاتبة حديثاً. «الطبقات الكبرى» (٦/ ٢٣٣).

أشــدد حـيــازيــمــك لــلــمــو ت فــإن الــمــوت لاقــيــكــا
ولا تـــجـــزع مـــن الـــمـــو ت إذا حـــلَّ بـــواديـــكـــا

فلما بلغ الباب الصغير شدَّ عليه ابن ملجم[1] فضربه، فخرجت أم كلثوم بنت علي رضي الله تعالى عنه فجعلت تقول: مالي ولصلاة الغداة، قتل زوجي أمير المؤمنين صلاة الغداة، وقتل أبي صلاة الغداة.

وعن شيخ من قريش أن علياً رضي الله تعالى عنه لما ضربه ابن ملجم قال: فزت ورب الكعبة.

فصل في كلام المحتضرين:

لما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة قال: أقعدوني، فأقعدوه، فجعل يذكر الله ويسبحه، ثم بكى وقال: تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطام، ألا كان هذا وغصن الشباب نَضْر، وبكى حتى علا بكاؤه، وقال: يا رب ارحم الشيخ العاصي، ذا القلب القاسي، اللهم أقل العثرة، واغفر الزلَّة، وعد بحلمك على من لا يرجو غيرك، ولم يثق بأحد سواك.

ولما حضرت معاذ رضي الله عنه الوفاة قال: اللهم إني كنت أخافك، وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار وغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب.

وقيل لذي النون[2]: ما تشتهي؟ قال: أن أعرفه قبل موتي بلحظة.

بيان حال القبر وأقاويلهم على القبور:

قال الضحاك: قال رسول الله ﷺ لما قيل له: من أزهد الناس؟ قال: «من لم

---

(١) هو: عبد الرحمن بن ملجم، رجل من بني مراد، رجل من شيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وشهد معه صفين، ثم خرج عليه وعزم على قتل علي فقتله في ١٧/ رمضان سنة ٤٠ للهجرة «الطبقات» (٣/ ٣٣)، «النجوم الزاهرة» (١/ ١٢٠).

(٢) هو: ذو النون بن إبراهيم المصري الأخميمي، أبو الفيض، أحد رجال الحقيقة، توفي رحمه الله سنة ٢٤٥هـ. «طبقات الأولياء» (٢١٨).

ينسَ القبر والبلا، وترك فضل زينة الدنيا، وآثر ما يبقى على ما يفنى، ولم يعد غداً من أيامه، وعدَّ نفسه من أهل القبور»[1]

وكان الحسن بن صالح[2] إذا أشرف على القبور قال: ما أحسن ظواهرك، إنما الدواهي في بواطنك.

ومرَّ داود الطائي على امرأة تبكي وهي تقول على قبر:

عُدِمتُ الحياةَ ولا نلتها إذا أنتَ في القبر قد ألحدُوكَ

فكيف أذوقُ طعم الكرا وأنتَ يمناكَ قد وسَّدوكَ

ثم قالت: يا ابتاه ليت شعري بأي خديك بدأ الدود، فصعق داود مكانه، وخرَّ مغشيّاً عليه.

بيان الأدب عند موت الولد:

إذا مات ولدك أو قرابتك فنزِّله منزلة من تقدم عليك في سفر لابد وأنت تتبعه، أو من رجع قبلك إلى الوطن وأنت تتبعه، فإنك إذا علمت أنك ستلحق به لا يشق عليك.

ويستحب أحياناً زيارة القبور فقد أُذن فيها بعد أن كنا نهينا عنها، قال أبو ذر رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**زوروا القبور تذكروا بها الآخرة، واغسلوا الموتى، فإن معالجة جسدٍ خاوٍ موعظة بليغة**»، قال: «**وصلِّ على الجنائز لعلَّ ذلك أن يحزنك، فإن الحزين في ظل الله تعالى**»[3].

---

(١) رواه البيهقي [في الشعب (١٠٥٦٥)] عن الضحاك مرسلاً.

(٢) هو: الحسن بن صالح بن حيي بن شفى الهمداني الثوري، الكوفي، العابد، روى له البخاري في الأدب المفرد، ومسلم والأربعة، توفي سنة ١٦٩هـ. «تهذيب التهذيب» (١/ ١٦١) «ميزان الاعتدال» (١/ ٢٣٠).

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في (القبور) والحاكم (١/ ٣٧٧) بإسناد جيد. اهـ قال الذهبي: لكنه منكر، ورواه البيهقي في الشعب (٩٢٩١) وقال: وهذا متن منكر. اهـ

وقال عليه الصلاة والسلام: «**زوروا أمواتكم، وسلِّموا عليهم، وصلوا عليهم، فإن لكم فيها عبرة**»[1].

بيان حقيقة الموت:

اعلم أن حقيقة الموت على ما دلت عليه الآيات والأخبار وشهدت له طرق الاعتبار مفارقة الروح البدن، لا عدم الروح، أما الآيات فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩]، هذا في الشهداء، والخبر يدل على الأشقياء أيضاً، قال عليه الصلاة والسلام يوم بدر لصناديد قريش لما قتلوا: «**يا فلان، يا فلان، قد وجدت ما وعدني ربي حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟**» فقيل: يا رسول الله أتناديهم وهم أموات؟ قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده إنهم لأسمع لهذا الكلام منكم إلا أنهم لا يقدرون على الجواب**»[2].

وقد روى أبو أيوب الأنصاري عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله تعالى كما يتلقى البشير في الدنيا، يقولون: أنظروا أخاكم حتى يستريح، فإنه كان في كرب شديد، فيسألونه: ماذا فعل فلان؟ وماذا فعلت فلانة؟ وهل تزوجت فلانة؟ فإذا سألوه عن رجل مات قبله، وقال: مات قبلي، قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهب به إلى أمه الهاوية**»[3].

بيان كلام القبر للميت حين يوضع فيه:

قال رسول الله ﷺ: «**يقول للميت حين يوضع فيه: ويحك يا ابن آدم ما غرَّك**

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسلاً وإسناده حسن. اهـ ورواه عبد الرزاق في المصنف (٦٧١١) ورواه الطبراني في الأوسط (٥٢٠٩) بلفظ «فزوروا إخوانكم».

(٢) رواه مسلم (٢٨٧٤).

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب (الموت) والطبراني في (مسند الشاميين) (١٥٤٤) بإسناد ضعيف، ورواه ابن المبارك في (الزهد)(٤٤٣) موقوفاً على أبي أيوب، بإسناد جيد، ورفعه ابن صاعد في (زوائده على الزهد) وفيه سلام الطويل ضعيف، وهو عند النسائي (٨/٤) وابن حبان (٣٠١٣) نحوه من حديث أبي هريرة بإسناد جيد. اهـ

بي، ألم تعلم أني بيت الفتنة، وبيت الظلمة، وبيت الوحدة، وبيت الوحشة، وبيت الدود، ما غرك بي إذ كنت تمر بي فذاذاً، فإن كان عمله صالحاً أجاب عنه مجيب للقبر، فيقول: أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فيقول القبر: إني إذاً أتحول عليه خضراً ويعود جسده نوراً، وتصعد روحه إلى الله تعالى»[1]، والفذّاذ هو الذي يقدم رِجلاً ويؤخر أخرى، كذلك فسره الراوي.

بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير:

قال البراء بن عازب رضي الله عنه: خرجنا مع رسول الله ﷺ على جنازة رجل من الأنصار فجلس على قبره منكساً رأسه ثم قال: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر» ثلاثاً، ثم قال: «إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة بعث الله تعالى ملائكة كأن وجوههم الشمس، ومعهم حنوطه وكفنه، فيجلسون مد بصره، فإذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفتحت أبواب السماء، فليس منها باب إلا يحب أن يدخل بروحه منه، فإذا صعد بروحه منه، قيل: أي رب أتى عبدك فلان، فيقول: أرجعوه فأروه ما أعددت له من الكرامة، فإني وعدته ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥] وأنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين، حتى يقال: يا هذا، من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله تعالى، وديني الإسلام، ونبيِّي محمد، فينتهرانه انتهاراً شديداً، وهي آخر فتنة تعرض على الميت، فإذا قال ذلك نادى مناد: أن قد صدقت، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ثم يأتيه آت حسن الوجه، طيب الرائحة، حسن الثياب، فيقول: أبشر برحمة من ربك وجنات لهم فيها نعيم مقيم، فيقول: وأنت بشرك الله بخير، من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح، والله ما علمت أن كنتَ لسريعاً إلى طاعة الله تعالى، بطيئاً عن معصية الله تعالى، فجزاك الله خيراً، قال: ثم ينادي منادٍ: أن افرشوا له من فرش الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، فيفرش له فرش الجنة، ويفتح له باب إلى الجنة، فيقول: اللهم عجِّل قيام الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي، قال: وأما الكافر فإنه إذا كان في قِبَلٍ من الآخرة،

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور، والطبراني في (مسند الشاميين) (١٤٩٩). وأبو أحمد الحاكم في (الكنى) من حديث أبي الحجاج الثملي بإسناد ضعيف. اهـ

وانقطاع من الدنيا، نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد، معهم ثياب من نار، وسرابيل من قطران، فيحتوشونه، فإذا خرجت نفسه لعنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء، وغلقت أبواب السماء، فليس منها باب إلا يكره أن يدخل بروحه منه، فإذا صعد بروحه نبذ، وقيل: أي رب عبدك فلان لم تقبله سماء ولا أرض، فيقول: أرجعوه فأروه ما أعددت له من الشر، فإني وعدته: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥]، وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال له: يا هذا، من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: لا أدري، فيقال: لا دريت، ثم يأتيه آت قبيح الوجه، منتن الريح، قبيح الثياب، فيقول له: أبشر بسخط من الله تعالى وبعذاب أليم مقيم، فيقول: بشرك الله تعالى بشرٍّ، من أنت؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، والله ما علمت أن كنت لسريعاً في معصية الله تعالى، بطيئاً عن طاعة الله تعالى، فجزاك الله تعالى شراً، ثم يقيض له أصم أعمى أبكم معه مرزبة من حديد، لو اجتمع عليها الثقلان على أن يحملوها لم يستطيعوا، لو ضرب بها جبل صار تراباً، فيضربه بها ضربة فيصير تراباً، ثم تعود فيه الروح فيضربه بها بين عينيه ضربة يسمعها من على الأرضين ليس الثقلين، قال: ثم ينادي مناد: أن افرشوا له لوحين من نار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيفرش له لوحان من نار، ويفتح له باب إلى النار»[(١)]

وقال ﷺ: «المؤمن في قبره في روضة خضراء، ويرحب له في قبره سبعون ذراعاً، ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر، هل تدرون فيماذا أنزلت ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «عذاب الكافر في قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً، هل تدرون ما التنين؟، تسع وتسعون حية، لكل حية سبعة رؤوس، يخدشونه ويلحسونه وينفخون في جسمه إلى يوم يبعثون»[(٢)].

وقالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «إن للقبر ضغطة، ولو سلم أو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ»[(٣)]

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٥٣) والحاكم بكامله (١/ ٣٧)، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين [ووافقه الذهبي]، ورواه النسائي (٢٠٥٦)، وابن ماجه (٤٢٦٩) مختصراً.

(٢) رواه ابن حبان (٣١٢٢).

(٣) رواه أحمد (٦/ ٥٥) بإسناد جيد.

ولما قال ﷺ لعمر رضي الله عنه في منكر ونكير قال: يا رسول الله ويكون معي عقلي؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال: إذن أكفيكهما[1] فدلَّ ذلك على أن العقل لا يزول بالموت كما سبق ذكره.

فصل فيما يلقى الميت من نفخة الصور وما بعده:

قد عرفت فيما سبق شدة أهوال الموت وسكراته وخطره في خوف الخاتمة، ثم مقاساته لظلمة القبر وديدانه، ثم منكر ونكير وسؤالهما، ثم لعذاب القبر إن كان شقياً، وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه، من نفخ الصور، والبعث يوم النشور، والعرض على الجبّار، والسؤال عن القليل والكثير، ونصب الميزان لمعرفة المقادير، ثم جواز الصراط مع دقته وحدته، ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالإسعاد وإما بالإشقاء، فهذه أحوال وأهوال لابد لك من معرفتها، ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق، ثم إمعان الفكر فيها لينبعث من قلبك دواعي الاستعداد لها.

وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء، وتهاونهم بحرِّ جهنم وزمهريرها، أما نفخ الصور فقال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزمر: ٦٨]، صَعِقَ أي: مات، إلا من شاء الله وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثم يأمر ملك الموت بقبض روح جبريل، ثم روح ميكائيل، ثم روح إسرافيل، ثم يأمر ملك الموت فيموت، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، ثم يساقون إلى أرض المحشر وهم حفاة عراة قد غَرقوا في العرق، كل واحد على قدرِ ذنوبه، فيقفون في طول يوم القيامة شاخصة أبصارهم، كل على قدر حسابه، فيُسئل عن النقير والقطمير[2]، ثم يوزن

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور هكذا مرسلاً، ورجاله ثقات، قال البيهقي في (الاعتقاد)(٢٢٣): رويناه من وجه صحيح عن عطاء بن يسار مرسلاً، قلت: ووصله ابن بطة في (الإبانة) من حديث ابن عباس. اهـ ورواه ابن عبد البر في التمهيد (٢٢/ ٢٥١).

(٢) **النقير**: هو ثقب دقيق في غلاف النواة في طرفها الأمامي، **والقطمير**: القشرة الرقيقة على النواة، ويضرب بهما المثل للشيء الهين الحقير الضعيف. اهـ

بالميزان حسناته وسيئاته، وعند ذلك تطالبه الخصماء بالمظالم، ثم يساقون إلى الصراط كما سبق في الاعتقاد، يسألون عند ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: ٢٣-٢٤].

صفة الشفاعة: اعلم أنه إذا حقَّ العذاب على طوائف من المؤمنين فالله سبحانه وتعالى يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والأولياء والعلماء وكل من له عند الله منزلة.

صفة الحوض: قال أنس رضي الله عنه: أغفى رسول الله ﷺ إغفاء فرفع رأسه مبتسماً، فقالوا له: يا رسول الله: لم ضحكت؟ فقال ﷺ: «**آية نزلت عليَّ آنفاً**» فقرأ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ حتى ختمها، ثم قال: «**أتدرون ما الكوثر؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «**إنه نهر وعدنيه ربي جلَّ جلاله في الجنة عليه خيرٌ كثير، عليه حوض، ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيتُه عدد الكواكب**»[1]، اللهم ارزقنا الورود عليه.

صفة جهنم وأهوالها وأنكالها، أجارنا الله تعالى منها:

اعلم أن النار يردها كل أحد، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم: ٧١]، واعلم أنه لا نجاة إلا بالتقوى، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ [مريم: ٧٢]، فالورود يقيناً، والتقوى التي بها النجاة مشكوك فيها، فاستشعر أيها المسكين في قلبك هول ذلك المورد، والناس في غمرات الأهوال ما قاسوا من تلك الدواهي، إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب، وأطلت عليهم نار ذات لهب، وسمعوا لها زفيراً وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب، فأيقن المجرمون بالعطب، وجثت الأمم على الركب، حتى أشفق البرآء من سوء المنقلب، وخرج المنادي من الزبانية قائلاً: أين فلان بن فلان المسوِّف نفسه في الدنيا بطول الأمل، المضيِّع عمره في سوء العمل، فيبادرونه بمقامع من حديد، نعوذ بالله منها، ويسوقونه إلى العذاب الشديد، وينكسونه في قرار الجحيم، ويقولون له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾. [الدخان: ٤٩].

---

(١) رواه مسلم (٤٠٠).

القول في صفة الجنة ونعيمها:

اعلم أن دار البوار يقابلها دار القرار، وهي الجنة، وبقدر البعد من أحدهما يصل إلى الآخرة، فاذكر النار ليستثير به الخوفُ من قلبك، واذكر الجنة ليستثير الرجاء إذا خفت على نفسك القنوط من كثرة الذنوب وغلبة الخوف، والآيات والأخبار دالة على صفة أهل الجنة ونعيمِهم وأمنِهم وطعامِهم وشرابِهم وفواكِههم، فلا يحتاج إلى الإطناب فيه، وقد وردت الأخبار الدالة على الرؤية، وهي أعلى درجات النعيم، قال جرير بن عبد الله البجلي: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فرأى القمر ليلة البدر، فقال ﷺ: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا**»، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠] وهو مخرج من الصحيحين[١].

وروى مسلم في الصحيح عن صهيب قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، قال ﷺ: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: إن لكم عند الله موعداً يشتهي أن ينجز كموه، قالوا: ما هذا الموعد؟ ألم يثقل ميزاننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار، قال: فيرفع الحجاب، وينظرون إلى وجه الله تعالى، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إليه**»[٢].

وقد روى حديث الرؤية جماعة من الصحابة، وهي غاية الحسنى، ونهاية النعيم، وكل ما فصلناه من نعيم عند هذه النعمة ينسى، وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى، بل لا نسبة لشيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في باب المحبة، وعلى الجملة فلا ينبغي أن تكون همة العبد من الجنة سوى لقاء المولى جلَّ جلاله، فأما سائر نعم الجنة فإنه يشارك فيها البهيمة المسرحة في المرعى، فافهم تغنم.

---

(١) رواه البخاري (٥٧٣)، ومسلم (٦٣٣).

(٢) رواه مسلم (١٨١).

خاتمة الكتاب

بأخبار تدل على سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل

فقد كان ﷺ يحب الفأل[1]، ونحن نرجو من فضل الله تعالى ورحمته وسَعَةِ مغفرته أن يختم بالسعادة آجالنا كما ختمنا هذا الكتاب بالأخبار الدالة على سعة المغفرة والرحمة.

أما الآيات فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠]، ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلَّ به القلم.

وقال رسول الله ﷺ: «**إن لله عزَّ وجل مائة رحمة، أنزل منها رحمةً بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فيها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وأخَّر تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة**»[2].

ويروى أنه إذا كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتاباً من تحت العرش فيه: (**إن رحمتي سبقت غضبي، وأنا أرحم الراحمين**) فيخرج من النار مِثْلا أهل الجنة[3].

---

(١) رواه البخاري (٥٧٥٦)، ومسلم (٢٢٢٤).

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٢).

(٣) رواه البخاري (٧٥٥٤)، ومسلم (٢٧٥١).

وقال رسول الله ﷺ: «يتجلى الله عزَّ وجل لنا يوم القيامة ضاحكاً، فيقول: أبشروا معشر المسلمين، فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت في النار مكانه يهودياً أو نصرانياً»[1].

وقال ﷺ: «يُشَفِّع الله تعالى آدم يوم القيامة من ذريته في مائة ألفِ ألفٍ وعشرة ألفِ ألف»[2].

وقال ﷺ: «يقول الله عز وجل: أخرجوا من النار من ذكرني يوماً، أو خافني في مقام»[3].

وقال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال لهم الكفار: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا بلى، قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار، فيقولون: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فيسمع الله عزَّ وجلَّ ما قالوا، فيأمر بإخراج من كان في النار من أهل القبلة، فيُخْرج، فإذا رأى الكفار ذلك قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين، فنخرج كما أخرجوا»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾[4] [الحجر: ٢]، وقال ﷺ: «لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها»[5]، وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: من زادت حسناته على سيئاته يوم القيامة فذلك الذي يدخل الجنة بدون حساب، ومن استوت حسناته وسيئاته يوم القيامة فذلك الذي يحاسب حساباً يسيراً ثم يدخل الجنة، وإنما شفاعة رسول الله ﷺ لمن أوبق نفسه، وأثقل ظهره.

وروي أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: استغاث بك قارون فلم تغثه، وعزتي وجلالي لو استغاث بي لأغثته وعفوت عنه.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٦٧) بنحوه.

(٢) رواه الطبراني [في الأوسط (٦٨٤٠)] من حديث أنس بإسناد ضعيف.

(٣) رواه الترمذي (٢٥٩٤) من حديث أنس، وقال: حسن غريب.

(٤) رواه النسائي في الكبرى (١١٢٧١) من حديث جابر نحوه بإسناد صحيح.

(٥) رواه البخاري (٥٩٩٩) بنحوه، ومسلم (٢٧٥٤).

وقال الصَنَابحي[1]: دخلت على عبادة بن الصامت وهو في مرض الموت فبكيت، فقال، مهلاً لما تبكي فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله لكم فيه خير إلا حدثتكموه إلا حديثاً واحداً، وسوف أحدثكموه اليوم، وقد أحيط بنفسي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله تعالى عليه النار**»[2].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يستخْلصُ رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سِجلاً، كل سجل منها مدَّ البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمتك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: ألك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظُلْمَ عليك اليوم، فيُخرج بطاقة فيها: (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله)، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السِّجلَّات؟ فيقول: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السِّجلَّات في كفة، والبطاقة في كفة، قال: فطاشت السِّجلات، وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء**»[3].

والحمد لله وحده والصلاة على نبيّه المصطفى

---

(١) هو: عبد الرحمن بن عُسَيْلة، أبو عبد الله الصنابحي، هاجر من اليمن إلى النبي ﷺ فلما قدم الجحفة لقيه راكب فسأله: ما الخبر؟ فقال: دفنَّا النبي ﷺ منذ خمس ليال، فدخل المدينة وأقام بها مدة ثم انتقل إلى الشام فسكنها، روى عنه عطاء بن يسار والشاميون (الثقات ٥/ ٧٤) ذكره البخاري فيمن مات بين السبعين إلى الثمانين «الإصابة» (٥/ ١٠٥).

(٢) رواه مسلم (٢٩).

(٣) رواه ابن ماجه (٤٣٠٠)، والترمذي (٢٦٣٩)، وقال: حسن غريب.

فهرس

مقدمة الطبعة الثانية ٣
مقدمة الطبعة الأولى ٥
ترجمة الإمام الغزالي ٨
مقدمة المؤلف ٢٣
الباب الأول: في العلم والتعلم ٢٧
فضيلة العلم ٢٧
فضيلةالتعلم ٢٨
فضيلة التعليم ٢٩
بيان العلم المحمود والمذموم وبيان فرض العين وفرض الكفاية ٣٠
بيان أن جميع العلوم ليست محمود ٣٥
آداب المعلم والمتعلم ٣٥
بيان وظائف المرشد المعلم ٣٨
آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة وعلماء السوء ٣٩
بيان العقل وشرفه ٤١
الباب الثاني: في الاعتقاد ٤٣
فصل في ترجمة عقيدة أهل السنة ٤٣
فصل في وجه التدريج إلى الإرشاد ٤٨
فصل في معنى الإيمان والإسلام ٤٨
الباب الثالث: في أسرار الطهارة ٤٩

آداب قضاء الحاجة ٥٠
كيفية الوضوء ٥١
كيفية الغسل ٥٤
كيفية التيمم ٥٥
فصل في استحباب تنظيف الرأس والأذن والأنف من الأوساخ ٥٥
الباب الرابع: في أسرار الصلاة ومهماتها ٥٧
فضيلة الأذان: ٥٧
فضيلة المكتوبة ٥٨
فضيلة إتمام الأركان ٥٨
فضيلة الجماعة ٥٩
فضيلة السجود ٥٩
فضيلة الخشوع ٦٠
فضيلة بناء المسجد ٦١
فصل في كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة ٦١
فصل في الشروط الباطنة من أعمال القلب ٦٤
فصل في القدوة والإمامة ٦٥
فصل في فضل الجمعة وآدابها وسننها وفرائضها ٦٧
فصل في المحافظة على النوافل ٦٩
فصل في صلاة العيدين ٦٩
فصل في صلاة الخسوف ٧١
فصل في صلاة الاستسقاء ٧١
الباب الخامس: في أسرار الزكاة ٧٢
أسباب وجوب الزكاة ٧٢
فصل في أداء الزكاة وشرائطه ٧٥
فصل في القابضين للزكاة ٧٥

بيان الأصناف الثمانية ٧٦
فصل في صدقة التطوُّع ٧٦
الباب السادس: في أسرار الصيام ٧٨
ثبوت هلال رمضان ٧٩
فصل في بيان أن الصوم ثلاث درجات ٧٩
فصل في التطوع بالصيام ٨٠
الباب السابع: في أسرار الحج وما فيه ٨٢
فصل في فضيلة الحج ٨٢
فضيلة البيت ومكة ٨٣
فضيلة المقام بمكة وكراهيته ٨٥
فضيلة المدينة المنورة ٨٥
فصل في شروط وجوب الحج وصحته وأركانه وواجباته ومحظوراته ٨٦
شروط لزوم الحج ٨٦
بيان نوعي الاستطاعة: ٨٦
بيان الأركان التي لا يصح الحج بدونها ٨٧
بيان الواجبات المجبورة بالدَّم ٨٧
وجوه أداء الحج والعمرة ٨٧
محظورات الحج والعمرة ٨٨
فصل في ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع إلى الوطن وهي عشر جمل ... ٨٩
الجملة الأولى: في السير من أول الخروج إلى الإحرام ٨٩
الجملة الثانية: في آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة ٩٠
الجملة الثالثة: في آداب دخول مكة إلى الطواف ٩١
الجملة الرابعة: في الطواف ٩٢
الجملة الخامسة: في السعي ٩٣
الجملة السادسة: في الوقوف وما قبله ٩٤

الجملة السابعة: في بقية أعمال الحج بعد الوقوف من المبيت والرمي والنحر والحلق والطواف ٩٥
بيان أسباب التحلل ٩٧
بيان خطب الحج ٩٧
الجملة الثامنة: في صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع ٩٧
الجملة التاسعة: في طواف الوداع ٩٨
الجملة العاشرة: في زيارة المدينة وآدابها ٩٨
الباب الثامن: في تلاوة القرآن ١٠٢
فصل في ذمّ تلاوة الغافلين ١٠٢
فصل في جملة من الآداب العامة أثناء التلاوة ١٠٣
الباب التاسع: في الأذكار والدعوات ١٠٥
فصل في آداب الدعاء ١٠٧
فضيلة الصلاة على رسول الله ﷺ ١٠٧
فضيلة الاستغفار ١٠٧
الباب العاشر: في الأوراد ١٠٩
فصل في فضيلة الأوراد وترتيبها وأحكامها ١٠٩
بيان الليالي والأيام الفاضلة ١١٠
الباب الحادي عشر: في آداب الأكل والشرب ١١٥
فصل في آداب الأكل ١١٧
آداب الأكل مع الجماعة ١١٨
فصل في آداب الضيافة ١٢٠
الباب الثاني عشر: في آداب النكاح ١٢٢
فصل في فوائد النكاح ١٢٣
شروط انعقاد النكاح ١٢٣
آداب عقد النكاح ١٢٤
آداب المعاشرة وما على الزوج والزوجة ١٢٤

الباب الثالث عشر: في آداب الكسب والمعاش ١٢٦
فصل في بيان شروط صحة المعاملات وأركان البيع ١٢٧
فصل في بيان العدل والإحسان واجتناب الظلم في المعاملة ١٢٨
الباب الرابع عشر: في الحلال والحرام ١٣٠
فضيلة الحلال ١٣٠
فصل في بيان درجات الحلال والحرام ١٣٢
فصل في بيان مراتب الشبهات ١٣٣
فصل في التجسس والسؤال ١٣٥
فصل في الخروج من المظالم المالية ١٣٥
فصل في إدرارات السلاطين وصِلاتهم ١٣٦
الباب الخامس عشر: في آداب الصحبة ١٣٧
فصل في بيان معنى الأخوة في الله تعالى وتمييزها عن الأخوة في الدنيا ١٣٨
فصل في حقوق الأخوّة والصحبة ١٤٠
فصل في حقوق المسلم والرحم والجوار ١٤٢
حقوق المملوك ١٤٤
الباب السادس عشر: في العزلة ١٤٥
فصل في فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق في فضلها ١٤٦
الباب التاسع عشر: في السفر ١٤٩
فصل في تصحيح النية لقصد السفر ١٤٩
الباب الثامن عشر: في السماع والوجد ١٥١
بيان حقيقة السماع ١٥١
فصل في آثار السماع ١٥٢
فصل في آداب السماع ١٥٥
الباب التاسع عشر: في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٥٦
فصل في أركان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٥٧

بيان آداب المحتسب ١٥٨
فصل في المنكرات المألوفة في العبادات ١٥٨
فصل في أمر السلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر ١٥٨
الباب العشرون: في آداب المعيشة وأخلاق النبوة ١٦١
بيان آدابه ﷺ ١٦١
بيان جملة من محاسن أخلاقه التي جمعها بعض العلماء ١٦٤
بيان جملة أخرى من آدابه ﷺ ١٦٨
بيان كلامه وضحكه ﷺ ١٧٠
بيان أخلاقه وآدابه في الطعام ١٧٢
بيان آدابه وأخلاقه في اللباس ١٧٤
بيان شجاعته ومعجزاته ﷺ ١٧٦
الباب الحادي والعشرون: في عجائب القلب ١٨١
بيان معنيي لفظة القلب ١٨١
بيان معنيي الروح ١٨٢
بيان معنيي النفس ١٨٢
بيان معاني العقل ١٨٣
فصل في بيان جنود القلب ١٨٤
فصل في بيان أن اقتناص العلوم للقلب على مراتب ١٨٨
فصل في الصفات المتركبة في أصل فطرة الإنسان ١٨٩
بيان حال القلب بالنسبة إلى العلوم والفرق بين التعلم وحال الصوفية ١٩١
فصل في الدلالة على صحة طريق الصوفية رضي الله عنهم ١٩٣
الباب الثاني والعشرون: في رياضة النفس ١٩٤
فصل في بيان حسن الخلق وسوئه ١٩٤
بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق ١٩٥
بيان معرفة عيوب النفس ١٩٦

بيان علامات حسن الخلق ١٩٨
بيان تأديب الصبيان وتحسين أخلاقهم ١٩٨
بيان شروط الإرادة ١٩٩
الباب الثالث والعشرون: في كسر الشهوتين (شهوة البطن والفرج) ٢٠٢
بيان فضيلة الجوع وذم الشبع ٢٠٢
بيان طريق الرياضة في كسر شهوة النفس والبطن ٢٠٤
الوظيفة الأولى: تقليل الطعام ٢٠٤
الوظيفة الثانية: في وقت الأكل ٢٠٥
فصل في بيان الجوع المحمود ٢٠٦
كسر شهوة الفرج ٢٠٧
بيان ما على المريد في ترك التزوج وفعله ٢٠٨
فصل في بيان فضيلة من يخالف الشهوة ٢٠٩
الباب الرابع والعشرون: في آفات اللسان ٢١١
بيان خطر اللسان ٢١١
آفات اللسان ٢١٢
بيان ما يرخَّص في الغيبة ٢١٨
بيان كفارة الغيبة ٢١٩
بيان الآفات التي تدخل في المدح ٢٢١
الباب الخامس والعشرون: في آفة الغضب والحقد والحسد ٢٢٣
بيان ذم الغضب ٢٢٣
بيان حقيقة الغضب ٢٢٣
بيان درجات الناس في الغضب ٢٢٤
بيان علاج الغضب عند هيجانه ٢٢٥
بيان فضيلة الحلم ٢٢٥
بيان فضيلة العفو ٢٢٦

بيان فضيلة الرِّفق ٢٢٧
بيان ذم الحسد ٢٢٧
بيان أسباب الحسد وعلاجه ٢٢٨
الباب السادس والعشرون: في ذم الدنيا ٢٢٩
بيان ذمّ الدنيا ٢٢٩
بيان حقيقة الدنيا وماهيتها ٢٣٣
الباب السابع والعشرون: في ذم حب المال وذم البخل ٢٣٥
بيان أن المال محمود من وجه، ومذموم من وجه ٢٣٧
فصل في ذم الحرص والطمع، ومدح القناعة والإياس مما في أيدي الناس ٢٣٧
بيان علاج الحرص والطمع والدواء الذي يكتسب به صفة القناعة ٢٣٨
فصل في فضيلة السخاء ٢٣٨
فصل في ذم البخل ٢٣٩
بيان الإيثار وفضيلته ٢٤٠
بيان علاج البخل ٢٤٠
بيان ذم الغنى ومدح الفقر ٢٤١
الباب الثامن والعشرون: في ذم الجاه والرياء ٢٤٥
فصل في بيان أصل الجاه ٢٤٥
فضيلة الخمول ٢٤٦
فصل في ذم حب الجاه ٢٤٧
بيان علاج حب الجاه ٢٤٨
بيان العلاج في الخلاص من حب المدح وكراهة الذم ٢٤٨
بيان الرياء وحكمه ٢٤٩
بيان حقيقة الرياء ٢٥٢
بيان درجات الرياء ٢٥٣
بيان الرياء الخفي ٢٥٤

بيان الرخصة في كتمان الذنوب ٢٥٤
بيان أنه لا يجوز ترك العبادات خوفاً من الرياء ٢٥٤
فصل في الهروب من العبادات التي تتعلق بالخلق وفيها نوع من الشهرة ٢٥٥
الباب التاسع والعشرون: في ذم الكبر والعجب ٢٥٦
معنى الكبرُ ٢٥٦
علامة ترك الكبر ٢٥٧
فصل في العجب، حقيقته وعلاجه ٢٥٨
الباب الثلاثون: في ذم الغرور ٢٥٩
ما ورد في ذم الغرور ٢٥٩
بيان معنى الغرور ٢٦٠
أصناف المغترين ٢٦١
الباب الحادي والثلاثون: في التوبة ٢٦٩
بيان وجوب التوبة وفضلها ٢٦٩
بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة ٢٧٣
بيان ما عنه التوبة ٢٧٣
الباب الثاني والثلاثون: في الصبر والشكر ٢٧٥
بيان حقيقة الصبر ٢٧٥
بيان حقيقة الشكر ٢٧٦
الباب الثالث والثلاثون: في الرجاء والخوف ٢٧٩
بيان معنى الرجاء ٢٧٩
بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه ٢٨٠
فصل في الأسباب الموجبة لجلب الرجاء ٢٨١
الشطر الثاني: في الخوف ٢٨٢
الاسباب الموجبة لجلب الخوف ٢٨٢
بيان أحوال الأنبياء في الخوف ٢٨٣

بيان أحوال الصحابة في الخوف ٢٨٦
الباب الرابع والثلاثون: في الفقر والزهد ٢٨٩
بيان معنى الفقير وبيان أحواله ٢٨٩
فصل في فضيلة الفقر ٢٩٠
فصل في حكم سؤال الناس ٢٩١
بيان أحوال السائلين ٢٩٢
الشطر الثاني في الزهد وحقيقته ٢٩٣
بيان درجات الزهد ٢٩٥
الباب الخامس والثلاثون: في التوحيد والتوكل ٢٩٧
فضيلة التوكل ٢٩٧
فصل في بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل ودرجاته ٢٩٨
العوالم في طريق الإنسان ثلاثة ٣٠٣
معنى التوكل ٣٠٦
بيان ما قاله الشيوخ في التوكل ٣٠٧
فصل في بيان درجات التوكل ٣٠٧
بيان أعمال المتوكلين ٣٠٨
بيان توكل المعيل ٣٠٨
الباب السادس والثلاثون: في المحبة والشوق والرضا ٣١٠
الآيات والأخبار الدالة على علوّ درجة المحبة ٣١٠
فصل في بيان معنى المحبة ٣١١
فصل في أقسام المدركات ٣١٢
بيان الأسباب المقربة لحب الله تعالى ٣١٣
فصل في الشوق ٣١٣
بيان محبة الله تعالى للعبد ٣١٨
بيان فضيلة الرضا ٣١٩

فصل في ذكر حكايات المحبين ٣٢٠
الباب السابع والثلاثون: في النية والإخلاص والصدق ٣٢٣
ذكر الآيات والأحاديث في النية والإخلاص والصدق ٣٢٣
بيان حقيقة النية ٣٢٤
بيان أن النية لا تدخل تحت الاختيار ٣٢٥
فصل في الإخلاص ٣٢٦
بيان حقيقة الإخلاص ٣٢٨
أقاويل المشايخ في الإخلاص ٣٢٨
بيان حقيقة الصدق ٣٢٩
بيان معنى الصدِّيق ٣٢٩
الباب الثامن والثلاثون: في المراقبة والمحاسبة ٣٣٠
بيان ما يوجب تعجيل المحاسبة ٣٣٠
بيان مرابطة النفس وذلك في ست مقامات ٣٣٠
الباب التاسع والثلاثون: في التفكر ٣٣٤
فضيلة التفكر ٣٣٤
بيان حقيقة الفكر وثمرته ٣٣٥
بيان مجاري الفكر ٣٣٦
الباب الأربعون: في ذكر الموت وما بعده ٣٣٧
بيان فضل ذكر الموت ٣٣٨
فضيلة قصر الأمل وذم طوله ٣٣٨
فصل في سكرات الموت وما يستحب عنده من الأحوال ٣٤٠
بيان ما يستحب من أحوال المحتضر ٣٤٣
بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت ٣٤٤
فصل في وفاة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين ٣٤٥
وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٣٤٩

وفاة عمر رضي الله عنه ٣٥٠

وفاة عثمان رضي الله عنه ٣٥١

وفاة علي رضي الله عنه ٣٥١

فصل في كلام المحتضرين ٣٥٢

بيان حال القبر وأقاويلهم على القبور ٣٥٢

بيان الأدب عند موت الولد ٣٥٣

بيان حقيقة الموت ٣٥٤

بيان كلام القبر للميت حين يوضع فيه ٣٥٤

بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ٣٥٥

فصل فيما يلقى الميت من نفخة الصور وما بعده ٣٥٧

صفة الشفاعة ٣٥٨

صفة الحوض ٣٥٨

صفة جهنم وأهوالها وأنكالها ٣٥٨

القول في صفة الجنة ونعيمها ٣٥٩

خاتمة الكتاب بأخبار تدل على سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل ٣٦٠

الفهرس ٣٦٣

